ALL MY RAGE
مكتبة
سبا طاهر
كلُّ ما لديَّ مِن غضب
عصير الكتب
ترجمة: نورهان فاروق

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

انقر هنا .. اتبع الرابط!

telegram @soramnqraa

كلُّ ما لديَّ مِن غضب

عَصِيرُ الكُتُبْ

عصير الكتب

إدارة التوزيع
00201150636428

لمراسلة الدار:
email:P.bookjuice@yahoo.com
Web-site: www.aseeralkotb.com

- العنوان الأصلي: All My Rage
- العنوان العربي: كل ما لديَّ من غضب
- حُقوق النشر:
Copyright © 2022 by Sabaa Tahir
- الطبعة الأولى: يناير/ 2024م
- حقوق الترجمة: محفوظة لدار عصير الكتب

- ترجمة: نورهان فاروق
- تحرير: أحمد حسين
- تدقيق لغوي: محمد عبد العال
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
- رقم الإيداع: 27108/2023م
- الترقيم الدولي: 978-977-992-357-4

12 1 2025
مكتبة
t.me/soramnqraa

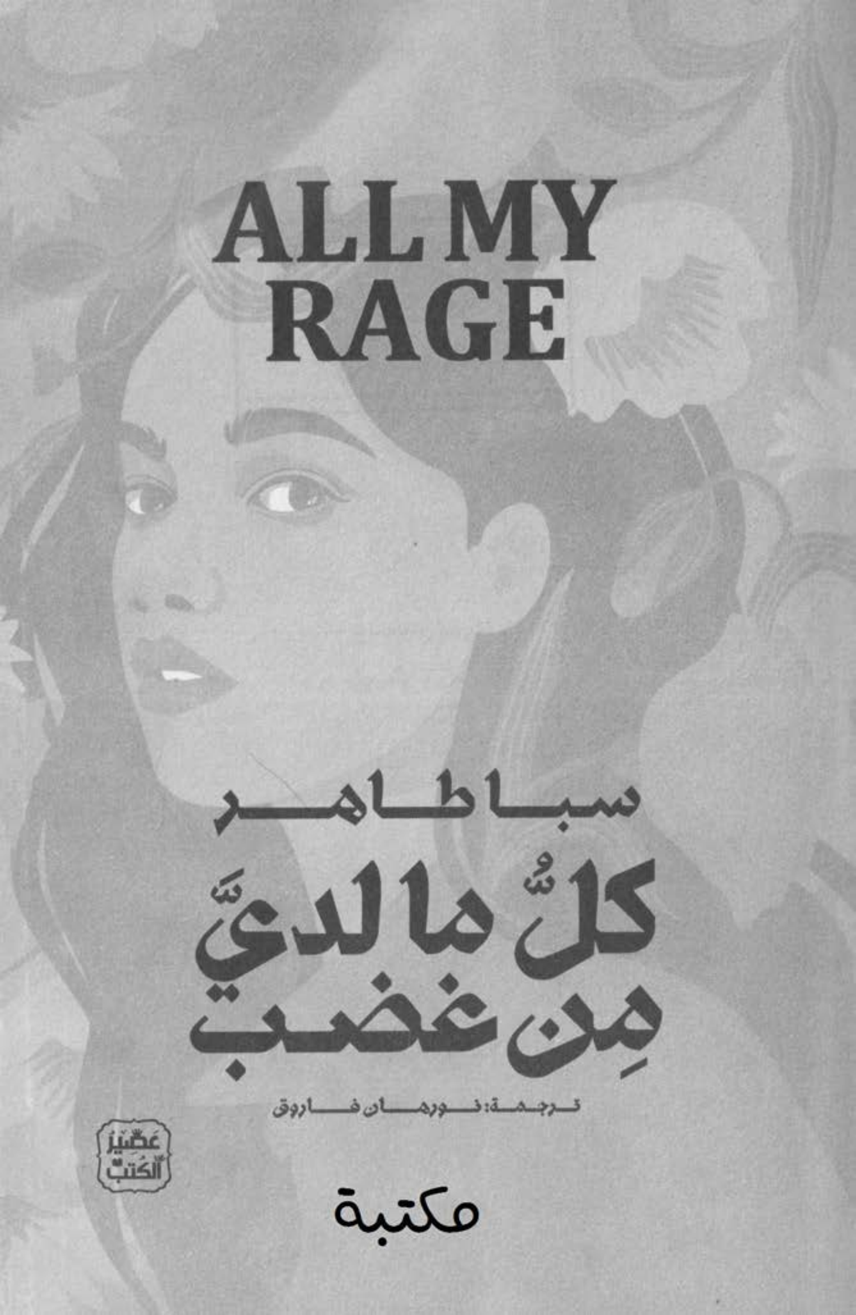

ALL MY RAGE

سبا طاهر

كلُّ ما لديَّ مِن غضب

ترجمة: نورهان فاروق

عصير الكتب

مكتبة

لأجل مَنْ ينجون

ولأجل مَنْ لا ينجون.

عزيزي القارئ،

يُرجَى العلم بأن كتاب «كل ما لديَّ من غضب» يتضمَّن محتوى قد يثير المشاعر.

الجزء الأول

فن الفقد لا يصعب إتقانه؛
تبدو أشياء عديدة مليئة بنية الفقدان
حتى إن فقدها لا يكون كارثة.

- اليزابيث بيشوب
«فن واحد»

1
مصباح

مكتبة
t.me/soramnqraa

يونيو، حينئذٍ

لاهور، باكستان

كانت السحب في سماء لاهور أرجوانية كلون لسان ثرثار يوم أن أخبرتني أمي بأنني سأتزوج.

وبعدما أبلغتني بالخبر، وجدت أبي جالسًا في الشرفة، يرشف كوبًا من الشاي، ويستطلع العاصفة التي تلوح في الأفق فوق الطائرات الورقية المتناثرة في السماء.

أردت أن أصرخ قائلة: اجعلها تغير رأيها، أخبرها أنني لست مستعدة. ولكن بدلًا من ذلك، جلست بجانبه، كأنني عدت طفلة ثانية، أنتظر منه أن يهتم بي. ولم أضطر إلى الكلام، فقد نظر إلي أبي، وعرف.

أدار عينيه العسليتين إلى عيني وربت على كتفي: «لا تقلقي يا فراشتي الصغيرة. أنتِ قوية مثلي، وستعالجين هذا الوضع بأفضل طريقة. كما ستتحرَّرين من والدتك أخيرًا»، وابتسم، مدركًا إنها ليست مزحة بالكامل.

بعد دقائق قليلة، اجتاحت الأمطار الموسمية شوارع لاهور، فدفعت الدجاج والأطفال إلى الانطلاق صارخين بحثًا عن مأوى، وأغرقت الأرضية الأسمنتية بمنزلنا، لكنني سجدت على الأرض للدعاء على أي حال.

اجعل زوجي المستقبلي حنون. فكرت في ذلك وأنا أتذكر الكدمات على جسد ابنة عمي آمنة التي تزوَّجت برجل أعمال إنجليزي ذي شعر أشقر فاتح مخالفةً لرغبات والديها. *اجعله* رجلًا *طيِّبًا*.

كنت في الثامنة عشرة من عمري، وخائفة، لكن بدلًا من ذلك كان يجب أن أدعو بأن يكون رجلًا غير مكسور.

2
سال

فبراير، الآن

جونيبر، كاليفورنيا

إنها الساعة 6:37 صباحًا، ولا يريدني والدي أن أعرف كم هو سكران.

«سال؟ هل تستمع لما أقول؟».

يدعوني سال بدلًا من صلاح الدين حتى لا أسمع التلعثم في كلماته، ويمسك بعجلة قيادة سيارتنا السيفيك كما لو كانت ستسرق محفظته وتهرب.

في الصباح المظلم كالحبر، كل ما أراه من عيني آبو[1] هو نظارته، إذ تنعكس أنوار المصابيح الخلفية للسيارات الذاهبة إلى المدرسة على العدسات المربعة السميكة. إنه يمتلكها منذ فترة طويلة جدًّا حتى صارت كأنها نظارة عصرية تتبع الموضة. يهز عواء من صحراء موهافي السيارة، إنها من تلك الرياح التي تستمر ثلاثة أيام وتهتاج عبر جلدك وتستعمر فتحتي أنفك، فبينما أتكور في سترتي الصوفية، تخلق أنفاسنا ضبابًا.

قال آبو: «سأكون موجودًا، لا تقلق. اتفقنا يا سال؟».

---

(1) تعني «والدي» في اللغة الأردية.

يبدو اسمي المستعار على شفتيه خاطئًا. كما لو أنه عندما يقوله، يحاول جعلي أشعر كأنه صديقي، بدلًا من كونه فوضى تتنكر في زي والدي.

إذا كانت آما[1] هنا، كانت لتتنحنح وتنطق بوضوح «ص-لا-ح-ال-دين»، فنطقها الدقيق تَذكِرة بسيطة بأنها أطلقت عليَّ اسم القائد المسلم الشهير، وأنني يجب ألا أنسى هذا.

قلت لآبو: «قلت إنك ستذهب إلى الموعد الماضي أيضًا».

قال: «لقد اتصل دكتور روثمان أمس ليُذَكرني. لست مضطرًا إلى الحضور إذا كان لديك... نادي الكتابة، أو كرة القدم».

«انتهى موسم كرة القدم، وتركت الجريدة في الفصل الدراسي الماضي. سأكون موجودًا في الموعد، فآما لا تعتني بنفسها ويجب أن يخبر أحدهم دكتور روثمان بذلك، ويُفضَّل أن يكون ذلك باستخدام جمل مترابطة». أشاهد الكلمات تصدمه، كأحجار صغيرة حادة.

يقود آبو السيارة إلى الرصيف أمام مدرسة جونيبر الثانوية. ويبرز رأس ذو شعر أشقر مصبوغ مدفون في معطف ضخم من ظلال الممر الرئيسي. إنها أشلي. تمشي ببطء متخطية سارية العلم عبر حشود الطلاب، ومتجهة إلى سيارتنا السيفيك. ويعبِّر اللون الشاحب على امتداد ساقيها عن الجرأة في هذا الطقس ذي الدرجات الست تحت الصفر.

وأيضًا يشتت الانتباه.

أصبحت أشلي قريبة من السيارة بما يكفي لأرى طلاء أظفارها الأرجواني، لكن آبو لم يَرَها بعد. هو وآما لم يقولا إنني لا يمكنني أن يكون لديَّ حبيبة، لكن مثلما يولد الزراف مدركًا كيفية الجري، وُلِدت باستيعاب غريزي أنه من الممنوع أن يكون لديَّ حبيبة بينما ما زلت أعيش مع والدَي.

غرس آبو أصابعه في عينيه. لقد نقشت نظارته علامة حمراء لامعة على أنفه، إذ نام بها على الكرسي في الليلة الماضية، وكانت آما متعبة للغاية فلم تلاحظ.

أو هي لم ترد أن تلاحظ.

---

(1) تعني «أمي» في اللغة الأردية.

- بوتر[1]...

طرقت أشلي على النافذة، سترتها مفتوحة بما يكفي لإظهار قميصها الخفيف المكتوب عليه «مرحبًا في تاتوين»، لا بد أنها تتجمد.

منذ عامين، كان ليرتفع حاجبا آبو إلى شعره، كان ليقول «من هذه يا بوتر؟». ولكن صمته يبدو أكثر قسوة، كأنه زجاج يتكسر في رأسي.

سألني آبو: «كيف ستذهب إلى المستشفى؟ هل عليَّ اصطحابك؟».

قلت: «فقط خذ آما إلى هناك. سأجد من يوصلني».

- حسنًا، لكن راسلني إذَنْ...

«هاتفي لا يعمل». *لأنك في الواقع يجب أن تدفع لشركة الهاتف، آبو.* إنه الشيء الوحيد المسؤول عنه، وما زال لا يستطيع القيام به. فعادةً آما هي من تنكب على أكوام من الفواتير، سائلة شركة الكهرباء والمستشفى وشركة الكابلات ما إذا كان بإمكاننا تقسيط مدفوعاتنا، متمتمة «ullu de pathay» **-أولاد البوم-** عندما يرفضون.

أميل نحوه، وآخذ نفسًا سطحيًا فأكاد أتقيأ. كما لو أنه استحم بالويسكي الرخيص، ثم استخدم المزيد منه كعطر بعد الحلاقة.

قلت: «سأراك في الساعة الثالثة. استحم قبل أن تستيقظ، ستتشم رائحته عليك».

لا يقول أي منا إن الأمر غير مهم، حتى لو أن آما شمت رائحة الخمر، فلن تقول أي شيء بهذا الشأن أبدًا. قبل أن يجيب آبو، أخرج ملتقطًا دفتر مذكراتي المهترئ من حيث وقع من جيبي الخلفي، ثم أغلق باب السيارة بعنف، وتدمع عيناي من البرد.

تدس أشلي نفسها تحت ذراعي. *تَنَفَّس. شهيق لخمس ثوانٍ، وزفير لسبع ثوانٍ.* إذا شَعَرَت بجسدي يتوتر، لا تتغاضى عن الأمر.

«دفئني». تجذبني أشلي نحوها لتقبيلها، فيملأ رماد سيجارتها الصباحية أنفي. *شهيق لخمس ثوانٍ، وزفير لسبع ثوانٍ.* تزمر السيارات، ويصدر صوت عن باب قريب، وللحظة أَظن أنه آبو، أظن أننَي سأشعر بوطأة رفضه لما أقوم به.

(1) تعني «ابني» باللغة الأردية.

تمتع ببعض *التميز* بوتر. أرى العبارة في رأسي، أتمناها.

ولكنني عندما أبتعد عن أشلي، أرى مصباح الإشارة بالسيارة السيفيك مضاءً بينما ينضم إلى حركة المرور.

لو كانت نور هنا بدلًا من أشلي، كانت لتنظر إلي من جانب عينها وتناولني هاتفها. *ليس لدى الجميع أب يا أحمق، اتصل به واعترف بأنك مخطئ.*

لكنها ليست هنا. لم نتحدث أنا ونور منذ أشهر.

تقودني أشلي نحو المدرسة، وتنطلق في حكي قصة عن ابنتها ذات العامين، كايا. تتداخل كلماتها في بعضها، وتعكس عيناها نظرة زجاجية تذكرني بآبو في نهاية يوم طويل.

أبتعد عنها. لقد قابلت أشلي في العام الدراسي الثالث بالمدرسة الثانوية بعدما أصيبت آما بالمرض وتركت معظم فصول المتفوقين التي كنت بها لأدرس مناهج عادية بدلًا منها. في الخريف الماضي، بعد الشجار الذي نشب بيني وبين نور، أمضيت الكثير من الوقت وحيدًا. كان بإمكاني أن أتسكع مع زملائي في فريق كرة القدم، لكنني كرهت كيف أن العديد منهم يلقون بعبارات مسيئة مثل «رأس الخرقة» و«عاهرة» و«آبو»[1].

كانت أشلي قد انفصلت للتو عن حبيبها وبدأت تحضر مبارياتي، ثم تنتظرني في سيارتها الموستانج السوداء القديمة بغطاء المحرك الرمادي. كنا نمضي الوقت معًا نتحدث عن أي شيء، وفي أحد الأيام، لمفاجأتي، طلبت مني الخروج في موعد.

كنت أعرف إنها ستكون كارثة، ولكنها على الأقل ستكون كارثة اخترتها.

تقول عني حبيبها، على الرغم من أننا معًا منذ شهرين فقط، وقد استغرقت ثلاثة أسابيع لمجرد أن أستجمع شجاعتي لتقبيلها. ولكنها عندما لا تكون تحت تأثير المخدرات، نضحك ونتحدث عن حرب النجوم أو سلسلة ساجا أو هذا المسلسل الذي يحبه كلانا Crown of Fates. وعندها، لا أفكر في آما كثيرًا، أو الفندق، أو نور.

«سيد مالك». يظهر المدير إرنست، رجل كزجاجة البولينج ذو أنف كبير يشبه الباذنجان، من بين حشود الطلاب المتجهين إلى فصولهم.

---

(1) إشارة إلى شخصية آبو نهاسابيمابتلون، الشخصية الهندية في مسلسل سيمبسون، وتُعتَبَر ترويجًا للصور النمطية السطحية بشأن الهنود.

ويقف وراء إرنست، موظف الأمن ديريك هيجنز، المُلَقَّب باسم «دارث ديريك» لأنه شخص مستبد يسير في أنحاء مدرسة جونيبر الثانوية كأنها سفينة Star Destroyer الخاصة به(1).

تهرب أشلي بنظرة غاضبة من إرنست، ولكن هذه ثاني مرَّة أغضبه بها في غضون أسبوع، لذا أجد إصبعًا نحيلة مغروزة في صدري: «لقد كنت تتغيب عن الفصول، ولكن ليس بعد الآن. ستتعرض للاحتجاز إن تأخرت، تحذيرك الأول والأخير».

لا *تلمسني*. أريد أن أقول ذلك لكن سيستدعي هذا تدخل دارث ديريك، ولا أشعر برغبة في التعرض للضرب بعصا في وجهي.

يواصل إرنست السير، وتأتي أشلي نحوي مرَّة أخرى، فأضع يدَي في جيوب سترتي، إذ يهدأ التصلب الذي أشعر به في صدري حين ألمس القطن بدلًا من البشرة. في وقت لاحق، سأكتب عن هذا. وأحاول أن أتخيل صوت فتح دفتر مذكراتي، الصوت المنتظم المُتوقَّع لقلمي يضرب الورق.

تقول أشلي: «لا تظهِر هذا الشكل».

- أي شكل؟

- كما لو أنك تتمنى أن تكون في أي مكان آخر.

سأكذب إن أجبت إجابة مباشرة، لذا أتجاهل السؤال وأقول لها: «اسمعي – امم، أحتاج إلى الذهاب إلى الحمام. أراكِ فيما بعد».

- سأنتظرك.

«لا، اذهبي». أسير مبتعدًا بالفعل: «لا أريدك أن تتعرضي لمشكلات مع إرنست».

مدرسة جونيبر الثانوية هائلة، لكن ليست كالمدارس الثانوية البراقة في التليفزيون، فهي مجموعة من المباني الطويلة المبنية بالطوب الأسمنتي، وكل مبنى به بابان على طرفيه ولا شيء بينهما سوى التراب. تبدو الصالة الرياضية مثل مستودع الطائرات حيث كل شيء لونه أبيض مترب. والشيء الأخضر الوحيد هنا هو تميمة الحظِّ لمدرستنا –طائر الجوَّاب الضخم

(1) إشارة إلى شخصية «دارث فيدر» الشريرة في سلسلة أفلام حرب النجوم، الذي يقود سفينة حربية ضخمة تُسَمَّى Star Destroyer.

المرسوم بالقرب من مكتب الاستقبال، وجدران الحَمَّام التي يشبه لونها – وفقًا لما تقوله نور– بالضبط لون براز الإوز.

الحمام خالٍ، لكنني أدخل إلى إحدى الحجرات على أي حال. أتساءل ما إذا كان كل شاب لديه حبيبة يجد نفسه مختبئًا منها بجانب المرحاض في مرحلة ما.

إذا كنت أمضي الوقت مع نور بدلًا من أشلي، كنت لأصبح جالسًا في صف اللغة الإنجليزية الآن لأنها تصر على الالتزام بمواعيد كل شيء.

أسمع صوت حذاء يحك البلاط المتسخ عندما يدخل شخص آخر، ومن خلال الشروخ في باب الحجرة، أرى أتيكس، حبيب جيمي جينسن. إنه يستمتع بكرة القدم ومغنين الراب ذوي البشرة البيضاء والعنصرية المستترة.

يقول أتيكس: «أريد عشرة، ولكن ليس معي إلا مائة دولار».

فيظهر جسد رفيع: آرت بريتمان، طويل وشاحب مثل أتيكس لكنه دون حيوية بسبب الكثير من الحشيش السيئ، وينتعل حذاءه المعتاد الأسود ذا النقوش الحمراء.

لقد عرفت آرت منذ الروضة. وعلى الرغم من أنه يتسكع مع أصحاب البشرة البيضاء ذوي السلطة، فإنه يتوافق مع الجميع، على الأغلب لأنه يمد معظم طلاب مدرسة جونيبر بالمخدرات.

«مقابل مائة تحصل على خمسة لا عشرة». تظهر ابتسامة في صوت آرت لأنه حقًّا ألطف تاجر مخدرات على الإطلاق: «أمنحك ما تستطيع دفع ثمنه يا آتي».

- بحقك يا آرت...
- يجب أن آكل أيضًا يا صديقي.

يبحث آرت في جيبه ويمسك كيسًا به حبوب صغيرة بيضاء بعيدًا عن متناول يد أتيكس. مائة دولار؟ مقابل ذلك الكيس؟ لا عجب أن آرت يبتسم طوال الوقت.

أتيكس يلعن ويمنحه النقود، وبعد ثوانٍ قليلة، يختفي هو والحبوب.

ينظر آرت إلى حجرة المرحاض التي أجلس بها: «من بالداخل؟ هل تعاني الإسهال أم تتجسس؟».

- إنه أنا يا آرت، سال.

بالنسبة إلى شخص يجنح من نشاط غير قانوني إلى آخر، فإن آرت غافل بصورة خارقة للطبيعة، إذ يصيح: «سال، أتختبئ من أشلي؟»، ويتردد صدى صوت ضحكته فأجفل. «لقد ذهبَت، يمكنك الخروج».

أفكر في أنه يجب أن يصمت. إذا كان شخص يستخدم المرحاض، فمن الوقاحة إجراء محادثة معه. يعرف الجميع ذلك.

لكن آرت لا يعرفه على ما يبدو. فأكشر وأخرج لأغسل يدَيَّ.

- هل أنت بخير يا رجل؟

يضبط آرت قبعته الصوفية أمام المرآة، ويبرز منها شعره الأشقر مثل فروع نبتة شيطانية. «أخبرتني أشلي أن أمك في حالة مزرية».

أشلي وآرت ابنا عم، وعلى الرغم من أنهما أبيضا البشرة -وكنت أعتقد بغباء أن ذوي البشرة البيضاء يتجاهلون عائلاتهم الممتدة- فهما مقربان، أقرب مما أنا عليه لابن عمي الذي يعيش في لوس أنجلوس ويصر على أن جميع المشردين لا يحتاجون إلا إلى «الحصول على وظائف»، بينما يشرب مشروب بيليجرينو من كوب سيراميك اشتراه لأن الإعلان المصور على إنستجرام أخبره بأن ذلك سينقذ الدلافين.

أقول لآرت: «نعم، أمي ليست بخير».

- السرطان مقرف يا رجل.

إنها ليست مصابة بالسرطان.

يكمل آرت: «عندما كانت جدتي إيثل مريضة، كان أمرًا بائسًا. يومًا ما تكون بخير، واليوم التالي تبدو كجثة. لقد ظننت أنها في طريقها للموت، لكنها بخير الآن. ولديها وصفة طبية للمسكنات لا تستخدمها أبدًا، وهذا يجلب الربح». وتتردد ضحكة آرت بين الجدران. «هل أنت بخير؟ يمكنني إعطاؤك خصم للأصدقاء القدامى».

«أنا بخير»، ولا أشعر حتى بإغراء، فيكفينا شخص واحد غير واعٍ في البيت.

أسرِع مبتعدًا بمجرد أن يدق جرس الحصة، أنطلق في لمح البصر، وعندما أنعطف حول الزاوية متجهًا إلى قسم اللغة الإنجليزية، تظهر نور على الجانب الآخر.

تمر أشعة الشمس من النوافذ، فتلون شعرها المضفور بعشرات الألوان. أفكر في الصور التي تمتلكها في جميع أنحاء غرفتها في منزل عمها الأحمق، صور التُقِطَت باستخدام تليسكوب فضائي ضخم أخبرتني عنه فيما مضى، هكذا يبدو شعرها، أسود وأحمر وذهبي، كأنه قلب الفضاء مضاء من الداخل. تحني رأسها ولا تراني، وبدلًا من ذلك تسابق الجرس.

نصل إلى باب السيدة مايكلز في الوقت نفسه. يبدو وجه نور مختلفًا، وأدرك بعد لحظة إنها تضع زينة. تسحب السماعة المخفية داخل السترة من أذنيها، فتتسرب أغنية خافتة منها. أميزها لأن آما تحبها، أغنية «الهائم» (The Wanderer) لجوني كاش ويو تو.

أقول: «مرحبًا».

تومئ لي، بالطريقة التي تومئ بها لشخص توقفت عن رؤيته لأن لديك ما يكفيك من المشكلات، ثم تدخل إلى الفصل، في لمحة ضبابية من الأساور المزينة بالخرز والجينز الغامق والصابون المطهر الرخيص الذي يبيعه عمها في متجره للكحوليات.

***

وللحظة، يتجسد الشجار بيننا، أرى طيفينا منذ ستة أشهر يواجهان بعضهما في مخيم في فيل ميدوز (Veil Meadows)، ثم تعترف نور بأنها تحبني وتقبلني.

فأدفعها بعيدًا وأخبرها بأنني لا أشعر بمثل ما تشعر به، متلفِّظًا بكل ما يمكنني التفكير فيه من الكلمات المؤلمة لأن قبلتها كانت كسكين يمزق شيئًا بداخلي.

وتحملق نور فيَّ كما لو أنني تحولت إلى وحش كراكن غاضب.

كانت تحمل كوز صنوبر في يدها، ظللت أنتظر أن تلقيني به.

***

انغلق الباب بقوة خلفها، فأمسك بالمقبض لألحق بها، ثم أتوقف. يدق الجرس، وتتهادى ساعة الممر خلفي، فأسمع كل تكة كأن ثقل حديد يصطدم بالأرض، وتمر دقيقة. أقرأ لافتة على الباب للإعلان عن مسابقة كتابة كانت السيدة مايكلز تزعجني للاشتراك بها، وأعيد قراءتها مرارًا وتكرارًا.

لكن على الرغم من أنني دخلت إلى فصل اللغة الإنجليزية المتقدمة كل يوم على مدار خمسة أشهر، لا أستطيع إجبار نفسي على الدخول اليوم، لا أستطيع الجلوس في الغرفة نفسها مع نور مدركًا أنها لن تغيظني مرَّة أخرى أبدًا بشأن جواربي المنقوشة برسومات اللاما، أو تغلبني في لعبة Night Ops 4، أو تأتي في صباح أيام السبت لتأكل البارانا «paratha» معي ومع آما.

أحاول تذكر ابتسامة آما عندما كانت بخير وتأتي لاصطحابي بعد الدرس، الطريقة التي أشرقت بها وهي تسألني عما يحدث في حياتي كما لو إنني تسلقت جبل إيفرست لا مجرد نجَوْت من يوم آخر في المدرسة.

كانت لتقول لي الآن: «Mera putar, undar ja». **يا بني، اذهب إلى الداخل**. أتنهد وأمد يدي نحو الباب، وعندها تمسك يد نحيلة ذراعي.

«سيد مالك...» ينزلق المقبض من قبضتي، وتحدق إلَيَّ عينا إرنست الخضراء الشاحبة تتحدياني أن أنفجر، أو ربما تريدان مني ذلك. ثم يسألني: «ماذا قلت سابقًا؟».

«لا». أنزع نفسي من قبضته مبتعدًا. *اخرس يا صلاح الدين*. «لا تلمسني».

أنتظر منه أن يمسكني مرَّة أخرى، أو يعاقبني، أو يستدعي دارث ديرك، لكنه بدلًا من ذلك يتركني ويهز رأسه كرجل خائب الأمل بشدة في كلب متمرد، فيسحب مقوده سحبة خفيفة.

ويقول: «غير صحيح، لقد قلت 'إنذارك الأول والأخير'. احتجاز في مكتبي الساعة الثالثة».

مكتبة
t.me/soramnqraa

3
نور

يحب عمي النظريات، ويحب شرحها لأشخاص آخرين. ولكن هذه العبقرية جمهورها محدود، إما أنا وإما زوجته بروك وإما المخمورون الذين يأتون إلى متجر الكحوليات. وهو يفضل المخمورين لأنهم دائمًا ما يظنون أنه فائق الذكاء.

لذا تحت ماكينة تسجيل المدفوعات، إلى جانب مضربه، يحتفظ بكومة من أوراق الرسم البياني وقلم سنون يعيد ملأهما كل أحد.

يصدر الباب صوت صرير ويدخل السيد كولينز. إنه مهندس في القاعدة العسكرية خارج المدينة، ويحب إضافة القليل من ويسكي جاك دانيلز إلى قهوته. يتبعه الهواء البارد إلى الداخل، ولا تزال السماء في الخارج مظلمة، فلا أستطيع حتى أن أرى الجبال المحيطة بجونيبر، مما يعني أن هناك وقتًا لأداء صلاة الفجر.

لكنني لا أصليها، فتشاتشو[1] لن يعجبه هذا. يجب أن يثرثر قائلًا: «الإله صُنِع لأصحاب العقول الضعيفة».

بينما يؤلمني رأسي أعيد ملء ممر الحلوى. اليوم عيد ميلادي الثامن عشر وفقًا لجواز السفر الباكستاني وبطاقة الإقامة الخضراء الأمريكية التي أحملها في حقيبة الظهر طوال الوقت.

---

(1) تستخدم للإشارة إلى العم في اللغة الأردية.

رن صوت الإشعارات بهاتفي، فأرفع رأسي لأنظر إلى تشاتشو لكنه مبتعد بجسده النحيل، ويسقط شعره البني على وجهه وهو يكتب على ورقة الرسم البياني المبسوطة على طاولة البيع بين الولّاعات وتذاكر اليانصيب، فأختلس نظرة إلى شاشة هاتفي.

الرسالة من آنتي[1] مصباح. إنها ليست عمتي حقًّا، لكنها باكستانية، وستؤدي دعوتها باسمها من دون لقب إلى «إشعال غضب الأجداد» كما يحب أن يقول صلاح الدين.

آنتي مصباح: *عيد ميلاد ثامن عشر سعيد يا عزيزتي نور. ☆🌹☆🌹 إنك تضيفين ضوءًا ساطعًا إلى حياتي. أتمنى أن تأتي لرؤيتي، لقد أعددت طبقك المفضل.* ☺☺

وفوق تلك الرسالة، يوجد سلسلة رسائل أخرى، من يناير وديسمبر ونوفمبر وسبتمبر.

آنتي مصباح: *هل أنتِ غاضبة مني أيضًا؟* ☹

آنتي مصباح: أفتقدك دي[2]. سأعد الباراثا يوم السبت من أجلك. أرجوكِ زوريني.

آنتي مصباح: إنها تمطر يا نور، وأفكر كم تحبين المطر. أفتقدك.

آنتي مصباح: نور، تكلمي معي.

آنتي مصباح: أرجوكِ يا نور. أعرف أنك غاضبة من صلاح الدين، لكن ألا يمكنك الكلام معه؟

لقد قرأت الرسالة الأخيرة عشرات المرات، ولا تزال تغضبني. صلاح الدين هو ابن آنتي مصباح.

هو أيضًا أفضل أصدقائي سابقًا، وحبي الأول، وأول من كسر قلبي. شيء مبتذل جدًّا، وغبي جدًّا جدًّا.

جاءت آنتي مصباح إلى المتجر منذ بضعة آحاد. أردت أن أعانقها، أن أخبرها أن سال كسر قلبي وأنني كنت ضائعة، أتحدث معها مثلما كنت أفعل قبل الشجار، حتى إن كنت خائفة من أنها قد ترفضني.

---

(1) تستخدم للإشارة إلى العمة في اللغة الأردية.

(2) تعني ابنتي في اللغة البنجابية.

لكنني تجمدت عندما تحَدَّثَت معي، ولم أرها منذئذ.

«نور». جعلني صوت تشاتشو أقفز. أضع هاتفي في جيبي ثانيةً، ولكنه لا ينظر إليَّ. «انتهي من تعبئة الرفوف».

- آسفة تشاتشو.

تجهم عمي، فهو يكره مناداتي له بتشاتشو، إنه اللقب الذي يُطلَق على شقيق الأب في اللغة الأردية. بعد لحظة، يعود للحديث مع السيد كولينز الذي يناقش معه نظرية فيرما الأخيرة.

يومئ السيد كولينز برأسه حين يختتم تشاتشو حديثه، ثم أسمع أصوات «كورال هللويا» (Hallelujah Chorus) لهاندل في رأسي وأنا أرى وجه السيد كولينز يضيء بالفهم، كأنه رجل كهف يكتشف النار للتو. ينبغي ألا يفاجئني ذلك، فمهما كانت النظرية غامضة، يستطيع تشاتشو تفسيرها. هذه هي موهبته.

قال السيد كولينز: «يمكنك تأدية وظيفتي، وأنت حتى ليس لديك لكنة مثل بعض الرجال الذين يعملون في القاعدة. لماذا أنت هنا تبيع الكحوليات والبقالة؟».

قال تشاتشو: «إنها تقلبات القدر»، فأشعر بوخز في عمودي الفقري، لصوته هذا الأثر.

نظر السيد كولينز إلى حيث أعيد تعبئة الرفوف.

«اسمك نور، أليس كذلك؟». أحيانًا، يأتي السيدي كولينز صباح أيام الأحد عندما أفتح المتجر. «هل أنتِ ذكية بقدر عمك؟».

أهز كتفَيَّ. *اصمت أرجوك.*

لكن السيد كولينز لا يصمت، إنما يقول: «حسنًا، لا تهدري هذا الذكاء. إذا كنتِ مثله حقًّا، ستلتحقين بأي جامعة تريدينها».

«آه». يضع تشاتشو زجاجة السيد كولينز في حقيبة وينظر إلى عيني. «هل كانت نور تتحدث عن الجامعة؟».

أنا سعيدة الآن لأنني لم أتناول الإفطار، إذ أشعر بالغثيان وبانقطاع أنفاسي.

قال السيد كولينز: «لا»، فأتنفس مرَّة أخرى. «ولكنها يجب أن تفعل ذلك. أنتِ في السنة الأخيرة، ألست كذلك؟».

وعندما أهز كتفَي بلا مبالاة، يهز السيد كولينز رأسه: «كان ابني مثلك، وهو الآن يتجول في الأماكن العامة للدعاية إلى مبنى سكني في منطقة بالمفيو».

نظر إلي السيد كولينز كما لو أنني سأنضم إلى ابنه في أي لحظة، فأشعر برغبة في رميه بشوكولاتة سنيكرز، وإصابته بين عينيه مباشرةً.

لكن سيكون ذلك إهدارًا لحلوى جيدة.

عند رحيله، يجعد تشاتشو ورقة الرسم البياني. *افتح الراديو*. حبنا لموسيقى التسعينيات هو الشيء الوحيد المشترك بيننا، بخلاف الدم، فأنا حتى لا أشبهه. لون شعري وبشرتي داكن أكثر، وملامح وجهي أصغر. *افتحه، شتت انتباهك به*.

بدلًا من ذلك، يومئ نحو الطرف الآخر من المتجر.

ويقول: «هناك شيء لكِ في الخلف».

أشعر باندهاش بالغ فأحملق في وجهه إلى أن يلوح لي لأذهب. هدية عيد ميلاد؟ لم يتذكر تشاتشو عيد ميلادي منذ خمس سنوات، وكانت آخر هدية منحني إياها الحاسوب الشخصي المنبعج الذي تركه في غرفتي منذ عام ونصف دون أي تفسير.

أشق طريقي عبر غرفة التخزين، وفي الخارج، تنتزع الرياح مقبض الباب الخلفي من قبضتي فأكافح من أجل إغلاقه. يبدو ظل أزرق منبسط للصحراء خارج الزقاق، وأستغرق لحظات لأرى هديتي مائلة على جدار المتجر المغطى بالجبس، دراجة فضية متهالكة.

وبينما أمرر يدي على الإطار المعدني، أسمع صوت ولَّاعة تشاتشو وأقفز.

قال من بين سحب الدخان حول سيجارته: «بعد تخرُّجك، سيمكنك تولِّي العمل هنا في فترة النهار بينما أذهب إلى الفصول الدراسية. سيجعل هذا حياة كلينا أسهل».

يحب الناس الحديث عن عظَمة القلب البشري، الإشارة إلى أن حجمه لا يزيد على قبضة اليد، لكنه يضخ نحو ثمانية آلاف لتر من الدم يوميًّا، وما شابه ذلك.

لكن القلب البشري غبي أيضًا، أو على الأقل قلبي كذلك. فبغض النظر عن عدد المرَّات التي أخبره فيها ألا يأمل بأن يهتم تشاتشو بي، فإنه يأمل على أي حال.

عدنا إلى الداخل، وشغل تشاتشو إذاعة موسيقى الروك الكلاسيكية ثم رفع الصوت عندما تبدأ أغنية «صندوق على شكل قلب» (Heart-Shaped Box) لنيرفانا. أشعر أن رأسي ينقسم إلى نصفين، وبينما ألتقط حقيبة الظهر أفكر في أن أطلب منه زجاجة أسبرين صغيرة.

لا تستنفدي حظك. تغضبني هذه الفكرة. لماذا لا يمكنني أن أطلب بعض الأسبرين من عمي؟ لماذا عندما...

توقفي *يا* نور. لا يمكنني أن أغضب من تشاتشو، فهو السبب الوحيد لوقوفي هنا.

كنت في السادسة من عمري عندما تعرضت قريتي في باكستان لزلزال. قاد تشاتشو السيارة لمدة يومين من كراتشي لأن الرحلات الجوية إلى شمال البنجاب كانت متوقفة. وعندما وصل إلى القرية، زحف فوق أنقاض منزل جدي وجدتي، حيث كان والداي يعيشان أيضًا، وبينما بحث بين الأحجار بيديه العاريتين، أخبره العاملون في خدمات الطوارئ أن ما يفعله لا فائدة منه.

لقد دُميت راحتا يديه، ونُزِعَت أظفاره. كان الجميع ميتًا، لكن تشاتشو واصل الحفر، فقد سمع صوت بكائي وأنا محاصرة في خزانة. أخرجني من هناك، وأخذني إلى المستشفى ولم يفارق جانبي قَطُّ.

ثم أحضرني تشاتشو إلى أمريكا حيث كان ملتحقًا بالجامعة، وترك تدريبه الهندسي في القاعدة العسكرية، وبالنقود القليلة التي كان قد وفرها، دفع عربونًا لشراء متجر كحوليات متعثر. وبقي هنا طوال السنوات الإحدى عشرة الماضية، فقط لكي نتمكن من تحمل تكاليف المعيشة.

لقد ضحى بكل شيء من أجلي، وجاء الآن دوري لأفعل المثل.

تنحنح تشاتشو وانجرف انتباهه إلى ضفيرتَي، واحدة على كل كتف، ثم إلى الوشاح الأخضر المربوط خلف قُصَّتي.

- هذه الضفائر تجعلك تبدين كأنك أتيت إلى أمريكا للتو.

لا أجيبه. شعري مضفر في صورة جواز السفر أيضًا، وأحب الضفائر، فهي تذكرني بالشخص الذي كنت عليه، وبالأشخاص الذين أحبوني.

ثم قال تشاتشو: «سيبدأ عملك في الساعة الثالثة والربع، ويجب أن أذهب إلى مكان ما، لا تتأخري».

بالنسبة إلى تشاتشو، التأخير مخالف للمنطق، وإذا كان هناك شيء واحد يكرهه تشاتشو، فهو مخالفة المنطق.

في بعض الأحيان، أفكر في إلقاء مبرهنة عدم الاكتمال لكورت جودل في وجهه. إنها الفكرة القائمة على أن أي نظام منطقي في الوجود إما غير متسق، وإما غير مكتمل.

ما يقوله جودل ببساطة هو أن معظم النظريات هراء.

وهو ما أتمنى أن يكون حقيقيًّا، لأن تشاتشو لديه نظرية بشأني أيضًا. أطلق عليها نظرية تشاتشو للمستقبل، وهي بسيطة للغاية:

نور + الكلية = لن يحدث أبدًا.

***

تجمد وجهي بحلول وقت تثبيت دراجتي إلى حامل الدراجات بالمدرسة والتوجه إلى صف اللغة الإنجليزية، ولكن ليس لديَّ مانع، فقيادة الدراجة إلى المدرسة أتاحت لي التفكير، في آنتي مصباح والمستشفى التي أتطوع فيها، في صلاح الدين والمدرسة. وحاليًّا، أفكر في الأرقام.

قدمت في سبع جامعات.

رفضٌ واحد.

وست جامعات متبقية.

كانت جامعة فرجينيا هي الجامعة التي قدمت فيها بمرحلة التقديم المبكر، وذلك لأنها توفر برنامجًا جيدًا لدراسة علوم الأحياء، ولأنني اعتقدت إنها ستقبلني. وصل الرفض أمس.

يتحول وجهي إلى اللون الأحمر بسبب الغضب، ولكنني أدفعه بعيدًا، كنت سأحتاج إلى الحصول على منحة دراسية على أي حال، وتلك جامعة واحدة. جامعة واحدة من سبعٍ ليست بالأمر الكبير.

«نور...» تتنحنح السيدة مايكلز في مقدمة الفصل. لا أتذكر أنني فتحت الباب، أريد أن أختفي لكنني تجمدت عند العتبة. ثم التفتت جيمي جينسن لتحدق إلَي، وتأرجح ذيل الحصان خلف رأسها. عيناها الزرقاوان مثبَّتتان عليَّ، وكذلك أعين الجميع.

أغنام.

«المصابيح يا نور». توجه السيدة مايكلز كرسيها المتحرك إلى جانب حاسوبها المحمول، فأطفئ المصابيح وأقول لها شكرًا من دون صوت عندما يتحول انتباه الجميع إلى القصيدة المضاءة على السبورة البيضاء. ثم أغوص في مقعدي في الصف الخلفي إلى جانب جيمي التي لا تزال تراقبني.

أسمع في رأسي أغنية فرقة «ذا بوليس» المريبة، «كل نفس تأخذينه» (Every Breath You Take)، وأراهن بعشرة دولارات أن جيمي ستجعل إحدى الفرق تعزفها في زفافها يومًا ما.

تميل علَيَّ وتقول: «ما التقدير الذي حصلتِ عليه؟»، مشيرة إلى الورقة المقلوبة على مكتبي، المقال المقدَّم الأسبوع الماضي. لا بد أن السيدة مايكلز وزعت الأوراق قبل أن أدخل. لقد أرادت منا أن نكتب عن الموضوعات التي تتناولها قصيدة ديلان توماس بعنوان «يتكسر الضوء حيث لا تشرق الشمس» (Light Breaks Where No Sun Shines)، وقد بذلت قصارى جهديَ في كتابة المقال، لكنني أعلم أنه سيئ.

تحملق جيمي فيَّ منتظرة، وعندما تدرك أنني لن أجيب عن سؤالها، تعتدل في جلستها مبتسمة ابتسامتها الباردة المصطنعة.

قالت السيدة مايكلز: «ابدؤوا العمل على مقالاتكم النهائية التي ستشكل نصف درجتكم في هذا الفصل الدراسي. يجب أن تختاروا عملًا لأحد الشعراء الأمريكيين...».

ألقيت نظرة على مقعد على الجانب الآخر من قاعة الدروس، إنه بجانب جرس إنذار الحريق الأحمر، وهو خالٍ مع إنه يجب ألا يكون كذلك، فصلاح الدين كان خلفي، وظننت أنه لحق بي إلى الداخل.

أسمع صوتًا خارج القاعة يقول: «سيد مالك». إنه المدير إرنست يمسك بصلاح الدين لتأخره مرَّة أخرى. يقول إرنست «ملك» بدلًا من «مالك» لأن حروف العلة تتجاوز قدراته على التمييز.

أخرج دفتري من الحقيبة، فصلاح الدين لا يعنيني، لديَّ مشكلات أكبر، مثل استلام رفض من جامعة فرجينيا، مثل ضمان أن أنجح في هذا الفصل دون أن يساعدني صلاح الدين بإعطائي ملاحظات على مقالاتي على الرغم من أنني فاشلة في اللغة الإنجليزية، مثل نظرية تشاتشو للمستقبل وما يترتب على تحديها.

***

تحاصرني جيمي في حصة التربية البدنية، وكانت قد انتظرت أن تغادر جريس وصوفي -رفيقتاها المتطابقتان تطابقًا مريبًا- الرقعة الترابية الصغيرة خارج غرفة تبديل الملابس قبل أن تقترب مني.

- نور.

يتناغم اسمي مع كلمة «Lure»، ليس صعبًا للغاية، فأنا حتى لا أنتظر من الناس أن يهتز لسانهم بحرف الراء في نهاية اسمي مثلما تنطقه آنتي مصباح، لكن جيمي دائمًا تنطق اسمي متناغمًا مع كلمة «bore». لقد عرفتها منذ انتقلت إلى مدرسة جونيبر في الصف الأول، وطوال كل ذلك الوقت، رفضت أن تقول اسمي بطريقة صحيحة، على الرغم من أنني طلبت ذلك.

في أثناء أول خمس أو ست سنوات من حياتي هنا، غالبًا ما تجاهلت جيمي وجودي.

بعدئذ في الصف السابع، حصلت على لقب الطالب المثالي في أحد الشهور، وفزت في مسابقة خطابة، والتحقت بفصول متقدمة. لم تصادقني حينئذ، لم تفعل ذلك قط، لكنها بدأت تراقبني.

«تبدين مرهقة». تتجول عيناها ببطء على وجهي: «كانت مجموعة مسائل التفاضل التي طُلِبَت أمس شديدة الصعوبة، أليس كذلك؟».

تبدو جيمي بريئة بقدر كافٍ على السطح، فهي رئيسة الطلاب التي تحصل على امتياز بانتظام، وتتمتع بابتسامة عريضة وعذوبة أوصلتها إلى أن تكون أحد ممثلي الطلاب في فعاليات حفل الترحيب بالخريجين (homecoming)، وإن كانت لم تحصل على التاج.

ومع ذلك.

«هل جاءك رد من أي من الجامعات؟» إنها لا تريد أن تسأل، لكن طبعها التنافسي يلتهمها. «أعرف أننا لا نزال في شهر فبراير، لكنك قدمتِ في مرحلة التقديم المبكر، أليس كذلك؟ قالت أختي إنني يجب أن أكون قد استلمت ردًا من جامعة برنستون في هذا الوقت...».

لا أتذكر إخبار جيمي بأنني قدمت في مرحلة التقديم المبكر، بل لم أخبر أي شخص في المدرسة بشأن التقديم للجامعات، إذ لا يوجد من أخبره. فقبل ستة أشهر، كان صلاح الدين هو الصديق الوحيد الذي احتجت إليه على الإطلاق.

بعد فترة صمت غير مريحة، تدرك جيمي أنني لن أقول أي شيء، وعندئذ تتراجع للخلف، ويقسو وجهها مثل تلك المرة التي وصلتُ فيها إلى أفضل عشرة مراكز في معرض جولدن استيت للهندسة والعلوم بينما لم تحصل على أي مركز.

«لا بأس. نعم. لا بأس. فهمت. حسنًا. بالتأكيد». تبدو نوعًا ما مثل فقمة تنبح، وبمجرد أن أصبحت هذه الصورة في مخيلتي، لا أستطيع التخلص منها، لذا أبتسم مما يجعلها أكثر غضبًا لأنها تظن أنني أسخر منها.

مر حشد من طلاب السنة الأخيرة وبينهم جريس وصوفي. ينظرون إلينا بفضول إذ يعلمون أننا لسنا صديقتين، فتركض جيمي نحوهم وتلتصق على شفتيها ابتسامتها المضيئة بقوة ألف كيلو وات. يمكنها أن تكون سياسية رائعة، أو قاتلة متسلسلة.

حين تختفي في الملعب، يخرج صلاح الدين من غرفة تغيير الملابس، ولا يزال يسحب قميصه لأسفل، فأرى لمحة من عضلات بطنه البنية الصلبة.

- ماذا أرادت تلك المجنونة؟

يتحدث بطريقة عفوية، كما لو أننا لا نتفادى بعضنا بعضًا على مدار ستة أشهر وأسبوعين وخمسة أيام.

يرفض عقلي صياغة إجابة. بعد شجارنا، كنت أستلقي مستيقظة أفكر في كل الأشياء التي كان يجب أن أرد بها عندما أخبرني أنه لا يمكن أن يحبني أبدًا، عندما قال إنني دمرت صداقتنا.

أما الآن فلا يمكنني أن أتذكر أيًا منها. يجب أن أتجاهله، ولكن الطريقة التي ينظر بها إلي، بحذر وأمل، كأنها لكمة لي، فأتراجع.

- أ... أتذكرين عندما أخبرَتك أن تتنكري في زي إرهابية في حفل الهالوين؟

- في الصف السادس. لم أثق بها ثانيةً قط.

نحملق في ظهر جيمي وهي تبتعد، وللحظة نتحول إلى أطفال مرَّة أخرى، متحدين في مواجهة شر خفي.

يرفع ذراعه ليفرك خلف رأسه، وأرى لمحة من عضلة ذراعه. *انظري بعيدًا يا نور.*

«يا إلهي، أتمنى لو كانت لديها نقطة ضعف». ألقي نظرة اتهام إلى السماء مع أن الإله لا يعيش هناك على الأرجح. «شيء يشعرها بعدم الأمان، والدان حقيران، شعر سيئ، غازات سيئة، أي شيء».

«لديها ذوق شنيع في الأحذية، انظري إلى ذلك». يومئ برأسه إلى الحذاء النايك النيون الذي تنتعله جيمي: «كأن أقماعًا مرورية أكلت قدميها».

عادةً ما تكون نكات صلاح الدين غير مضحكة، لكن تلك النكتة لم تكن سيئة، وكدت أقول ذلك. ينظر إلى وجهي، فأرغب في الاختباء أو الهروب، لكنه يقترب مني.

«نور». إنه يرى أكثر مما ينبغي، أتمنى لو لم يَرَ بهذا القدر.

«يجب أن تذهب». ثم أرى أشلي تراقبنا من الملعب فأقول: «حبيبتك تنتظرك».

ما زلت أريد ركله في أسنانه بسبب تلك الكلمة، حبيبته. كنت لأرمقه بنظرة غاضبة، لكنني حينها سأضطر إلى أن أمد عنقي لأعلى. في آخر مرَّة كنت بهذا القرب منه، كان أقصر بمقدار خمسة سنتيمتر، وكانت بشرته أسوأ.

لو كان الكون عادلًا، كان ليتقلص، وتنمو لحية غريبة الشكل على وجهه، وسيكون أمرًا جيِّدًا لو تظهر عليه بثرة، وربما أيضًا يجري عملية لزرع شخصية جديدة، ويصبح لديه كرش بدلًا من عضلات مفتولة.

ولكن الكون ليس عادلًا.

قال صلاح الدين: «صحيح. حسنًا... أردت أن أطلب منكِ خدمة».

أعقد ذراعَيَّ، إذ يمكن أن أتفهم إجراء محادثة قصيرة، لكن كلينا نعلم أنه لا ينبغي له أن يطلب خدمات.

قال: «هل يمكنك أن ترسلي رسالة إلى أمي؟ تخبريها أن تؤجل موعد الطبيب؟ لقد عاقبني إرنست بالاحتجاز بسبب التأخير و...».

رفع هاتفه: «إنه... لا يعمل».

- معي شاحن.

«لا، إنه...» تحرك بعصبية، وهذا أمر غريب لأن صلاح الدين ليس شخصًا عصبيًّا. «هناك مشكلة في حسابنا، شيء متعلق بالفاتورة، ولكن آما تتبع خطة منفصلة، لذا هاتفها يعمل. لا بأس، انسي أنني طلبت».

يلتفت مبتعدًا، وأعرف من أوتار عنقه المتشابكة أنه منزعج. وبمجرد أن أفكر في ذلك، أشعر بالغضب، أعرفه أكثر من اللازم، أتمنى لو لم أعرفه بهذا القدر.

«انتظر...» أمد يدي لأمسك ذراعه، ثم أتركها سريعًا عندما يقفز. كان يجب ألا أمسك به، فهو يكره أن يلمسه أحد.

ومع ذلك، بمجرد أن ألمسه أريد أن أفعل ذلك مرَّة أخرى، لأن لمسه يجعله حقيقيًّا، ويجعلني أتذكر كيف كان شعوري تجاهه.

كيف ما زال شعوري تجاهه.

أقول له: «سوف أراسل آنتي»، وأفكر في الرسالة التي أرسلتها لي هذا الصبح، وفي الطعام الذي أعدته لي، إنها تحبني، أنا متأكدة من ذلك، وأفعال صلاح الدين الغبية ليست غلطتها. «كما سأذهب إليها بعدما أنهي عملي في المستشفى. كيف حالها؟».

صمت طويلًا، قد يكون لديه مائة شيء ليقوله، لكن تتصلب كتفاه، وتتشرد عيناه البنيتان.

- ليست بخير.

أسأله: «ماذا تعني؟ ماذا حدث؟».

يمنحني صلاح الدين نصف ابتسامة حزينة لم أرها من قبل، ويقول: «نثق في مشيئة الله».

أحد الأقوال الدينية التي ترددها آنتي، وكان صلاح الدين يجادلها بشأنه، فيقول: «*ماذا عن إرادتنا؟ ماذا عما نريد؟*».

فكانت تجيبه بصوتها المُحذِّر من أن يعترض لكيلا تصفعه بنعلها، قائلة: «*ما تريده هو ما تريده، ولكن ما تفعله هو ما يشاء الله لك أن تفعله. والآن، استغفر الله، بوتر. فأنا لا أريد أن تنغلق أبواب الجنة أمامي لأن ابني كان قليل الاحترام*».

كان صلاح الدين يتذمر، ثم يستغفر الله، دائمًا. طالما عَرَفَت آنتي كيف تجيب عن أسئلته، عَرَفَت ماذا تقول له.

لكنني لا أعرف. يسير مبتعدًا، وأتركه يذهب.

4
مصباح

نوفمبر، حينئذٍ.

في وسط الحرائر المذهلة التي تميز سوق أناركالي، بدت العرافة كعصفور مسكين، وكانت قدماها الصغيرتان في صندل مطاطي متشقق تنقران بنفاد صبر. قالت لي ابنة عمي فوزية: «إنها أصغر منكِ يا مصباح، لكنها ستمنحك راحة البال».

أشارت لي العرَّافة بأن أجلس أمامها إلى طاولة خشبية متهالكة، وأمسكت بيدَيَّ. أشار الصليب المعلق في رقبتها إلى أنها مسيحية.

قالت العرَّافة: «أنتِ على وشك الزواج».

«لا أدفع لكِ مائة روبية لتخبريني أن الأبقار تنتج الحليب». رفعت حقيبة متجر «صاحب برايدالز» للعرائس، فتصدر عن الفتاة ضحكة متقطعة. ربما كانت أكبر سنًّا مما تبدو.

«خطيبك ذو روح لا تهدأ». مرت بأصابعها على خطوط يدي وغرزتها في الجلد المتصلب. «وستسافرين عبر البحار».

- خطيبي هو الابن الوحيد، ولن يهجر والديه أبدًا.

قالت: «ومع ذلك ستغادرين باكستان. ستحظين بأبنائك بعيدًا عن هنا، ثلاثة».

- ثلاثة!

- فتى وفتاة، والثالث ليس هو ولا هي ولا من الجنس الثالث. ستخذلينهم جميعًا.

- ماذا تعنين بأنني سأخذلهم؟ كيف ذلك؟ هل... هل سيموتون؟ هل سيكونون مرضى؟

قابلت عينا العرافة عينَيَّ، كانتا صغيرتين طويلتي الأهداب بلون بني زاهٍ كأوراق الأشجار المتساقطة.

- ستخذلينهم جميعًا.

عرضت عليها مائة روبية لتغير النبوءة، ثم مائتين، لكن مهما عرضت، لم تقل أكثر من ذلك.

5
نور

يريدني تشاتشو في المتجر في تمام الساعة 3:15، ولكن لم تجب آنتي على رسالتي مما يقلقني.

أمضي آخر فترتين من كل يوم دراسي في برنامج تطوعي بمستشفى جونيبر الإقليمي. وعلى الرغم من أن تشاتشو لا يحب ذلك، فإنه في أثناء الساعات المدرسية لذلك ليس في يده فعل شيء. عندما أنهي ورديتي، أتجه إلى الموتيل، إنه على بعد عشر دقائق فقط بالدراجة، لذا من المفترض أن يكون الوقت كافيًا للاطمئنان على آنتي ثم الذهاب إلى المتجر.

وجدت الموتيل هادئًا عندما قدت الدراجة عبر الخرسانة المتصدعة في المرأب بجانب المنزل الرئيسي حيث تعيش عائلة سال. لا توصد آنتي الباب أبدًا، وبمجرد أن دخلت، امتلأ أنفي برائحة دافئة من السميد المحمص بالسكر، أنادي لكن لا يوجد أحد بالداخل، فأسير خلف المرأب إلى المسبح المحاط بسياج ومستودع الأدوات، لكنهما خاليان أيضًا. تُعزَف أغنية «القمر البارد» (Cold Moon) لفرقة ذا زولاس في السماعة بأذنَيَّ، وأغلقها مع خفوت صوت الموسيقى في نهايتها.

الجناح الشرقي من الموتيل هادئ، وموقف السيارات خالٍ. لا بد أن أعمال الموتيل لم تكن جيدة في الآونة الأخيرة. وكذلك لم تكن أي من غرف الجناح الغربي مفتوحة، ولكن باب غرفة الغسيل الأزرق الزاهي يصدر صريرًا في الرياح.

أدفعه لأفتحه، فأجد آنتي تستند إلى الحائط بالداخل، وتضم منشفة بين ذراعيها.

تبدو بحالة مريعة، تحولت بشرتها السمراء إلى لون رمادي يعكس المرض، وتتنفس سريعًا جدًّا، فأرى نبضات قلبها تقفز، وفُكَّت عقدة حجابها الوردي الذي ترتديه عادةً مسحوبًا للخلف ومربوطًا ككعكة أسفل عنقها.

«آنتي؟» ذهبت إلى جانبها في لحظة.

«أوه». يختلج جسدها: «Asalaam-o-alaikum. Kithay rehndhi, meri dhi؟» **السلام عليكم. أين كنتِ يا بنتي؟**

«آنتي، تحتاجين إلى أن تجلسي». أمد لها ذراعي لتستند عليها، فتلوح رافضة، وتقول: «ولا تظني أن كلامي معك يعني أنني سامحتك. أبعد كل ما جمعنا من أطباق الباراثا، لم تستطيعي أن تأتي لزيارة عمتك العجوز؟» تبتسم، لكنني أشعر بحزنها.

طلبت منها الرأفة دون تردد: «Mafi dede, Auntie»، فقد أخبرَتني فيما مضى أن الاعتذار نصف الطريق إلى المسامحة. «أنا غبية. دعينا نذهب إلى المنزل». لونها شاحب إلى حد يجعلني مدهوشة من أنها واقفة. يجب أن أصحبها إلى الطبيب، لكنها لن تذهب ما لم أقنعها بالفكرة تدريجيًّا، ربما في أثناء احتساء الشاي.

«لم أعتقد أنك ستأتين». أغمضت عينيها جزئيًّا في شمس الشتاء المشرقة: «لكنني أعددت من أجلك حلوى وخبز بوري ليكونوا جاهزين في حال قدومك».

مجرد التفكير في الخبز المنتفخ المقلي يجعل لعابي يسيل في فمي: «لم يكن عليكِ فعل...».

«إنه عيد ميلادك، أليس كذلك؟ ثمانية عشر عامًا. إنه مهم... مهم للغاية...». تتوقف عن الكلام لتسترد أنفاسها، وأخيرًا أقنعها بأن تمسك بذراعي. يمكنني أن أحملها، فهي خفيفة جدًّا.

بمجرد دخولنا، يسترد وجهها لونه قليلًا وتترك ذراعي، ثم تشق طريقها عبر غرفة المعيشة المظلمة وهي تربت على حائط المنزل كأنه صديق قديم. إنها تحب هذا المكان، حتى مع استنزافه لحياتها كلها.

يقع المطبخ في أحد الجوانب، مُصَمَّم على شكل حرف «L»، وبه نافذة كبيرة تطل على الجناح الشرقي. وُضِعَت ثلاثة أطباق أنيقة من أطباق

كورنينجوير (CorningWare) على سطح المطبخ الخشبي القديم، وإلى جانبه طاولة طعام لأربعة أشخاص تناولت عليها مئات الوجبات.

بينما أتجه لأخذ التشولاي -الحمص بالكركم والكمون الذي تعده آنتي- تشغل الفرن لتسخين خبز البوري. يداها ترتعشان.

أدفعها برفق نحو كرسي: «آنتي، دعيني أعد لكِ بعض الشاي، ثم أتصل بالطبيب. يمكن لحلوى عيد الميلاد أن تنتظر».

- لقد أجلت الموعد للغد، توقفي عن القلق. ولدينا وقت لاحتساء الشاي.

بينما أُخرِج كوبين غير متشابهين وكيسَي شاي من نوع PG Tips، أشعر بالاسترخاء، فلا يبدو رفض جامعة فرجينيا مشكلة كبيرة، وكذلك الرسوب في مقال اللغة الإنجليزية، هناك شيء في آنتي يمنحني إحساسًا بأنني يمكنني أن أواجه كل تلك الأشياء.

أريد أن أخبرها بكل ذلك. *هذا* هو بيتي، *أنتِ وصلاح الدين* بيتي، *وأنا آسفة لأنني اختفيت لفترة طويلة*. أكسر بعض الحبهان بين أسناني، وأخطط لعشرات الاعتذارات وأتراجع عنها. يشبه الأمر محاولاتي للكتابة، ولكن أسوأ منها.

قالت آنتي: «لا بأس»، فأرفع عيني ناظرة إليها. عيناها عسليتان، أفتح كثيرًا من عيني صلاح الدين. والآن، هما مثبَّتتان علَيَّ. تضع يدها على قلبها وتقول: «أعرف».

تنحل العقدة التي عشت بها في صدري لشهور. بينما نترك صمتًا رفيقًا يسودنا يصدر صوت قرمشة عن تقطيع الحلوى وينتفخ خبز البوري. وبعدما أنضم إلى آنتي على الطاولة، لا تلمس طعامها، لكنني أنهيت نصف طعامي بالفعل قبل أن تأخذ رشفة من الشاي.

«رائع». أتنفس أخيرًا: «لقد تفوقتِ على نفسك آنتي».

«لم تكوني تتناولين ما يكفي من الطعام». تتعمق الخطوط بين عينيها. «تعرفين، لقد عرضت على رياض أن أعلمه كيفية الطبخ». تدعو تشاتشو باسم العائلة دائمًا. «عندما أتى بكِ لأول مرَّة إلى جونيبر».

تركت خبز البوري من يدي. يكره تشاتشو الطعام الباكستاني، إنه يكره كل ما هو باكستاني. «هو، ممم، هو يفضِّل السندويتشات على ما أعتقد».

تقول آنتي: «لقد أرادت بروك أن أعلمها. هل كنتِ تعرفين ذلك؟».

أهز رأسي بالنفي. في واقع الأمر، يجب أن أدعو بروك «تشاتشي» نظرًا لأنها زوجة تشاتشو، وهي رأت أنه لقب لطيف عندما تحدثت عن الأمر لأول مرة، لكن تشاتشو أنهى ذلك سريعًا. لم يدعني أدعوه تشاتشو إلا لأنني في سن السادسة لم أستطع نطق كلمة «عمي» نطقًا صحيحًا، وهو يكره الكلمات المنطوقة بطريقة خاطئة أكثر من الكلمات الأردية.

«على أي حال، عرف عمك بالأمر، فلم تعُد هنا ثانيةً». أخذت رشفة عميقة من الشاي.

- آنتي، لماذا لا تذهبين إلى...

- تعرفين يا نور، الآن بعدما أصبحتِ في الثامنة عشرة...

نتوقف كلتانا عن الكلام، فتشير لي لأكمل حديثي.

- لقد تغيَّبتِ عن مواعيد غسيل الكلى آنتي.

تغمر تعبيرات وجهها الحزن، وتقول: «تلك الجلسات غير مهمة على كل حال. إنها لا تجعلني أشعر بأي تحسن، لكنها تكلف ثروة. أمزج الكركم باللبن...».

قلت: «أمراض الكلى خطيرة آنتي، لا يمكنك علاجها بالكركم، بل تحتاجين إلى غسيل الكلى. ماذا عن التأمين؟».

«لا يوجد تأمين». تنظر إلى مكتبها المكدس بالفواتير. «يجب أن أعود لمواصلة التنظيف. شغِّلي أغنية لي قبل أن أذهب يا نور جيهان».

تستخدم اللقب الذي أعطتني إياه عندما كنت صغيرة وأدركَت لأول مرَّة حبي للموسيقى. نور جيهان مستوحى من اسم المغنية الباكستانية الشهيرة.

«حسنًا، تعرفين كم تحبين أغنية جوني كاش ويو تو؟» أُخرِج هاتفي الذكي الذي منحتني إياه العام الماضي (قالت إن أحد النزلاء تركه لكنني أشك أنها دفعت ثمنه بنفسها). «لدي أغنية ثنائية أخرى لجوني كاش، اسمها «جسر فوق مياه مضطربة» (Bridge Over Troubled Water). هذه المرة يغني مع فيونا آبل، أنتِ تحبينها أيضًا».

عثرت على الأغنية، وانطلقت الموسيقى من جيتار جوني كاش، تغلق آنتي عينيها، وعندما يبدأ الجزء الرئيسي الذي يغنيه مع فيونا، تمد يدها لتمسك يدي.

قالت: «ذلك يعبِّر عنكِ يا نور. أنتِ جسري فوق المياه المضطربة، وكذلك جسر صلاح الدين، لكن...».

تميل للأمام لكي تنظر إلي، تنظر إلي بحق، فأحني رأسي وأدَع قُصَّتي تسقط على وجهي.

قالت: «نور، أحتاج إلى... أحتاج إلى أن أقول لكِ...».

لكنها تتوقف عن الكلام، فيبدو أنها متعبة لدرجة تمنعها من الكلام. تهمس: «لا أشعر أنني بخير دي». أتمكن من الوقوف أمامها قبل أن ينهار جسدها، الذي أصبح فجأة مرتخيًا، للأمام.

«آنتي... يا إلهي... حسنًا...» أحاول الإمساك بهاتفي دون أن أتركها، لكنه ينزلق عن الطاولة ويقفز فوق مشمع الأرضية فيصبح بعيدًا جدًّا عن متناول يدي، ثم ينفتح الباب الأمامي.

أنادي متسائلة: «صلاح الدين؟ آنتي تعاني خطبًا ما».

لكن القادم ليس صلاح الدين، بل والده، ويمكنني أن أشم رائحة الكحول تفوح منه قبل أن يظهر أمام باب المطبخ.

غمغم: «نور؟» ثم يرى زوجته فيتلاشى صوته وهو يقول «مصباح؟».

قلت: «اتصل بالنجدة يا عمي توفيق». آنتي مغمى عليها وأسندها بجسدي، وأشعر بنبضات قلبها على كتفي تصدر صوتًا مكتومًا غريبًا. «الآن».

جونيبر مدينة صغيرة بما يكفي لكيلا تستغرق سيارة الإسعاف طويلًا لتصل إلى الموتيل. يحملق عمي توفيق حين ينقل المسعفون آنتي إلى مؤخرة السيارة، وقد جعله خوفه على زوجته يستفيق للحظات قليلة.

حاول وضع مفاتيح سيارته في يدي، لكنني أهز رأسي قائلة: «لا أعرف كيف أقودها»، وأشعر بارتياح لأنه لا يحاول أن يقود. «اركب سيارة الإسعاف، وأنا سأترك رسالة لصلاح الدين وأذهب بالدراجة».

أمسكت ورقة.

أكتب: *أيها الأحمق*، لكنني أشطبها فورًا.

لقد انهارت والدتك... لا، هذا سيرعبه.

تعال إلى المستشفى في أسرع وقت ممكن، غرفة الطوارئ، والدتك بخير لكنها تحتاج إلى البقاء في المستشفى.

رن هاتفي وانا أقفز على الدراجة، وتخبرني نظرة سريعة بأنه تشاتشو. الساعة 3:17. لقد تأخرت دقيقتين.

يقع متجر الكحوليات على بعد خمس دقائق، لكن بمجرد أن أصل إلى هناك، سيذهب تشاتشو، ولن يهتم بأن آنتي مريضة، إنه حتى لم يُرِدني قط أن أقضي وقتًا هنا.

أزج الهاتف في جيبي، وأمسك حقيبة الظهر، ثم ألحق بسيارة الإسعاف.

6
سال

نوفمبر، حينئذٍ.

عندما وصلت إلى المستشفى، كانت الساعة قد قاربت السابعة، وأتصبَّب عرقًا بشدة فيبدو كأنني جريت عبر مغسلة سيارات. لقد وجدت رسالة نور، لكن لم أجد مفتاح السيارة الاحتياطي، وعندما اتصلت بها من هاتف الموتيل، لم تجب، لذا ركضت.

تقطع نور مدخل غرفة الطوارئ ذهابًا وإيابًا. «أين كنت طوال هذا الوقت؟ إنها في وحدة العناية المركزة، هيا».

بينما نسرع عبر مستشفى جونيبر، تلحق بي نور التي أجفل لسماع صوتها، كأنه بندقية جاتلينج تطلق الحقائق تباعًا. *والدتك ضعيفة وتهذي، لقد تسبب نقص الغسيل الكلوي في أضرار جسيمة، فمستويات البوتاسيوم في دمها مرتفعة، وهي معرَّضة لخطر الإصابة بعدم انتظام ضربات القلب.*

تحيي بعض الممرضات نور في أثناء مرورها، ولكنها بالكاد تلاحظهن. بينما تتحدث، تضم يديها معًا ثم تفرِّقهما، تبرمهما كأنها تفرك صابونة، إنها مرعوبة.

جزء مني يريد أن يخبرها: «*توقَّفي وانظري لي. كل شيء سيكون بخير*». هذا ما كانت لتقوله آما.

لكنني أكره الكذب، وبخاصَّة الكذب على نور. تنتقل لي عدوى خوفها، وعند وقوفها أمام باب وحدة العناية المركزة، أتصبَّب عرقًا ثانيةً، وهذه المرة ليس بسبب الجري.

«أخبرهم باسمك عندما تدخل. إنهم لا يسمحون إلا بدخول زائر واحد، وقد طردوا والدك من قبل». يلين صوت نور أمام تعبيرات وجهي: «لقد... أصيب ببعض الإعياء. سأذهب للاطمئنان عليه».

آما مُوصَلة بمليون جهاز. إنها لم تتجاوز الثالثة والأربعين من عمرها، لكنها تبدو كأنها شاخت عشرين عامًا. أدخل شعرها تحت حجابها، وأسوي الرداء الذي ألبسوها إياه، ساحبًا الغطاء فوق ساقيها العاريتين، إذ تحرص على تغطيتهما في الأماكن العامة. الأطباء هنا يعرفونها، ويعرفون أنها تفضل اللباس المحتشم، ومع ذلك لم يكن حتى لديهم اللياقة لتغطية جسدها بصورة مناسبة. إنهم حمقى.

أهمس لها: «لماذا لم تذهبي إلى جلسات الغسيل الكلوي؟ لماذا لم تستمعي للأطباء؟».

- بوتر.

أقبض على يد آما، الشخص الوحيد الذي شعرت بالأمان بين يديه دائمًا. وهي تثبت نظراتها علَيَّ.

- كيف حالك آما؟

- أين والدك؟

يحرج نفسه أمام الجميع بالتقيُّؤ في الردهة.

«إنه في الخارج». لا أخبرها بأكثر من ذلك، لكنها تجفل بسبب الحقد البادي في صوتي.

قالت برفق: «إنه مريض بوتر. إنه...».

ليس مريضًا، ولم يكن مريضًا قَطُّ. ضعيف، ربما. مثير للشفقة. «إنه سكران آما، كما هو حاله دائمًا». يجعلني الألم المرسوم على وجهها أكره نفسي، لكنني لا أعتذر. لا بد أن هذا الغضب قد تربص بداخلي لفترة طويلة متحفِّزًا مثل ثعبان جائع.

ضغطت آما على يدي: «والدك... إنه...».

«لا تختلقي أعذارًا للدفاع عنه. إنه في الخارج يزين غرفة الطوارئ بغدائه بينما أنتِ هنا...» وأهز رأسي: «لكن لا تقلقي، كل شيء تحت السيطرة».

- أين نور؟

«في غرفة الانتظار». لا يمكنني الحديث عن نور مع آما، ليس ثانيةً.

- بوتر، يجب عليك التصالح معها، فهي تحتاج إليك أكثر مما تتخيل، وأنت تحتاج إليها.

«آما، لا تقلقي بشأني أنا ونور، اتفقنا؟» أتمنى لو بإمكاني التخلص من هذه الحدة في صوتي، وأحاول، أحاول أن أكون هادئًا لكن لا أشعر بجسدي كأنه جسد على الإطلاق، بل ككهف مظلم ممتلئ بالتوتر والغموض والخوف، وتندفع منه كلمات ليست كلمات بل صقور لها أجنحة من الشفرات ومناقير من السكاكين.

قلت: «نور بخير. لقد كانت بخير من دوننا لستة أشهر. أنت دائمًا...».

همست: «ستحتاج إلى الاتصال بأبناء أعمامي في باكستان».

«لماذا...» يتشقق صوتي وأتخيله مثل كلمات على ورقة، تتحرك وتتشكل وتنثني وفقًا لإرادتي. عندما أتحدث ثانيةً، يبدو صوتي طبيعيًا. «ستتصلين بهم بنفسك آما».

قالت: «سيكون عليك دفع الفواتير بُوتَر، فوالدك ينسى. واسق الزهور. واطلب... اطلب المساعدة من خالك فيصل...».

- آما، عندما زانا في الصيف أعطاني كيس قمامة مملوءًا بملابس ابنه القديمة من بروكس براذرز (Brooks Brothers) لكيلا أبدو «مثل 'Daku' (مجرم) لهذه الدرجة». لن أطلب منه أي شيء.

«أشتاق... له»، تتكلم آما بصوت ضعيف، لكنها تنظر إلى ما ورائي بتمعن شديد حتى إنني ألقي نظرة من فوق كتفي.

- تشتاقين إلى خالي فيصل؟

تهمس آما: «لا، إلى أبي. كان يقول لي 'فراشتي الصغيرة'، ويلعب لعبة الكيرم مع توفيق ووالده، كم كان يحب نكات توفيق».

أومئ برأسي على الرغم من أن آخر مرَّة أتذكر أن آبو قال فيها نكتة، كنت لا أزال أرتدي سراويل داخلية عليها رسومات ذا هالك.

- يا سيد؟

تدخل ممرِّضة طويلة ذات شعر داكن: «والدك... آه، أعتقد أنه بحاجة إليك».

والدي ليس من يحتاج إلَي الآن. هذا ما أريد أن أقوله.

«أنا بخير هنا». أعود للنظر إلى آما، لكن الممرِّضة تمد يدها كما لو أنها تريد أن تلمس كتفي، فأبتعد قبل أن تتمكن من لمسي، فترفع حاجبيها.

- أنا آسفة يا عزيزي، لكن لا يمكن لوالدك أن يكون هنا، فهو يزعج المرضى في غرفة الطوارئ متحدثًا بلغة ما...

أقول: «تلك البنجابية، لغته الأم».

- تحتاج إلى أن تتعامل معه، وإلا سنضطر إلى استدعاء الشرطة.

تدخل نور لاحقة بالجزء الأخير من الحديث.

تقول حين تغادر الممرضة: «حصلت على المفاتيح من والدك، وقد أحضر الإمام شفيق سيارتكم».

الإمام/ المهندس الشاب الذي يؤمُّ المسجد الصغير بجونيبر صديق والدتي، لكنني لم أتصل به. «كيف...».

«اتصلت به في وقت سابق، واضطر إلى المغادرة، لكن، ممم، والدك غالبًا يحتاج إلى من يأخذه إلى المنزل». تنتقل نور من قدم إلى أخرى. اعتقدت أنها لم تعرف مدى السوء الذي وصلت إليه علاقتي بآبو، لكنها على ما يبدو فهمت بنفسها.

- كنت لآخذه، لكن آنتي لم تعطني سوى درسَي قيادة قبل...

قبل أن أصرخ في وجه نور قائلًا أشياء مريعة، وتهرب مثلما كان ليفعل أي إنسان عاقل.

أقول: «سآخذه». آبو اللعين. يجب أن أكون هنا مع آما، يجب أن أطمئن أنها بخير، لكنه سيكون في حالة يرثى لها الليلة ولا أريد أن تتعامل نور معه، أو أن يؤذي نفسه.

- لكنني سأعود. فقط... ابقي معها من فضلك.

رفعت آما صوتها قائلة: «سأكون بخير. خذ والدك، أعطه ماء، واجعله ينام على جانبه. ولا تكن غاضبًا منه بوتر، أرجوك، إنه...».

«لا تدافعي عنه آما». أغادر قبل أن أقول شيئًا سأندم عليه لاحقًا.

يسير دكتور روثمان في الردهة، وألحق به. أسأله: «هل يجب أن أحضر لها أي شيء؟ دواء أو...».

قال: «إنها لا تشعر بألم. سننقلها قريبًا إلى غرفة لكي تستطيع استكمال جلسات غسيل الكلى وهي مرتاحة. ربما ستحتاج إلى ملابس النوم، ومستلزمات الحمام. و...» يتحقق من حافظة الأوراق بيده. «أرى أننا ليس لدينا بطاقة تأمين صحي في الملف...».

يتسرب الصراخ عبر الأبواب إلى وحدة العناية المركزة، وأميز صوت آبو.

«أنا آسف». لا أستطيع النظر إلى عيني دكتور روثمان. «يجب... يجب أن أذهب».

غرفة الطوارئ التي تقع في نهاية الردهة المؤدية إلى وحدة العناية المركزة هادئة هدوءًا غريبًا، باستثناء زمجرة والدي في الحديث مع اثنين من رجال الشرطة يراقبانه بحذر من الباب.

تقول واحدة منهما، سيدة ذات شعر بني يبدو صوتها ضجرًا: «يا سيد، فقط تعال معنا خارجًا، حسنًا؟ ليس هناك حاجة إلى...».

«Haramzada kutta». **كلب لقيط**. ليس آبو من نوع السكارى الغاضبين، بل هو أقرب للنوع الخامل. كما لم أسمعه قط يسب بالإنجليزية، فما بالك بالبنجابية.

يراني فيطعن بيده في الهواء كأنه بيري ميسون ثمل وجد حلًّا[1]. «هذا ابني، سيخبرك بحقيقة الوضع، زوجتي بالداخل ويجب أن أذهب إليها، لكن لا أحد يدعني...».

حتى مع كل ما يشعر به من انزعاج، تبدو لهجة آبو كموجات المحيط الهادئة. لم ألاحظ هذا إلا قبل عامين عندما وضعت اتصاله على مكبر الصوت في المتجر، فحين تحدث أوقفتني الدهشة في الممر، إذ بدا صوته فجأة غير مألوف. اهتز لسانه بحرف الراء وتريث في نطق حرفي اللام والدال مما جعل كل كلمة تبدو أكثر شاعرية.

---

(1) بيري ميسون هو شخصية محام خيالية من سلسلة روايات بوليسية أمريكية ويشتهر بذكائه في حل الجرائم وإثبات براءة موكليه في قاعة المحكمة.

لكن هذين الشرطيين لا يهتمان بذلك، فبالنسبة إليهما، هو أجنبي مخمور تفوح منه رائحة اليأس.

جميع من في غرفة الانتظار يحملقون، فمع ما يعانونه من مرض وشقاء، تُعَدُّ مشاهدة شخص في حال أسوأ مصدرًا للراحة، أو على الأقل للتسلية.

أشعر بوخز وحرارة في بشرتي تحت تلك النظرات، وعلى الرغم من أنني أريد أن أكمم آبو، يغمرني شعور غريب بأنه لا بد لي من حمايته. بجسده المنحني هكذا، ويديه المقبوضتين، يبدو صغيرًا جدًّا.

«آبو». أضع نفسي بينه وبين الشرطيين. «نحتاج إلى الذهاب إلى المنزل، آما تريد منا أن نذهب إلى المنزل». أستدير لمواجهة الشرطيين: «أنا آسف، إنه منزعج لأن والدتي مريضة».

«أنا أعرفه». يتفحص الشرطي ذو الشعر الأشقر القصير والشارب آبو. يحمل شارة باسم **ماركس**. أتمنى لو كنت أعرف فيما يفكر، لكن ربما من الأفضل أنني لا أعرف. «لقد كان لدينا في الزنزانة 'tank'[1] من قبل».

للحظة، أتخيل آبو داخل دبابة عسكرية يرتدي ملابس مموهة، والصورة عجيبة للغاية حتى إنني أضحك، بصوت غريب حاد لم أضحك به من قبل، ثم أدرك ما يقصده الشرطي، فتموت ضحكتي.

تتبدل ملامح ماركس من الحيادية إلى الغضب.

فأقول: «أنا فقط... سآخذه إلى المنزل. آبو، هيا بنا». آخذ يده على الرغم من أنني لا أريد أن أفعل. إنه جلد على عظم، وأتذكر حين لم يكن كذلك، حين كان بإمكانه رفعي فوق كتفه كأنني وسادة من الريش.

«لا...» ينتفض مبتعدًا وملوِّحًا بذراعيه كالطاحونة، وعندما تصفع يده وجهي، أظن في البداية أن ماركس هو من ضربني، فمن غير المحتمل أن يمد والدي يده عليَّ بأي حال، ثم أدركت ما حدث. تؤلمني الصفعة بشدة وتدمع عيناي، كما يتصاعد شعوري بالذعر، فرؤية شرطي لأبي يضربني ليست ما نحتاج إليه الآن.

---

(1) تحمل هذه الكلمة معنيين، فهي تعني زنزانة السكارى، وتعني الدبابات العسكرية.

ستكون الأمور بخير. أمسح عينَي. *في غضون ساعات قليلة، ستكون مستغرقًا في الكتابة عن هذا في دفتر مذكراتك لأنه سيكون من الماضي بدلًا من الحاضر، وسيكون كل شيء بخير.*

«يا إلهي. أنا آسف جدًّا يا صلاح الدين». يبدو والدي محطَّمًا، لكنه ليس من أركز عليه الآن.

يخطو ماركس للأمام، ويقسو صوته: «يا سيد، يكفي ذلك، ابتعد يا بني...».

أقول بسرعة محاولًا منع تصاعد هذا الموقف: «إنه لم يقصد فعل ذلك». يذكرني شيء في الطريقة التي أتحدث بها بآما، وتجعلني هذه الفكرة أمتعض. «لقد كانت حادثة. أرجوك ثق بي... ليس ذلك من طبعه». حتى آما كانت لتضربني بملعقة إذا رأت أنني غير مهذب، لكن آبو لم يفعل ذلك قط.

تضع الشرطية الأخرى -أورتيز- يدها على ذراع زميلها. وهذه المرة، عندما أمسك بيد آبو، لا يقاومني.

«سنذهب، اتفقنا؟» أسحبه إلى الخارج، وهو يتبعني متمتمًا: «آسف، آسف بوتر، أنا آسف».

هز ماركس رأسه وقال: «خذه إلى المنزل». ثم يراقبنا هو وأورتيز -وبقية الحاضرين في غرفة الطوارئ- بينما نتجه خارجًا إلى الليلة ذات البرودة الصحراوية.

يتصاعد الغضب بداخلي ثانيةً لأنني يمكنني الشعور باشمئزازهم، بالأحكام التي يصدرونها، أريد أن ألتفت لهم وأصرخ فيهم: *ليست هذه شخصيته، ليست هذه حياتنا.*

لم نكن دائمًا هكذا.

7
نور

تغمض آنتي عينيها بعدما غادر صلاح الدين. ترتعش أصابعها في أثناء نومها، وتئن كأنها تتألم. تمر ساعة، ثم ساعة أخرى، فأخرج سماعات الأذن اللاسلكية. لقد لزمني شهران من ساعات العمل الإضافية في المتجر لكي أتمكن من دفع ثمنها، إذ لا يؤمن تشاتشو بمفهوم الأجور العادلة، لكنها تستحق كل قرش دفعته.

لا تستطيع آنتي سماع الموسيقى، لكنني أشغِّل أغاني الفنانين الذين تحبهم، ريشما ومعصومة أنور، ومحمد رافع الذي كان الفنان المفضل لدى والدها في طفولتها، وأبرار الحق التي كانت الفنانة المفضلة لديها.

نظرت إلى هاتفي لأرى ما إذا كان سال قد اتصل، لكنه لم يتصل وأشعر فورًا بالندم على النظر إليه، إذ لديَّ خمس وعشرون رسالة غير مقروءة وعشر مكالمات فائتة، وكل واحدة منها من تشاتشو.

أكتب له أخيرًا رسالة: *حالة طارئة في المستشفى، اضطررت إلى البقاء لوقت متأخر.*

تهمهم آنتي مصباح وترمش مستيقظة، لذا أغلق الموسيقى.

«سلام آنتي». آخذ يدها بين يدي بحذر، فاللمسة يمكن أن تكون منفرة للمرضى عندما يستيقظون في وحدة العناية المركزة.

تهمس آنتي: «Pani». **ماء.**

يوجد كوب على طاولة سرير آنتي، فأقرب الشفاط إلى شفتيها، وتنجح في أخذ رشفة، لكن حلقها لا يستجيب استجابة سليمة.

- تو... توفيق.

أقول: «إنه بأمان في المنزل، وسيكون صلاح الدين هنا في غضون دقائق».

ترتعش يداي، لكن خوفي لن يؤدي إلا إلى إزعاج آنتي، لذا أستقيم في جلستي وأجبر نفسي على الابتسام.

«تبدين بخير آنتي مصباح». أمشِّط للخلف خصلات شعرها التي خرجت من حجابها، وأمسح بمنديل قطرات العرق من فوق جبينها. «أتمنى لو كنتِ في المنزل، كنت لأعد لكِ كوب شاي ويمكننا الحديث عما فاتني من حلقات Dilan dey Soudeh»، **أمور القلب**، المسلسل المفضل لديها. «ماذا حدث في الحلقة الأخيرة؟».

تجيب بصوت منخفض للغاية حتى إنني أضطر إلى أن أميل للأمام لأستطيع سماعها. تقول: «أخت أكبر أخبرته بأن شهادة سائرة مزيفة».

- ماذا؟ هذا كذب. لقد درست سائرة في جامعة أكسفورد، وما زالت تحبه بعدما فقد كل شيء.

تهمس آنتي: «لا أعرف ما حدث بعد ذلك. لم تكن المشاهدة من دونك ممتعة».

قلت: «سنقيم حفلة لائقة عندما تعودين إلى المنزل، اتفقنا؟ نتناول أكواب شاي لا تنتهي، ونضع بها الكثير من السكر. هل أخبرتك بأنني اتبعت نصيحتك وشغلت جميع أغاني ناتش بنجابان في المتجر الأحد الماضي؟».

تبتسم، فأشعر بالراحة لرؤية وجهها يسترد بعض لونه، وأقول: «أتراجع عن كلامي. ليست أبرار الحق مغنية رديئة، فقد جعلتني أغنية 'Wangan Chappan' أبكي، أما أغنية 'Tere Rang Rang'، فهي أغنية كلاسيكية. في الواقع...».

أنظِّف سماعات الأذن بمنديل مبلل وأضعها في أذنها، ينبعث منها صوت السيتار[1] وضربات الدولاك[2]، وتغمض آنتي عينيها. في مكان ما بالردهة، يبدأ جهاز في الصراخ ليعلن عن خلل جنوني بالمؤشرات الحيوية لأحدهم.

---

(1) السيتار هو آلة وترية طويلة تنتمي إلى التراث الموسيقي الهندي.

(2) الدولاك هو طبلة هندية من الخشب والجلد.

صدح صوت بارد عبر مكبر الصوت مغطِّيًا صوت غناء أبرار الحق: «حالة طوارئ، وحدة العناية المركزة»، فيندفع عشرات الأشخاص. وأدعو: *لينجُ الشخص الذي تعرض لأزمة قلبية للتو.*

«نور»، تعطيني آنتي سماعة الأذن، فأغلق الموسيقى.

قالت: «أنتِ لا تنتمين إلى جونيبر ميري دي»، **ابنتي**. إنها تناديني بتلك الكلمة منذ قابلتها وأنا في السادسة من عمري، غير قادرة على الحديث أو الكتابة بالإنجليزية، وحزينة على عائلة لم أعد أتذكر وجوه أفرادها. لم تكن آنتي مصباح حتى تعرفني، ومع ذلك نادتني «دي»، هكذا هي شخصيتها. «أنتِ أفضل من هذا المكان. تستحقين أكثر من هذا المكان».

قلت: «أنا... أنا أحاول آنتي. لقد قدمت في مجموعة من الجامعات، وأخاف ألا ألتحق بأي منها. أشعر بأنني تائهة...».

يبدو من الغباء أن أقول هذا لشخص على سرير مستشفى، لكنها تنظر إلي بنظرة عازمة.

«إذا تهنا، فمشيئة الله كالماء، تجد المسار غير المعروف حين لا نستطيع العثور عليه». تعصر يدي بيدها الباردة، وأشعر بجلدها رقيقًا كأنه لشخص عجوز على الرغم من أنها صغيرة السن جدًّا.

قالت: «أعرف أنك غاضبة من صلاح الدين، لكنك يجب أن تكوني غاضبة من...».

تحرك فمها غير قادرة على الكلام، وترجف عيناها. وعندئذ يُصدِر جهاز قياس ضغط الدم صوت تنبيه متسارع، إذ تنخفض قراءاتها، ببطء في البداية، ثم أسرع.

«ممرِّضة؟» أترك يد آنتي للحظات قصيرة وأخرج إلى الردهة. «يا ممرضة».

لكن مركز التمريض فارغ، فالطاقم الطبي بمستشفى جونيبر ليس كافيًا، وستجعل حالة الطوارئ معظم الأطباء مشغولين. اللعنة. أتفقَّد هاتفي لكن صلاح الدين لم يتصل بعد.

أكتب رسالة سريعًا.

أين أنت، تعالَ إلى وحدة العناية المركزة الآن.

ينطلق صوت جهاز آخر من الأجهزة المتصلة بآنتي.

«نور». عينا آنتي غائرتان، وينتابني شعور بالغثيان في معدتي. هناك شيء يحدث، شيء سيئ، شيء يتجاوز قدراتي، والهواء مملوء بالغضب والاضطراب.

«نور». اسمي هو كل ما تستطيع أن تقوله، لكنه يحمل الكثير داخله.

- آنتي... ستكونين بخير، دعيني أنادي الطبـ...

تختل مؤشراتها الحيوية بجنون، يتهاوى ضغط دمها، ويدوِّي جهاز استشعار الأكسجين. فأنادي: «دكتور»، أنادي من فوق كتفي لأنني لا أريد أن أتركها: «دكتور»، أقف وأنا لا أزال ممسكة بيدها، وأصرخ في اتجاه الباب: «أحتاج إلى مساعدة».

«نور». كأنها ترنيمة. «نور».

«أنا هنا آنتي مصباح». *ابقي هادئة يا نور، اهدئي*. أقول: «يجب أن تبقي معي، اتفقنا؟ ابقي معي لتعرفيني على المزيد من الألبومات البنجابية العظيمة، ولنقنع صلاح الدين أخيرًا بشرب الشاي، و...».

أتلعثم في قول دعاء، كانت آنتي قد علَّمتني إياه لأن تشاتشو رفض تعليمي، أقوله بصوت مرتفع ولكنني أخطئ في النطق لأنني مذعورة، ولم أكن انتهيت من نصفه حين ضغطت على يدي بشدة للغاية حتى إنني أفكر للحظة أن كل شيء سيكون على ما يرام، لا يمكن لشخص قبضته بهذه القوة أن يموت.

أضغط بدوري على يدها محاوله منحها القوة، محاولة أن أرد لها كل ما قدمته لي من معروف. *يا رب، خذ لها بضع سنوات، فلست بحاجة إليهم*.

تهمس: «نور. سا... سامحي».

- آنتي مصباح؟ آنتي.

يندفع الأطباء والممرِّضات إلى الغرفة، ويدفعونني إلى الخارج، وحين أنظر إليها ثانيةً، أجد عينيها مثبَّتتين على وجهي.

لكنها لم تعد تراني.

الجزء الثاني

افقد شيئًا كل يوم، وتَقَبَّل الارتباك الناجم عن فقده،
الارتباك لفقد مفاتيحك، لهذه الساعة السيئة التي تمضيها.
فن الفقد لا يصعب إتقانه.

- إليزابيث بيشوب
«فن واحد»

8
مصباح

يناير، حينئذ.

- ماذا تحبين أن تفعلي؟

تحركت يدا توفيق بلا هوادة، يشبكهما، ثم يفك تشابكهما، يعبث بكوب الشاي، ويسحب ربطة عنقه. كان وسيمًا، تؤطِّر رموشه الطويلة عينين بسواد الليل، ويتمتع بعظام خد عالية أخذها من والده هادئ الطباع، رجل شرطة والفرد الوحيد الذي قابلته من عائلته حتى الآن. كان ليرهبني جماله، لكن فضحت يداه الحقيقة.

أخبرته: «أحب أن أقرأ»، وألقيت نظرة خارج الباب إلى أخي فيصل، مرافقنا في هذه النزهة الصغيرة، ولحسن الحظِّ، كان فيصل مشرفًا سيئًا، إذ يهتم بسيارته السوزوكي الجديدة أكثر من اهتمامه بحماية شرف أخته.

قلت: «أحب جمع القصص. كنت أتمنى أن أمتلك مطعمًا أو فندقًا لأجمع قصص كل من يمر من هناك، ولكن... تفضل أمي أن أتزوج».

«لماذا لا تفعلين كليهما؟» أمال توفيق رأسه وابتسم: «تجمعين القصص وتتزوجين؟».

أضاءت أركان عينيه، لكنه كان حزينًا. لقد شعرت بحزنه. ربما إذا تزوَّجنا، ستكشف سنواتنا معًا سببه، وسنتعلم أسرار بعضنا بعضًا. انتابني شعور

بالإثارة حين فكرت في أنه سيكتشفني، يكتشف شخصيتي الحقيقية، مصباح التي حلمت وأملت وحلقت بعيدًا في خيالها.

«ماذا تقرأ؟» أومأت برأسي إلى الكتاب الذي يظهر من حقيبته.

قال توفيق: «ذا يوسمايت (The Yosemite)، لكاتب أمريكي يُدعَى جون موير. أحد زملائي في دراسة الهندسة في لندن أحضره لي من كاليفورنيا، آمل أن أذهب إلى هناك يومًا ما».

مددت يدي لأخذ الكتاب، سامحة لمعصمي بلمس كم قميصه، وفتحته على فقرة محددة بخطوط تحت كلماتها.

قرأت: «كانت جبهة منحدر إل كابيتان (El Capitan) مزخرفة بأشرطة ثلجية طويلة تبدو كالشعر. أما جبل كلاودز ريست (Clouds' Rest)، فكان محاطًا بأغشية طافية من الغزل الرقيق. وفي الأضواء المتوهجة، تلوح قمة هاف دوم (Half Dome) في الأفق كأنها مخلوق حي شامخ».

أخذتني الكلمات إلى هناك. كثيرًا ما تجنَّبت قراءة الكتب باللغة الإنجليزية، على الرغم من إصرار والدي على ضرورة قراءتها، فالإنجليزية تشبه شظايا الزجاج المكسور التي تزين الجدران العالية في الأحياء الغنية، بينما اللغة الأردية موسيقية، كأنها غزل رقيق، مثلما قال هذا الكاتب جون موير.

قلت: «كلاودز ريست[1]، يا له من اسم جميل».

«نعم، جميل». رفع نظره إلَيَّ ثم غضَّه ثانيةً بسرعة، فشعرت بالحرارة في وجهي. اعتقدت أنه سيقول أكثر من ذلك، ولكنه نادى لطلب الشاي فحسب.

«هل...» تحركت يداه مرَّة أخرى. «هل تريدين أطفالًا؟».

فاجأني السؤال، فحتى إذا لم ترد النساء إنجاب أطفال، لطالما اعتقدت أن معظم الرجال يريدون ذلك، بما يكفي لكيلا يهتموا بطرح هذا السؤال. أومأت برأسي.

- وأنت؟

طرق بأصابعه على الطاولة، ونظر إلى مقدِّم الشاي الذي ما زال يخمره لنا، ونظر إلى الناس الجالسين إلى الطاولات الأخرى، نظر في كل مكان ما عدا إلَيَّ.

---

(1) Coluds' rest تعني راحة بين الغيوم.

«أحب والدي، لكنني لست قريبًا من والدتي، وأقلق بشأن –أتساءل– ما إذا كنت سأصبح مثله؟ أم مثلها؟» ضحك توفيق ضحكة حزينة وساحرة. «أنا آسف، من الغباء أن أقول ذلك».

أحضر مقدِّم الشاي شاي «سبز» بالطريقة الكشميرية، كان وردي اللون وممزوجًا باللبن ومرشوشًا بالحبهان مع وفرة من الفستق واللوز المجروشين. لطالما اعتقدت أنه شاي رومانسي، ربما لأنني غالبًا ما شربته في حفلات الزفاف.

خاطرت بإلقاء نظرة خاطفة على فيصل من فوق كتفي، وكان يتفاخر أمام مقدِّم الشاي بشأن صندوق السيارة السوزوكي، متباهيًا ويومئ مقدم الشاي برأسه كتأدية واجب.

أقول: «ما تقوله ليس غبيًّا. ربما إذا كان هذا الأمر يهمك كثيرًا، سيكون دافعًا كافيًا لجعلك أبًا جيدًا».

عندئذ، بدا توفيق محرجًا، ويداه لا تتوقفان كالمد والجزر، فمددت يدي للأمام لأمسكهما، ولأول مرَّة منذ جلسنا، هدأتا.

9
سال

فبراير، الآن

عندما وصلنا، أنا وآبو إلى المقبرة بالسيارة السيفيك، استغرقت عشر دقائق لإيجاد مكان لرَكن السيارة لأن ساحة الانتظار ممتلئة. *آسف لتأخري عن جنازتك آما.*

أتخيل صوتها الدافئ في رأسي، *إذا جئت في موعدك كنت لأعرف أنك dhokay baz*، مدَّعٍ.

على مدار يومين، حاولت استحضار صوت آما. صباح اليوم، بينما كنت أرتدي الشالوار كميز[1] الذي اشترته لي في العيد الماضي، همست لي: *ارتدِ جينز بدلًا من الشالوار، بوتر، ما لم ترغب في أن يظهر كاحلاك.*

ثم مرَّة أخرى عندما شعرت بميل إلى عدم الحلاقة: *أليس لديك أي تمييز؟ إياك أن تجرؤ على الذهاب إلى جنازتي دون أن تحلق.*

جنازة. تؤلمني الكلمة، تجعلني أشعر كأنني أقف على شاطئ يتآكل مراقبًا موجة تندفع نحوي، موجة عالية للغاية فلا يمكن تجنبها بالكامل، ولكنها بطيئة جدًّا بحيث يمكنني أن أدير ظهري لها في الوقت الحالي.

(1) الشالوار كميز هو الزي التقليدي في باكستان ويتكون من قطعتين، بنطلون واسع اسمه شالوار، وقميص طويل اسمه كميز.

أدرك أنني أتصرف كالنعامة، أدرك أنني يجب أن أواجه هذا الموقف المريع، لكنني أيضًا أحتاج إلى أن أتخطى اليوم دون انهيار كامل داخليًّا. يمكنني أن أكتب عن كلمة **جنازة** وما تعنيه لاحقًا. *تَنَفَّس. شهيق لخمس ثوانٍ، وزفير لسبع ثوانٍ.*

يقابلني الإمام شفيق مع آبو عند السيارة، وتكاد الرياح قارسة البرودة أن تُطَيِّر قبعته من فوق رأسه. إنه باكستاني أيضًا، وفي أواخر العشرينات من عمره، ولكنه مسيطر بطريقة مستترة. فقد جاء إلى الموتيل بعد الفجر لأداء صلاة الجنازة معنا أنا وآبو، والآن يشرح لآبو بلغة أردية هادئة ما سيحدث تاليًا.

ينظر والدي -الواعي في الوقت الحالي- إلى الحشد المجتمع، ثم يغمض عينيه لوقت طويل. أكره أنه عندما سيفتحهما، سنكون جميعًا ما زلنا هنا.

وفي الوقت نفسه، تجعلني رؤيته أرغب في أن أحطِّم نافذة سيارة، فهو السبب في أنني لم أكن في المستشفى عندما ماتت آما. بدلًا من ذلك كنت في المنزل، أجره إلى الداخل بعدما فقد وعيه في السيارة، أضعه في السرير، أغيِّر له ملابسه بعدما بلَّلها بالبول لأنه سكر حتى أفقد نفسه الإحساس، وكنت أعرف أن آما ستضربني بالحذاء لو تركته غارقًا في بركة من البول.

«السلام عليكم يا صلاح الدين». تفتح الأخت خديجة، زوجة الإمام شفيق، الباب بجانبي. تبدو بشرتها السمراء الداكنة شاحبة إلى جانب حجابها الأزرق الداكن، وتكشف الخطوط العميقة تحت عينيها أنها تقريبًا لم تنم إلا بقدر ما نمت. «يؤسفني كثيرًا مصابكم». تأتي لهجتها الجنوبية لطيفة مثل العناق، وأشعر بالحرارة في عينَي.

لا تبكِ يا صلاح الدين، فبمجرَّد أن تبدأ لن تستطيع منع نفسك. يوم الخميس، بعدما فشلت نور في الوصول إلَيَّ، طلبت من الإمام شفيق أن يذهب إلى المستشفى، وكانت خديجة من تطوعت لغسل جسد آما وتحضيرها للدفن، إذ تقابلا في مسجد جونيبر الصغير عددًا كافيًا من المرات لتدرك خديجة أن التعاليم الدينية مهمة بالنسبة إلى آما.

أكاد أسأل خديجة ما إذا كانت متأكدة من أن الجسد الذي غسلته هو جسد آما. فعندما وصلت أخيرًا إلى غرفتها بالمستشفى، كان الأنبوب الوريدي قد سُحِبَ، والأجهزة تحيط بها كأنها حراس في حالة حداد، بعدما فشلت في أداء مهمتها للحفاظ على حياتها. وكانت آما راقدة تحت غطاء، وعلى الرغم من

أن سوار المستشفى مكتوب عليه «مصباح مالك»، فهذا الشخص لم يبدُ مثل آما على الإطلاق. كانت صغيرة أكثر مما يمكن استيعابه، متلاشية أكثر مما يمكن تخيله.

ميتة أكثر مما يمكن إدراكه.

أبحث عن نور لكنني لا أراها، فأشعر بحلقي يختنق، إنها الشخص الوحيد على وجه الأرض الذي أحتمل أن أكون قريبًا منه في الوقت الحالي، لقد كانت موجودة بجانب آما حتى النهاية.

بخلافي أنا. أشعر بطعنة من كراهية الذات، وأتماشى معها، فهذا أفضل من الاستسلام للموجة التي تلحق بي.

يكسو العشب الأصفر المقبرة، متفرقًا بين القبور والأشجار القزمة المتباعدة. يقترب مني أشخاص ليخبروني كيف كانوا يعرفون آما: ميكانيكي كانت قد تفاوضت معه بشأن أسعار الإطارات، ومستأجرة سابقة كانت آما قد ساعدتها على الاختباء من حبيبها المدمن على الميثامفيتامين.

وبين الحضور الدكتورة إليس، طبيبة الأطفال التي كنت أذهب إليها فيما مضى، وزوجها ومدير مدرستي الابتدائية. وتلوح لي بحزن راعية آبو في برنامج المحاربين المجهولين[1]، امرأة صارمة تُدعَى جانيس. إنها لم تعد تزورنا منذ فترة طويلة، لكنها كانت تحب آما كثيرًا.

وبينما يلاطف الإمام شفيق أبي ليتقدم نحو القبر، تشق آشلي طريقها نحوي ساحبة تنورتها السوداء عبر العشب. لم أرغب في حضورها، إذ لم تكن آما تعلم أنني أواعد آشلي. كنت قد أعددت حجَّتي استعدادًا لحين تكتشف علاقتنا. *لا يحق لكِ أن تغضبي مني لأنني أقبل فتاة في حين لا تبدين أي اعتراض على شرب آبو للخمور.*

«مرحبًا». ترتمي آشلي عليَّ، فأشعر ببرودة أنفها على عنقي، وأذكر نفسي بأنها قد لمستني مئات المرات. الأمور بخير، أنا بخير، وبينما أحاول التركيز على جسدها أكثر من جسدي، ألاحظ أن ذراعيها ثقيلتان، ورقبتها مرتخية، وتستند عليَّ كأنني الأرض الصلبة الوحيدة في هذه المقبرة. أبتعد عنها بحذر وأهمس في أذنها.

---

(1) برنامج المحاربين المجهولين هو برنامج لدعم مدمني الخمور ومساعدتهم على التعافي.

- آشلي... ماذا أخذتِ؟

- لا شيء. شعرت بألم في ظهري، فالعصعص...

أصيب في أثناء الولادة وفي بعض الأيام يؤلمها ألمًا قاتلًا. لقد أخبرتني بذلك مئات المرات.

بعض مسكنات الألم التي تتناولها آشلي تجعلها متقلبة المزاج، وبعضها تجعلها مسترخية. ومن ثم إذا تركتها، قد تسقط على الأرض، أو تنزعج وتثير ضجة. وتجعلني عدم معرفة أيها سيحدث أشعر بحلقي يجف من القلق.

يكون آبو هكذا في بعض الأحيان، غير مفهوم، غير متوَقَّع. ربما لهذا السبب أرافق آشلي، لأنها مألوفة.

«مهلًا». تضع خديجة يدها برفق على كتف آشلي: «نحن على وشك البدء، ووالد صلاح الدين بحاجة إليه. هلا تقفين معي؟».

وقبل أن تستطيع آشلي الاحتجاج، قادتها خديجة بعيدًا مستغلَّة تلك القدرة السلسة التي لا بد أنها تستدعيها في قاعة المحكمة عندما تدافع عن موكليها. ويرشد الإمام شفيق آبو إلى يساري، فيقف والدي محملقًا في حذائه الأسود غير قادر على رفع عينيه إلى النعش.

عندئذ، يبدأ الإمام كلامه باسم الله، وتميد بي الأرض لأنه يتحدث عن آما باعتبارها شخصًا كان في الماضي، لا شخصًا حاضرًا.

تقترب الموجة. لا يمكنني أن أستمع إلى هذا- إذا استمعت، سأصرخ، أو أنهار، أو أغرق.

لا بد أن هناك طريقة ما للتخلص من هذا بلباقة. يمكنني أن أسد أذني، وأدندن لنفسي. تتوقف ضحكة في حلقي تحرقه، ضحكة مجنونة عالية النبرة مثل ضحكة جولوم في نهاية فيلم سيد الخواتم، مباشرةً قبل أن يندفع نحو الحمم البركانية.

ما هي مشكلتي؟ أنا في جنازة آما. *جنازة آما*. هذا أسوأ اقتران لكلمتين في التاريخ.

ثم أسمع حفيفًا بجانبي، أشعر بدفء صادر عن جسد آخر، وأنظر إلى أسفل لأجد عينَيْ نور الداكنتين، فيكاد شعوري بالارتياح يجعلني أسقط على ركبتي.

تدس شيئًا في يدي، سماعة سوداء لا سلكية ويصعب ملاحظتها. على الأغلب السماعة الأخرى مخفية خلف ستارة من الشعر.

أتظاهر بأنني أحك رأسي وأضع السماعة في أذني تاركًا شعري يسقط فوقها. يعزف جيتار باس، وينضم إليه بعد لحظات صوت عميق، ويغني جوني كاش ويو تو «الهائم».

كانت آما تحب هذه الأغنية. شغلتها لنا نور لأول مرَّة عندما كنت أنا وهي في الثالثة عشرة من العمر في أثناء جلوسنا في مطبخ الموتيل، كنا نتظاهر بأننا نؤدي الواجبات المدرسية ولكن كنا في الحقيقة نسرق قطع شابلي كباب التي كانت آما تقليها.

قالت آما: *إنه هائم، مثلي*. مازحتها حول ما كان جوني كاش ليقوله بشأن امرأة بنجابية محجبة تشارك في غناء أغنية عن قس.

قالت نور: *أراهنك أنه لن يكون لديه مشكلة إذا أعددت له مثل هذا الكباب*. أعود إلى ذلك اليوم، إلى الزبدة الساخنة تفرقع في المقلاة، إلى نكهة البصل ورائحة الثوم، إلى البرودة الرطبة الناتجة عن مكيف الهواء. أعود إلى ضحكات آما وضحكات نور وضحكاتي.

بينما أحدق إلى الجبال الزرقاء البعيدة تشغل نور الأغنية مرة، واثنتين. سأكون سعيدًا لو فقط تستمر الأغنية، لكن الإمام شفيق ينهي خطابه وتغلق نور الموسيقى، فيصبح الصمت وحشًا جاثمًا على صدري، يخنقني ببطء. يُنزَل النعش إلى داخل الأرض، ويؤدي الصوت الصادر عن آبو إلى وقوف الشعر على مؤخرة رقبتي.

لا أعرف ما إذا كنت أومن بوجود الجحيم، ولكن إذا كان للجحيم صوت، سيكون نواح والدك المكتوم عندما يدرك أخيرًا أن حب حياته توضع في الأرض.

يرتعش جسد نور، وتجف عيناي. الموجة في الانتظار، لكنني لن أواجهها، ليس الآن، لن أبدأ في النحيب.

لن يكلفني شيئًا أن أمد يدي إلى آبو، إلى نور، أن أمسك بأيديهما، وأمنحهما أيًّا كان ما لديَّ من قوة.

لكن ذراعَيَّ لا تتحركان، دموعي لا تسقط، وأقف ثابتًا كتمثال، متجمِّدًا لأنني نسيت معطفي، محملقًا في النعش، متسائلًا كيف يمكن لمن كانت ملء السمع والبصر أن تتلاءم مع صندوق بهذا الصغر.

***

بحلول وقت وصول خالي فيصل، شقيق آما الوحيد، وابنه الأحمق أرسلان من لوس أنجلوس لتقديم واجب العزاء، كان آبو ثملًا في هدوء.

جمعنا نحو ثمانية عشر مسلمًا من جونيبر وبعض المدن الصحراوية المجاورة من أجل أداء صلاة المغرب. يرتفع صوت الإمام شفيق بالأذان للصلاة، ويبقى آبو مستقيمًا بصورة مثيرة للإعجاب، لكن عندما يسجد الجميع وتلمس جباههم سجاد الصلاة المتناثر، يغمض آبو عينيه لفترة أطول قليلًا.

وحين ينهض ثانيةً، يترنَّح، فيمد يديه للأمام كما لو أنه على وشك الوقوع، ولكنه لا يقع، ومن ثم يبدو الأمر كأنه يؤدي إحدى الرقصات التفسيرية الغريبة. ويتبادل خالي فيصل وأرسلان نظرة مختلسة. شرب الخمور محرم في الإسلام، أما شرب الخمور مع الصلاة؟ يفاجئني أن الشيطان لا يقف على عتبة الباب.

أحاول ألا أكره آبو، فهو يتألم، أعرف ذلك.

تسير نور بين المصلين، مرتدية شالوار كميز أسود ودوباتا(1) ملفوفًا بإحكام حول رأسها وعنقها، وتضع كرسيًّا قابلًا للطي خلف آبو، ثم تدفعه برفق ليجلس عليه فيتوقَّف عن الترنُّح. وعندئذ، يتنفس ثمانية عشر شخصًا معًا الصعداء، ويكمل الإمام شفيق الصلاة سريعًا.

بعد ذلك، أهرب إلى غرفة التخزين التابعة للمطبخ وأقف هناك في الظلام كمختل عقليًا. أعرف ما سأراه إن شغَّلت الأنوار، سأرى خط آما المثالي، الذي صُقِل في مدرسة بنات في باكستان، باهتًا على شرائط لاصقة أنيقة ملصوقة على الحاويات: مفاتيح، مقابض أبواب، معدات، خيوط. كانت تحب إحلال النظام في عالمها، وعلى الأغلب ورثت منها تلك الصفة.

أخرجت دفتر مذكراتي من جيبي الخلفي. إنه صغير بما يكفي لأحمله في كل مكان، وفوضوي بما يكفي لأكون الشخص الوحيد الذي يستطيع قراءته.

---

(1) الوشاح الباكستاني

لم أكتب في الدفتر منذ ماتت آما لأن ما في رأسي لن يخرج إلا كصرخة، ولن تكون الصرخة آآآآ، بل ستغطي كل سنتيمتر من كل صفحة بحبر أزرق خالص.

يبدو إهدارًا للورق.

لا تتصرَّف بغرابة وعد إلى الداخل. علَّمتني آما الضيافة الباكستانية منذ زمن بعيد، فحتى في قلب بودنك بكاليفورنيا هناك قواعد، وإحداها هي أنك لا تترك عشرات الأشخاص في منزلك يتدبرون أمرهم بأنفسهم أيًّا كانت المناسبة.

في الشقة، تفوح من الزهور الذابلة رائحة كريهة لا مفر منها، ويحوم الجميع في غرفة المعيشة حيث يخدمون أنفسهم لتناول الطعام من الأطباق التي وضعها الإمام شفيق وخديجة. أحدق من نافذة المطبخ الواسعة إلى الجناح الشرقي بالموتيل، وهناك غرفة واحدة مضاءة، الغرفة رقم 4 التي يستأجرها كورتيس فرانكلين، المستأجر الأسبوعي الوحيد لدينا.

وفي منتصف الجناح تمامًا، بين غرفة 3 وغرفة 4، يتوهج باب أزرق تحت الإضاءة الفلورية الساطعة. غرفة الغسيل.

تتقلص معدتي عند رؤيتها وأحول انتباهي إلى الحشائش البارزة من الشقوق في الخرسانة. يجب أن أتخلص منها، فآما كانت تكرهها.

رن الهاتف، صوته صاخب يشتت الانتباه، أمسكت به بسرعة.

- موتيل نُزُل كلاودز ريست، كيف يمكنني مساعدتك؟

كانت معظم المكالمات من باكستان، من أبناء أعمام آما وعماتها وأعمامها، صور مشوشة لوجوه سمراء من المفترض أن أتذكرها بصورة أوضح من زيارتنا الوحيدة منذ عقد. بعضهم غير مصدق لوفاة آما، والبعض الآخر يقولون إن وفاتها بسبب الحسد، وجميعهم يرغبون في الحديث مع والدي.

لكن هذه المكالمة مختلفة. يقول صوت صارم: «مصباح مالك؟ أتصل من مكتب مقاطعة يونا لتحصيل الديون...».

قبل أن أسمع أكثر من ذلك، أغلق سماعة الهاتف، يدق قلبي بعنف، ثم أقفز لأن ابن خالي أرسلان ظهر فجأة بجانبي على غرار أفلام الرعب.

قال: «يا رجل، النُّزُل والموتيل هما الشيء نفسه، ومن ثم عندما تقول «موتيل نُزُل كلاودز ريست» فإنك...».

- لست بحاجة إلى دورس نحو في جنازة والدتي.

قال أرسلان في نوبة نادرة من الوعي الذاتي: «أعتذر، لقد تصرفت بغباء. تؤسفني وفاة آنتي، لقد كانت رائعة، وسيدة لطيفة للغاية».

نعم، كانت آما لطيفة جدًّا، ولذلك حرصت على تقليل تعليقاتها كلما دار الحديث عن أرسلان وعائلته، وكان ذلك أقرب ما وصلت إليه آما من الكلام السيئ بشأن الأخ الذي يعيش على بعد ثلاث ساعات لكن لا يزورنا أبدًا، الذي كان بإمكانه أن يتبرع لها بكليته لكنه رفض على الرغم من أنهما متطابقان.

أخذ أرسلان يثرثر: «... الكثير من الذكريات الرائعة. ذات مرة، جئتم لزيارتنا في العيد...».

أتذكر هذه الزيارة. سرقت منه سيارات السباق الصغيرة «هوت ويلز»، وخبأتها في حقيبة الظهر ولففتها في بيجامتي المتسخة لأنني كنت أعرف أنه لا أحد سيبحث هناك. لم تشعرني تلك السرقات بالذنب قَطُّ، على الأقل حتى أخبرت نور.

لديه غرفتان للعب بالإضافة إلى غرفته الخاصة، إنه حتى لم يَلْحَظ اختفاء السيارات. كنت أدافع عن نفسي أمامها بعدما أريتها السيارات وانزعجتُ لأنها لم تنبهر بكنزي.

لكنك تعرف أنك سرقتها. بدت نور شديدة الارتباك تجاه الخيانة التي قمت بها حتى إنني بدأت أخجل. ولذا في المرة التالية التي ذهبت فيها إلى أرسلان، أرجعت السيارات اللعينة.

أفحص حذاء ابن خالي، إنه حذاء كلاسيكي قبيح دون أربطة بشعار «TODS» بارز مطبوع على الجانب. كان لينسجم مع جيمي. أبتسم وأبحث حولي عن نور، فأجدها تعبث بأطراف شعرها الطويل وتحملق في صورة لآما وُضِعَت منذ شهور قليلة. إنها صورة التقطتها لهما قبل الشجار، كانتا تشربان الشاي مستغرقتان في مشاهدة مسلسل باكستاني.

يبتسم أرسلان لها وأتحرك لأقف في مجال رؤيته.

يستعيد تركيزه ويقول: «إذن، سنة التخرج، أليس كذلك؟ هل اخترت جامعة بعد؟».

كم لأعطي مقابل الحصول على زر لكتم صوت البشر. أقول: «آما ماتت، ووالدي سكير، لن أذهب إلى الجامعة يا أرس-لان»[1].

جاءت السخرية من اسمه كضربة تحت الحزام، كانت آما لتنظر إلي بازدراء إذا سمعتني. وعندئذ، صمت أرسلان فاغرًا فاه.

في تلك اللحظة، دوى جرس الموتيل بأزيز متصل غاضب كأنه لصاروخ أطلقته طائرة دون طيار يسقط من السماء، ولا يسعني أن أبتعد أسرع مما فعلت.

انفتح الباب الواصل بين مكتب الاستقبال وشقَّتنا بهدوء، وخلف طاولة الاستقبال الأمامية المرتفعة، يقف الشاب المقيم في غرفة 11 وينقر بأصابعه بنفاد صبر. لقد أجرت له الغرفة في حالة من الارتباك ليلة أمس، ولم أره منذ ذلك الحين.

- هل يمكنني الحصول على بعض المناشف يا رجل؟ لقد اتصلت نحو خمس مرات.

أحملق وأقول: «مناشف؟» تتشكل عقدة بداخلي، وتنعقد أكثر فأكثر. المناشف في غرفة الغسيل.

«اللعنة، اعتقدت أنك تتحدث الإنجليزية». يجذب الشاب قميصه بعيدًا عن جسده ويتظاهر بأنه يمسح يديه به، ويرفع صوته قائلًا: «منااا-شف؟ من أجل التن-ظيف؟».

«سأتولى الأمر». لا بد أن نور تبعتني إلى هنا، على الرغم من أنني لم أسمعها. إنها قريبة جدًّا لدرجة أنني أجفل، لكنها لا تلمسني، وتمد يدها بجواري لأخذ المفتاح الرئيسي المعلق على خُطَّاف بجانب لوحة تحويل المكالمات، ثم تختفي خارجًا ويلحق بها الشاب من الغرفة 11، فتتراخى العقدة التي تشكلت في معدتي.

أستند على طاولة الاستقبال وأفكر في كل المنتظرين في الشقة.

من المستحيل أن أعود إلى الداخل. أفضل أن أكون مقيَّدًا على قمة جبل وينقر نسر كبدي.

---

(1) يعني النصف الأول من اسمه أحمق.

ونظرًا لأن ذلك ليس خيارًا متاحًا، آخذ سترة والدتي المعلقة بجانب الباب وأذهب إلى الخارج.

يصفعني الهواء البارد، لكنها صفعة جيدة، من النوع الذي تراه في أفلام الغرب الأمريكي الأبيض وأسود حين تخلص أحمق ثرثارًا من حالة هستيريا.

أتجه إلى المسبح خلف مرأب السيارات. كانت آما قد وضعت قفلًا على السلسلة التي تربط البوابة منذ شهور خائفةً من أن يتجول طفل ما ويسقط في المسبح، وتخشخش عندما أرفع نفسي فوقها، فيصدر عنها الصوت الوحيد في هذه الليلة الهادئة قارسة البرودة. أنزل على الأرض الخرسانية، ثم أدلي رجلي في الجانب العميق من المسبح وأنظر إلى أسفل. مع انطفاء الأضواء الكاشفة، أشعر كأنني أحملق في ثقب أسود.

قالت آما في الصيف الماضي: *سنملؤه العام القادم، سأكون بحال أفضل وسيعود آبو إلى العمل، ويمكنك أن تعلمني السباحة أخيرًا.*

في طفولتي، كان المسبح ممتلئًا دائمًا. بدا كحبَّة فاصوليا زرقاء مرحة، أو أثر قدم مارد عملاق. وكنا نقيم حفلات في سبتمبر من كل عام بمناسبة عيد ميلادي. أحيانًا، كانت نور الطفل الوحيد الذي يحضر، ولكن ذلك لم يعنِ لنا إلا أنه لا أحد يشتكي من استخدامنا للوح الغطس كمدفع لإطلاق القذائف، وبعدما نتجفف، كنا نلتهم مثلجات المانجو الهندية التي أعدتها آما باستخدام جهازها القديم لصنع الآيس كريم.

ولكن منذ عام ونصف، بعد بضعة شهور من مرض آما، خرجت لأجد آبو يتمتم لنفسه ويتبول في المسبح. لقد اعتقدت في البداية أنه شخص آخر، لم يخطر ببالي أنه كان مخمورًا لأن على مدار ما أستطيع تذكره من سنوات عمري أوضحت آما أنني غير مسموح لي أبدًا بأن أقرب الخمور.

ساعدتني آما في أخذ آبو إلى الداخل، وأخبرتني طريقتها في تهدئته، وقلبه لينام على جانبه، ووضع دلو بجوار السرير، بأنها قد قامت بذلك من قبل.

بعد ذلك، أفرغنا المسبح من الماء، وأرادت آما أن تصلحه قبل إعادة ملئه، إذ أرادت أن تعالج الشقوق وتدهن المسبح بالكامل بلون أزرق ذي ظلال بنفسجية ليتلاءم مع لون السماء.

يصدر السياج خلفي صوت خشخشة وتقفز نور من فوقه، فأقف لأقابلها.

قالت: «كان الإمام شفيق يبحث عنك. وأعتقد أنني يجب أن أذهب إلى المنزل».

سيضطر الإمام إلى الانتظار. «سأسير معكِ».

تفرغ شوارع جونيبر نحو الساعة التاسعة مساءً، لذا نسير في المنتصف تمامًا بأحد الشوارع، نور على يمين الخط الأبيض، وأنا على يسار الخط. اشتدت الرياح مرَّة أخرى، تجتاح برودتها ملابسنا الرقيقة، وتجلب معها رائحة التراب المختلط بالقطران. ترتجف نور، فأعطيها سترة آما وأقترب منها، وتتلامس ذراعانا، لمسة وجيزة، لمسة كهربائية، لا أستطيع أن أحدد ما إذا كانت تشعرني بشعور جيد أم سيئ، لا أستطيع استيعاب الأمر مطلقًا. أقول لنفسي: *أنت بخير، شهيق لخمس ثوانٍ، وزفير لسبع ثوانٍ.*

تنظر نور إلى أعلى متفاجئة من تلامسنا. ربما تفكر في الطريقة التي تجولت بها أطراف أصابعها على فكي منذ شهور قبل أن تقبلني مباشرةً.

رغبت في تلك القبلة، ورغبت عنها، وأرعبتني. وبدلًا من أن أحاول شرح ذلك، صحت فيها قائلًا إنها تدمِّر صداقتنا. لا أفهم لماذا انفجرت بتلك الطريقة إلا لأن هناك غرابة بداخلي، وعندما قبلتني استفزت تلك الغرابة حتى صارت كلحن لا يمكنني تحمله. مكتبة سُر مَن قرأ

قالت حين ابتعدنا كثيرًا عن الموتيل: «أتعرف، كنت غاضبة منك جدًّا».

- لقد استحققت ذلك.

«نعم، استحققته». وتنظر إلى أسفل إلى يدينا تكادان تتلامسان. أفكر في أخذ يدها بيدي، ليكون اعتذارًا نوعًا ما، فحين يتعلق الأمر بنور، لديَّ الكثير مما يجب أن أعتذر عنه. لكنها تدس يدها في جيب سترة آما، وفات الأوان. كانت لتدعوني آما «Darpok»، **قط جبان**.

- انظري... بشأن الشجار...

قالت: «دَع الحديث عن الشجار يا صلاح الدين، فآنتي لم تكن لتريد أن يفكر فيه أي منا الليلة».

«حسنًا... ما أخبار طلبات الالتحاق بالجامعات؟» استخدمت طريقة خرقاء لتغيير الموضوع، ونظرت نور إلي بارتياب مبتسمة ابتسامة طفيفة.

- ألم تهن ابن خالك عندما تحدث عن الشيء نفسه؟

- لقد استحق ذلك.

اتفقت معي قائلة: «إنه مريع. لقد ظل يتحدث عن مجموعة ساعات اليد التي يمتلكها، ثم طلب مني رقم هاتفي».

أئن باشمئزاز وأسألها: «ماذا قلتِ له؟».

- قلت له إنه 968-273-3685.

لاحظت حيرتي، فضحكت نيابةً عن كلينا. «تهجئة جملة «أنت شخص كريه»، وإن كنت لا أتوقع أن يفهمها يومًا ما».

بعد بضع ثوانٍ، نبطئ خطانا إذ أصبح منزل عمها على مرمى البصر. يقع في منطقة سكنية بجوار مساحة شاسعة من الصحراء الخالية، منخفض وباهت مثل كل شيء في جونيبر، ويلقي مصباح مضاء في الغرفة الأمامية بقعة من الضوء على حوض زهور ذابلة. لم أمر من هناك منذ شهور، لكن اللافتة المكتوب عليها **احذر من الكلب** التي علقها رياض منذ سنوات لردع اللصوص لا تزال معلقة، ولكن لا يوجد كلب بعد.

أقول: «شكرًا على كل ما قمتِ به اليوم». تلقي نور نظرة على الباب الأمامي، وتنحني كتفاها في رضوخ كما لو أنها تسمع توبيخ عمها بالفعل. رياض هو النقيض لآما، فهو بارد وتحليلي ويذكِّر نور دائمًا بأنها ستواصل العمل في المشروع العائلي بعدما تنهي الدراسة الثانوية. لقد عرفته منذ طفولتي، ومع ذلك كلما يراني –أو آما أو أبو– يبدو كما لو أنه شم جثة ماعز متعفنة.

في الأحوال العادية، أسير مع نور حول المباني السكنية لبضع مرات، لكن اليوم بكامله يضغط على عقلي، وأصبحت الموجة الآن عالية للغاية، قريبة للغاية.

قالت نور: «اتصل بي أو راسلني إذا احتجت إلى أي شيء. لا تظل وحيدًا وسط أفكارك، فأنا هنا و...» تعبث بالخرز على ردائها، أظفارها مطلية باللون الأسود، ولم أكن قد لاحظتها من قبل. «كل تلك الأشياء من العام الماضي منسية، اتفقنا؟» تحاول أن تبتسم، لكنها بالكاد تنجح في ذلك. «لست بحاجة إلى القلق من أن أقول أو أفعل شيئًا... يشعرك بعدم الارتياح، فقد تجاوزتك».

«بالتأكيد. حسنًا». قلتها بسرعة جدًا، متجاهلًا وخزة الإحباط في معدتي. وحين أنظر إلى أسفل إليها، لا تلتقي عيناها عيني، ولكنني لا أمانع ذلك. وللحظة، أفكر في أن أعانقها، لكنني خائف مما يمكن أن أشعر به حينها.

أقول: «إذا كان لكلامي قيمة، فإنني آسف جدًا».

لم أستغرق وقتًا طويلًا لأعود إلى شارعي، وعندما يظهر الموتيل في الأفق، أقف، لأنني عندما أذهب إلى الداخل لن يكون هو البيت، فآما لن تكون في انتظاري، لن أجد في انتظاري إلا فوضى متبقية من العشاء، وملاءات يجب تنظيفها، ووالدي فاقد الوعي.

ولاحقًا حين لا أستطيع النوم، حين أنهض من السرير في الثالثة صباحًا لأتجول في المنزل كظل، لن أسمع خطوات آما قادمة تجاهي، ولن أرى وجهها مضيئًا في الظلام.

شاي، بيتا[1]؟ كانت لطيفة جدًا عندما سألتني. *أعد كوب لنفسي وليس من الممتع أن أشربه بمفردي. تعال، سأخبرك قصة امرأة ذات قلب من فضة وياقوت سرقت غرفة بأكملها أمام أعيننا.*

آما، أكره الشاي.

كانت تقول: *أعرف، لكنني أحتفظ دائمًا بالأمل.*

ومع ذلك لم يساعدها الأمل. لقد أملت في ألا يكون آبو سكيرًا، وأملت في أن تتحسن حالتها. لكن في الواقع، كان الأمل استراتيجية فاشلة.

أجلس في منتصف الشارع، وتغرقني الموجة متدفقة من عيني بسرعة شديدة فلا أستطيع أن أرى. لقد اعتقدت أنني سأكتب عن اليوم في النهاية، أنني سأرتب أفكاري وأعبِّر عن ألمي بالكلمات، لكنني الآن أدرك أنني لن أفعل ذلك، لا أستطيع ذلك. فاليوم شبح عنيد سأقيده في أعماق عقلي، وسيرتبط إلى الأبد برياح صحراوية قارسة البرودة وأسفلت متسخ ووحدة عميقة للغاية يجب ألا توجد في هذا العالم.

في الشهور الأخيرة، حين ازدادت حالة آما الصحية سوءًا، وحين استوعبت أخيرًا مرضها، فكرت: *آما ستموت يومًا ما، وكل ما كان يتعلق بها في أي وقت مضى سيموت معها، طريقتها في المشي بسرعة، والدقيق في شعرها حين*

(1) تعني «بني» في اللغة الأردية.

تعد الخبز، والخطوط على جبهتها حين تصرخ في لفعل شيءٍ غبيٍّ، وطبق الباراثا الذي تطبخه كل سبت صباحًا، ورائحتها التي هي مزيج من الحبهان ومنظف باين سول (Pine-Sol) وكريم مرطِّب.

لقد توقَّعت أن تجعلني مثل تلك الأفكار مستعدًّا لوفاتها. لم تفعل ذلك.

سأنجو من هذا، سأعيش، لكن بداخلي ثقبًا لن يُملَأ أبدًا. ربما لهذا السبب يموت الناس عندما يتقدمون في العمر. ربما كان بإمكاننا أن نعيش إلى الأبد لو لم نحب بكل كياننا هكذا، ولكننا نحب هكذا، وبحلول سن الشيخوخة، تملؤنا الثقوب، ثقوب كثيرة جدًّا حتى إننا لا نستطيع أن نتنفس، حتى إن ما بداخلنا لم يعد ينتمي إلينا، ونصبح مجرد فراغ كبير ينتظر أن يملأه الظلام، ينتظر أن يصير حرًّا.

10

مكتبة نور
t.me/soramnqraa

عندما كنا أنا وصلاح الدين في العاشرة من العمر، اقتحمنا مكتب تشاتشو في الجزء الخلفي من المنزل. كنت أعرف أنني ينبغي ألا أدخل إلى هناك، لكن صلاح الدين جعلني شجاعة.

أو غبية.

لقد قرر أن تشاتشو لديه مخزون من شوكولاتة كيت كات كبيرة الحجم، قال إنه رأى ذلك في الحلم. لم نعثر على حلوى، لم يكن هناك سوى أكوام من الورق والمظاريف إذ احتفظ تشاتشو بكل البريد الذي استلمه في حياته، على رف المكتبة، إلى جانب أسطوانات ديبيتش مود وبيكسيز وسنوب دوج، وجدنا كتب رياضيات. فتحت أحدها، وكانت الصفحة مغطاة بملاحظات دقيقة وألوان باهتة لتحديد الفقرات.

سبب لي وجودي هناك شعورًا مروعًا، كما لو أنني لصة.

وغمرني مثل هذا الشعور في منزل آنتي مصباح، فينبغي ألا يُطبَخ الطعام الباكستاني ما دام آنتي مصباح ليست هنا لتوبخني من أجل أن أتذوقه، ولا تبدو الصلوات حقيقية من دون أن تمازحني لأربط وشاحي بإحكام شديد، مثل جدة ريفية *ذات شعر رمادي تشعر بالقلق على عفتها* كما اعتادت أن تقول.

كان الوجود في الموتيل من دونها خاطئًا، مخالفًا للطبيعة.

وضعت سماعات الأذن، سأدخل منزل تشاتشو بعدما أسمع أغنية، أغنية واحدة فقط. أجد أغنية فرقة سيجور روس «بلا عنوان 8#» (Untitled #8)، إنها تستغرق نحو اثنتي عشرة دقيقة.

بينما أقف في ظلام الشرفة، أشاهد النجوم وأفكر في أنني لم أرَ والدَيَّ يموتان قَطُّ، فأنا بالكاد أتذكرهما.

أعتقد أنني إلى أن رأيت نعش آنتي، كان جزء طفولي بداخلي يأمل في أن والدَيَّ ما زالا على قيد الحياة، يعيشان في منزل أبيض من الطوب على بعد عشرات الآلاف من الأميال، يتناولان الطعام في فناء المنزل، ويتنهدان عندما تنقطع الكهرباء، ويرسلان أحد أقاربهما لتشغيل المولد. ينتظرانني في قرية مفقودة إلى الأبد.

لكن اليوم، الجنازة، النعش، ذكراني بما هي حقيقة الموت: لا رجعة فيه.

لقد طبخت آنتي مصباح لي كفتة على نار هادئة عند حصولي على امتياز في اختبار. علمتني لماذا كانت «ullu da patha» –ابن البوم– الشتيمة البنجابية المفضلة لديها. أخبرتني عن الاستماع إلى المغنية الأسطورية نور جيهان في صباها. *كان صوتها قويًا جدًّا حتى ظننت أنه قد يشق روحي نصفين، ربما أطلق عليكِ والداكِ اسم نور تيمُّنًا باسمها، ولذلك السبب تحبين الموسيقى.*

كل ما رفض تشاتشو أن يفعله لأنه باكستاني أكثر من اللازم، هي فعلته لأنه باكستاني.

لكنني لم أزُرها حين كانت بحاجة إلَيَّ، وكل ذلك بسبب شجار غبي مع صلاح الدين.

هناك بعض الأشياء في الحياة لن أستطيع التعويض عنها أبدًا، ومن بينها تجنب الإنسانة الوحيدة في هذا العالم التي أحبتني كأنني ابنتها.

تبدأ أغنية «اضرم النيران في الحانة الثالثة» (Set the Fire to the Third Bar) لفرقة سنو باترول، تنطلق أنغام الجيتار، ثم ينضم إليه البيانو، ويغني رجل وامرأة عن البعد والحنين. أضع المفتاح في القفل وأفتح الباب ببطء، فبينما بروك لا تستيقظ بسهولة، تشاتشو نومه خفيف.

– نور.

أجفل، وأسرع في إغلاق الموسيقى. يجلس تشاتشو في غرفة المعيشة، حيث يبرز شعره البني فوق ظهر الأريكة، ويعمل التليفزيون في الخلفية بصوت منخفض. يلتفت وتظهر ملامح وجهه من الجانب، فيومض وجه أبي في رأسي، وأحاول أن أتمسك به.

أشعر بألم في صدري. أشتاق إلى... شيء ما. مكان؟ شخص؟ لا أتذكر الكثير من حياتي قبل الزلزال، لا أريد أن أتذكر، فهذه الذكريات توقظني في منتصف الليل، تخدعني لأظن أنني ما زلت محاصرة في تلك الخزانة، في قريتي قديمًا.

لكن هذه الذكرى ليست هكذا، إنها ذكرى دافئة، لحلوى اللودو في حفل زفاف، وصرير سرير من الحبال بينما أنام في حضن جدتي، ومطاردة دجاجة هزيلة عبر الفناء، ولون شيشة جدي الأخضر الهادئ، وصوت طفل أصغر، أخ؟ أخت؟ ابن عم؟

لا أعرف. لن يخبرني تشاتشو بأي شيء، ولم يبقَ أحد في باكستان يمكنني أن أسأله، فالقرية دُمِّرَت، وقتل الزلزال جميع سكانها ما عداي.

تتلاشى الذكرى، وأشعر بفراغ، ذلك الفراغ الذي يدفعني إلى غرفة المعيشة مع تشاتشو، ذلك الاحتياج إلى النظر إلى إنسان آخر تجمعني به صلة الدم. يضع تشاتشو الجريدة التي يقرؤها جانبًا، وأسمع في الخلفية أغنية «لا تأتيني مجدَّدًا» (Don't Come Around Here No More) لتوم بيتي. لقد كان ألبوم أفضل الأغاني (Greatest Hits) لفرقة ذي هارتبريكرز هو أول ألبوم يشغِّله لي بعدما انتقلت لأعيش معه. قال لي: «سيساعدك على تعلم اللغة الإنجليزية»، وربما ساعدني في اللغة، لكن ما تعلمته منه أساسًا هو أن الموسيقى يمكن أن تكون بمنزلة بيت أكثر من أربعة جدران وسقف.

«كيف كانت؟» يعيدني صوت تشاتشو إلى الحاضر. يريد أن يعرف عن الجنازة.

- حزينة، لكن جاء الكثير من الأشخاص.

- ولم يخفهم الترتيل والانحناء؟

كان من الأفضل أن أذهب إلى غرفتي. أقول: «لقد حضروا الدفن ولم يبقوا للصلاة».

«لكنك بقيتِ». يقف تشاتشو، يغلق الموسيقى ويلقي الجريدة غير مطوية.

أبقى هادئة، ثابتة.

«لا أفهم لم تؤمنين بذلك الهراء». عادةً ما تكون لكنته غير ملحوظة، لكن عندما أسمعها، من الأفضل أن أختفي، مثلما هو الوضع الآن، إلا أن المغادرة في بعض الأحيان تزيد الأمور سوءًا، لذا أبقى، وأحاول ألا أغضب. لقد قالت لي آنتي مصباح قبل وفاتها «سامحي».

أحاول أن أسامح.

سألني تشاتشو: «هل تفهمين حتى ما يقولون باللغة العربية؟ إنه رجعي وغير منطقي يا نور». هز رأسه خائب الأمل: «كما قال كارل ماركس ’الدين زفرة الإنسان المقموع، إنه أفيون الشعوب’، وكانت مصباح تحث عليه لأنها ساذجة».

يجب أن يدافع أحد عن آنتي مصباح، فأقول: «ليس الإيمان سذاجة. عرفت آنتي أن الصلاة تحسن شعوري، عرفت أنها تقلل اشتياقي إلى باكستان».

ضحك تشاتشو: «لو نشأت في باكستان، لكنتِ رغبتِ في مغادرتها. لقد عاشت عائلتنا في كوخ، وذهب جدك إلى المسجد كل يوم لأداء الصلوات الخمس كلها، أكثر الرجال تدينًا في ’العلاقة’ (ilaqa)[1] كلها...».

وأكمل تشاتشو: «كل يوم يعتمر العمامة البيضاء حريصًا أن تكون مستقيمة تمامًا، إنه حتى بدا كأنه قديس، وماذا كسب من كل ذلك؟ كوخ حقير انهار فوقه وقتل كل من أَحَبَّهم».

ما عداي.

يصدر صرير من باب في نهاية الممر. بروك تستمع، لكن تشاتشو لا يلاحظ.

- تعرفين أننا وجدناهم معًا، العائلة كلها، والداي يحيطان بذراعيهما بعضهما بعضًا، ووالدك يمسك بالمصحف في يده. كان بإمكاني أن أخبره بأن كتابًا لن يمنع سقوط «jhompri» مبني من الطين والأمل.

أحاول أن أتذكر ماذا تعني jhompri، منزل؟ كوخ؟ لا أسأله، فتشاتشو لا يتحدث أبدًا عن عائلتنا، لا صور، لا فيديوهات، لا قصص، وهذا أكثر ما

(1) تعني «المنطقة» بالأردية.

شاركه معي على الإطلاق. ما يقوله يؤلمني، لكنني لا أرمش لأنني أريده أن يقول المزيد.

قال تشاتشو: «كان يختلف معي، والدك، لأنني أردت أن أفعل شيئًا ذا قيمة في حياتي. كان...»

صار تشاتشو هناك الآن، في تلك اللحظة، على بعد سنوات وأميال، مع أخ أكبر لم يرض عنه. يضم قبضتيه، ثم يفتحهما، ثم يضمهما.

ثم يفتحهما.

وأتنفَّس ثانيةً.

«أحتاج منكِ إلى أن تعملي بالفترة الصباحية بأكملها». يستدير نحو غرفته. «يجب أن أسجل في الفصول الصيفية غدًا، وسأعود عند الظهر».

عادةً ما أعمل يوم الأحد حتى الساعة العاشرة فقط، لذا لديَّ مقابلة هاتفية مع جامعة بنسلفانيا غدًا في الساعة 11:45، ولا أريد أن أطلب تحديد موعد آخر، لكنني أيضًا لا أريد أن أتخيل وجه تشاتشو إذا دخل عليَّ في منتصف المقابلة.

«لقد وعدت، امم، جيمي بأننا سنراجع، نراجع مقال اللغة الإنجليزية غدًا صباحًا». تكمن البراعة في اختيار شخص سمع اسمه من قبل، لكنه لن يلتقيه.

استدار نحوي، ببطء.

- علَّمتك مصباح الكثير جدًّا، لكنها لم تعلِّمك أن الكذب خطأ؟

في نهاية الممر، ينغلق باب غرفة بروك وتشاتشو. وآخذ خطوة للخلف.

تشاتشو هو السبب الوحيد لوقوفي هنا.

كنت في السادسة من عمري عندما تعرضت قريتي في باكستان لزلزال. قاد تشاتشو السيارة لمدة يومين من كراتشي لأن الرحلات الجوية إلى شمال البنجاب كانت متوقفة. وعندما وصل إلى القرية، زحف فوق أنقاض منزل جدي وجدتي، حيث كان والداي يعيشان أيضًا، وبحث بين الأحجار بيديه العاريتين، بينما أخبره العاملون في خدمات الطوارئ أن ما يفعله لا فائدة منه.

لقد دُميت راحتا يديه، ونُزِعَت أظفاره، كان الجميع ميتًا، لكن تشاتشو واصل الحفر، فقد سمع صوت بكائي وأنا محاصرة في خزانة. أخرجني من هناك، وأخذني إلى المستشفى ولم يفارق جانبي قط.

درس تشاتشو الرياضيات والهندسة في الكلية، وحصل على فرصة تدريب في موقع مرموق بمركز الأسلحة في جونيبر. كان متميِّزًا بالفطرة، ولكنه تخلَّى عن كل شيء في عمر الواحد والعشرين فحسب لأنه كان مضطرًّا إلى رعايتي.

هذا هو تشاتشو، لقد أنقذني.

يُغلَق الباب الأمامي بعنف. لقد ذهب الآن، وتظهر بروك. تسير بالطريقة نفسها التي كانت تسير بها عندما انتقلت إلى هنا منذ سنوات، كأنها تتفادى زجاجًا مكسورًا.

التقت تشاتشو في المتجر في يوم سبت بعد شهور قليلة من وصولي إلى أمريكا. كان حبيبها آنذاك قد ألقى عليها زجاجة Duggan's في موقف السيارات، فصرَخْت عندما فعل ذلك، واتصل تشاتشو بالشرطة.

سارت بروك متعثرة إلى داخل المتجر، أطول من كلينا، وكتفاها منحنيتان بسبب وظيفة بدوام جزئي في دائرة إدارة المركبات، وعيناها خاويتان بسبب سلسلة من الأحباء القذرين.

مسح تشاتشو الدم عن وجهها وطهر الجرح. وفي نهاية الأسبوع التالي، أحضرت تشيز كيك سادة لتعبر عن امتنانها. وبعد عام، تزوجا في المحكمة، بينما كنت في المدرسة.

ولا تزال عيناها خاويتين.

لم تكن علاقتنا وثيقة قَطُّ، لكنها أحيانًا تترك لي هدايا، مثل ملمِّع الشفاه من نكس الذي وجدته أمام باب غرفتي منذ بضعة أسابيع، وحقيبة تي شيرتات من Goodwill. وحين يذهب تشاتشو إلى لوس أنجلوس من أجل شراء مخزون للمتجر، نحضر أنا وبروك فشارًا، ونشاهد فيلمًا، لكنها لا تتحدث كثيرًا، لم تفعل ذلك قَطُّ.

مرت بروك، وبهدوء تطوي الجريدة، وتسوي غطاء مصباح مائل، وتأخذ طبق تشاتشو الذي به شطيرة أُكِل نصفها إلى الحوض.

أذهب إلى غرفتي. ذراعي ورأسي يؤلمانني. أسمع خطوات خارج غرفتي فأتشنج.

«هذه أنا». تدخل بروك وتغلق الباب خلفها، ثم تستند عليه متنقلة من قدم لأخرى.

- أتلقيتِ خطابك منذ بضعة أيام؟

خطاب الرفض من جامعة فرجينيا. أدرك الآن أننا لم نتحدث منذ يوم وفاة آنتي. «نعم. شكرًا لكِ لإعطائي إياه».

- هل فتحتِه؟

- لم أُقبَل في الجامعة إذا كان هذا ما تسألين عنه.

تومئ بروك برأسها. إنها لا تضغط عليَّ أبدًا لأتحدث. في بعض الأيام، أتمنى لو أنها تفعل ذلك.

- هل يمكنك أن تطلبي من الجامعات أن تتواصل معك عبر البريد الإلكتروني؟ لا أريد أن يرى عمك أحد تلك الخطابات.

- إنه لم يتفقد البريد منذ ما يقرب من عقد.

«أعرف، ولكن للاحتياط في حالة قام بذلك». وعندما لا أجيب، تخطو إلى الأمام وتقول: «هل أنت...».

بخير؟ حزينة؟ خائفة؟ أيًا كانت الكلمة التي تريدها، لا تجدها، فتهز رأسها هزة صغيرة وتغادر. أوصد الباب خلفها وأخرج خطاب جامعة فرجينيا.

أتخيل أنني أراسل آنتي مصباح. *جاءني خطاب رفض الأسبوع الماضي، وأنا حزينة للغاية.* كنت لأتسلل من نافذتي وأسير لخمس عشرة دقيقة إلى الموتيل. وكانت لتنتظرني وفي يدها آيس كريم. كانت لتقول: «Ben aur Jerry tay ter-reh chang-ay tay pehreh vakth tay prah vah». **بن وجيري[1] هما أخواكِ، في الأوقات الجيدة والسيئة.**

لكن «أخوَي» ليسا هنا الآن، وليست آنتي مصباح هنا. لا بد أن تكون غرفتي -حيث ملصقاتي للمجرات البعيدة التي أفضل أن أعيش فيها وكتب الأحياء التي أحفظها عن ظهر غيب- كافية لي.

أمزق الخطاب إلى قطع صغيرة وأفكر فيما قالته لي آنتي مصباح.

---

(1) «بن آند جيري» هو اسم الشركة الصانعة للآيس كريم الذي تحضره لها.

أنتِ أفضل من هذا المكان. تستحقين أكثر من هذا المكان.

يجب أن أغادر هذا المكان، من أجل آنتي، من أجل نفسي، يجب أن أحقِّق شيئًا. لم أنجُ من زلزال وأتعلم اللغة الإنجليزية وأفقد كل شيء وأعيد بناء كل شيء لكي أتعفن في جونيبر. ينتظرني شيء أفضل. لقد آمنت آنتي بذلك، لذا أحتاج إلى أن أومن به أيضًا.

أضع سماعات الأذن وأغمض عيني بينما تغني أني دي فرانكو عن «قفزة البجعة» (Swan Dive)، عن كيف أنها لا تحتاج إلا إلى محاولة -فرصة واحدة صغيرة- لتجعل من نفسها شخصًا ناجحًا.

أنتِ أفضل من هذا المكان. تستحقين أكثر من هذا المكان.

انتهيت من جامعة، ويتبقى ست.

11
سال

كانت آخر مرَّة بكيت فيها كأن روحي تُنتَزَع مني، منذ سنوات، حين شاهدت مع نور وآما هذا الفيلم الذي كانت آما تحبه في طفولتها، القصة التي لا تنتهي «The Never Ending Story». في أحد مشاهد الفيلم يوجد حصان اسمه أرتاكس يغرق ببطء في مستنقع، بينما يحاول الخيال أن يسحبه للخارج دون جدوى. كان مشهدًا وحشيًّا، وفقدت السيطرة على نفسي.

لقد نسيت كيف يفرغك البكاء من الداخل، يخلصك من كل الهموم، ويدعك ترى كل شيء أوضح.

حين وصلت إلى البيت، لم أكن أشعر بتحسن تمامًا، ولكن فقط أشعر برغبة أقل في أن ينتزعني إعصار مدمر ويدفعني في الفضاء.

ومع ذلك، حين أرى آشلي تستند متراخية على باب مكتب الاستقبال، تعبث الرياح بشعرها، أعيد التفكير في ذلك الشعور. تقترب مني لتعانقني، وأنا مرهق لدرجة تمنعني من أن أخطو بعيدًا.

على الرغم من ارتجافي عند اقترابها، فإنها تحضنني بشدة. عندما بدأنا نتواعد، أدركت آشلي بسرعة جدًّا أنني لست جيِّدًا في التعامل مع اللمس، فأخبرتها بأنني مصاب بالألم الخيفي.

بحثت عنه على هاتفها وعرفت أنه «حالة حادة تصيب الأعصاب، يشعر المريض بها بالألم الناجم عن محفزات غير مؤلمة في الحالة العادية».

لست مصابًا بالألم الخيفي، وقول إنني مصاب به أمر سيئ لأن هناك أشخاصًا مصابين به بالفعل ويعانون، لكنه الشيء الوحيد الذي يقنع الناس بالابتعاد عني. فما هي الطريقة الأخرى لتفسير أن أحضان آما تجعلني أشعر كأنني في البيت، في حين أشعر بأنني أتعرض لهجوم إذا ربت شخص غريب على كتفي؟ كيف أفسر أنني حين لمست نور ذراعي اليوم مرت به كهرباء بأفضل طريقة ممكنة، بينما يمكن لاحتكاك في ملعب كرة القدم أن يشعرني بالغثيان؟ وأنني إذا لمست شخصًا آخر بالخطأ، لا أبالي، لكن إذا فعل أحدهم الشيء نفسه، أريد أن أطلقه بمدفع إلى طبقات الغلاف الجوي العليا؟

إنه ليس منطقيًّا بتاتًا، ولذا أدَّعي الإصابة بالألم الخيفي.

في النهاية، لم أعد أستطيع التحمل فأبتعد عنها. أسألها: «أين كايا؟».

«في البيت مع أمي». أصبحت عينا آشلي متيقظتين الآن بعدما انتهى أثر أيًّا كان ما أخذته هذا الصباح. «هل أنت بخير يا سال؟».

أخذت خطوة للخلف. لا بد أنها تعرف إجابة ذلك.

عندما لا أقول أي شيء، تقترب مني ثانيةً، لكنني أتجنَّبها وأجلس على مقعد من الحديد المطاوع وضعته آما خارج المكتب. إنه أنيق بصورة غريبة غير منسجمة مع قوالب الطوب المطلية بالأبيض، وأشجار الورد الذابلة بسبب الشتاء على الجانبين.

- آشلي، هل أخبرتِ آرت بأن أمي مصابة بالسرطان؟

قالت: «نعم. اعتقدت أنه لا بأس في ذلك، فهو ابن عمي...».

قلت: «لم تكن مصابة بالسرطان، بل كانت تعاني مرض الكلى المزمن. السرطان متقلب، تستطيعين أحيانًا التغلب عليه، وأحيانًا لا تستطيعين. لكن كان يمكن لآما أن تبقى بصحة جيدة لو أنها فقط استراحت وذهبت إلى جلسات الغسيل الكلوي، لكنها لم تفعل ذلك».

- لماذا... لماذا لم تذهب؟

قلت: «كان لديها الكثير لتقوم به في الموتيل. العلاج مكلِّف جدًّا، وليس لدينا تأمين صحي. كان ينبغي لي حملها على الذهاب، وكان ينبغي لآبو مساعدتها في الموتيل، وكان ينبغي لخالي الحقير التبرع لها بكلية، لكن لم يفعل أي منا ما كان ينبغي له فعله».

قالت آشلي: «ربما كان العلاج يؤلمها، وكانت خائفة».

لا أعرف، ولن أعرف أبدًا. لم أتحدث مع آما بما فيه الكفاية. لم أستمع إليها.

قالت: «مهلًا. أمك، كان لديها وصفة طبية للمسكنات، أليس كذلك؟».

قلت: «بلى. لماذا؟».

- هل... هل تمانع إذا...

آه. *آه*. أشعر بالحيرة لثانية، لكنني أفهم بعد ذلك.

قالت عندما رأت النظرة التي على وجهي: «لقد انتهت وصفتي الطبية، وظهري حقًا...».

«ما هذا الجنون يا آشلي؟» قرأت ذات مرَّة في مجلة أنك يجب ألا تنفصل عن شخص أو ترتبط بأحد بعد مواجهة حدث يمثِّل نقطة تحول بارزة في حياتك، لكن أيًّا كان من كتب ذلك، فعلى الأغلب لم تطلب منه حبيبته مسكنات والدته في يوم جنازتها.

يحتدم بصدري الغضب تجاه آشلي، لكن أشعر بأنه أكبر من ذلك، أنا غاضب من آبو بسبب طريقته في البحث عن النسيان بداخل زجاجة، وغاضب من آما لعدم استماعها إلى أطبائها أو جسدها، وغاضب من نفسي لعدم إنقاذها.

«نحن... أنا لا أستطيع فعل هذا». بمجرد أن أقول ذلك، أشعر بأنني أهدأ، بأنني مسيطر على الوضع. «لا يمكنني ملاقاتك بعد الآن».

تحملق آشلي فيَّ كأنني أتحدث بلغة مختلفة. يرن هاتف المكتب، ويرن ثانيةً. غالبًا فقد آبو وعيه. إذا كان نائمًا على ظهره، فمن الممكن أن يختنق إذا تقيأ. نعم، آبو مكتئب، وسكير، لكنه ما زال والدي ولا أريد أن أفقده هو أيضًا.

أحاول كسر الصمت: «يجب أن أعتني بأبي، وأساعده على إدارة هذا المكان. والالتزام بعلاقة بالإضافة إلى كل ذلك...».

- يمكنني مساعدتك.

- لقد كنتِ مخدَّرة هذا الصباح.

«وأنت كنت أحمق يا سال». تلقي بجسدها على المقعد ثم تنهض مرَّة أخرى ثائرة. لم نكن معًا منذ وقت طويل، لذا لم أتوقع أن تشعر بالانزعاج لهذه الدرجة. «لم تردني أن أقف معك. لم ترد أن يراني والدك».

كان آبو محطَّمًا للغاية حتى إنني أعتقد أنه لم يكن ليلاحظ آشلي لو دقت ناقوسًا أمام وجهه.

قالت: «كل ما أردته هو ألا تشعر بأنك وحيد، وأنت تعاقبني على اهتمامي».

رن الهاتف مرَّة أخرى. أرى السيارة السيفيك في المدخل، لكن من المحتمل ألا يكون آبو في البيت. ربما أُلقِي في زنزانة المخمورين، أو ربما صدمته سيارة.

أشتاق إلى آما بضراوة تؤلم صدري. كيف لم يفقدها القلق عقلها؟ يوم واحد فقط، وأريد أن أنتزع شعري.

بقيت صامتًا لوقت طويل أكثر من اللازم، لذا قلت لآشلي: «يجب أن أذهب». تبدو حزينة للغاية فيتلاشى غضبي منها، وأسألها: «هل ستستطيعين الذهاب إلى بيتك؟».

«كأنك تهتم». تلتقط آشلي هاتفها عن المقعد، وتتجه إلى سيارتها الموستانج التي تلقي بظل باهت على الطريق. عندما تصل إليها، تلتفت نحوي.

قالت: «أنا سعيدة لأنني لم أعرِّفك على كايا. لا تستحق أن تلتقيها».

إنها محقة، لكن قبل أن أستطيع قول ذلك، تغلق الباب بعنف.

أنتظرها لتقود سيارتها ثم أفتح باب المكتب. إنها عادة اكتسبتها من آما. *لا تدخل إلى بيتك مرَّة أخرى إلى أن يكون ضيفك في طريقه إلى بيته.*

بالداخل، يعُمُّ شقَّتنا الظلام والهدوء باستثناء صوت شخير آبو، وأشعر بالراحة لسماعه، فعلى الأقل ما زال على قيد الحياة.

نظف الإمام شفيق وخديجة المكان وأزالا كل شيء ما عدا الزهور. ومُلِئَت الثلاجة بطعام يكفينا لأسابيع، لكنه تذكِرَة بهذا اليوم، وأعرف أنني لن أتناول أيًّا منه.

من غير المحتمل أن أنام، لذا أفتح الأنوار وأشقُّ طريقي إلى مكتب آما حيث انقلبت كومة من الفواتير وتظهر من تحتها دباسة لا تعمل إلا إذا ضحَّيت لها أولًا بعلبة كاملة من الدبابيس.

يكمن مصير هذا المكان -ومصيرنا أنا وأبو- في تلك الكومة.

ربما يجب ألا يعنيني هذا الأمر، فلولا كلاودز ريست، ما كانت آما أجهدت نفسها في العمل دون توقف، وكان ليُجبَر آبو على تحسين سلوكياته والحصول على وظيفة.

والآن بعدما رَحَلت، فإنه لن يدير هذا المكان، وحتى لن يحاول. وإلى أين سيقودنا ذلك؟ لقد استمعت إلى آما تعرب عن قلقها بشأن الفواتير بما يكفي لأدرك أننا لا نمتلك مدخرات، وأننا كنا بالكاد نصمد كل شهر.

آخذ الفواتير إلى المطبخ وأضعها على الطاولة الخشبية التي صارت ناعمة بعد سنوات من الاستخدام. وفي الخارج، أرى الجناح الشرقي من الموتيل مضاءً بإضاءة خافتة. كانت آما قد زرعت نوعًا من النباتات ذات صلابة عجيبة في صناديق النوافذ بكل غرفة، وتسقط الأضواء الكاشفة على أوراقها الخضراء الداكنة فتبدو زرقاء.

اسق الزهور. قبل ساعات قليلة من الموت وذلك ما كانت تفكر فيه، لأنها كانت تعشق كلاودز ريست. عندما كان العمل بالموتيل جيِّدًا، أحبت الحديث مع الناس الذين مرُّوا من هنا: العلماء الذاهبين إلى القاعدة العسكرية، أو المتنزهين المتحمسين لزيارة وادي الموتى، أو الفنانين الباحثين عن إلهام. لقد كافحت لسنوات من أجل تحويل كلاودز ريست إلى شيء تفتخر به.

لا يمكنني أن أخسر هذا المكان، ليس بعدما خسرتها. ففي النهاية، لم أدفع آما إلى الحصول على راحة أو أصحبها إلى جلسات غسيل الكلى، لم أفعل أي شيء لإنقاذها. لقد خذلتها. لكن بإمكاني إنقاذ كلاودز ريست. بإمكاني ضمان ألا يذهب ما بذلته من دم وعرق ودموع في هذا المكان سدى.

عثرت على سكين زبدة وبدأت في فتح أظرف الفواتير. وبينما أجمع كل شيء على هاتفي، أشعر بالغرفة تنكمش. فبالإضافة إلى أننا متأخرون ثلاثة أشهر عن دفع أقساط سيارتنا، هناك فاتورة الكهرباء، وفاتورة الغاز، وفاتورة المياه، وفواتير المستشفى، وفواتير الهواتف المحمولة، وفواتير بطاقة الائتمان.

ولكن صفحة واحدة فقط هي ما تجعلني أتفصَّد عرقًا.

بنك الاتحاد الأول بالصحراء

607 شارع سبارفيلد الشمالي

جونيبر، كاليفورنيا 99999

إلى السيدة مالك،

نود إعلامك بأنك متأخرة عن سداد أقساط قرض العمل التجاري. فاعتبارًا من يوم 28 يناير، ستكونين قد تخلَّفتِ 60 يومًا عن السداد، وفي حالة العجز عن توفيق أوضاع حسابك عن طريق دفع المبلغ المستحق وقيمته 5,346.29 دولار بالكامل بحلول 15 أبريل، ستتحملين رسومًا مالية بالإضافة إلى فقدان عملك التجاري، وذلك بالحجز على كل الأصول المرتبطة بالعمل التجاري المعني.

يطول الخطاب، ولكن لا يهم سوى شيئين: ندين بأكثر من خمسة آلاف دولار للبنك. وإذا لم نسدد في غضون عشرة أسابيع، سنخسر كل ما عملت آما من أجله.

12
نور

أحب فتح المتجر يوم الأحد، فالساعة السادسة صباحًا متأخرة جدًّا بالنسبة إلى المحتفلين ليلًا، ومبكرة جدًّا بالنسبة إلى الآخرين.

أشعر ببرودة قارسة في الداخل لأن تشاتشو أبخل من أن يشغِّل المدفأة في الساعات الخمس التي يُغلَق المتجر خلالها، ومن ثم أتحرَّك سريعًا لكيلا تتجمَّد يداي، أرفع الستائر، وأشغل الأضواء الفلورية، وأفتح ماكينة تسجيل المدفوعات، وأملأ ماكينة الثلج، وأعيد تعبئة رفوف الحلوى والمشروبات الغازية والبقالة.

أنا نفسي لكنني لست نفسي، كأنني أشاهد شخصًا آخر من مسافة بعيدة. ماتت آنتي مصباح منذ أكثر من أسبوع، وتلاشى الشعور بالصدمة متحوِّلًا إلى ذهول، لكن الحزن حيوان أعرفه، لقد تراجع في الوقت الحالي، لكنه سيعود.

يردد تشاك دي أغاني الراب في أذني، مما يجعل العمل يمر أسرع، وبحلول وقت تحول الصحراء بالخارج إلى لون ذهبي مائل للزرقة من صنع أشعة الشمس، أشعر بالدفء، فقد اشتعل السخان الأزلي. أذهب لأقف وراء طاولة البيع وأفتح حاسوبي الشخصي. ستبدأ مقابلة جامعة بنسلفانيا -التي أعدت تحديد موعدها بعدما ألغيتها في الأسبوع الماضي- الساعة 11:30 صباحًا، أي بعد أقل من ست ساعات من الآن.

ألقي نظرة على الأسئلة التحضيرية: *ما المشروع الذي تعملين عليه في الوقت الحالي ولا يتعلق بمجال الدراسة الذي ترغبين فيه؟*

النجاة من سنة التخرج؟ محاولة التوقف عن حب صديقي المفضل سابقًا؟ الحداد على المرأة التي كانت أقرب ما لديَّ لأم؟

مقال اللغة الإنجليزية، الوحش ذو الصفحات الخمس عشرة الذي يجب تسليمه في نهاية السنة، سيكون كافيًا لإجابة السؤال.

مع أنني لا أستطيع أن أتحدث عن المقال دون كتابة جزءٍ منه. تريد منا السيدة مايكلز أن نحلل قصيدة، واخترت قصيدة «فن واحد» لإليزابيث بيشوب لأن أول عبارة أعجبتني.

حسنًا، نوعًا ما. لقد اخترتها خصوصًا لأنها قصيرة.

لكنها أيضًا غريبة. تتعلق بوضع الأشياء في غير مكانها وفقدها، مثل المفاتيح والمنازل. كيف بحق السماء تضع منزلًا في غير مكانه؟ أقرأ القصيدة للمرة العاشرة حين يرن الجرس بأعلى الباب.

أظن للحظة أنها آنتي مصباح. قبل الشجار، كانت تأتي كل أحد صباحًا، في يدها الشاي، ومستعدة لمشاهدة Dilan dey Soudeh والجدال بشأن موسيقى نصرت فاتح علي خان. (الحكم النهائي: أنا أحبه، وهي تسميه «النائح»).

«Slmnr, bta.». إنه عمي توفيق، وأستغرق لحظات لأترجم التمتمة. **سلام، ابنتي نور.** أضغط زر الإيقاف المؤقت لفرقة Public Enemy وألقي نظرة على الساعة، فأجدها السابعة صباحًا.

إنه يبدأ مبكِّرًا.

يعثر على بيض وحليب وخبز. وعندما يتخطَّى النبيذ والبوربون، أشعر بارتياح، إلى أن يلفت شيء نظره ويبطئ خطاه.

بالله عليك يا عمي، واصل السير.

يقف لإضافة زجاجة ويسكي Old Crow إلى مشترياته. أكاد لا أراه يمسك بها لأنه سريع جدًّا، كأنه إذا أخذها بسرعة، فربما لم يأخذها حقًّا. يضع كل شيء على طاولة البيع مخفيًا زجاجة الخمر في الوسط.

فعلت الشيء نفسه منذ بضعة أسابيع حين اشتريت كريم أساس من صيدلية CVS. أعتقد أنني كنت أرجو ألا يرى الناس ما أمام أعينهم مباشرةً إذا دفنت ما أشعر بالخجل منه.

تومض شاشة الماكينة عندما أمرر بها بطاقته الائتمانية. تصريح... تصريح... تصريح...

أقول: «آسفة يا عمي. إنها بطيئة».

أشغل نفسي بتعبئة كل شيء. في الخارج، تهب عاصفة رملية وتخدش الباب الزجاجي. يطرق عمي توفيق بأصابعه على الطاولة، ثم على جيبه.

تصدر ماكينة بطاقات الائتمان صوت تنبيه، وتومض **مرفوضة** على الشاشة.

البقالة ثمنها ثمانية دولارات، ويضاف عليها أحد عشر دولارًا ثمن زجاجة الخمر، وحتى لا أريد أن أبيعه خمورًا، فكلما يشرب، تصبح حياة صلاح الدين أصعب.

لكن الخزي صعب أيضًا، وبخاصَّة عندما تكون محطَّمًا بالفعل. أتخيل عمي يخرج من هنا دون زجاجة الخمر متجهًا إلى «روني ديز» (Ronnie D's) حيث تُرفَض بطاقته ثانيةً، فيصاب باليأس، ويسرق الخمور.

سألني عمي توفيق: «هل... هل هناك مشكلة في البطاقة؟».

قلت: «لا توجد مشكلة». يجرد تشاتشو المخزون كل أحد ليلًا، ولا يهتم بغير الكحوليات. أكره الكذب، كما لا أجيده، لكن يمكنني أن أرسل له رسالة بعدما أغادر أخبره فيها أنني سكبت زجاجة Old Crow في أثناء التنظيف.

يتمتم عمي توفيق مودِّعًا ويغادر. أراقبه إلى أن يختفي خلف الشقق منخفضة الإيجار المجاورة للمتجر. طالما كان هناك شيء محزن في شخصه، حتى قبل أن يبدأ في شرب الكحوليات بكثرة. كما قد يقول صلاح الدين، لقد رأى الكثير من صعوبات الحياة.

أتساءل ما الذي رآه.

باقي أقل من خمس ساعات حتى موعد مقابلتي، لكن تركيزي معطَّل. أحملق في قصيدة «فن واحد»، وأقرؤها بصوت عالٍ على الرغم من شعوري بالغباء لفعل هذا، وحين أبدأ أخيرًا في فهمها، يرن جرس الباب الأمامي مرَّة أخرى.

وهذه المرة، أشعر باضطراب في معدتي. إنه صلاح الدين، وبغباء لا يرتدي إلا تي شيرت وجينز وحذاء تشاك تايلور متشقِّقًا عند الإصبع، على

الرغم من أن درجة الحرارة بالخارجة ثمانية تحت الصفر. عيناه حمراوان، ويحيطهما ظلال كما كانا طوال الأسبوع. أعتقد أنه هو أيضًا لا ينام.

«لم أكن أعرف أن ذوي البشرة السمراء يمكن أن يتحولوا إلى اللون الأزرق». أمد يدي إلى معطفي، لكنه سيلائم إحدى ذراعيه فقط، لذا ألقي إليه بشال كنت قد حشرته في حقيبة الظهر بدلًا من المعطف. «أتبحث عن والدك؟».

«لا». يسدِل صلاح الدين الشال علَيَّ. «أعرف أن آما اعتادت زيارتك كل أحد، فظننت أنك ربما تودين صحبة».

أجذب سماعات الأذن التي أسمع بها أغنية «اصرخ إذا كنت تسمعني» (Holler If Ya Hear Me) بصوت عالٍ.

«لدي توباك من أجل الصحبة». يا إلهي. ما مشكلتي؟ فأضيف بسرعة: «يسعدني وجودك هنا». لم نتكلم كثيرًا منذ الجنازة، فهو لم يعد إلى المدرسة إلا يوم الجمعة.

رفع صلاح الدين رأسه، وحاول أن يبتسم. أريد أن أخبره بأنه ليس مضطرًّا إلى فعل ذلك، بأنه إذا لم يرغب في أن يبتسم ثانيةً قَطُّ، سأتفهم، لأنني كنت في السادسة من العمر عندما مات والداي وما زلت أشعر بالألم.

- ما الذي تعملين عليه؟

«ذلك المقال الغبي عن الشعر. أنت على الأرجح أنهيته بالفعل». اللغة الإنجليزية هي المادة الوحيدة التي يهتم صلاح الدين ببذل مجهود فيها.

أعترف: «نعم. لكن السيدة مايكلز تريد مني أن أشارك في مسابقة ما لكتابة، قصة من خمسة آلاف كلمة مستوحاة من أحداث حقيقية». وضحك دون ابتسامة. «اسمحي لي أن أرى ما وصلت إليه».

التف حول طاولة البيع، ومال فوق كتفي: «'في قصيدة «فن واحد» لإليزابيث بيشوب، تُقدَّم الخسارة باعتبارها...'. نور، هذا مبني للمجهول».

أكاد أقول: *لا أحتاج إلى مساعدتك، فأنت انتزعتها مني وكنت بخير من دونها.*

عندما أستدير، أجد وجهه قريبًا من وجهي، قريبًا جدًّا، بشرة سمراء، ناعمة بصورة غير عادلة، وخصلات داكنة تسقط فوق عينيه. لم يكن بهذا القرب مني منذ فترة طويلة. أفتقد ذلك.

أقول: «لا أفهم الشعر».

«كل ما تستمعين إليه شعر. هيا، أنا بحاجة إلى تشتيت انتباهي». يأخذ حاسوبي الشخصي مني ويكتب، فتصير العبارات المبنية للمجهول مبنية للمعلوم، ويملأ الصفحة بملاحظات واقتراحات.

طالما أحببت مراقبة صلاح الدين وهو يكتب، إذ ترتسم على وجهه نظرة تركيز كأنه يرقص تانجو مع الكلمات في رأسه. وذلك يطمئنه، يساعده على إحلال النظام في عالمه.

تتحرك يداه الكبيرتان على لوحة المفاتيح، وأفكر في كيف أنني لن أمسك بتلك اليدين، في أنهما لن يداعبا وجهي أو أي جزء آخر مني أبدًا، وأشعر بالحزن لذلك.

لكنني لا أنظر بعيدًا، فهما أكثر جزء فيه أحبه.

ينتقل إلى الفقرة التالية ويهز رأسه. يبدو... مصدومًا، لكن ليست تلك الكلمة الصحيحة، فالكلمة التي أبحث عنها من كلمات اختبار SAT، من كلمات صلاح الدين.

مشدوه.

- نور، كيف تتمكنين من الصمود في هذا الفصل؟

قلت: «وكيف تصمد في حساب المثلثات، من دون أن أشرح لك المعادلات التربيعية؟».

«شربت دماء وحيد القرن[1]». يواصل النقر على لوحة المفاتيح مارًّا بفقرتين وتاركًا المزيد من الملاحظات. «وحققت المرجو منها أيضًا، على عكس هذه العبارة. هل نحتاج إلى مناقشة الفواصل مرَّة أخرى...».

قلت: «حققت نتيجة لأنك أكثر ذكاءً من أن تكون في ذلك الفصل. أمك...» أتوقف عن الكلام. يطفو شبح آنتي مصباح في الهواء، ويبدو صلاح الدين مرهقًا فجأة.

«كفاكِ يا نور». بالكاد أستطيع سماعه. «ما الضرر في أن تكون الفصول التي أحضرها سهلة؟ المدرسة آخر ما أستطيع التركيز عليه الآن».

(1) في الأساطير لدماء وحيد القرن قدرات سحرية ويمكنها علاج الأمراض.

قلت: «أوه، يا لك من مسكين. والداي متوفيان أيضًا، كلاهما، أتتذكر؟ لا تراني أتكاسل».

هز رأسه، ها هي ذي تلك الكلمة مرَّة أخرى، مشدوهًا. أضم ذراعَيَّ متقاطعتَيْن أمام صدري، غير مستعدة للتراجع، ويثبِّت عينيه الداكنتين علَيَّ. تعبيراته دافئة لكن بطريقة لم أرها قَطُّ، وأشعر بوجهي ساخنًا أكثر مما يجب أن يكون.

ارتسمت على شفتيه ابتسامة: «افتقدتك يا نور».

«وأنا أيضًا افتقدتك». أحملق لأسفل في الشريط اللاصق على مقدمة حذائي من دكتور مارتينز. «مع أنني لا أفتقد حسك الفكاهي الغريب. دماء وحيد قرن؟ حقًّا؟».

***

بقي صلاح الدين معي في انتظار المقابلة، وأشعر بالامتنان له لأن بحلول الساعة 11:27، تتعرق راحتا يدَي وتؤلمني رأسي. ليس من المتوَقَّع أن يصل تشاتشو قبل 12:30، لكنني أنظر خارجًا كل عشر ثوانٍ لأطمئن أنه لم يأت مبكِّرًا.

قلت لصلاح الدين: «إذا جاء أي شخص بينما أتحدث على الهاتف، ماطله فحسب».

قال: «يمكنني أن أرعبهم ليهربوا، أو أصرخ بأن هناك فأرًا، لا أحد يحب الفئران».

- لا... لا يا صلاح الدين، لا تفعل ذلك. اسرد عليهم قصصًا. أخبرهم كيف حصل كلاودز ريست على اسمه. وإذا وصل تشاتشو إلى هنا مبكِّرًا...

«لا تقلقي». أشار لي صلاح الدين بالذهاب: «أنا معك. سأرسل لكِ رسالة».

وبعد خمس ثوانٍ، في تمام الساعة 11:30، رن هاتفي.

يصيح صلاح الدين وأنا أجري نحو الحمام: «حظًّا سعيدًا». أدفع السماعات في أذني، وأغلق الباب بعنف، ثم أجيب.

- هل معي الآنسة نور رياض؟

يبدو صوت المحاورة هادئًا للغاية، يكاد يكون ضجرًا.

أتنحنح وأقول: «إنها أنا. أنا هي. أعني...» *حقًّا يا نور؟*

- مرحبًا. نعم، نور رياض معك.

«آنسة رياض، يسعدني أننا أخيرًا وجدنا فرصة للتواصل، فأنت امرأة يصعب إيجادها»، وتضحك، ضحكة تنطق بعبارة «أنا مستاءة». أمسح راحتي على بنطالي الجينز.

قلت: «أنا آسفة. أعمل في عمل عائلتي التجاري، وساعات العمل غير متوقَّعَة».

«ما هو هذا العمل التجاري؟ لا أراه مذكورًا...» أسمع حفيف أوراق، وتكتكة قلم.

- امم. أعمل في متجر عمي للكحوليات.

طال الصمت لفترة حتى إنني أظن أنها أغلقت الهاتف. «م... مرحبًا؟».

- هل من القانوني أن تعملي في متجر كحوليات إذا لم تبلغي الحادية والعشرين؟

«نعم، سيدتي». أشد ضفيرتي بعصبية وأجبر نفسي على التوقف. «العمر القانوني هو خمسة عشر عامًا ما دام ليس في حانة».

- فهمت. وهذا هو العم نفسه المسَجَّل أنه وصيٌّ عليكِ؟

«نعم، إنه الوصيُّ علَيَّ. هل هذا ذو صلة؟» لا أقصد أن أنفعل، لكن لماذا تهتم بمَنْ ربَّاني؟ إن ذلك ليس من شأنها.

«معذرةً». أحث نفسي على الهدوء. «لم أقصد...».

قالت المحاورة: «أعتقد أن صلته واضحة يا آنسة رياض، وبخاصَّة بالنسبة إلى شخص يسعى إلى أن يكون طبيبًا. الطبيعة مقابل التربية؟ تؤثر كيفية تربيتك وسبب تربيتك بتلك الطريقة على شخصيتك. وشخصيتك هي أحد العناصر الأساسية التي أستجوبك عنها في هذه المكالمة».

«بالتأكيد». *هل قالت لتوها إنها تستجوبني؟*

- لأكون صريحة معك يا آنسة رياض، لقد شعرنا ببعض الحيرة بشأن طلب الالتحاق الذي قدَّمتِه. العديد من الطامحين إلى الالتحاق بجامعة بنسلفانيا ممتازون في الدراسة وحفظ الحقائق عن ظهر قلب، تقديراتهم جيدة، ونتائجهم في الاختبارات جيدة. لكننا نبحث عن طلَّاب يمكنهم المساهمة في المشهد الفكري لجامعتنا. نريد شرارة الإبداع

والفضول. وبما أن الكتابة تساعدنا على تكوين فكرة عن ذلك، يعتبر المقال أهم جزء في طلب الالتحاق، لكن مقالاتك كانت... غامضة. لذا، بالعودة إلى عمك...؟

«توفي والداي في طفولتي». آمل أنها لا تستطيع سماعي أصر على أسناني. «واعتنى بي عمي».

- حسنًا، يوضح سجلك الأكاديمي مدى الجهد الذي بذله عمك في نشأتك. لماذا لا تخبرينني بشأن...

قلت: «لم يبذل عمي أي جهد في نشأتي. إنه حتى لا يريدني أن أذهب إلى الجامعة». لماذا أخبرها بهذا؟ يجب أن أصمت.

لكنني لا أعرف كيف أفعل هذا. في البداية تطفلت على أموري الشخصية، والآن تضع افتراضات بشأني.

«كل الأشياء الجيدة في سجلي الأكاديمي حدثت لأنني منضبطة». *بهدوء يا نور، باحترافية.* «لأنني أريد أفضل مستقبل ممكن لنفسي. لكن عمي يريدني أن أعمل هنا في متجر الكحوليات لما تبقى من حياتي. لا يريدني أن أصبح طبيبة أو أي شيء حقًّا...».

- لقد ذكرتِ معتقداتك في مقالك يا آنسة رياض. أنتِ مسلمة؟

تقولها «**موز-ليم**». أقول: «أنا مسلمة. لكن عمي ليس مسلمًا، وحتى لو كان مسلمًا، فلا يتعلق الإسلام بالقمع، والعديد من المسلمات...».

عمك وصل. الغي المهمة.

الغي المهمة.

أسقطت الهاتف عندما ومضت رسالة صلاح الدين. اللعنة.

قالت المحاورة: «آنسة رياض، لا يمكن أبدًا أن أفترض ذلك. لقد ذكرتِ في بيانك الشخصي الإيمان باعتباره مكونًا رئيسيًّا في حياتك، وأحاول أن أتعرف عليكِ بصورة أفضل».

أخبرته بأن معدتك تؤلمك. إنه متجه نحو الحمَّام.
أنهي المكالمة.

أحذف رسائل صلاح الدين بجنون، فتضغط إبهاماي على كل الأيقونات ما عدا سلة المهملات.

«نور؟» يقف تشاتشو أمام باب الحمام.

وفي سماعات الأذن، المحاورة أيضًا تنادي اسمي: «آنسة رياض، هل أنتِ هنا؟».

قال تشاتشو: «ماذا تفعلين؟ هل أنتِ...».

لا أقول أي شيء للمحاورة، لا أفسر الموقف، فقط أغلق الهاتف وأضع السماعات في جيبي.

ينزلق مقبض الباب تحت أصابعي، وأفتحه لأجد أن صلاح الدين قد تبع تشاتشو.

قال صلاح الدين: «أخبرتك... أخبرتك بأنها مريضة». يبدو كذبه واضحًا لأي شخص أمضى معه وقتًا. لحسن الحظِّ، تشاتشو لم يمضِ معه وقتًا قط.

قلت: «آسفة تشاتشو»، ولست مضطرَّة إلى التظاهر بالمرض لأن المقابلة كانت سيئة لدرجة أنني أرغب في الانهيار على الأرض. «لا... لا أشعر أنني بخير».

نظر تشاتشو إلى الهاتف مضيِّقًا عينيه: «مع من كنتِ تتحدثين؟».

- لا أحد.

أمسك بالهاتف وفتح المكالمات الحديثة. لا أجرؤ على النظر إلى صلاح الدين، وهو يعرف تشاتشو بما فيه الكفاية ليظل هادئًا. ومع ذلك، أشعر بالاستياء يغمره. لم يحب تشاتشو يومًا، والكراهية متبادلة بينهما.

«من هذا؟» يرى تشاتشو رقم هاتف المحاورة. «كنتِ تتحدثين معه منذ دقيقة».

قلت: «هذه... هذه ممرِّضة في مستشفى جونيبر. ظننت أن بإمكانها تشخيص حالتي، وهذه المكالمة معها».

رفع تشاتشو رأسه مقَيِّمًا للموقف، ثم اتصل بالرقم ووضعه على مكبر الصوت.

لا تجيبي. لا تجيبي. *أرجوك يا إلهي، أرجوك*. إنه دعاء يائس طائش، من النوع الذي لأتجاهله لو كنت إلهًا.

رن الهاتف، وواصل الرنين، وأخيرًا تتحول المكالمة إلى بريد صوتي غير مخصص.

أعتقد أنه من الجيد أنني لست إلهًا.

أغلق تشاتشو المكالمة حائرًا، ثم وضع ظهر يده على جبهتي، فتنحل عقدة في صدري. *إنه يصدقني*.

تدخل صلاح الدين قائلًا: «يمكنني... أخذها إلى المنزل»، فينظر إليه تشاتشو نظرة حادة قبل أن يومئ بالموافقة.

قال: «حسنًا، دون انعطافات عن الطريق المباشر. واطلبي من بروك أن تعد لكِ حساء».

اختفى متجهًا إلى مقدمة المتجر، وأتبع صلاح الدين إلى سيارته بالخارج. لقد دمَّرت للتو فرصتي في جامعة بنسلفانيا بعد تلك المقابلة الكارثية.

لكنني أشعر بارتياح بالغ لأن تشاتشو لم يمسك بي وأنا أحاول الالتحاق بها حتى إنني لا أستطيع حمل نفسي على الاهتمام بما حدث.

13
سال

بعد جنازة آما بأسبوعين، اكتشف معظم دائنيها رقم تليفون الموتيل، ومن ثم توقفوا عن الاتصال المستعر بهاتفها المحمول -الذي أغلقته في نهاية المطاف- وبدؤوا يتصلون بكلاودز ريست.

مرارًا،

وتكرارًا،

وتكرارًا.

- هل سترد على الهاتف؟

ألقت نور سماعات الأذن على كتاب الرياضيات، ويندفع منها صوت كورال فتيات مثير للشجن. شعرها منسدل، لكنها تدلك أعلى رأسها عندما تحل مجموعات المسائل، لذا يتشابك شعرها لأعلى مشكّلًا قرنًا صغيرًا، أمسك نفسي قبل أن أمد يدي لتسويته.

أصبحت تأتي يوميًّا بعد انتهاء عملها في متجر الكحوليات. نجلس في مكتب الاستقبال لأنني لا أريدها أن ترى الفوضى في الشقة، أو آبو تفوح منه رائحة الخمر، أو حقيقة أنه أدار جميع صور آما لتواجه الحائط.

أريد فقط أن تعود الأمور إلى ما كانت عليه بيني أنا ونور. لا أريد أن أخطئ إلى الحد الذي يدفعها إلى ألا تتحدث معي مرَّة أخرى أبدًا.

«صلاح الدين». تطرق نور بقدمها على أسفل حذائي الرياضي: «الهاتف».

«تجاهليه». أفتش الأدراج تحت طاولة الاستقبال، إذ يجب أن أستبدل نحو عشرين مصباحًا محترقًا لم يتسن لآما أن تستبدلهم، لكنني لا أستطيع العثور على مخزونها وسط أسلاك الإيثرنت الاحتياطية وأكوام الصابون وحامل النباتات المعلق المصنوع من المكرمية.

توقف الهاتف عن الرنين. ثم يومض بعد ثانية، مما يعني أن شخصًا جديدًا يتصل ويسمع رسالة التحية المسجلة بصوت آما: «شكرًا لاتصالك بموتيل نُزُل كلاودز ريست. للاتصال بمستأجر، يُرجَى الضغط على رقم الغرفة ثم علامة الجنيه. وللاتصال بمكتب الاستقبال، يُرجَى الضغط على رقم اثنين. وللحصول على الاتجاهات...».

يبدأ رنين الهاتف مرَّة أخرى، ويرتفع معدل ضربات قلبي.

قلت لنور: «إنها مجرد مكالمات آلية. لستِ مضطرة...».

يخشخش سوار نور عندما تمد يدها لتمسك بالهاتف. تسقط أشعة الشمس على وجنتها، فتتلون بلون أسمر ذهبي داكن. غالبًا ما تخفي نور وجهها، أو تحاول القيام بذلك، فتبقي قُصَّتها فوق عينيها ورأسها لأسفل، وتحتفظ بابتساماتها لنفسها أو لقلة من الناس المحظوظين بما يكفي ليروا إحدى هذه الابتسامات.

قالت لي: *لقد تجاوزتك.*

ومن ثم توقف عن التحديق إليها أيها الأحمق.

يمر كل ذلك في رأسي في لحظات، وعندئذ تلتقط سماعة الهاتف. «موتيل نُزُل كلاودز ري...».

يبدأ الشخص الذي على الطرف الآخر في الحديث فورًا. أستطيع سماع كلمات «مالك» و«متأخر» و«إجراء قانوني» قبل أن تنهي نور المكالمة. ثم تجد جرس الهاتف وتغلقه.

قلت: «اتركيه يعمل، فأحيانًا يتصل أشخاص من أجل معرفة الأسعار».

«يمكنهم معرفتها على الإنترنت». تجلس مرَّة أخرى، وبينما تبرم بيدها الشعر بقمة رأسها تمعن النظر فيَّ، كأنني مسألة حسابية لا تستطيع حلها.

ثم أخيرًا تسألني: «ما مدى سوء الوضع؟».

- الأمور على ما يرام. لقد أجَّرت غرفتين ليلة أمس، ودفعت فاتورة الهواتف المحمولة صباح اليوم.

- قال ذلك الدائن إنكم مدينون بثمانمائة دولار مستحقة عن فواتير اشتراك الإنترنت المتأخرة وإنهم على وشك إيقاف خدمة الواي فاي. وأنت لم تعد تشغل التدفئة. ربما يجب أن تناقش مع والدك بيع...

- لن أبيع كلاودز ريست. كانت آما تحب هذا المكان، وأقل ما يمكنني القيام به هو أن أحاول الإبقاء عليه. كان هذا حلمها.

«لكن ما هو حلمك يا صلاح الدين؟ ما الذي تريده؟» عندما ترى تعبيرات وجهي تميل للأمام مثبِّتة عينيها الداكنتين على عينَي، فأحبس أنفاسي لأنني أشعر بقوة في نظرتها. «إذا كان بإمكانك أن تفعل أي شيء؟ أن تكون أي شيء؟ ماذا سيكون؟».

أجيب لاهثًا: «لا... لا أعرف». عندما كنت طفلًا، أردت أن أكون ليونيل ميسي. ثم لفترة من الزمن أردت أن أكون مدرِّسًا. ثم... لا شيء. أردت حياة طبيعية، نظامًا، سيطرة. أردت أن تتحسن حالة آما. أردت أن يتوقف آبو عن شرب الخمور.

وأخيرًا قلت: «أحب الكتابة. لكن لا يمكنني فعل أي شيء بذلك، فكل ما أفعله هو كتابة مذكراتي».

قالت: «لا يعني ذلك أنك لا تستطيع أن تفعل أي شيء بالكتابة، فمسابقة الكتابة التي تريد منك السيدة مايكلز المشاركة فيها تقدم جائزة، ليست بالكثير ولكن...».

- كنت أفكر في الحصول على وظيفة.

- كيف ستدير هذا المكان إذا كنت تعمل وتذهب إلى المدرسة؟

قلت: «أبحث عن شيء بعد المدرسة، وتقدمت للعمل في بعض الأماكن. قالت الفتاة في مطعم Java House إن لديهم وظيفة شاغرة».

بينما كنت أملأ استمارة التقديم، تجول آرت بريتمان بجانبي، ممسكًا بمشروب يكلف ثمانية دولارات في يده، ومنتعلًا حذاء جوردن جديد. *مفلس، ألست كذلك؟ لقد كنت في الوضع نفسه يا رجل. ولكن هناك طرقًا أخرى للحصول على مال.*

قلت: «اسمعي، لا داعي للقلق بشأن ذلك». تفهم نور ما يعنيه أن تكون مفلسًا، أن تتعجب من الطرق التي يبذر بها الفتية الأغنياء في جونيبر أموالًا تكفي لثلاثة أشهر من الإنترنت أو عشرات الرحلات إلى جودويل. ومع ذلك أشعر بالإحراج لمعرفتها بمدى سوء الحال الذي تركت آما الموتيل عليه. أكره فكرة أن تراني نور غير قادر على معالجة مشكلاتي بنفسي.

أبحث عن أي شيء لتغيير الموضوع، وألاحظ اختلافًا طفيفًا في لون بشرتها عند الفك، الخط الفاصل لكريم الأساس الذي تضعه.

فأقول: «مهلًا. ما هذا المكياج؟».

«لا يمكنني أن أضع مكياج؟» يتصلب جسدها. «لم يكن لديك مشكلة عندما قامت آشلي بذلك».

- لا... يبدو جيِّدًا. لست معتادًا عليه على ما أعتقد.

«حسنًا، إنني لا أضعه من أجلك، لذا لا أعرف لماذا تهتم بالأمر». تقف نور وتجمع كتبها. *سال، أيها الغبي*.

قلت: «أنا آسف. أرجوكِ لا تذهبي. لم أقصد أن أزعجك...».

«لم تزعجني». تمنحني ابتسامة شديدة الزيف لدرجة أنني أجفل. «تقترب الساعة من الثامنة، ويجب أن أعود إلى المنزل على أي حال، أنت تعرف تشاتشو».

تلقي تحية «السلام-عليكم» سريعة من فوق كتفها ثم تختفي، ويتلاشى صوت تروس دراجتها تك-تك-تك في الليل البارد.

بينما أقلد نفسي أضيء المصابيح الخارجية: «ما هذا المكياج؟ يا لك من غبي يا صلاح الدين».

ينفتح الباب الخارجي ويصرخ الجرس. *أرجوك يا إلهي، ليكن عميلًا*.

ألصق ابتسامة على وجهي: «مرحبًا في كلاودز ريست...».

«أبحث عن مصباح مالك». يقف رجل أكبر سنًّا ذو بطن كبير وشارب يشبه ذيل السنجاب أمام طاولة الاستقبال. الباب مفتوح خلفه وأسمع الزئير القوي لشاحنة ديزل.

- إنها... آه... إنها توفيت.

تذمر الرجل: «نعم، لم أسمع ذلك العذر من قبل. حسنًا، عندما تُبعَث من الموت، أخبرها بأن سيارتها استُرجِعَت بسبب عدم الدفع». وضع ورقة بعنف على الطاولة. «إذا أرادت استعادتها، يمكنها الاتصال برقـ...».

«لن تُبعَث من الموت». أغرز أصابعي في الطاولة بشدة حتى أشعر كأن أظفاري ستنخلع منها. «لن تتصل بالرقم».

- اسمع يا فتي، لا أعرف إذا كنت لا تفهم الإنجليزية أو...

«مصباح أمي. كانت أمي». يرتعش صوتي، وربما لذلك السبب لا يوبخني أو يبتعد. «تُوُفِّيَت قبل أسبوعين، في الأول من فبراير. كانت... كانت مريضة جدًّا في أيامها الأخيرة. وأنا آسف لأنها لم تدفع لكنها حقًّا كانت مريضة جدًّا».

تغيرت تعبيرات وجهه وأشعر بالألم لرؤية ذلك، إذ يجعل ما أقوله حقيقيًّا جدًّا، ولا أريده أن يكون حقيقيًّا.

نظر في أنحاء المكتب ملاحظًا طاولة الاستقبال الملطخة ببصمات الأصابع، وكومة الغسيل المتسخ الملقاة خلفي، وتقويم «متنزهات كاليفورنيا» العالق في شهر يناير.

- ألديك أب؟

«إنه سكير». لأول مرَّة أقولها بصوتٍ عالٍ.

«حسنًا. اللعنة». رفع الرجل سرواله. «انظر، لا بد لي من أخذ السيارة، فهذا عملي. لكنني سأربطها بحرص، وأتأكد من ألا تتعرض لأي خدش. هذا أفضل ما يمكنني فعله. هل معك المفتاح؟».

بعدما أعطيته المفتاح، تحرك المسؤول عن استرجاع الممتلكات بسرعة، مثبِّتًا سلكين طويلين في هيكل السيارة السيفيك. من أجل تهدئة الذعر المتصاعد في صدري، أحاول أن أتخيل قصته، كم عملية استرجاع نفذها، وما إذا كان يتورط في شجارات. لم أكتب شيئًا منذ الجنازة، ربما سأكتب عن هذا.

يربت على السيارة عندما ينتهي من تثبيتها، ويومئ لي باقتضاب، ثم يدخل الشاحنة. لكن قبل أن يقود مغادرًا، ينزِل النافذة.

«يا فتى». حدَّق إلَيَّ للحظة بعينين زرقاوين، ومع أنه يبدو كأنه يأكل مسامير في الإفطار، يومض شيء عبر وجهه الخشن يجعلني أعتقد أنه يعامل الأشخاص الذين يحبهم كما لو أنهم من ذهب.

ربما سيقدم لي بعض لآلئ الحكمة، فهذا ما يحدث في القصص، أليس كذلك؟ آخر شخص تتوقعه هو من لديه كل الإجابات، وعلى الأغلب رأى هذا الرجل الكثير من صعوبات الحياة. أريد أن أسأله كيف *أصلح كل شيء؟* كيف *أعيدها وأبدأ كل شيء من جديد؟*

قال الرجل أخيرًا: «إذا ذهب والدك لاسترداد السيارة، أخبره أنه يجب أن يكون واعيًا، فالرجل الذي يدير ساحة السيارات المستَرجَعة أحمق، وسيتصل بالشرطة بسبب أتفه الأمور».

أحدِّق إلى الشاحنة حتى تتلاشى أضواء مصابيحها الخلفية. السماء فوقي ضبابية بسبب التراب الذي أثارته الرياح، وأبحث وسط الضباب عن حتى نجمة واحدة، لكن لا يوجد شيء، لذا أستسلم وأدخل إلى الأب الذي لا أعرف كيف أتحدث معه والصور التي لا أعرف كيف أنظر إليها والفواتير التي لا أعرف كيف أدفعها.

14
مصباح

أبريل، حينئذٍ

كانت قاعة حفلات جولد ميراج مُزيَّنَة بحرير الأورجانزا باللونين البرتقالي والأحمر، وتألقت الموائد ببتلات الورود والزهور المخملية، والكباب اللامع المرشوش بالسماق وحساء الحليم المغلي الذي يبدو مغريًا في أطباق الاحتفاظ بالحرارة الفضية. وكان أبناء أعمامي يحومون حول المنصة، زاهين كالفلفل الحار على كوز ذرة مدهون بالزبدة. كنت أستطيع رؤية كل هذا من غرفة الانتظار التي أمضيت بها نصف اليوم.

لكن موكب البارات، حفل زفاف العريس، كان متأخِّرًا.

تذمرت ابنة عمي عائشة بقلق: «حتى بالنسبة إلى شخص من لاهور، ست ساعات تأخير مبالغ فيه».

- أفراد عائلته قادمون من جدة، ربما تأخرت طائرتهم.

«مكياجك يذوب، أليس كذلك؟». تربت عائشة على وجهي. «سيكون موحلًا بحلول الوقت الذي يراكِ فيه».

اختلست النظر في المرآة، وبخلاف بعض كريم الأساس الذي مُسِح في الدوباتا الأحمر على رأسي، أبدو بالضبط مثلما كنت عندما خرجت من صالون تجميل العرائس. تذبذبت الأضواء وزأر مولد كهرباء في مكان بالخارج.

قلت لها: «توقفي عن السير ذهابًا وإيابًا، فكل شيء سيكون بخير».

دوت الطبول بإيقاع مألوف مُفرِح، مشيرة إلى وصول العريس وموكبه. «أترين؟».

«يا له من تقليد سخيف». تنظر عائشة من النافذة. «يبدو جادًّا للغاية وهو قادم على ظهر ذلك الحصان، كأن حياته تتوقف على بقائه فوق السرج».

- على الأغلب لا يريد أن يكسر عنقه في يوم زفافه.
- نعم، سيمثل ذلك عائقًا أمام ليلة الزفاف.

ابتسمت عائشة لي ابتسامة عريضة، لكنني هززت كتفَيَّ، فقد كنت متوترة. لم تكن أمي صريحة بشأن ليلة الزفاف، لكن بنات أعمامي المتزوجات كن كذلك. وعائشة، بما لديها من مغازلات غير متبادلة في الجامعة، رأت من المناسب أن تمنحني صندوقًا صغيرًا «للأغراض الضرورية»، كنت أتحرق شوقًا لأنظر بداخله.

في الخارج، صاح رجل ما، فتأرجح شعر عائشة الداكن حين فارقت ستارة النافذة، وتصلبت كتفاها.

قالت: «سأعود في الحال»، ثم نادت أختها الصغيرة -التي كانت تعبس في جانب الغرفة وهي تقرأ أحد أعداد آرتشي كومكس- «صدف، أحضري لباجي[1] مصباح زجاجة سفن أب».

أومأت صدف إيماءة مطيعة، ثم في اللحظة التي اختفت بها عائشة، ركضت إلى النافذة، وانضممت لها ممتنة لأنها أصغر من أن تدرك أنني يجب ألا يراني أحد.

استمر الصياح وأخذت أبحث عن توفيق لكن بدلًا منه وجدت والده، أنيقًا على أكمل وجه ويتضرع إلى زوجته لتهدأ، إذ كانت والدة توفيق تومئ بيديها بعنف في وجه أخي، ففكرت أنه قد أساء إليها، لن تكون تلك أول مرَّة يقول فيها فيصل شيئًا غير لائقٍ.

لكن لأول مرَّة، بدا فيصلِ غير ملوم. أمسكت والدة توفيق أخي من قميصه الكورتا[2]، ثم ظهرت أمي، وأيضًا أبناء أعمامي. رأيتهم يتحدثون بسرعة،

(1) تعني أختًا كبيرة باللغة الأردية.

(2) الزي التقليدي الذي يرتديه الرجال في المناسبات والاحتفالات

محاولين تهدئة والدة توفيق، الذي من فوق حصانه بدا مصدومًا، لكنه لم يترجل من فوق الحصان، أو يحاول إبعاد والدته عن فيصل.

«ابتعدي من هنا». ظهرت عائشة عند الباب وسحبتني من أمام النافذة. «ليس من المفترض أن يراكِ».

- ماذا يحدث؟ هل قال فيصل شيئًا غبيًا؟

أشارت عائشة لصدف لتبتعد، فتظاهرت بالانغماس في كتابها لكن كان من الواضح أنها تسترق السمع.

ثم همست عائشة لي: «والدة توفيق... تتصرف بغرابة. إنها... نحن نعتقد أنها ثملة. لقد ذكر فيصل تأخر موكب البارات، فانفجرت. كان بإمكاني أن أشم رائحته عليها يا مصباح».

من بين كل الأمور التي توقعتها، كان آخر احتمال من الممكن أن أفكر به هو حماة سكيرة. لم تكن عائلتي محافظة بصورة بارزة، لكننا لم نقامر ولم نشرب الخمر، لم أكن حتى لأعرف أين يمكن شراء الكحوليات في لاهور.

«مصباح». دخل والدي، وكان يمكن لابتسامته أن تطمئن قلبي، لولا الطاقية المضغوطة بين يديه. وتتبعه أمي، ووجهها المستدير ممتقع.

قال والدي: «كان هناك تأخير بسيط، لكنه ليس شيئًا يستحق الاكتراث به».

قلت: «بابا، قالت عائشة إن والدة توفيق مخمورة». على الرغم من أنني حاولت التحكم في صوتي، لكنه كان يرتجف، وأمسك بابا بكتفَيَّ.

وقال: «اهدئي يا فراشتي الصغيرة. لا تقلقي. توفيق فتى صالح، وابن وحيد، وببساطة بدأت حماتك الاحتفال مبكِّرًا. ليس بإمكاننا دائمًا منع الحماقات التي ترتكبها عائلاتنا، أليس كذلك؟». وضع يده الكبيرة الدافئة على رأسي، فمنحني السكينة كما كان يفعل منذ كنت طفلة. «سيكون كل شيء بخير».

وخلفه، بدت أمي أقل اقتناعًا.

تمتمت بهمس: «يجب أن يكون كل شيء بخير. لقد وُقِّعَت أوراق الزواج».

15
سال

مكتبة
t.me/soramnqraa

مارس، الآن

يكمن عنكبوت عملاق بحجم شيلوب[1] بين حرفي الفاء والشين على لافتة «لا غرف شاغرة»، وبينما أحاول أن أكتشف كيف أقبض على الوحش وأخرجه من المكتب، تنحنح كورتيس من غرفة رقم 4 خلفي.

«مرحبًا يا سال». إنه رجل ضخم والمكتب صغير، لذا يصطدم بطاولة الاستقبال فتهتز وتلقي كومة أخرى من الفواتير التي أخاف للغاية من فتحها على الأرض.

قال معتذرًا بخصوص الفواتير: «آسف. لقد جئت لأدفع... اللعنة، ما هذا؟» يتراجع عند رؤية العنكبوت.

قلت: «نعم، يستحق رمزًا بريديًّا خاصًّا به».

يقترب وميض فضي مألوف من نافذة المكتب، وبعد لحظات، تفتح نور الباب.

«مرحبًا، صلاح الدين. مرحبًا، كورت... يا إلهي». تختبئ خلفي، واقفة على أصابع قدميها لتختلس النظر إلى العنكبوت من فوق كتفي. شيء ما في

---

(1) هو عنكبوت عملاق بسلسلة سيد الخواتم.

وجهها وفي طريقة استخدامها لي كدرع يجعلني أرغب في القضاء على هذا الوحش ذي الأرجل الثماني، فقط من أجلها.

قلت: «إنه ليس مخيفًا لهذه الدرجة».

- إذن لماذا تقف على بعد مترين منه ممسكًا بمكنسة؟

«أنت أشجع مني يا بني». خلع كورتيس قبعته كاشفًا عن شعر كثيف بلون الملح والفلفل. «كانت والدتك أشجع من كلينا. كانت لتقبض عليه وتطلقه خارجًا».

- نعم، كانت تكره قتل الحشرات.

«يبدو هذا صحيحًا، إذ كانت دائمًا تصنع حيوانات صغيرة من مناشف الحمام». يبتسم: «عادة لا أحب الأجانب، وعندما جئت هنا لأول مرَّة ورأيتها ترتدي ذلك الشيء فوق رأسها، سألتها 'لماذا ترتدين ذلك الشيء على رأسك...'».

بدأت في الكلام قائلًا: «يدعى حجاب...» لكن كورتيس يمسك بالصليب الذهبي الراقد وسط شعر صدره المموج ويهزه في وجهي.

«قالت لي 'لماذا ترتدي ذلك الشيء حول عنقك؟' قلت 'لأن المسيح عيسى ربي ومخلصي'، فقالت 'حسنًا، لا أحمل شيئًا ضد عيسى، كان رجلًا عظيمًا، وأعتقد أنه كان ليُعجَب بوشاحي، فوالدته كانت ترتدي مثله' ثم ضحكت، وأنا أيضًا بدأت أضحك. ربما كان عيسى ليُعجَب بوشاحها». ثم يتنحنح ويخرج بطاقة الائتمان من جيبه.

ويقول: «آسف على التأخير».

قلت له: «ليست هناك مشكلة. إجمالي المبلغ 250 دولارًا، ويمكنني أن أتقاضى أجرة الأسبوع القادم أيضًا إذا أردت ذلك».

«آه... حسنًا». بينما ينتقل من قدم لأخرى يجذب تي شيرت فرقة جانز آن روزز الذي يرتديه. «لست متأكِّدًا من أنني سأبقى بعد يوم الجمعة».

اللعنة. *اللعنة*.

- الواي فاي لا يعمل، إنه متعطِّل منذ عدة أيام، وأحتاج إلى مناشف نظيفة بصورة أكثر انتظامًا. رأيت أنه من الأفضل أن أنتقل إلى مكان آخر. قد يكون من الأفضل أن يحاول والدك بيع هذا المكان...

«لن نبيعه. لكن الواي فاي سيعود للعمل غدًا...» *الآن بعدما دفعت لي*. «تفضل...» أخرج من الباب إلى ماكينة كوكاكولا في المرأب وأعود إليه بزجاجة باردة: «تحدث مع نور حول موسيقى التسعينيات، فهي أيضًا تحبها، سأنتهي من غرفتك في دقائق معدودة».

نور تعرض علي: «يمكنني أن أساعدك...» لكنني أهز رأسي رافضًا، فيكفيني سوءًا أنها تشعر بالاضطرار إلى المجيء هنا كل يوم.

بدت غرفة كورتيس –ورائحتها– كأن دبًّا مسعورًا كان يعيش فيها. فأتنفس من فمي وأحاول ألا أتقيأ. في بداية مرض آما، لم تدعني أنظف الغرف قط، ولم يحدث ذلك إلا في الشهور القليلة الأخير عندما ساءت حالتها الصحية، فأصررت على مساعدتها، ولكن بين المدرسة وكرة القدم، لم يكن ذلك كافيًا قَطُّ. ربما إن ساعدتها أكثر، لم تكن لترهق نفسها في العمل حتى الموت.

أو ربما كان بإمكان آما الذهاب إلى جلسات غسيل الكلى. يوقفني في مكاني شعوري المفاجئ بالحنق، وأحتاج إلى الجلوس، ممسكًا في يدي بقطعة قماش منقوعة في منظف باين سول. *ربما كان بإمكانها إقناع خالي فيصل بمساعدتها. إيجاد طريقة ما. ربما كان بإمكانها محاولة أن تعيش، مدركة كم سأكون في حالة يرثى لها إذا لم تعش.*

أكرهها في تلك اللحظة، ثم أكره نفسي لكراهية امرأة ميتة لم أُبالِ حتى بزيارة قبرها.

قم بالعمل يا سال. فقط قم بالعمل اللعين.

أجمع كل العلب المعدنية والزجاجات، إذ كانت آما تجني خمسين دولارًا إضافية في الأسبوع مقابل إعادة تدوير كل شيء. وبمجرد الانتهاء من جمعها، أتجه لتنظيف الحمام.

إنه فيلم رعب، خطوط من الأوساخ في المرحاض، ومعجون أسنان متكتِّل في الحوض، وسلة مهملات ممتلئة لآخرها بصناديق الوجبات الجاهزة التي تعود لخمسة أيام ماضية. أسحق بعض النمل مذكِّرًا نفسي بالاتصال بشركة إبادة الحشرات.

مع أنني لا أعرف كيف سأدفع هذه التكلفة، فراتب البطالة الذي يحصل عليه آبو دفعت به فاتورة الكهرباء، لكن جميع الأشياء الأخرى أكثر حتى من

أن أفكر بها. الآن، بدأت المستشفى تتصل بهاتفي. وحذفت ثلاث رسائل منهم دون حتى أن أستمع إليها.

عندما أنتهي من تنظيف غرفة كورتيس، أدرك أنني ينقصني بعض المناشف، فتتقلص معدتي. لقد أرسلت غسيلي وغسيل آبو إلى المغسلة لأن المالك كان يعرف آما ولم يتقاضَ مقابلًا طوال شهر فبراير. وكان لدينا عدد قليل من النزلاء منذ وفاة آما، ومن ثم كان بإمكاني مد يدي داخل غرفة الغسيل وأخذ ما أريده من الرفوف دون دخول الغرفة.

ليس بعد الآن.

باب غرفة الغسيل الأزرق يسخر مني. أقول لنفسي: *أنت في الثامنة عشرة من العمر، تستطيع دخول غرفة غسيل ووضع بعض الشراشف في الغسالة.*

أجد الباب عالقًا، فأدفعه بقوة. تباغتني رائحة المنظفات والمبيضات وأشعر بالغثيان مباشرةً، كأنني أشم لحمًا متعفِّنًا لا شيء نظيف. أعض على أسناني وأدفع الشراشف داخل الغسالة، لكنها ليست فارغة، بها مناشف كانت هناك منذ فترة طويلة حتى جفت وصارت صلبة.

مهمة واحدة في المرة.

أُسقِط الغسيل الجديد على الأرض وأشغِّل الغسالة، ثم أضع مسحوق تنظيف كوتسكو في المقياس ونصف كوب من المبيض. يبدأ رأسي في الدوران. سأجلس على الأرض، للحظة واحدة، لأستعيد توازني.

لا... لا، لن أجلس على الأرض، سأصاب بالغثيان.

«مهلًا». تلمس يد ذراعي، فأجفل بسبب اللمسة، لكنها فقط يد نور.

- هيا، تعال يا صلاح الدين.

تجذبني، لكنني لا أستطيع الوقوف فنسير متعثِّرين لنخرج من غرفة الغسيل. وفي الخارج، تعطيني دلوًا في الوقت المناسب تمامًا لأفرغ ما في معدتي. أشعر بإحراج شديد لرؤيتها هذا، لا أعني التقيؤ مع أنها ليست هيئة جيدة إذ لا أريدها أن تراني منفِّرًا تمامًا.

لكن لا، ما أكرهه هو أن ترى الضعف، الافتقار إلى السيطرة، أن تراني متعرِّقًا وبالكاد أستطيع المشي.

أهمس لها: «آسف».

- ابق هنا.

خطاها خفيفة، ثم أسمع نقرات مفتاح تشغيل الغسالة، وقرقرة الماء ينسكب في الحلة. ويصدر المجفف صوتًا خفيفًا عند فتحه، ثم لبضع دقائق، لا يوجد إلا حفيف الشراشف المتباعد في أثناء حركتها في الهواء.

أضع رأسي بين رجلَيَّ وأحاول أن أتنفس، مدركًا أنني أفضل شم هذه الرائحة، رائحة القيء والخرسانة والشتاء الصحراوي الذي يجمد الأنف، أكثر من رائحة غرفة الغسيل. أتمنى أن أعرف لماذا أنا هكذا، أن أفهم السبب وراء هذا.

هل تريد ذلك يا صلاح الدين؟ هل تريده حقًا؟

أتجنب التفكير في الأمر بطريقتي نفسها في تجنب القيام بالغسيل، بطريقتي في تجنب زيارة قبر آما على الرغم من معرفتي بأنها على الأغلب تشعر بالوحدة.

«صلاح الدين». اسمي كأغنية عندما تقوله نور. أشعر بالخزي الشديد فلا أستطيع النظر إليها. تأخذ الدلو وتعود بعد دقائق معها حقيبتها، وتظهر بعض المناديل المبللة تحت أنفي، ثم موزة مقشرة.

- ستهدئ معدتك.

أتناول قضمة، فيؤلمني حلقي ويخرج صوتي خشنًا: «هل تعلمتِ ذلك في المستشفى؟».

قالت: «كنت دائمًا أصاب بدوار الحركة في السيارة. ليس تشاتشو عديم النفع بالكامل على ما أعتقد».

عندما أنتهي من الأكل، تقف وتمد لي يدها، فأمسك بها بحذر، لكن ليس بلمستها أي شيء غير مريح، لم تشعرني إلا بدفء ووخز خفيف.

قالت لي: «سأتولى الغسيل. دعنا ندخلك إلى المنزل».

وفي الشقة، ينام آبو على الأريكة، وجهاز التحكم عن بعد سائب في يده. فأضع غطاءً فوقه وأقلبه لينام على جانبه.

أكره حقيقة أنني مضطر إلى القيام بذلك. أكره أنني من يعتني به، بدلًا من أن يتأكد هو من أنني بخير.

يمكن بالكاد رؤية طاولة الطعام تحت البريد غير المفتوح والأطباق والفتات وطاجن مغطى بورق القصدير تشير رائحته إلى أنه كان يجب التخلص منه منذ بضعة أيام.

- آسف على الفوضى.

تدندن نور بعض النغمات من أغنية لا أستطيع تمييزها، فتخبرني: ««الفوضى ملكي» (Mess Is Mine). يغني فانس جوي ما أفكر فيه، وهو أنني لا أنزعج من فوضاك».

- هل تلك هي الأغنية ذات فيديو الدب القطبي المريب؟

فتضحك. علق أكثر من شخص على ضحكة نور المعدية، لكنها تُحرَج عندما يفعلون ذلك. في هذه اللحظة، ضحكتها هي الشيء الجيد الوحيد في هذه الشقة.

«سأساعدك يا صلاح الدين». تستند إلى الحائط، وتشبك يديها أمامها. «لكن لا بد أن تدعني أقوم بذلك».

أهمس: «كانت لتكره هذا، أن ترى كل هذا». الحوض مقزز، والثلاجة فارغة، ولم أكنس الأرض. وفي الزاوية، هناك كيس بلاستيكي يتدلى منه شيء ما عتيق إلى جانب سترة غير مكتملة كانت آما تصنعها على مدار العقد الماضي. كان من المفترض أن تعطيها لآبو، تعمل عليها مرَّة في العام ثم تضعها جانبًا إلى أن يأتيها الشغف مرَّة أخرى، وتمزح قائلة إن اليوم الذي ستنهيها به سيكون يوم تقاعد آبو.

جاء التقاعد مبكِّرًا، إذ لم يستطع آبو أن يحتفظ بوظيفة لوقت طويل.

يطول الصمت بيننا أنا ونور، لكنه ليس مزعجًا. أحيانًا، إذا لم أجب بسرعة بما فيه الكفاية عندما كنت أتكلم مع آما، كانت تفرقع أصابعها أمام وجهي بقلق، كأنها اعتقدت أنني سأتوه في عقلي.

لكن نور تتركني أفكر.

«سألتِني ما مدى سوء الوضع». لم أرد التفكير في هذا الأمر، فما بالك بأن أقوله بصوتٍ عالٍ. «إنه سيئ. كان هناك إشعار نزع ملكية على الباب الأمامي صباح اليوم».

تأخذ نفَسَها بحدة وتجلس بجانبي.

أواصل الحديث: «أحتاج إلى خمسة آلاف دولار بحلول الخامس عشر من أبريل، وإلا سيستولي البنك على كلاودز ريست. لم تتعطل السيارة السيفيك بل استُرجِعَت، وأخبرت آبو عن ذلك، لكن...» لا أعرف حتى إن كان سمعني. «وإعانة البطالة المخصَّصة له توشك صلاحيتها على الانتهاء، لكنه لن يبقى واعيًا لمدة كافية لتجديدها».

تعض نور شفتها: «هل جاءك رد من أي من الوظائف التي تقدمت إليها؟».

- كلهم بحاجة إلى شخص يعمل في أثناء ساعات الدراسة.

- وماذا عن خالك فيصل؟

أريد أن أمحو ذكرى تلك المكالمة، ذكرى خالي فيصل وهو يتنهد كأنني أطلب منه روحه الخالدة لا المساعدة. *لا جدوى من منحك المال يا صلاح الدين، فإن فعلت ذلك، لن يتعلم والدك أبدًا أن يقف على قدميه، ولا أنت كذلك.*

- لن يساعدني. لماذا الرجال الأغنياء بهذا البخل دائمًا؟

ترفع نور حاجبها: «كيف يظلون أغنياء في اعتقادك؟ عن طريق أن يكونوا لطفاء؟». ثم تنقر على ذقنها: «يمكنني أن أسرق منزله، وأبيع مجموعة ساعات اليد القبيحة التي يمتلكها ابن خالك مقابل عدة آلاف».

- وحده أرسلان «أرس»[1] بما فيه الكفاية ليشتري ذلك النوع من الأشياء البشعة.

تتأوه نور قائلة: «لن تكون تلك المزحة مضحكة بقدر ما تظنها أبدًا». تميل مقتربة مني حتى كاد رأسانا يتلامسان، فأقرب المسافة بيننا وأتنفس رائحتها إلى أن أهدأ ثانيةً. وراء رائحة الصابون، تبدو رائحتها كالنعناع ورات كي راني (raat ki raani)، وهي زهرة لم أرها إلا في باكستان. أتساءل لماذا لم ألحَظ هذا من قبل.

قالت نور لي: «انظر، لا يمكننا معالجة مشكلة النقود الآن، لكن يمكننا معالجة هذا»، وتشير إلى الفوضى. «وربما يمنحنا التنظيف صفاء الذهن أيضًا، يساعدنا على الوصول إلى حل ما. كما» –تعطيني سماعة لا سلكية– «سيمنحني عذرًا لأجبرك على الاستماع إلى هذا الألبوم لحفلات بينك فلويد». بينما أتصدى لتنظيف المطبخ، تشق نور طريقها عبر غرفة الطعام. تخلق

---

(1) كلمة باللغة الإنجليزية تعني أحمق.

دندنتها الخارجة عن اللحن مزيجًا مهدِّئًا بصورة غريبة مع أغنية «خدر مريح» (Comfortably Numb) التي تدوي في أذن واحدة. وبعد دقائق قليلة، أستطيع دفع بنك الاتحاد الأول من عقلي.

على الرغم من أنني أريد سكب خمور آبو في البالوعة، أقاوم تلك الرغبة، إذ لن تغير أي شيء، إنه فقط سيحرق المال في شراء المزيد. لذا أخفف تركيز كل زجاجة قليلًا بإضافة الماء وأدفعها إلى الزاوية. ثم أمسح الطاولات، وأغسل الأطباق، وأبدل الشراشف، وأمسح الأرضيات، وأكنس. أنظف بالطريقة التي اعتادت آما أن تنظف بها، بالطريقة التي أتمنى أن ينظف بها آبو.

تناديني نور من حمام آما: «انظر»، ثم تومئ إلى العشرات من زجاجات الأدوية: «مستشفى جونيبر بها مكان للتخلص من الأدوية، يمكنني أخذ هذه».

توقفني المفاجأة، ممسكًا بمنفضة في يدي، ومفكِّرًا. أسمع صوت آرت بريتمان: *هناك طرق أخرى للحصول على مال.*

- سآخذهم بنفسي فيما بعد.

عندما ننتهي من التنظيف، بعد حلول الظلام مباشرةً، يكاد المكان يبدو نظيفًا بقدر ما كانت آما تجعله.

نَجُرُّ بعض أكياس القمامة خارجًا لنذهب بها إلى مكب النفايات خلف الموتيل، وتغلق نور الموسيقى. «أتشعر بتحسن؟».

قلت: «أتضوَّر جوعًا. هل يُحسَب ذلك؟».

أدارت عينيها: «لا».

قلت: «سأكون بخير. لن أقفز أمام قطار أو أي شيء من هذا القبيل. ولكن ربما سآتي لأنتحب تحت نافذتك في الثانية صباحًا».

نظرت إليَّ باستنكار وقالت: «صلاح الدين، ليست تلك طريقة للمواساة».

- أنا من يتقيأ في الدلاء يا نور، من المفترض أن تواسيني أنتِ.
- أنت سخيف. وأنا هنا كل يوم على أي حال، لذا سأتولى مهام الغسيل من الآن فصاعدًا، اتفقنا؟ على الأقل إلى أن... يتعافى والدك.
- إذن على مدار السنوات العشر القادمة. قد يضع ذلك بعض العراقيل أمام خططك الجامعية.

- لن تكون عشر سنوات إذا تحدثت مع والدك بشأن العودة إلى برنامج المحاربين المجهولين.

لا، مستحيل. أهز رأسي بالرفض مباشرةً: «كيف من المفترض أن أتكلم معه يا نور؟ إنه ببساطة ريب فان وينكل[1] البنجابي. وإذا تمكنت من إعادته إلى وعيه، فلا أعرف حتى ماذا سيقول. إنه...» غير مفهوم. غير متوقَّع.

«صلاح الدين، لا يمكنك التحكم فيه، كل ما يمكنك فعله هو أن تحاول مساعدته». لا تدعني أجيب بحجة أخرى. «إذا أفاق من سكره، ربما يمكنه اكتشاف كيف تدفعون أموال البنك».

- ربما يمكن للسناجب أن تطير، أيضًا.

«هناك شيء يدعى السنجاب الطائر يا عبقري». ثم تتنهد لرؤية النظرة التي على وجهي: «ماذا لو وجد مخزون والدتك من مسكنات الألم؟ يأتي المدمنون طوال الوقت إلى غرفة الطوارئ» -ترتجف- «شبه أموات بسبب الأشياء الضارة التي يبيعها لهم تجار المخدرات الحثالة».

بدأت نور في جمع أغراضها في حقيبتها. وقالت: «الخامس عشر من أبريل على بعد أقل من خمسة أسابيع، وذلك الوقت سيطير. ليس لديك خيارات يا صلاح الدين، تحدث معه، ربما تجعله يذهب معك إلى قبر آنتي مصباح».

«من المستحيل...» أوقف نفسي عن الكلام. «أنا... أفضل ألا أذهب إلى القبر بعد. لكنني سأتحدث معه. أعدك بذلك».

وإن كان لن يؤدي إلى أي فائدة. فآبو لن يتوقف عن تناول الخمور، ولن يحل مشكلاتي. وكذلك لن يحلها خالي فيصل.

اصطحبت نور إلى منزلها كالعادة، لكنها تستطيع إدراك أنني لا أشعر برغبة في الكلام، لذا في منتصف الطريق، نستمع إلى أداء حي من أغنية «ارقص للتخلص منها» (Shake It Out) لفلورنس أند ذا مشين مما يجعل صدري ينقبض.

عندما نصل إلى شارع نور، نرى سيارة عمها الزرقاء المنبعجة واقفة في مدخل المنزل.

---

(1) شخصية خيالية لرجل أمريكي-ألماني يفقد الاتصال بالعالم الخارجي لمدة عشرين عامًا، من قصة قصيرة للكاتب واشنطن إيرفينج.

«سأسير وحدي من هنا. إذا رآك، لن ينتهي من لومي». وتجذب ضفيرتها، اليسرى. دائمًا ما تكون اليسرى.

بينما أشاهدها، أفكر كيف أنني، في السنة الأولى من الثانوية، كسرت كاحلي في تمرين كرة القدم وأُبعِدت من التمرين، وبعد ثلاثة أشهر خرجت إلى الملعب، وفي كل خطوة علامة استفهام حتى وصلت إلى المرمى وأدركت أن عظامي لا تزال تحملني.

يغمرني ذلك الدفء نفسه الآن. ما زلت أعرف جسد نور. أعرفها. اعتقدت أنني لا أستحق ذلك، مجددًا.

تلتفت متفاجئة عندما أضع أصابعي بين أصابعها وأعتصر يدها. تتأجج بيننا شرارة خجولة، وتنظر إليَّ نور بصمت، ونصف القمر فوقنا ينقسم إلى قاربين شاحبين يطفوان في أعماق عينيها. تعتصر يدي بدورها، ثم تختفي.

***

بينما أسير إلى الموتيل، مرتجفًا لأنني نسيت معطفي مرَّة أخرى، أخرج هاتفي وأتفحص جهات الاتصال لدي، الأصدقاء، العائلة، المعارف.

لا يستطيع أحد منهم أن يخلصني من بنك الاتحاد الأول. لا يستطيع أحد منهم أن يجعل ذلك الإشعار بنزع الملكية يختفي. كما قالت نور: *ليس لديك خيارات*.

أمر سريعًا عبر أرقام الهاتف إلى أن أجد آرت بريتمان.

- *هل يمكنك الحديث؟*

أرسل الرسالة قبل أن أستطيع التراجع. إنها لا تعني أي شيء. قد لا يجيبني. قد يكون غاضبًا لأنني انفصلت عن ابنة عمه. قد يظن أنني أكتب له بشأن حساب المثلثات أو...

آرت: بالتأكيد. تعال لزيارتي السبت ليلًا.

ثم بعد ثوانٍ قليلة:

آرت: توقعت أن تغير رأيك. ☺

ذلك الوجه السعيد اللعين، يجعلني أكثر حزنًا من بقية أحداث اليوم مجتمعة.

16
نور

«*يؤسفنا أن نبلغك...*».

«*في حين كانت تقديراتك ودرجاتك مذهلة، مع الأسف...*».

«*بعد مراجعة طلبك للالتحاق، اتخذنا قرارًا صعبًا...*».

جاءت الخطابات بقوة وسرعة، مثل الطلقات النارية في أغنية مايا «الطائرات الورقية» (Paper Planes). بانج. بانج. بانج.

ييل. كولومبيا. كورنيل.

مرفوضة. مرفوضة. مرفوضة.

خمسة ردود بالرفض، من بين سبع جامعات.

وفي الوقت نفسه، أخبرت جيمي جونيبر كلها أنها قُبِلَت في برنستون. ولا تتوقف عن سؤالي عما إذا كنت استلمت أي رد.

يريد جزء مني أن يقول لها: *لقد رفضتني خمس جامعات، والجامعتان اللتان لم يأتِنِي رد منهما هما جامعة كاليفورنيا (لوس أنجلوس) وجامعة* نورث وسترن، *ومن ثم انتهى أمري. لقد فزتِ، تهانينا.*

الشيء الجيد الوحيد في هوس تشاتشو بالنظريات هو أنني أفهم منطق الأرقام، لذا بينما تتحدث السيدة مايكلز عن الوزن الشعري، أراجع الأرقام مرَّة أخرى. حصلت على 1430 في اختبار SAT، ويبلغ معدلي التراكمي 4.2، وحصلت على امتياز في ستة عشر صفًّا للمتفوقين على مدار أربع سنوات،

وحتى تمكنت من الحصول على A - في اللغة الإنجليزية المزعجة، وتطوعت في مستشفى جونيبر لخمس مرات في الأسبوع منذ انتقلت إلى السنة قبل الأخيرة من الثانوية، ولدي ثلاثة خطابات توصية، كلهم متقدون بالإشادة.

لا بد أن المشكلة في المقالات. فقد قالت محاورة جامعة بنسلفانيا: يعتبر *المقال أهم جزء في طلب الالتحاق*. استخدمت تطبيق Common App[1]، لكن العديد من الجامعات تضع أسئلة منفصلة. كان هناك الكثير منها، وفي كل مرَّة اضطررت إلى الكتابة عن شيء جديد:

مشكلة حللتها. (الحقيقة: انكسار قلبي. ما كتبته: درجة ضعيفة في الإنجليزية).

تجربة غيرت حياتي. (الحقيقة: موت عائلتي كلها ورائحة أجسادهم وهي تتعفن حولي. ما كتبته: العمل في مستشفى جونيبر).

التحدي الأكبر في حياتي. (الحقيقة: إنهم لا يريدون أن يعرفوا. ما كتبته: التنمر في المدرسة الثانوية).

في مقالات القبول، حاولت أن أكتب عن الزلزال، عن والدي وتشاتشو ومتجر الكحوليات، ثم وضعته في مجلد المسودات في اليوم التالي. وبدلًا من ذلك، كتبت عن التطوُّع في عيادة متنقلة، ثم دققت المقال إملائيًّا، وأرسلته إلى كل الجامعات ما عدا جامعة كاليفورنيا (لوس أنجلوس)، فطلب الالتحاق بها كان كارثة مختلفة تمامًا.

لكنني أذكر نفسي، لا تزال جامعتان متبقيتين، واثنان لا يساوي صفرًا، اثنان يساوي اثنين، ولا أحتاج إلا إلى نعم واحدة.

أنتِ أفضل من هذا المكان. تستحقين أكثر من هذا المكان.

تلكزني جيمي: «يا نور».

سيرن الجرس في غضون بضع دقائق، وتلوح لي السيدة مايكلز بواجبي المنزلي، النصف الأول من المقال الختامي ذي الصفحات الخمس عشرة. أذهب لأستلمه، وألاحظ أن صلاح الدين يراقبني من مقعده تحت جرس إنذار الحريق، على بعد صفين مني. يرفع حاجبه متسائلًا ما المشكلة؟ أهز كتفي وأبتسم، فلديه ما يكفي من المشكلات.

تمد جيمي عنقها: «ما الدرجة التي حصلتِ عليها؟».

---

(1) تطبيق مشترك يستخدم في التقدم إلى الجامعات في الولايات المتحدة.

- لماذا يعنيكِ هذا؟

لا أقصد أن أنفعل عليها، أو ربما أقصد ذلك، ربما سئمت منها.

«فضول فحسب». يبتسم فم جيمي وإن كان لا يبتسم باقي وجهها. «لا تحتاجين إلى الرد بوقاحة، فأنا أعرف أنك تعانين». ثم تنظر إلى أسفل إلى أظفارها ووحدي أستطيع سماعها. «من دون سال ليكتب مقالاتك بدلًا منكِ».

- ما الذي يعنيه ذلك بحق الجحيم؟

رفعت السيدة مايكلز نظرها نحوي متفاجئة. ونظر إلي أتيكس، حبيب جيمي، شزرًا وخطف مني الورقة: «انتبهي لألفاظك يا رياض».

تمسكت بالورقة، لكن ذراعَيْ أتيكس كذراعي الغوريلا ويرفعها بعيدًا عني. الصف على وشك الانتهاء، وبينما الجميع يتحدثون، توزع السيدة مايكلز باقي الأوراق.

«توقف يا أتيكس». وتقول الابتسامة المتفاخرة على وجه جيمي *أحسنت صنعًا يا أتيكس*. «أعدها إليها...».

يميل صلاح الدين عليَّ ويمسك بالورقة: «لا تكن أحمق يا أتيكس».

حدَّق أتيكس إليه غاضبًا، لكن صلاح الدين ينظر إليه بعينين داكنتين باردتين. هما في فريق كرة القدم معًا، ومع ذلك ليسا صديقين. واصل أتيكس التحديق إليه للحظات قبل أن يهز كتفيه ويبتسم لي نصف ابتسامة.

قال: «كنت أمزح فقط. واسمعي... أحسنتِ صنعًا».

أعطاني صلاح الدين الورقة، وفي أعلاها مكتوب امتياز. تراها جيمي فتقول: «جميل»، ثم تنظر إليه: «أعتقد أنكما عدتما صديقين مرَّة أخرى».

- كتبت المقال بنفسي.

«ليست هناك مشكلة إذا حصلتِ على مساعدة». تتحدث بهدوء لكن صوتها به غلظة غريبة، كأنها تبصق الكلام بدلًا من أن تقوله. «ليس عليكِ دائمًا أن تكوني الأفضل في كل شيء».

قلت ببطء: «لقد كتبت المقال بنفسي».

قالت: «كفى يا نور. رأيت كتابتك في المشروعات الجماعيَّة. أنتِ... حسنًا... أنتِ تكافحين، أفهم ذلك، فالإنجليزية ليست حتى لغتك الأولى. تتحدثين بها بإتقان شديد...».

«احذري يا جيمي». عاد صلاح الدين إلى مقعده. «بدأ كلانزمان[1] الذي بداخلك في الظهور، بعدما حاولتِ جاهدة أن تخفيه».

يلتفت رأس جيمي بسرعة نحوه، ويشحب وجهها. «ما هذا الجنون يا سال؟ كنت أحاول تقديم إطراء لها. وليس لديَّ ما أحتاج إلى إخفائه». ثم نظرت إلَيَّ متجولة بعينيها فوق وجهي: «ولكن يبدو أن نور لديها ما تخفيه».

شعرت بخدر في أطراف أصابعي، وأقول لنفسي: تنفَّسي. تظن أن صلاح الدين يساعدني على الغش، أو بطريقة ما اكتشفت أنني أخفي استلام ردود الرفض من الجامعات.

أو ربما... ربما تعرف شيئًا آخر.

تهتز ورقتي، لا... تهتز يداي، فأكورهما ليكونا قبضتين وأدسهما تحت مكتبي. تحملق جيمي فيَّ منتظرة مني إنكار أنني أخفي أي شيء.

لكنني لا أنكر ذلك، لأنها محقة.

بمجرد أن يرن الجرس، أخرج من هناك. وتصرخ فرقة «ذا هو» في أذنَي بشأن أراضي المراهقين القاحلة[2]، لذا لا أعرف أن صلاح الدين يناديني إلا عندما يصل إلى جانبي مباشرةً.

قال: «ماذا يحدث؟ كنت أطاردك لما يقرب من خمس دقائق. هل أنتِ بخير؟».

عبارة «*أنا بخير*» على شفتَيَّ، لكنني لا أستطيع أن أقول الكلمات.

- جيمي فقط... لقد أثرت بي اليوم.
- لماذا؟
- لأن...

لا يعرف بشأن ردود الرفض، يعرف فقط أنني تقدمت إلى جامعة بنسلفانيا بسبب تلك المقابلة الكارثية، إذ لم نكن نتحدث في الخريف الماضي حين كنت أرسل سجلاتي الأكاديمية وأكتب المقالات السيئة.

«نور». يخطو ليقف أمامي: «تحدثي معي».

---

(1) المسمى الذي يطلق على أعضاء التنظيم العنصري القديم Ku Klux Klan، ويُعرَف بكراهية ذوي البشرة السوداء والأقليات وممارسة العنف ضدهم.

(2) أغنية «Baba O'Riley».

أرفع رأسي لأنظر إليه. صلاح الدين عيناه بنيتان، إلى جانب أربعة مليارات شخص غيره على الكوكب، ولذا قد تعتقد أن الأغاني عن العيون البنية شائعة، لكنها ليست كذلك. بل لدينا «أيتها العيون الزرقاء» (Hey Blue Eyes)، و«عيون زرقاء شاحبة» (Pale Blue Eyes) و«عيون خضراء» (Green Eyes) و«عيون زرقاء تبكي في المطر» (Blue Eyes Crying in the Rain). ولدينا ألف كتاب فنتازيا يحكي عن أبطال ذوي عيون رمادية. (وهذا كلام فارغ، لأن من في الواقع لديه عينان رماديتان ووسيم وأيضًا ماهر في القتال بالسيف؟ لا أحد).

لكن إذا رأى أولئك المغنون والكتاب عينَيْ صلاح الدين، سيغيرون تلك النغمة، فعيناه باللون البني الداكن الذي يميز أبواب هافيلي[1]، ويحيط بحوافها حلقة دخان. لا أحد لديه عينان مثل عينيه.

أتحدث إليه في عقلي: *لا تنظر بعيدًا. لكن أيضًا، أرجوك انظر بعيدًا، لأن هذا يؤلمني.*

أهمس له أخيرًا: «لم أُقبَل في أي جامعة. قدمت طلبات التحاق إلى سبع جامعات لكن خمسًا منها رفضتني. لم يتبقَّ إلا جامعة كاليفورنيا (لوس أنجلوس) وجامعة نورث وسترن».

- اللعنة يا نور. لماذا لم تقولي شيئًا؟ ماذا عن خياراتك الاحتياطية؟

أهز رأسي: «كانت جامعة فرجينيا هي خياري الاحتياطي، وليس خيارًا ذكيًّا بما فيه الكفاية. اخترت الجامعات التي أردتها بشدة فقط، إذ لم يكن معي نقود تكفي المزيد من طلبات الالتحاق».

- أليس هناك إعفاء من الرسوم أو...

- كنت لأحتاج إلى مستشار من أجل استكمال الأوراق، وخفت من أن يتصلوا بتشاتشو. لقد اضطررت إلى التسلل إلى مكتبه ونبش ملفاته الضريبية، فقط لأتمكن من ملء استمارات المساعدة المالية.

لم تذهب بروك إلى الجامعة، ولا يريدني تشاتشو أن أذهب. مدرسة جونيبر الثانوية بها مستشار توجيهي واحد يقضي معظم وقته في التعامل

(1) هافيلي تعني قصر في اللغة الأردية، وتستخدم للإشارة إلى القصور الكبيرة التي تُبنَى في الهند وباكستان، وتتميز أبوابها بالتفاصيل الفنية التي تجعلها فريدة من نوعها.

مع إدمان الأفيون والحمل في سن المراهقة. مجرد اكتشاف كيف يمكنني تقديم طلبات الالتحاق بالجامعة استغرق مني ساعات من البحث.

- لم تتبقَّ إلا جامعتان. كانت مقالاتي مريعة...

- أراهنك أنهم ليسوا بالسوء الذي تظنينه. أرسليهم لي.

أهز رأسي: «لا جدوى من ذلك. صلاح الدين... ماذا لو لم أُقبَل في أي مكان؟ لا يمكنني البقاء هنا... لا يمكنني...».

أشعر بحرارة في عينَيَّ، فأتظاهر بأن هذا لا يحدث، أتنحنح وأضم ذراعَيَّ متقاطعَتين أمام صدري، لكن دمعة غزيرة تسقط على حذاء صلاح الدين مباشرةً. نحدِّق إليها معًا للحظات قبل أن أرفع رأسي لأنظر إليه. يأخذ خطوة للخلف، ويبدو وجهه مشوشًا بصورة غريبة، قبل أن يهز نفسه.

- نور...

- أنا لا أبكي.

«بالتأكيد لا تبكين». صوته هادئ. يخطو للأمام ويجذبني نحوه، فأندهش لدرجة أنني لا أفهم ما يحدث وأتعثَّر، ثم تلتف ذراعاه حولي ويضمني إلى جسده، تستند ذقنه على قمة رأسي، وأشعر بصعود وهبوط صدره مقابل صدري.

صلاح الدين مالك يعانقني.

إنها هدية غريبة وغير متوقَّعة للغاية حتى إنني أذوب فيه وأطلق لنفسي العنان، منتحبة على صدره هناك في زاوية خلف الممر الرئيسي، والمدرسة كلها في طريقها إلى الصفوف حولنا. أبكي لأنني خائفة، حزينة، أشتاق إلى آنتي، أشتاق إلى والدَي، أشتاق إلى أشياء لا يمكنني التعبير عنها بالكلمات لأنها أُخِذَت مني قبل أن أعرف كم كانت ثمينة.

يرن الجرس. سأتأخر على الصف، وكذلك صلاح الدين. ربما يجب أن أبعد نفسي، فصلاح الدين لا يحب التلامس، وأتصرف بأنانية عندما أتمسك به بهذه الطريقة، لكنني أدرك وأنا أبكي على قميصه شعوري بأنني بلا جذور. لم تعد باكستان بيتي، ولم تكن جونيبر بيتي قط.

لكن صلاح الدين... أشعر بصلاح الدين كأنه بيتي.

لذا أبقى.

17
سال

عناق نور ليس سهلًا.

للحظة قصيرة متوَهِّمة، أظن أنه سيكون كذلك. رفعت رأسها لتنظر إلى عينَيَّ، وتمنَّيت أن أذهب إلى كل جامعة رفضتها وأواجه مجالس القبول بها وأخبرهم أنهم أغبياء ونصابون. لكن بما أن ذلك ليس خيارًا، أعانقها.

ثم بدأت في البكاء. اهتزت كتفاها، ويعرف جزء مني أن هذا لا يتعلق بالجامعة فقط، أو مغادرة جونيبر، أو حتى موت آما. هناك شيء أعمق يجعلها تشعر بهذه الطريقة، ولا أستطيع إصلاحه. إنني حتى لا أعرف ما هو.

لكن يمكنني الاستمرار في ضمها. لذا أفعل هذا، ولا توجد مشكلة فيه، إلى أن يصبح فجأة لا يطاق إذ يغمرني ذلك الشعور، كأنني أريد أن أندفع خارج جلدي. *تَنَفَّس. شهيق لخمس ثوانٍ، وزفير لسبع ثوانٍ.*

هذا لا يساعدني وأكره نفسي للغاية، فأنا لست منطقيًّا، جسدي ليس منطقيًّا. أثق بنور، أعزها، بل أكثر من مجرد «أعزها» بالنظر إلى أنني وجدت نفسي أفكر في مدى طرافتها وكيف تبدو حين تحل مسألة رياضية وشكل شفتيها. والآن، عندما أضمها أخيرًا، لا يمكنني حتى الانغماس في اللحظة، فكل ما أستطيع التفكير فيه هو: *ابتعد.*

ذات مرَّة، قرأت قصَّة عن رجل يعيش في غابات الأمازون المطيرة وكان آخر من تحدث بلغته، بعد موته، لم تُسمَع هذه اللغة ثانيةً، وحاول الناس أن

يتعلموها، لكن ذلك كان مستحيلًا. أحيانًا أشعر أن لغة جسدي مبهمة بالقدر نفسه. وسأموت وأنا الشخص الوحيد الذي عرف كيف يتحدث بها.

أفلت من نور، فتخفض ذراعيها سريعًا.

- هل أنت...

قلت: «على ما يرام. لا تقلقي بشأني». تأخذ أنفاسها بصوت مسموع تكرارًا، وتنبش حقيبتها الممتلئة لآخرها بحثًا عن منديل. وعندما لا تستطيع العثور على منديل، أقدم لها ذراعي.

وأقول: «شعر الذراع، يؤدي إلى نتيجة أفضل من المناديل، فكثافة الخيوط به ثمانمائة».

ضحكت قائلة: «يا للقرف. لن أستخدم شعر ذراعك لأمسح دموعي. أنت حتى ليس لديك الكثير منه».

أقبض على قلبي. «أي نوع من الرجال البنجابيين ليس لديه طبقة دافئة لطيفة من شعر الذراع من أجل» –كنت على وشك أن أقول *فتاته* لكن غيرت رأيي في آخر ثانية– «من أجل أصدقائه ليبكوا عليه».

- قبل كل شيء، لم أكن أبكي. كانت لديَّ بعض الإفرازات من الغدة الدمعية، بالإضافة إلى حالة بسيطة من ضيق التنفس. ثانيًا، لا يمكنك أن تطلق على ذلك طبقة من الشعر، إنه أقرب لأن يكون غبارًا. أنا متأكدة تمامًا من أن بروك لديها على ذراعيها شعر أكثر مما لديك.

- هل تقولين إنني لست رجلًا يا نور؟

«أنت بالتأكيد رجل يا صلاح الدين مالك». تمر بعينيها فوق جسدي بأكثر طريقة لا تشبه نور، وقلبي الذي كان ينبض مؤدِّيًا واجبه منذ لحظة، يفقد صوابه من شدة الإثارة. «لو لم تكن رجلًا، لكانت حياتي أسهل كثيرًا».

- ربما **man-ageable**[1] بصورة أكبر؟

تئن قائلة: «كيف يمكن لشخص جيد بقدرك في استخدام الكلمات أن يقول مثل هذه النكات المريعة؟ على أي حال، شكرًا على العناق وعلى...» تومئ إلى قميصي المبلل.

---

(1) يمزج بين كلمتين، ما يقصده هو «يمكن التحكم فيها»، بينما الجزء الأول من الكلمة يعني «رجل».

- استقبال إفرازات غدتك الدمعية؟

«نعم». تبتسم لي، وابتسامتها كمذَنَّب يومض في السماء. «ذلك الشيء».

نفترق لنتجه إلى صفوفنا. ولأول مرَّة منذ فترة، أشعر بخفَّة في صدري. لأنه مع أنني قد أفقد بيتي وآبو سكير وآما لن تعود أبدًا وجسدي غريب، فقد غازلتني الفتاة التي أقع في حبها.

ولما تبقى من اليوم، لا يمكنني التوقف عن الابتسام.

***

بدأ انحداري إلى عالم الجريمة في جونيبر في الليلة التالية في «ليجاسي فيليدج» (Legacy Village)، أحد تلك الأحياء متشابهة التصميمات التي تحتوي على نادٍ خاصٍّ وشلَّالٍ صناعيٍّ وحارس بوابة مفرط الحماس. أتذكر أنني عندما جئت هنا لحضور عيد ميلاد آرت الثامن، فكرت أن مطبخ والديه يمكن أن يسع شقتي بالكامل.

«تفضل، تفضل». ينحني آرت نصف انحناءة غريبة عندما يفتح الباب، لا بد أنه لا يأتيه الكثير من الزوار.

قادني إلى غرفة بها تليفزيون كبير جدًّا لدرجة أنني أتمنى لو كنا أصدقاء أقرب لأتمكن من لعب Bandit Brotherhood على هذا التليفزيون. ولكنني أغير رأيي بعد دقيقة، فالغرفة جميلة لكنها باردة؛ لم يقلب أحد إناء من حلوى الكير الساخنة فوق الموقد وهو يستنشق رائحة الأرز المنقوع في الحليب والزعفران مخلوطًا بماء الورد. لم يلعب أحد الليدو على هذه الطاولة وهم يملؤون أفواههم بالمانجو الطازجة المثلجة مع صوت فيلم الإمبراطورية ترد الهجوم (The Empire Strikes Back) يدوي في الخلفية.

وضع آرت زجاجتين مثلجتين من البيرة، شيء لم أرَ أحدًا يفعله إلا في الإعلانات.

«لا أحتاج إلى شيء». أدفع المشروبَ بعيدًا، إذ تبدو رائحته كالممر الخلفي للموتيل حين يكون آبو في أسوأ حالاته.

إلى جانب ذلك، أريد الانتهاء من هذا الأمر. أشعر بزجاجات أدوية آما كأنها فحم ساخن في جيبي، لذا أضعها بسرعة على طاولة القهوة. وبينما يتفحصها آرت، أنظر بعيدًا.

أفكر: *أنت تنقذ كلاودز ريست. تضمن أنك وآبو لديكما طعام وسقف فوق رؤوسكما ومياه جارية. أنت تكافح لتنجو.*

قال آرت: «حسنًا، إذن يمكنني أن أبيع هذه من أجلك. لكن أمورك سيئة، أليست كذلك؟ أعني أنك لم تكن لتحاول العمل في مطعم Java House إذا لم تكن كذلك».

وعندما أومئ برأسي، يتعمق آرت في التفكير. يذكرني أحيانًا بتلك السحلية في إعلانات تأمين السيارات، ودود وعميق التفكير وأبله قليلًا، وكل ذلك في الوقت نفسه.

«أعتقد أنك من يجب أن يبيعهم، وليس أنا. استمع لي». يبتسم ابتسامة عريضة كأنه قدم لي تذكرة اليانصيب الفائزة: «سآخذ نسبة من الأرباح بما أنك ستبيع لزبائني، ثلاثون في المائة، لكن إذا سارت الأمور على ما يرام، يمكننا أن نتوسع».

ينقبض صدري بخوف مفاجئ. *شهيق لخمس ثوانٍ، وزفير لسبع ثوانٍ.* آما لديها بعض زجاجات الأدوية لكنها تحتاج إلى خمسةِ أضعاف الكمية لكي أجني المال المطلوب من بنك الاتحاد الأول، لذا اقتراح آرت بأن أبيع لحسابه منطقي.

إنه فقط ليس شيئًا توقعت أن أقوم به يومًا ما.

قال آرت: «ستبدأ بالأشياء البسيطة، مسكنات الألم، آديرال، زاناكس، ذلك النوع من الحبوب. يمكنك التعامل مع الطلاب في فصول المتفوقين. لكن لن تبيع بعد مولي أو ميثامفيتامين أو هيروين».

مولي؟ «حسنًا».

يبتسم آرت. وبينما يتحدث عن الهواتف الرخيصة لتفادي التتبع والحصول لي على منتجات أبيعها، أشعر كأنني أشاهده من فتحة صغيرة. هذه حياتي، لكنها مشوهة وبعيدة وخاطئة، ولا أعرف كيف أعيدها إلى ما كانت عليه سابقًا.

لا يمكنك تغييرها.

لن يكون بيع أدوية آما –وأيًّا كانت الأشياء التي سيعطيني آرت إياها– إلى الأبد. إنه فقط حتى تبدأ أحوال الموتيل في التحسن. لديَّ بالفعل أفكار عن

كيف يمكنني جذب المستأجرين. يمكنني إنجاح هذا، وجعل كلاودز ريست ما كانت آما تأمل أن يكون عليه.

أحتاج فقط إلى وقت.

***

في الخارج، السماء ثقيلة وقريبة. تأتيني نفحة من رائحة مطر صحراء موهافي، تلك الرائحة الفريدة للمطر المتساقط على الأرض الجافة مختلطة بالرائحة الحلوة لحشيشة الشحم. كانت آما تتذمر عند سقوط الأمطار، إذ تكره ازدحام المرور، والتسريب من سقف الموتيل، والشوارع المغمورة بالمياه. لكن بالنسبة إلَيَّ، أشعر أن المطر في الصحراء معجزة. كنا أنا وآبو نشتري الحطب لإشعال النيران، ونسخن فوقه المارشميلو. لم يتحدث آبو قط عن والديه أو عائلته في باكستان، لكن عند سقوط الأمطار، كان يحكي لي قصصًا عن سنواته الجامعية في لندن.

كانت آخر مرَّة أمسك بدفتر المذكرات قبل جنازة آما. لكن ربما يجب أن أكتب فيها قصص آبو، أو أطلب منه أن يحكي لي المزيد. ربما سيساعده هذا على تذكر وقت أفضل.

عندما وصلت إلى المنزل، وجدت أن مكتب آما قد بُعثِر. الفواتير التي نظمتها منثورة في كل مكان، وأميز كتابة آبو العجولة على ورقة، يحصي الأرقام كما فعلت منذ أسابيع. لا بد أنه شعر بالصدمة نفسها التي شعرت بها.

باستثناء أنني لم أختفِ بشرب الخمر عندما عرفت مدى سوء وضعنا.

وجدته نائمًا على الكرسي القابل للانحناء، بينما مجموعة من الرؤوس المتكلمة يهاجمون بعضهم بعضًا بشأن وباء الأفيون. لن أسمع قصصًا من آبو الليلة على ما أعتقد. تأجج الغضب بداخلي عند رؤيته، وأريد أن أهزه حتى يستيقظ، سأصرخ به: *ساعدني أيها الوغد الأناني. ساعدني بالطريقة التي كان يجب أن تساعد آما بها.*

ساد الظلام الغرفة عندما أغلقت التليفزيون، وانتفض آبو مستيقظًا.

- مصباح؟

لا شيء يقتل الغضب أسرع من الشفقة، والأمل في صوت والدي أردى الغضب الذي بداخلي قتيلًا. لم أرغب في الكذب على أي شخص في حياتي أكثر من تلك اللحظة. نعم، *إنها هي يا آبو. إنها هنا.*

أجثو إلى جانبه، وأقول: «هذا أنا يا آبو. صلاح الدين».

صمت، ثم تنهد: «Ussi ki karanh, Putar? Ussi ki karanh?».

ماذا نفعل يا بني؟ ماذا نفعل؟

يومًا ما، كان يعرف إجابة ذلك السؤال. كان يعمل، ذهبنا إلى يوسمايت وديزني لاند، علمني كيف أسدد كرة القدم بانحناءة. لكن بين تلك اللحظات كانت هناك أيام يستيقظ فيها متأخِّرًا، أو يختفي في غرفته. كان ضائعًا. أنا فقط لم أرَ هذا.

«أنا هنا يا آبو». أمسك بيديه الباردتين الضعيفتين بين يدَيَّ. «لا تقلق. سأعتني بكل شيء».

الجزء الثالث

ثم تمَرَّن على أن تفقد أكثر، أن تفقد أسرع:
أماكن، وأسماء، وإلى حيث نويت السفر.
لا شيء من هذا سيسبب كارثة.

- إليزابيث بيشوب
«فن واحد»

18
مصباح

ديسمبر، حينئذٍ

عشنا مع والدَيْ توفيق لمدة شهر، وفي إحدى الليالي، بينما كان توفيق في إسلام أباد للعمل، وصلت والدته، نرجس، إلى المنزل من أيًّا كان المكان الذي أمضت فيه اليوم كله، بعينين غائمتين ورائحة كحول حادة، وكانت كلماتها تنساب وتندمج في بعضها بعضًا تمامًا كأنها تتكلم لغة أخرى.

حاول والد توفيق، جُنِيد، أن يحذرني لأبتعد بأن اقترح بلطف أن أستقل عربة ريكشا إلى والدَيَّ لقضاء الليلة معهما، لكنني لم أفهم.

حتى ذلك اليوم، كانت نرجس مهذبة بما فيه الكفاية، وإن كانت منعزلة بعض الشيء، فلم أستطع التوفيق بين المرأة العدوانية من حفل الزفاف، وهذه الشخصية قليلة الكلام. لكن في وقت متأخر من الليل، كنت أسمعها تتجادل مع زوجها، وكان توفيق ينام في أثناء هذا، لكنني كنت أظل مستيقظة وأستمع، نافرة من قسوة كلماتها ومأخوذة بها.

في هذا اليوم، سَمِعَتْ جُنِيد وهو يحذرني فتعثَّرت متجهة نحوي، وقبضت على وجهي بقوة، فحبست أنفاسي إذ كانت رائحتها شنيعة.

سألتني: «هل زوجة ابني الجديدة أرق من أن ترى مثل هذا السلوك؟».

فناشدها جُنِيد: «نرجس، اتركيها. إنها عروس جديـ...».

قهقهت نرجس: «لم تعد جديدة، لقد قُطِفَت. أنا أيضًا قُطِفْت، منذ زمن بعيد، لكنني كنت أصغر، أصغر بكثير...».

«نرجس». حاول جُنيد أن يخطو بيننا، فدارت بي بعيدًا عنه، بإبهام وسبابة كالكماشة حول ذقني.

- لقد أنقذني جُنِيد، وأنقذ توفيق.

حاولت أن أبتعد لكنها لا تطلق سراحي. «زوجك ابن عاهرة، هل كنتِ تعرفين؟ لكن جُنيد... جُنِيد بطلي». قالت الكلمة الأخيرة بازدراء، ثم أصبح زوجها بيننا فخلصني من قبضة نرجس وقادني إلى خارج المنزل معتذرًا، وأوقف لي عربة ريكشا وأعطى السائق عنوان والدَيَّ.

لم يقُل لي إن نرجس تكذب أو إنني يجب ألا أستمع إليها أو إنها مجنونة، فكل ما قاله: «سيأتي توفيق إليكِ عندما يعود من إسلام أباد».

عندما وصلت إلى منزل والدَيَّ، توقعت أن تصيبهما الصدمة عندما أخبرهما بما حدث، لكن والدي تنهَّد فحسب وأشار لي لنسير عبر الفناء إلى غرفته. جلسنا معًا على سريره التشيربوي[1]، فأصدرت حباله أطيطًا تحت أوزاننا.

بدأ والدي يتكلم: «جُنِيد شخص جيد، وكذلك توفيق، وكذلك نرجس».

- لكن ما قالته عن توفيق...

قال والدي: «لقد عاشت حياة صعبة، وساعدها جُنِيد على الهروب من هذه الحياة، لكنها تركت علاماتها يا فراشتي الصغيرة».

- إنها... إنها تصلِّي. كيف لها أن تصلِّي في حين تعيش حياة أخرى، تشرب وتفعل أشياء أخرى لا يعلمها إلا الله...

«نعم». أصبحت نبرة والدي حادة. «يعلمها الله. ما تفعله أو لا تفعله ليست أمورًا يحق لكِ أن تحكمي عليها يا مصباح».

جاء توفيق لأخذي في اليوم التالي، وانتقلنا إلى شقَّة ذات باب أزرق بجانبها فرن من الطين عند الناصية، وبالقرب من بيت والدَي. انشغلت أمي بالبحث عن عروس لأخي، لكن بابا زارني بانتظام، وكذلك جُنِيد، وكانا غالبًا

(1) Charpoi هو نوع من الأسرة التقليدية المستخدمة في باكستان، ويتكون عادةً من إطار من البامبو مُغطًّى بشبكة من الحبال.

يمضيان المساء منحنيين على لعبة الكيرم بينما يضحكان على فكاهة توفيق الهادئة.

زارتنا والدة توفيق أيضًا، لكن دائمًا في وقت متأخر من الليل، تتحدث ببنجابية متلعثمة، ويتغير صوتها بين التضرع والانفجار. كلما كنا نسمعها بالخارج، كان توفيق يتركنا، ثم يعود بعد عشر دقائق أو ثلاثين، ويتصرف كأن شيئًا لم يحدث. لكنه إن نام في تلك الليالي، كان يحلم وتنتهي أحلامه، دائمًا، بالعرق والرعب.

قال لي ذات مرَّة حالما استيقظ: «أنا خائف من أنها ستدمر نفسها، خائف من أنني لا أستطيع إنقاذها».

جاء جُنِيد كل يوم تقريبًا، يمر علينا في طريقه إلى البيت من العمل. كان يحب توفيق بضراوة ساكنة، وبمرور الوقت، أصبحنا صديقين. عندما كان توفيق يسافر، كان جُنِيد يحضر طعامًا ويأكل معي. وعندما تحل الأمطار الموسمية، كان يكسح المياه من المنزل ويملأ الأكياس الرملية. كنت أسأله أحيانًا عن طفولته في شرقبور، وعن أخته التي كانت تعيش بعيدًا في كراتشي، لكنه لم يُجِب قط.

كان يقول: «احكي لي قصصك، فهي شائقة أكثر من قصصي».

كان ذا صوت لطيف وطبيعة ساكنة. وقد تشاركنا نحن الأربعة -أنا وتوفيق وجُنِيد ووالدي- الضحك والقصص وعددًا لا نهائي من أباريق الشاي. لم يسأل جُنِيد قط بشأن إنجاب أطفال، على الرغم من أن أمي ألحت عليَّ بلا توقف. لم ينتقد أي شيء قَطُّ. كان يوجد فحسب، روح عجوز هادئة، مكتفيًا بأن يكون بالقرب منا.

ثم في أحد الأيام، لم يأتِ جُنِيد.

19
سال

أبريل، الآن

عندما كنا أنا ونور نشاهد مسلسلات تليفزيونية عن مجرمين يقومون بأشياء غبية للحصول على مال، كنت أسخر منهم.

الآن أفهم الأمر. الأشياء الغبية سهلة بصورة مغرية، وعائدها ضخم.

لكن هذا لا يقلل شعوري بالذعر من أن يُقبَض علَيَّ. إذ أقلق من أن ينهار كل ما أحاول إصلاحه، أن يجد آبو مخزوني من المخدرات ويبدأ في تعاطيه، أن يمسك إرنست بي ويطردني من المدرسة، أن تقبض عليَّ الشرطة.

لكن الأسوأ من الخوف من أن أُلقَى في السجن هو تخيل وجه نور إذا عرفت ما أقوم به. الشجار الجزء الثاني. ولن تكون نور الهادئة مكسورة القلب، بل نور الثائرة. تجار *المخدرات الحثالة* هو الوصف الذي قالته. وإذا اكتشفت الأمر، لن تتحدث معي ثانيةً أبدًا.

بعد بضعة أسابيع من بداية عملي لحساب آرت، يقابلني خلف الموتيل، وبينما يصرخ قائلًا: «ساااااال»، يضم يدَيه معًا كأنه رئيس عصابة يحيي قاتلًا مأجورًا مخلصًا.

إنه يتصرف بحميمية مزعجة، لكنني لن أشكو لمثل هذا السبب. فخلال الأسبوع الأول تحت وصايته، جنيت ما يكفي من المال لأستعيد السيارة السيفيك من ساحة السيارات المُستَرجَعة. وبعد ذلك بأسبوع، دفعت فاتورة

المياه وفاتورة القمامة وفاتورة الكهرباء. وأمس، دفعت ثمانمائة دولار لبنك الاتحاد الأول وأقنعتهم بتمديد الموعد النهائي للدفع حتى 30 أبريل.

تواصل المستشفى الاتصال بي، لكن من السهل تجاهلهم. سأدفع لهم أيضًا، بعدما أصبحت أخيرًا أسيطر على الأمور.

بعد أن أسلم إلى آرت نسبته من الأرباح، يقدم لي مؤونة الأسبوع التالي معبئة بنظام في حاوية.

«أرسلت أمي بسكويتًا»، ويبتسم ابتسامة واسعة لأنه يحب استخدام الرموز الغبية. «أنت لا تحتفظ بأشيائك في البيت، أليس كذلك؟ أو في السيارة؟».

أهز رأسي. هذا من أول الأمور التي علمني إياها، ومنذئذٍ أستخدم علبة طلاء في سقيفة بالجزء الخلفي من الموتيل. قال لي: *آخر ما تحتاج إليه هو أن يسرقك أحد*. وعندما سألته إذا كان يجب عليَّ أن أحمل سلاحًا، ضحك عليَّ وبدأ يدعوني والتر وايت تيمُّنًا بشخصية مسلسل بريكنج باد.

بينما أضع الحاوية في حقيبة الظهر، يبحث آرت عن سيجارة ويسب عندما تطفئ الرياح نار ولاعته. «رأيت أتيكس يتودد إليك. تَذَكَّر...».

«العملاء ليسوا أصدقاء». أعيد كلماته إليه لكنني لا أحتاج إلى تذكِرة، فعلى الرغم من أنني لم أتعرض للكثير من المضايقات منذ المدرسة الإعدادية، لم يكن لديَّ حشدٌ من الأصدقاء أيضًا. جونيبر عنصرية بصورة عفوية، ومع أنني أتمتع بما تشير نور إليه بمصطلح «مناعة الرياضات الذكورية»، فلا يزال هناك بعض التعليقات الساخرة أو الدَّفعات العرضية في الممر.

ومع ذلك الآن، حتى الحمقى الذين كانوا يسعلون قائلين «راعي الجمل» حين أمر بجانبهم يتصرفون بأدب، إذ يريدون حبوبهم، وأريد أموالهم.

أسأل آرت: «ولماذا تبيع لأشلي ما دام من المفترض ألا نكون أصدقاء عملائنا؟».

يجيبني آرت: «أشلي من العائلة، لن تغدر بي أبدًا». ثم ينظر إلي متفكِّرًا، ويقول: «أنت تبلي بلاءً حسنًا. معي بضائع مربحة أكثر من الآديرال والأوكسيكودون. هل أنت مهتم؟».

يلوح تاريخ 30 أبريل في رأسي، فأقول: «نعم، سيكون ذلك عظيمًا».

- صلاح الدين؟

ظهرت نور في المنعطف المؤدي إلى الممر قادمة من الموتيل، وحاملة حقيبة الظهر على كتف واحدة. كانت قد توقفت عن وضع مكياج لبضعة أسابيع، لكنها تضعه اليوم مرَّة أخرى، فتبدو عيناها أكبر وعظام خديها أكثر بروزًا.

قالت: «اعتقدت أنني أسمع صوتك هنا». ولفترة وجيزة، أشعر بالذعر متسائلًا عن مقدار ما سمعته. «مرحبًا يا آرت».

«تحياتي، سيدتي الجميلة». أبذل قصارى جهدي لكيلا أدير عينَيَّ عندما يقلب آرت نظره بيننا بابتسامة ذات مغزى. «سأغادر الآن. أراك لاحقًا يا سال».

«ماذا كان يفعل هنا؟» تسير نور معي عائدين إلى الشَّقَّة، وفجأة أشعر أن الحاوية في حقيبتي أثقل من آبو عندما يكون فاقد الوعي تمامًا.

قلت لكيلا أكذب: «يدخن سيجارة».

نظرت نور إلي بارتياب، ويصدر حذاؤها صوتًا لسحق الرمال التي توسخ موقف السيارات. اعتادت آما أن تنظفه من الرمال تمامًا كل أسبوع، في حرب عنيدة خاضتها مع الصحراء.

قالت نور: «لكن ما الذي كنتم تتكلمون عنه؟ لم أعرف أنكم أصدقاء».

قلت بعد لحظة صمت: «تحدث عن أشلي». أنا ملك الحمقى لذكر حبيبتي السابقة، لكن ذلك يفي بالغرض، إذ يتقلص وجه نور ولا تسأل عن آرت ثانيةً.

قبل أن أبدأ تجارة المخدرات، لم أكن لأتلاعب بها بتلك الطريقة قَطُّ. أكره أن إخفاء كل هذا عنها صار سلوكًا معتادًا الآن.

ربما يغيرني العمل لحساب آرت. أفكر في كتاب كان مقرَّرًا علينا في اللغة الإنجليزية بالصف الحادي عشر، رواية «صورة دوريان جراى»، كيف ظلت صورة الشخصية الرئيسية تتحول من قبيح لأقبح مع استمراره في ارتكاب أفعال أسوأ، كيف يجعل كل تصرف مخادع ورذيل التصرف التالي له أسهل.

بمجرد أن ندخل، تقول نور سلام لآبو الذي يبدو نصف واعٍ لأول مرَّة من أيام، حتى إنه يؤجر غرفة.

لقد وعدت نور بأنني سأتحدث معه، لكن الأمر سار بالسوء نفسه الذي توقعته، إذ أومأ برأسه طوال الوقت ثم سار مبتعدًا، وبعد ساعتين، أخذ زجاجة Old Crow خلسة إلى غرفته. عندما اتصلت براعيته جانيس، تنهدت.

- لا يمكننا مساعدته حتى يريد أن يساعد نفسه يا سال.

تتوضأ نور ثم تصلي النماز[1] في الغرفة الأمامية مثلما تفعل معظم الأيام في فترة الظهيرة. لم تعلق خلال الأسابيع القليلة الماضية عندما فوَّت النماز، لكنها اليوم تعطيني سجادة الصلاة الخضراء المهترئة.

وتقول بهدوء: «إنها تساعد. ثق بي».

عندما أنهي الصلاة، لا أقف. كان الجزء المفضل لدى آما في النماز هو نهايتها، إذ تدعو الله أن يحقق لها كل ما تحتاج إليه، بدءًا من الأشياء الصغيرة مثل أن تضاء كلمة **لا** على لافتة الغرف الشاغرة، إلى الأشياء الكبيرة مثل الصبر والصحة.

كانت تقول: «كلما دعوت بالمزيد، كان أفضل، لأن هذا يعني أنك تضع إيمانك فيما هو أعظم من نفسك».

لم أفعل ذلك قَطُّ، لأنني شعرت كأنني أتخلى عن التحكم في حياتي. إذا تركت كل شيء للخالق، فما الذي يفترض أن أقوم به؟

والآن إذ أجلس هنا، أفكر أنني يجب أن أطلب شيئًا ما. هل يستمع الله إلى تجار المخدرات؟ سأتظاهر أن الإجابة نعم. *أرجوك اجعل آما تكون في سلام. أرجوك اجعل نور تلتحق بالجامعة. أرجوك اجعل آبو يتوقف عن الشرب. أرجوك اجعلنا نحتفظ* بكلاودز ريست.

بعدما طويت السجادة، وجدت نور تفتش في الثلاجة.

قلت: «آسف، ليس هناك الكثير». لأن كل المال الذي جنيته نَفِدَ في دفع الفواتير المتأخرة، لكنني اشتريت بيضًا. أذهب لأخذه من الثلاجة، وعندما ألكزها لأبعدها عن الطريق تقفز بعيدًا.

قلت: «تمهلي. هل أنت بخير؟».

قالت بصوت حاد: «آسفة. انغلق باب الفريزر على ذراعي في المتجر ويؤلمني بشدة...».

---

(1) كلمة فارسية تعني «الصلاة» ويستخدمها المسلمون في بعض الدول الأسيوية للإشارة إلى الصلاة الإسلامية.

«ليس هناك مشكلة». إنها تتصرف بغرابة، لكنني أتجاوز الأمر، فليس كأنني شخص جديد بإطلاق الأحكام. أخرج بعض البيض: «Aanda curry؟». **بيض بالكاري.**

تومئ برأسها: «لكن اجعله chat-pati[1]، لا تستخدم الهالبينو الضعيف الذي تشتريه من Ronnie D's، استخدم التوابل القوية، 'لال ميرش' (Lal mirch)».

- يؤلم لال ميرش معدتي.

«كيف تُعَدَّ باكستانيًا يا صلاح الدين؟». تبحث داخل الخزانة وتخرج مرطبانًا قديمًا من صلصة الاسباجيتي المفعَمة بالفلفل الحار. «أنت محرِج للغاية».

- يا للقسوة. عندما تصبين صلصة تاباسكو على البطاطس المقلية التي نأكلها معًا، لا يتحول وجهي إلى هالبينو...

تئن وتضع أصابعها فوق شفتَي: «لا نكات عن الخضراوات...».

أدرك أنها تلمسني في الوقت نفسه الذي تدرك فيه ذلك.

تهمس: «آسفة». صوتها ليس حادًّا الآن، بل ناعم ولذيذ كأن الكلمة مصنوعة من الكراميل. لا يتحرك أيٌّ منا. وعيناها البنِّيَّتان تجعلان رأسي يدور، ذلك الدوار الممتع الذي تشعر به عندما تميل رأسك إلى الخلف فوق الأرجوحة وتشاهد الأفق يقترب ويبتعد. أتساءل كيف كنت بهذا الغباء في الخريف الماضي، عندما قبلتني. أريد أن أجد صلاح الدين الذي كان هناك وأبرحه ضربًا.

أترك الغضب يتلاشى، وبدلًا منه أتمسَّك بكمال هذه اللحظة، برائحة نور الدافئة التي برائحة النعناع، وثنيات جسدها تحت تي شيرت فرقة «ذا كيور» البالي، وأصابعها السمراء الرقيقة، والدبُّوس الفضة في أنفها.

أهمس: «نور». وفي تلك اللحظة تمامًا، عندما تنحني نحوي وأشعر بوخز في جلدي بطريقة جيدة لأول مرة، يرن صوت الإشعارات بهاتفي المؤقت اللعين، الموضوع على الطاولة خلف نور.

---

(1) مصطلح هندي يعني «مثير للشهية» ويشير إلى الأطعمة المملوءة بالتوابل الحارة والحامضة والمالحة.

ليست لديَّ أرقام على هذا الهاتف، لكنني أميز الرقم، إنه أتيكس، ولا يمكنني تجاهله، فهو سيقيم حفلة في نهاية الأسبوع، وهذه فرصة لأجني الكثير من المال.

«فقط... أمم... فقط ثانية واحدة». أبتعد عنها، وبعدما أرسل له أنني سأكون هناك، أجد نور تراقبني.

سألتني: «هاتف جديد؟»، وتنظر إلَيَّ بنظرة شديدة الثبات لدرجة تؤكد لي أنها تعرف بالضبط ما الذي أستخدمه فيه.

قلت: «كانت آما لديها هاتف منفصل للعمل»، وهذه ليست كذبة، وإن كانت لا علاقة لها بحقيقة أنني أبيع مخدرات. ألتفت إلى البيض. «أيمكنك إعطائي وعاءً؟».

أرجوكِ لا تطرحي علَيَّ المزيد من الأسئلة، أتوسل إليكِ. أرجوكِ.

يومًا ما قريبًا، سأنتهي من دفع مستحقات بنك الاتحاد الأول، وسأكتشف كيف يمكنني جني أرباح من كلاودز ريست، ولن أحتاج إلى ارتكاب أفعال غير قانونية. ربما عندئذٍ سأخبر نور بشأن كل هذا، ويمكنها أن تصرخ فيَّ وتغضب مني، لكنني سأستطيع وعدها بأنني لن أفعل ذلك مجدَّدًا أبدًا.

تلتف إلى هاتفها، وينطلق صوت جيتار كهربائي في الهواء، فأسألها: «من هذا؟».

قالت بهدوء: «فرقة Echo and the Bunnymen، أغنية 'القمر القاتل' (The Killing Moon). صلاح الدين...» تلقي نظرة على هاتفي المؤقت وأحتاج إلى إجبار نفسي على التنفس. *شهيق لخمس ثوانٍ، وزفير لسبع ثوانٍ.*

ثم هزت رأسها، وقالت: «لا تنس وضع lal mirch»، وتعطيني المرطبان.

20
نور

أبريل، الآن

لا يمكنك أن تتسلل إلى مسجد جونيبر، لأنه ليس مسجدًا بالضبط، بل هو غرفة مساحتها 3.5 متر x 3.5 متر في الجناح الشمالي من معبد جميع الأديان في قاعدة جونيبر العسكرية. يأخذ الهندوس الغرفة كل خميس، ويأخذها المسلمون كل جمعة، ويأخذها اليهود كل سبت، ويأخذها البروتستانت باقي أيام الأسبوع.

لم آتِ إلى هنا منذ شهور، لأن ذلك يتطلب المرور من بوابات القاعدة العسكرية، مما يعني أنني يجب أن أبرز بطاقة الهوية وأجيب عن أسئلة على غرار «إلى أين تذهبين؟» و«لماذا؟» و«انتظري، ألدينا مسجد في القاعدة؟» من جنود ممسكين ببنادق عملاقة.

لكن اليوم لديَّ وقت إذ سمحت لي أولوتشي، منسقة متطوعي المستشفى، بالرحيل مبكِّرًا اليوم.

قالت لي: «اذهبي لتحظي بحياة يا نور. اذهبي إلى حفلة. استمتعي قليلًا. فأنت مثل كلب بحر عجوز يعيش في جسد مراهقة».

لكنني لست في مزاج للحفلات، بل في مزاج «اللعنة، يستحسن أن أصلي» بما أنني استلمت رفضًا آخر بالإضافة إلى كل ردود الرفض السابقة، فجامعة نورث وسترن لا تريدني.

مما يعني أنه لم تبقَ سوى جامعة كاليفورنيا (لوس أنجلوس).

في فترة العصر من هذا الجمعة، يوجد خمسة أشخاص آخرين في «المسجد»، الإمام شفيق وخديجة ورجل جيش يرتدي الزي العسكري وزوجان مسنان لا أعرفهما.

لا توجد خطبة في هذا الوقت، فالإمام شفيق يلقيها في صلاة الظهر. وكانت الصلاة قد بدأت للتو حين أدخل وتومئ لي خديجة لأذهب إلى جانبها.

أحاول أن أستغرق في إيقاع صوت الإمام شفيق. عادةً ما يطمئنني المسجد، فمهما كانت مشاعري سلبية، أجد هنا شعورًا بالانتماء.

لكن اليوم، كل ما يمكنني التفكير فيه هو أنني إذا لم أُقبَل في جامعة كاليفورنيا (لوس أنجلوس) سأظل عالقة في جونيبر لأعمل في متجر الكحوليات. يمكنني أن ألتحق بالجامعة الأهلية في جونيبر، ثم أنتقل إلى برنامج دراسي لأربع سنوات، لكن تشاتشو لن يدعني أفعل ذلك.

لا يحق لي الحصول على ما لم يحصل عليه.

الغضب شيء مشترك بيننا أنا وتشاتشو، وأعتقد أنني أكرهه بشدة لذلك السبب. يتصاعد بداخلي الآن، فأحاول إخماده.

أنتِ أفضل من هذا المكان. تستحقين أكثر من هذا المكان. يحارب الأمل الذي تركته آنتي لي الغضب بداخلي. حتى في النهاية، آمنت بي.

انتهت الصلاة، وأشعر بأنها انتهت فجأة، لكنني فقط لم أكن منتبهة. تختفي خديجة في الخارج ممسكة بالهاتف على أذنها، وما زلت على سجادة الصلاة عندما يأتي نحوي الإمام شفيق.

«نور، سلام...» يلقي نظرة على يدَي المغلقتين في قبضتين محكمتين للغاية حتى أبدو كأنني على وشك بدء الملاكمة، فأرخيهما وقد تركت أظفاري نصف أقمار غاضبة في راحتَيَّ.

- يسعدني قدومك. أيمكنك مساعدتي في التنظيف؟ أريد ضمان أن يكون المكان جاهزًا غدًا للإخوة والأخوات اليهود.
- الأشخاص الثمانية كلهم؟

«اثنا عشر الآن»، ويبتسم الإمام: «قال الحاخام ألبرين إن عائلة جديدة انتقلت إلى هنا من لوس أنجلوس».

لا يعرفون مدى الملل الذي سيشعرون به. بينما أطوي سجادات الصلاة يكنس الإمام شفيق الأرض.

ثم سألني بعد بضع دقائق: «كيف تتعاملين مع ما حدث يا نور؟ كنتِ قريبة من آنتي مصباح».

- أشتاق إليها، وكذلك صلاح الدين.

- يسعدني أنكم تتحدثون معًا، فهو يحتاج إلى صديق الآن، كلاكما تحتاجان إلى هذا.

صديق. أستحضر تلك اللحظة حين وضعت إصبعي على شفتَيْ صلاح الدين، الطريقة التي كان ينظر إلَي بها. وفكرت: *أخيرًا، أخيرًا.*

***

منذئذ، لم يحدث شيء. أمس، بعدما أنهيت الغسيل وأنهى صلاح الدين تنظيف الغرف، تجولنا في مدينتي سوات وكراتشي على خرائط جوجل، وشاهدنا مدونات سفر عن مسجد بادشاهي وحصن لاهور. لا بد أنني زرتهما في طفولتي لأنني عندما أنظر إليهما أشم رائحة الحجر الرملي الأحمر الترابية، وأشعر بأصداء الأذان في جسدي، وأسمع صوت الفرقعة في أسلاك الكهرباء المباشرة.

قال صلاح الدين ذلك اليوم: «*أفتقدها، على الرغم من أنني لم أزرها سوى مرَّة واحدة*».

- *ما الذي تتذكره؟*

- *أتذكر آما مع كل أقاربها مجتمعين حول هذا البرميل الضخم من المانجو المثلجة، كانوا يقطعونها فيقطر منها العصير وكان الجميع يضحكون. أتذكر أنني افتقدتك، وتمنيت لو كنتِ معنا.*

قلت له: «*باكستان تعيش في دمنا. إذا زرتها مرَّة أخرى يستحسن أن تأخذني معك، فلغتك البنجابية مقبولة لكن الأردية محرجة*».

«*سأريدك أن تذهبي معي حتى لو لم تتحدثي بالبنجابية أفضل مني*». ثم نظر إلَيَّ نظرة، موجزة وداكنة، نظرة أججت النيران بداخلي.

نظرة بالتأكيد لا أريد أن أفكر فيها بينما أتحدث مع الإمام.

***

قال الإمام شفيق: «... كانت كأنها والدتك، أتصور ذلك».

«هل تعتقد أنك والأخت خديجة ستنجبان أطفالًا يومًا ما يا إمام شفيق؟» بعدما يفلت مني السؤال دون تفكير، أدرك كم هو أمر شخصي، وكم يُعَدُّ من الوقاحة أن أسأل عنه. «آسفة...».

«لا، لا داعي للاعتذار». يبدو الإمام متفاجئًا. قال: «ما زلنا شبابًا، وتريد خديجة أن تثبت أقدامها في ممارسة المحاماة، لكن بالتأكيد، في نهاية المطاف سنفعل ذلك».

- ما... ما الذي يميز الوالدَيْن الصالحَيْن؟

قال الإمام شفيق: «الوالدان الصالحان يعتنيان بكِ، يمنحانكِ المأوى، يرشدانكِ، يوفران لكِ الطعام. إنهما يحترمانكِ ويحميانكِ».

عندما ينظر إلى أعلى، يقطب حاجبيه، وأشعر كأن هناك ضوءًا مُسَلَّطًا علَيَّ، لكنه يعود إلى الكنس، ويقول: «ذلك الشيء الأخير، الحماية، إنها مهمة جدًّا».

قلت: «ماذا لو كان الوالد لا يفعل ذلك؟ ماذا لو كانت تصرفات الوالد تؤذي طفله؟».

تتوقف المكنسة عن الحركة. غبية *يا* نور. لماذا فتحت فمي الكبير؟

- نور، إذا كان شخص ما يؤذيكِ يمكنك إخباري، أو إخبار خديجة إذا كنتِ تفضلين ذلك.

قلت: «لا، لقد أسأت فهمي. أنا قلقة بشأن عمي توفيق، والد صلاح الدين». أقول ذلك بسرعة، بسرعة جدًّا لدرجة أن الكلمات أصبحت حقيقية. عمي توفيق، *أتحدث عن عمي توفيق.*

- يدير صلاح الدين الموتيل بمفرده منذ وفاة آنتي مصباح، وعمي توفيق... إنه يشرب طوال اليوم، كل يوم. لا يؤذي صلاح الدين جسديًّا، لكن...

تنهد الإمام شفيق: «كنت أتساءل بشأن هذا. لم تتحدث عنه مصباح».

- لا يذهب عمي توفيق إلى اجتماعات العلاج أو يتحدث مع راعيته. ويحتاج صلاح الدين إلى أن يتخرج من المدرسة الثانوية، أن يحظى

بحياة. لكن بدلًا من ذلك، يحاول القيام بكل ما كانت تقوم به آنتي مصباح.

قال الإمام شفيق: «جميعنا نخوض صراعات يا نور. وصراعات عمك توفيق جسيمة. كان يجب عليَّ أن أزوره. على الرغم من أنه لا يوجد الكثير من المسلمين هنا في جونيبر، لكن يجب ألا يشعر أحدنا بأنه وحيد. شكرًا لتذكيري بذلك».

أرشدني إلى خارج الغرفة ثم أغلقها بالقفل. وخرجت خديجة من سيارتهم الرياضية ذات الدفع الرباعي.

قالت لي: «ألقي بدراجتك في الخلف، وتعالي لتناول العشاء معنا».

قال الإمام شفيق: «سأحَضِر برياني الدجاج باستخدام وصفة ناني[1]. علمتني إياها في آخر مرَّة زرت فيها لاهور. فلتدعي صلاح الدين ويمكننا أن نذهب لاصطحابه».

أتساءل كيف سيكون تناول العشاء مع خديجة وشفيق، قضاء الوقت معهما ومع صلاح الدين كأننا عائلة، الجلوس مع أشخاص لا يكرهونني لأنني أذهب إلى المسجد.

أضف إلى ذلك الطعام. يسيل اللعاب في فمي لمجرد التفكير في وعاء أرز متبل ينبعث منه البخار، وقطع الدجاج الصغيرة المنقوعة في بهارات جارام ماسالا، مع البصل المقلي موضوعًا بالأعلى.

أكاد أحتاج إلى مسح اللعاب عن وجهي.

«شكرًا، لكن لا يمكنني». تصرخ براعم التذوق لديَّ احتجاجًا. *آسفة يا براعم التذوق*. إذا رأى تشاتشو الإمام شفيق وخديجة يوصلانني إلى المنزل، فلن ينتهي أبدًا من لومي. «سيحَضِّر تشاتشو «كيما الو» (Keema aloo) الليلة. وأيضًا، امم، باراثا». أكذب على الإمام. أتساءل أين يقع هذا على مقياس ممتد من يمكن غفرانه إلى يستوجب العذاب في النار.

توجه خديجة نظرة إلى شفيق، لكنني صعدت فوق دراجتي بالفعل، ويربت الإمام شفيق على معدته.

- المزيد من البرياني لي. بابنا مفتوح دائمًا، اتفقنا؟

(1) تعني جدتي في اللغة الأردية.

كانت آنتي مصباح عندما تشعر بالغيرة تقول: -Minue theh aag laagi hoi eh. **أنا أشتعل**.

في هذه اللحظة، أنا أحترق. يزور الإمام شفيق باكستان كل عام، لقد رأيت صوره على إنستجرام، ويتحدث باللغة الأردية بكل سلاسة، وعزف أخواته على طبول الدهولكي (dholki) في حفل زفافه في لاهور. كان أفراد عائلته يميلون على بعضهم بعضًا في مقاطع الفيديو التي نشرها، ويمزحون معًا في التعليقات أسفلها.

ذهب إلى بحيرة سيف الملوك في شمال باكستان حيث وقع الأمير في غرام جنية. وأكل الذرة المحروقة المغطاة بالفلفل الحار في سوق أناركالي المسمى تيمُّنًا بالجارية التي ماتت من أجل الحب. وشاهد وادي هونزا وحديقة هينجول وقصر المرايا في لاهور.

وُلِدَ الإمام شفيق في أمريكا، لكنه يعرف باكستان بالطريقة التي أريد أن أعرفها بها، وصولًا إلى البرياني.

أتمتم مودعة وأقود الدراجة. الدواسات متيبسة بسبب البرد، ويجب أن أذهب إلى المنزل، لكنني أقود حول القاعدة إلى أن يحل الظلام. أشعر باختناق في حلقي، وتتصاعد الأفكار في رأسي.

لا تفكري في ذلك. اصمتي، اصمتي يا نور. لا تفكري في ذلك.

لكنني أفكر في ذلك بالفعل: *أتمنى لو كان الإمام شفيق وخديجة هما عائلتي.*

أكره نفسي بسبب هذا. أكره أنني ما زلت تلك الفتاة الساذجة التي أتت إلى أمريكا للتو قادمة من باكستان. أكره أنني أتمنى شيئًا لن يحدث أبدًا.

أشعر بالغضب ثانيةً، غضب لاذع حاد، ولا يمكنني أن أخرسه.

أعتقد أنني لذلك السبب لا أكلف نفسي عناء الدخول بهدوء عندما أصل إلى منزل تشاتشو، لذلك السبب أتجه إلى غرفة المعيشة على الرغم من أن الذهاب مباشرةً إلى غرفتي هو التصرف الأذكى.

«أين كنتِ؟» يغلق تشاتشو التليفزيون. إنه يكره الكيما الو، ويكره الباراثا، مثلما يكره كل ما يأتي من باكستان، ومن ضمنهم أنا، وبخاصة أنا.

بقية المنزل هادئ، فبروك تعمل في المتجر مساء الجمعة.

قلت: «كنت في... في المكتبة. لديَّ مشروع في مادة الأحياء».

أكمل تشاتشو شطيرته، ومضغها ببطء، ثم وقف.

- هل تعتقدين أنني غبي يا نور؟

لو كنت أعتقد ذلك، ما كنت لأتصبب عرقًا. «لا يا تشاتشو».

- لأنني أعمل في متجر كحوليات تعتقدين أنني مغفل، لأنني لديَّ لكنة...

- ليست لديك لكنة...

- أعرف أنك ذهبتِ إلى المسجد.

- كيف... كيف عرفت ذلك؟

ذهب إلى المطبخ، وانغلق باب الكابينة بقوة عندما ألقى بقمامته. قال: «لم أعرف. مررت بكِ وأنتِ متجهة نحو القاعدة العسكرية، ومجموعة الصلاة الصغيرة المتخلفة هي السبب الوحيد الذي يدفعك للذهاب إلى هناك. وأنتِ أكدتِ ذلك للتو».

عاد تشاتشو إلى غرفة المعيشة، وسار ذهابًا وإيابًا لمرَّات عديدة فأفقد قدرتي على عدها. ويفعل ذلك الشيء بقبضتيه.

يفتحهما، ويغلقهما.

هناك أغنية لراديوهيد وجدتها منذ بضع سنوات، تُدعَى «روح الشارع (أن نتلاشى)» (Street Spirit (Fade Out)). أتمنى لو يمكنني أن أعيش كلمات تلك الأغنية. أتمنى لو يمكنني أن أتلاشى من هذه اللحظة، وهذه الغرفة. أتلاشى من هذه العائلة. أتلاشى من هذه الحياة.

أراقب تشاتشو، وتلك القبضتان تنفتحان، وتنغلقان.

مغلقتان.

كنت في السادسة من عمري عندما تعرضت قريتي في باكستان لزلزال. قاد تشاتشو السيارة لمدة يومين من كراتشي لأن الرحلات الجوية إلى شمال البنجاب كانت متوقفة. وعندما وصل إلى القرية، زحف فوق أنقاض منزل جدي وجدتي، حيث كان والداي يعيشان أيضًا، وبينما بحث بين الأحجار بيديه العاريتين، أخبره العاملون في خدمات الطوارئ أن ما يفعله لا فائدة منه.

لقد دميت راحتا يديه، ونُزِعَت أظفاره، كان الجميع ميتًا، لكن تشاتشو واصل الحفر، فقد سمع صوت بكائي وأنا محاصرة في خزانة. أخرجني من هناك، وأخذني إلى المستشفى ولم يفارق جانبي قَطُّ.

هذا هو تشاتشو، لقد أنقذني.

لقد أنقذني.

لقد أنقذني.

يقول عندما أعود من الذكرى: «أتمنى أن تستمعي لي». ينخفض صوته: «لا تستمعين لي أبدًا. لماذا لا تستمعين لي يا نور؟ لست أحمق. تلقيت تعليمًا. لكنك تظنين نفسك أذكى كثيرًا، أليس كذلك؟ حسنًا، إذا كنتِ ذكية لهذا الحد اكتشفي كيف ستذهبين إلى المدرسة غدًا من دون الدراجة، إذ من الواضح أنه لا يمكن ائتمانك عليها».

أتجه إلى غرفتي. يظل الضوء مغلقًا. يؤلمني ظهري. وذراعاي. أفك ضفائري، وأشعر بشعري ثقيلًا لدرجة أنني كنت لأقصه إذا كان هناك مقص بالقرب مني.

الواجب المنزلي. فكري في الواجب المنزلي. لقد حان موعد تقديم الجزء التالي من مقالي عن قصيدة «فن واحد». هذه ليلة ملائمة للاستماع إلى فيروكا سولت، لذا أشغل «سيثر» (Seether) تكرارًا، ولبعض الوقت أضيع في غضب نينا جوردون ولويز بوست، في محاولاتهما الفاشلة لإخراس الفتاة بداخلهما بينما تصرخ وتكسر الأشياء.

يرن صوت الإشعار بهاتفي.

صلاح الدين: ماذا تفعلين؟

في السرير.

صلاح الدين: آسف. أحلام سعيدة.

لست نائمة.

مقال السيدة مايكلز. لا أفهم هذه القصيدة.

صلاح الدين: فن واحد؟ أتحتاجين إلى مساعدة؟

نعم، إذا كان بإمكانك زرع عقلك مكان عقلي، سيكون هذا رائعًا.

صلاح الدين: بالتأكيد يمكنني. لكن لست متأكدًا أنك تريدين أن تكوني داخل عقلي ها ها.

لماذا؟ أفكار غير بريئة؟

بمجرد أن أكتب هذا، أريد التراجع عنه. تومض ثلاث نقاط لأطول فترة وأجبر نفسي على ألا أقول أي شيء آخر لأنني سأجعل الأمور أسوأ. أفكر: *أرجوك تجاهل هذا. أرجوك.*

صلاح الدين: في أي جزء من المقال تعثرتِ؟

الجملة الأولى. ها ها ها، أمزح.

ليس تمامًا.

صلاح الدين: حسنًا، كل ما جمعتِه بشأن خلفية إليزابيث بيشوب كان جيدًا. تحتاجين الآن إلى تحليل القصيدة.

ما رأيك في هذا التحليل: لا تفقدي كل أشيائك يا ليزي.

صلاح الدين: ☹ نعم، إنها عن الفقد. تبدأ بالأشياء، أليس كذلك؟ لأن من السهل فقدها. فكري في كل الأشياء التي أفقدها.

Bhondthar-eh-ah

هذا ما كانت آنتي مصباح تقوله لصلاح الدين عندما ينسى معطفه أو هاتفه أو مفاتيحه. ليس له ترجمة، ولكنه مثل أن تقول: «رأسك لا يعمل».

صلاح الدين: لم تكن آما مخطئة. تتحدث بيشوب عن الحزن. عن كيف يتحول الفقد إلى عادة عندما تحدث أمور سيئة لفترة طويلة. يمكنك أن تقولي إنها تحذرنا. تخبرنا أننا بمجرد أن نعتاد الفقد، نبدأ في فقد أشياء أكبر. منازل، وأشخاص، وما إلى ذلك. كلما فقدتِ، ارتفعت التكلفة.

أعيد قراءة القصيدة، وأفهم ما يقصده. لكن ربما بيشوب لا تعطينا إنذارًا، ربما تريدنا أن نتدرب على الفقد، لأن الخسارة يمكن أن تكون أمرًا جيدًا، يمكن أن تنقذك.

عندما كنا أنا وصلاح الدين في الصف الرابع، جاء إلى منزلي لنشاهد فيلمًا، وكان تشاتشو يصرخ في بروك داخل المطبخ. ظل صلاح الدين ينظر إلى باب المطبخ، ثم إلَيَّ. لقد كرهته عندما فعل ذلك لأنه لم يفهم، لم يدرك أنه حتى عندما يصيح الكبار في حياتك، يظل بإمكانك مشاهدة فيلم مضحك به أرانب تتحدث، ويمكنك أن تفقد نفسك فيه إذا أردت ذلك بما فيه الكفاية.

فقدت إليزابيث بيشوب الكثير من الأشياء، مفاتيح ومنازل وشريك حياتها، ورأت الحقيقة المتعلقة بالفقد، تعلمت أنك كلما فقدت، تصبح أفضل في التعامل مع الفقد، وكلما أصبحت أفضل، تتألم أقل.

أغلق حاسوبي الشخصي بعنف. لست بحاجة إلى كتابة هذا المقال، فلن ألتحق بجامعة كاليفورنيا (لوس أنجلوس)، لن أهرب من جونيبر.

صلاح الدين: نور؟

بينما أحاول التفكير في رد، يتصل.

قال: «أنتِ بخير؟».

- نعم، بخير.

- نور، هل تبكين؟ هل تريدين مني القدوم إليكِ؟ ماذا حدث؟

أمسح وجهي. ويرتجف صوتي. أحيانًا، أكره أنني إنسانة.

قلت: «لا تأتِ. أنا بخير».

- هل هذا بسبب المقال؟ السيدة مايكلز تحبك؛ أنا متأكد من أنها...

«لقد رُفضت من سِتٍّ جامعات يا صلاح الدين». أقول هذا لأنه أسهل تفسير ممكن. «أنا عالقة في جونيبر».

قال بعد لحظة صمت طويلة: «نور، لماذا تبكين؟».

أريد أن أقول لأنني *أتألم. ظهري يؤلمني، ورأسي يؤلمني. لأنني خائفة.*

لكنني أقول: «يجب أن أغلق. فرغت البطارية».

أنهي المكالمة، وأغلق هاتفي، وأطفئ الضوء. ولبعض الوقت، أستلقي في صمت، لكن تدور الكثير من الأفكار في رأسي، لذا أجذب سماعات الأذن وأستمع إلى الطلقات النارية التي تتردد في بداية أغنية «حياتي» (My Life)، وأترك «ذا جيم» يتحدث عن ألمي بدلًا مني.

21
سال

محاولة دفع نور إلى الكلام عن مشاعرها ناجحة بقدر محاولة الحصول على نقود من خالي فيصل.

«لقد أغلقتِ الخط في وجهي يا نور». تمتلئ الساحة حولنا، فأخفض صوتي. لديَّ خمس دقائق فقط بين اللغة الإنجليزية وحساب المثلثات لأقنعها بالحديث، فلن أراها ثانيةً حتى انتهاء اليوم الدراسي، وعندها ستستمر في تغيير الموضوع دون ملل إلى أن أرغب في القفز من فوق منحدر.

تقول: «لقد أخبرتك. فرغت بطاريتي».

- كنتِ تبكين. لماذا؟

«لا أريد الالتحاق بجامعة أهلية». يكاد البريق الداكن لعينيها يضيع في الظلال البنفسجية تحتها. وعلى الرغم من أنها تضع مكياجًا، أستطيع معرفة أنها لم تنم جيدًا. «أنا متكبرة. وعندما تكتشف جيمي الحقيقة، ستكون مريعة».

- ما زال لم يصل إليكِ رد من جامعة كاليفورنيا (لوس أنجلوس)، ولا تعرفين أبدًا...

رن صوت الإشعارات بهاتفي المؤقت، لكنني أتجاهله. منذ بدأت البيع لحساب آرت، اكتشفت لماذا كان شديد الحماس بشأن أن أحتل مكانه في

المدرسة، إذ يتضمن الأمر الكثير من العمل، وأقوم به كله بينما يأخذ ثلاثين بالمائة.

قالت نور: «من المستحيل أن أُقبَل في جامعة كاليفورنيا (لوس أنجلوس). لقد اضطررت إلى كتابة مجموعة مختلفة كلّيًا من المقالات لطلب الالتحاق بها، وعندما وصلت أخيرًا إلى تلك المقالات، كنت مرهقة للغاية، لذا بالكاد نظرت إلى الأسئلة. في أحد الأسئلة، مضيت في الحديث عن متجر الكحوليات وتناول الشاي مع آنتي مصباح والموسيقى. الموسيقى يا صلاح الدين».

- هل كتبتِ عن شاي-كوفسكي؟
- هل ألقيت للتو مزحة سخيفة عما أقول في وسط تعرضي للانهيار؟
- لقد اتجهتِ إليها مباشرة. على أي حال، ليس الشاي والموسيقى سيئين للغاية...
- أنا أتقدم للالتحاق بقسم الأحياء.

اللعنة. «حسنًا، ذلك ليس عظيمًا، لكنك لا تستطيعين أن 'take it Bach'[1]».

«كفى اااا». تؤرجح حقيبتها تجاهي فأقفز جانبًا لتفاديها.

قلت: «حسنًا، حسنًا. أرسلي لي مقال جامعة كاليفورنيا (لوس أنجلوس)، أريد ذلك حقًا. وأراهنك أنه عظيم».

رن صوت الإشعار بهاتفي ثانيةً، فتبتعد نور عني: «يجب أن تجيب ذلك، ربما يكون والدك. وهل يمكنك أن تقلني بعد المدرسة؟ فدراجتي... معطلة».

قلت: «حسنًا»، ثم أدرك أنها تهربت من سؤالي بذكاء.

- نور...

لكنها ذهبت، متجهة إلى صالة الألعاب الرياضية، وعلى الرغم من أنني أبدو غبيًا بالوقوف بلا حراك في الساحة محاولًا أن أرى لمحة أخيرة منها، فإن الأمر يستحق ذلك حين تبتسم لي من فوق كتفها.

«لديك عمل جانبي جيد يا سال». تنفصل جيمي عن أصدقائها وتنضم لي في السير، ولأنها أقصر مني كثيرًا وأنا على وشك التأخر على صف حساب

(1) يقصد أن يقول «تستعيدينه» (take it back)، لكنه يمزح قائلاً «Bach» في إشارة إلى المؤلف الموسيقي باخ.

المثلثات، سرعان ما تحتاج إلى الركض لمواكبتي، وأجد هذا مرضيًا بصورة غريبة.

قالت: «عادة أتعامل مع آرت، لكنه يقول...».

- لن أبيع لكِ يا جيمي.

تتراجع إلى الخلف كما لو أنني صفعتها. أعتقد أنها لا تسمع «لا» كثيرًا.

- تريد أن تجني المال، أليس كذلك؟ ومالي جيد بقدر مال أي شخص آخر.

- حقًّا ليس كذلك.

- إنه كذلك حين أريد الكمية التي تبيعها في شهر.

شهر من آديرال سيوفر لي بضع مئات من الدولارات، حتى بعد أن يحصل آرت على حصته. لقد وضعت أكثر من ألفَيْ دولار جانبًا، لكن بنك الاتحاد الأول يتصل مرتين يوميًّا لأنهم يريدون أموالهم، وما زلت لا أمتلك المبلغ كله.

تشعر جيمي بترددي. «سأدفع مائة دولار إضافية».

أجري حسبة سريعة في رأسي. لدينا مستأجر أسبوعي جديد، أحد زملاء كورتيس في العمل. لقد اقتربت، ويمكن لمال جيمي أن يضعني على القمة.

تبتسم، تبدو راضية، كأنها تعرف كم أحتاج إلى المال. «قابلني...».

«لا». أسير أسرع قليلًا. «احصلي على بضاعتك من مكان آخر».

تسألني جيمي: «ما رأي حبيبتك بشأن هذا؟»، فأفكر في الفيلم القديم «الفك المفترس» حيث كل ما استطعت رؤيته عند هجوم القرش هو الزعانف والأنياب. أسنان جيمي أجمل، لكنها عندما تبتسم، يكون لها التأثير نفسه.

- هل يجب أن أخبرها عن عملك؟ أو انتظر... هل هي تشاركك فيه؟ تبيع من متجر الكحوليات الصغير؟

لقد منحني عمر كامل من تحمل نزلاء الموتيل الذين يطلبون بعفوية واقيات ذكرية أو خمس علب من لحم الخنزير المقدد، وجهًا ثابتًا بلا تعبيرات. ومن ثم تهاجمني جيمي من زاوية أخرى.

«لا أعرف لماذا أصبحت حادة الطباع للغاية في الآونة الأخيرة». نظرت جيمي إلَيَّ نظرة ماكرة: «فقد قُبِلَت في الجامعات التي أرادتها».

كتمت ضحكة. تقول نور إن جيمي ستكون جيدة في العمل السياسي، لكنني لا أتفق معها. إنها ساذجة بقدر يمنعها من أن تكون متلاعبة فعلًا.

- اغربي عن وجهي يا شيرلوك.

تسألني جيمي بإلحاح: «بأي جامعة ستلتحق نور؟» يبعث عنادها الغضب في داخلي. وتومض في ذهني جنازة آما، تلك اللحظات حين أُنزِلَت في الأرض، وتشبث آبو بالنعش نائحًا: «Vapas dey dey». **أرجعوها**.

كيف يمكن لمثل تلك اللحظة أن توجد في العالم نفسه الذي توجد فيه دناءة جيمي؟ الفجوة بينهما واسعة جدًّا لدرجة أن ذلك ليس منطقيًّا بتاتًا.

«ما هي مشكلتك؟» أقف خارج صف حساب المثلثات وأمنح جيمي انتباهي بالكامل: «إنها لم تفعل لكِ أي شيء، لماذا تكرهينها؟».

- إنها تستحق أن تعرف أنك تاجر مخـ...

- أخبريها بما تريدين، فليس كأنها توليكِ اهتمامها.

أغلقت باب الفصل بعنف في وجه جيمي، وحاولت أن أنسى كل ما يتعلق بها.

لكن تهديدها يلتهمني من الداخل.

***

بحلول وقت لقائي مع نور في سيارتي بعد المدرسة، كانت لديَّ عشرون رسالة على هاتفي تنبئني بأنها ستكون ليلة مربحة. لكنني تعلمت الدرس من المرَّة الماضية، لذا أغلقه.

قالت نور بينما أدير السيارة: «تبدو سعيدًا».

أريد أن أخبرها عن مدى الارتياح الذي شعرت به عند دفع فاتورة هاتفي المحمول وشراء عربة مملوءة بالبقالة بها حليب وتفاح وفراولة.

يعاني العديد من الفتية في مدرسة جونيبر الثانوية مشكلات مالية. ففي هذه المدينة، إما يعمل والداك في القاعدة العسكرية وتتمتع بمعيشة جيدة، مثل عائلتي آرت وجيمي، وإما لا يعملان فيها وتعيش بشق الأنفس. وهناك بعض الأشخاص في الطبقة الوسطى، لكن ليس الكثيرين.

لكن لا أحد يتحدث عن دفع الفواتير وشراء البيض. ففي نهاية المطاف، يمكن لمعظم فتية المدرسة الاعتماد على وجود سقف فوق رؤوسهم.

من ناحية أخرى، قد يكون ذلك ما يبدو عليه الأمر فقط. ربما هناك فتية آخرون مثلي يحاولون تحضير عشاء مقبول من اللال ميرش والأرز، مدركين أنهم إذا تحدثوا عن ذلك، سيشعرون بالغرابة أكثر.

قلت للرد على تعليق نور: «أنا سعيد لأنني معكِ». أعتقد أن هذا أفضل من *أنا سعيد لأنني أستطيع دفع ثمن الوقود، يا للفرحة.*

لكن الصمت المحرج الذي يملأ السيارة يجعلني أريد أن أذوب داخل المقعد.

وتبدو نور مدهوشة، ربما لأنها تعتقد أنني أقول لها عبارة غزل كاذبة، وليس حتى عبارة ذكية.

لكن من ناحية أخرى، هي قالت ذلك التعليق عن الأفكار غير البريئة ليلة أمس، مما جعلني أتساءل عما إذا كانت لديها أفكار غير بريئة، بشأني.

«صلاح الدين؟» بينما تلوح بيدها أمام وجهي أخرج من موقف السيارات بالمدرسة: «أطلعني على أفكارك...».

إنها غير بريئة جدًّا، ولأقصى حد، وتتعلق غالبًا بأن أقبلك. «أمم...» يبدو صوتي متوتِّرًا وغريبًا، فأتنحنح. «هل تريدين أن أوصلك إلى المنزل؟».

«المتجر». عندما تمد يدها إلى حزام الأمان، يظهر على وجهها تعبير بالألم، وينسحب اللون من وجنتيها بطريقة قرأت عنها لكن لم أرها تحدث لإنسان حقيقي من قبل.

قلت: «نور؟ هل أنت بخير؟».

«سبع جامعات. سِتَّة ردود بالرفض». تلتقط هاتفها من حقيبة الظهر. «لقد تحدثنا عن هذا. اسمع، دعني أشغِّل لكَ هذه الأغنية».

تسمح لي نور بتغيير الموضوع عندما لا أرغب في الحديث عن شيء ما، ربما يجب أن أسمح لها بالشيء نفسه.

أو ربما تلك هي المشكلة بيننا. ربما عندما قالت: «أنا أحبك»، كنت لأرى كم هي مرعوبة من البوح بمكنون نفسها. وربما عندما حاوت تقبيلي، كانت لتشعر بمدى خوفي من وجود شخص ما بهذا القرب مني.

ربما كنا لنفهم بعضنا بعضًا.

قلت: «أعرف أن هناك مشكلة ما، وليس الأمر متعلِّقًا فقط بمسألة الجامعة».

التفتت نحوي ببطء، وظهر في عينيها رجاء، لكنني لا أعرف ما إذا كانت تريدني أن أتعمق أكثر في الأمر، أم أتجاوزه.

أوقفت السيارة على جانب الطريق، في هدوء بينما تستمر حركة السير حولنا، وتهز الرياح السيارة السيفيك بين أسنانها.

«نور». آخذ يدها في يدي ببطء وحرص. «تحدثي معي».

كيف يمكنك أن تعرف شخصًا ما لسنوات ومع ذلك ما زلت لا تعرف تياراته الداخلية؟ أريد أن أغرق في دوامات محيطها، أريد أن أفهمها، لكنني لا أستطيع ذلك ما لم تسمح لي.

وهي لا تسمح لي.

«إنها مسألة الجامعة». سحبت يدها بعيدًا. «حقًّا. هيًّا نذهب». تتكلم بصوت ليس صوتها. إنها نور مطوية ومتكومة حتى لم يبق منها إلا تجاعيد متعبة.

تحركت بالسيارة، ثم بعد دقيقة، توصل نور هاتفها، والأغنية التي تغمر السيارة قديمة، تعود إلى أبعد من ميلاد كلينا. إنها أغنية «ترتجف» (Shiver) لكولد بلاي، تتعلق برجل يرثي كم هو غير مرئي بالنسبة إلى شخص ما يحبه.

ألقيت نظرة على نور، لكنها تنظر من النافذة إلى الطريق.

أريد أن أقول: *أنا أراكِ بالفعل، لكن لا أراكِ كلك*.

ما الذي لا أراه يا نور؟

ما الذي تخفينه؟

***

بعدما أوصل نور، أذهب لأخذ زجاجة حبوب وبعض البضائع الأقوى التي أعطاني آرت إياها منذ بضعة أيام.

وبينما أفكر أمسك بعشرة أكياس من سقيفة التخزين: هيروين، *فلتدعْه بما هو عليه*.

وضعت الأكياس في الجيب الذي اعتدت أن أحفظ فيه دفتر مذاكراتي، بعدما هبط إلى أسفل درج جواربي. قرأت يومًا ما أن تيدي روزفلت توقف عن كتابة مذكراته خلال أسوأ الأوقات في حياته. ربما شعر بمثل ما أشعر به، كأن الكتابة عن القلق والخوف ستجعلهما أكثر حدة، تشحذ الحواف إلى أن يصبحا قادرَين على القطع مثل سكينة.

ذهبت إلى العمل، وبعد جمع أربعمائة دولار تقريبًا، وصلت إلى البيت ووجدت جميع أضواء الموتيل مطفَأة. لا بد أن آبو قد فقد وعيه لهذه الليلة.

أو ربما ما زال يشرب ولا يبالي بأي شيء. في كلتا الحالتين، فوَّتنا ثلاث ساعات من العمل لأنه لم يستطع أن يكلف نفسه عناء تشغيل إضاءة اللافتات.

رميت السيارة في الموقف وأسرعت لفتح مكتب الاستقبال، ثم أنرت جميع الأضواء، وعندئذٍ فقط رأيت الجسد الضئيل المغطى بالأردية فوق المقعد في الفناء الأمامي. تنظر أشلي من فوق كتفها، وتلوح لي من خلال نافذة المكتب.

عندما أذهب للخارج، تربت على المقعد بجانبها، لكنني لا أجلس، وتتمتم: «لقد مررت بجانبي تمامًا».

- ماذا تفعلين هنا يا أشلي؟

«هل يجبرك العمل على البقاء في الخارج لوقت متأخر؟» ورفعت حاجبها.

- تحدثتِ مع آرت؟

نظرت إلَي نظرة توبيخ: «كنت لأقرضك المال يا سال، أو كانت أمي لتقرضك. أحب آرت، لكنه غبي».

- لم أكن لآخذ نقودك.

«لماذا؟ أنت... كنت... لقد كنت حبيبي». ليست لديَّ إجابة عن ذلك. وهي ترتجف.

«تعالي إلى الداخل». أفتح باب المكتب، فهي لا ترتدي معطفًا ولا تزال الليالي باردة. «ستشعرين بالدفء في الداخل».

الشَّقَّة ساكنة مثل ضريح، ومثله خالية من الحياة. لثانية يسيطر عليَّ الرعب، وتتدافع الصور في رأسي: آبو على جانب الطريق بعدما صدمته سيارة. آبو غائب عن الوعي إلى الأبد.

قالت أشلي: «خرج والدك للتنزه، غادر بعدما جئت هنا بدقائق». اقتربت مني: «وقد يكون هذا ليس شيئًا سيئًا بالنسبة إلينا».

أحاطت بخصري فأقفز مبتعدًا، كما لو أن ثعبانًا سقط فوقي فجأة.

خفضت آشلي يديها وقد احمر وجهها: «صحيح».

- أنا آسف، ليس الأمر متعلِّقًا بكِ... أنا فقط...

تتهاوى أشلي على كرسي المكتب، وتجفل حين يصطدم عصعصها بالجلد. ثم تقول: «لا بأس. أنا... ظهري يؤلمني طوال الوقت، و... أفتقدك. لقد راسلتك بشأن سلسلة ساجا الجديدة (New Saga) ولم تجبني حتى».

قلت: «هناك شيء في عقيدتي، يستغرق الحداد ثلاثة أيام بعدما يموت شخص ما، ثم من المفترض أن تواصل حياتك. بعد أربعين يومًا، نقرأ قرآنًا من أجلهم، وهذا كل شيء، هذا هو كل الحداد الذي من المفترض أن نمر به»، وأهز كتفَيَّ: «لست متأكِّدًا لماذا أخبرك بهذا».

قالت: «لأنك أردت نهاية قاطعة، أفهم هذا». يضيء هاتفها، وتتنهد عندما ترى الرسالة.

«ترفض كايا النوم الليلة. يجب أن أذهب». تُخرِج ثمانين دولارًا: «أيمكنك مساعدتي؟ يجب أن تتصل طبيبتي لتصرف لي الوصفة الطبية، لكنها في عطلة».

«ماذا ستقول Lying Cat عن ذلك؟» أستشهد بشخصية سلسلة ساجا التي تشتهر بالكشف عن الأكاذيب.

تدير أشلي عينيها وتدفع يديها في جيبَيَّ، متجاهلة إجفالي بينما تلتقط ما تريد. تحتفظ بحبتين وتعيد لي الباقي.

- أشلي...

قالت: «أنا أتألم يا سال. لا تكن لئيمًا».

- حسنًا، لا تشربي الخمر مع هذه الحبوب، أو تمزجيها مع أي شيء آخر.

«هل تعلمني الآن بشأن كيفية تناول حبوبي؟» تضحك أشلي: «قبل شهر كنت تظن أن مخدر أوكسي هو مشروب موكسي، ولكن مكتوب بتهجئة خاطئة». تعطيني نقودها وترسل لي قبلة في الهواء. «لنتسكع معًا في وقت ما. أعدك بأنني سأتصرف بتهذيب».

بينما تزأر سيارتها الموستانج وتقودها مبتعدة، أشعر بإعياء. إن كل هذا، بيع أدوية آما وبيع الأشياء التي يعطيني آرت إياها، خطأ. لكن بيع المخدرات لحبيبتي السابقة التي لديها طفلة، هو خطأ مضاعف. إذا حدث شيء لها... إذا أصبحت كايا يتيمة بسببي...

قلت لنفسي: ستكون بخير. وأدس النقود في ظرف. لا ينقصني إلا ستمائة دولار من مستحقات بنك الاتحاد الأول. سأجمعهم خلال بضعة أيام إذا كنت محظوظًا، أو أسبوع على الأكثر.

«وعندئذٍ، أنهي كل هذا». أقولها بصوتٍ عالٍ، كما لو أنني بهذا الفعل سأجعلها حقيقة.

22
مصباح

يوليو، حينئذٍ

انتظرت حتى الظهر قبل أن أتصل بهاتف بيت جُنِيد، لكنه ظل يرن حتى انقطع الخط، ربما تأخر في السوق، أو ربما أصيب بالمرض.

سمعت الطرق على بابي وانا أنتعل حذائي، وفي الخارج كان ينتظر صبي بنعال مُترَّب.

«Baji, chethi ah—koi pehrei khabar eh». **أختي الكبيرة، تعالي بسرعة... لقد حدث شيء مريع.** استمر في الكلام لكن بسرعة جدًّا فلم أميِّز أي شيء مما يقوله ما عدا كلمة واحدة:

Bijli. **كهرباء.**

بينما ركضت على السلالم واستقللت عربة الريكشا، كان قلبي يرعد مثل طبول الزفاف. كانت العديد من أسلاك الكهرباء فوق شقَّتنا أسلاكًا حية، وأخبرت توفيق ألف مرَّة أن يكون حذرًا عندما يجلس في الشرفة بالأعلى مع بابا وجُنِيد.

كان الشارع أمام منزل جُنِيد يعج بالناس وسيارة إسعاف، وحتى على بعد ثلاثين مترًا، شممت رائحة لحم محروق.

وجدني مفتش شرطة -أحد الذين كانوا يعملون مع جُنِيد- وأخبرني بما عرفوه من جمع التفاصيل معًا، أن نرجس وصلت إلى المنزل في ساعات

الصباح الباكر، وذهبت إلى الشرفة، فحاول جُنِيد أن يقنعها بالنزول خوفًا من أن تتعرض للصعق بالكهرباء فشتمته وتعثرت في سلك حي.

أمسك بها محاولًا إنقاذها، فصعقهما التيار معًا.

لساعات عديدة، ظللت أفكر كيف أخبر توفيق، وتمنيت بأنانية لو كان والدي موجودًا ليوصل إليه الأخبار، لكنه كان يزور أصدقاءه في روالبندي.

وفي النهاية، لم أستطع أن أحمل نفسي على إخبار توفيق على الهاتف، فانتظرت حتى وصل إلى البيت. كان دائمًا رصينًا للغاية، هادئًا، متمالكًا نفسه، لكنه عندما سمع، وضع رأسه بين يديه وانتحب.

وبعد فترة طويلة قال: «ليس من أجلي، أنتِ تفهمين، لكن من أجلها، من أجله، لأنني لم أستطع إنقاذهما».

دفناهما في وقت لاحق من ذلك اليوم وفقًا لتعاليم الشريعة الإسلامية. وكانت تلك الليلة هي المرة الأولى التي أرى فيها توفيق يفقد نفسه في شرب الخمر.

لكنها ليست آخر مرَّة.

23
نور

إبريل، الآن

تسلمني السيدة مايكلز مقالي عليه علامة الرسوب بهدوء. أتوقع منها أن تكون غاضبة؛ أن تهول الأمر.

لكنها لا تفعل ذلك. تنادي الطالب التالي ليأتي ويستلم مقاله، وأعود إلى مكتبي.

لقد عشت في أمريكا لاثني عشر عامًا، وهذه أول مرَّة أرسب. ربما ستنفجر علامة الرسوب، تقفز من فوق الورقة وتلدغني، تصنع ثقبًا من النار في المكتب.

لكنها تبقى في مكانها فحسب، قبيحة وحمراء.

جيمي، الجالسة أمامي، تنظر إليها، فيكاد يرتفع حاجباها الشاحبان حتى شعرها، ولا تحاول إخفاء ابتسامتها الساخرة.

ومن الناحية الأخرى من الغرفة، يحاول صلاح الدين لفت انتباهي لأنظر إليه. لكنني أرسم مثلثات على هوامش ورقتي. أصبحت الأمور بيننا غريبة منذ أغلقت الهاتف في وجهه قبل أسبوعين، وبغض النظر كم مرَّة أخبره أنني مذعورة بشأن الالتحاق بالجامعة، لا يقتنع بما أقول.

لا تنظري إليه. وبمجرد أن أفكر في ذلك، أرفع نظري إليه، وأشعر بحرارة في عنقي. رأسه مرتفع قليلًا، وشعره الداكن متساقط على وجهه. من هنا،

تبدو عيناه البنيتان سوداوَيْن، وبينما يحدق إلَيَّ كأن لديه شيئًا يريد أن يقوله لي، يعبث بقلم ينقله من إصبع لأخرى بمهارة مثيرة لدرجة غير عادلة. نخرت للتفكير في هذا. *إنه مجرد قلم يا نور.* لا يبتسم، لكن ذلك يجذب انتباهي إلى فمه.

مما لا يساعدني.

أريد أن أنظر بعيدًا، لكنني لا أستطيع. أشعر بغرابة في أصابعي، بوخز. أتخيله يشاهدني هكذا عندما نكون وحدنا في مكان ما. يسقط القلم، وتتجول يداه البارعتان على جسدي بدلًا منه. ذلك الفم...

أترك شعري يسقط فوق وجهي. توقفي. أنظر إلى عينيه ثانيةً. فيم يفكر؟

ليس ما تريدينه أن يفكر فيه يا نور.

لاحظتنا جيمي، فقالت: «احصلا على غرفة»، وتصدر صوتًا للتعبير عن الغثيان، ثم بعدها بحيث أستطيع وحدي سماعها: «ربما غرفة في الموتيل الصغير الذي يديره».

«اذهبي إلى الجحيم يا جيمي». يعم الصمت الغرفة في اللحظة نفسها التي أقولها بها.

تشهق جيمي: «لا يمكنني تصديق...».

«إذا سمحتم افتحوا كتبكم على صفحة 233». توجِّه لي السيدة مايكلز نظرة تحذيرية. «مسرحية ميديا للروائي يوربيديس، رائعة فنية تراجيدية تعود إلى القرن الخامس قبل الميلاد. حولها إلى قصيدة الشاعر الأمريكي العظيم روبنسون جيفرز. سنقرؤها اليوم معًا بصوت مرتفع...».

استجابةً للاحتجاج الجماعي، ترفع يديها: «أو يمكنكم تسليم مقال من ثلاث صفحات غدًا حول كيف عرض يوربيديس الأدوار الجنسانية في خطابات المناجاة على لسان ميديا. الموافق يرفع يده».

لم يتحرك أحد، أو يتكلم. فتبدأ السيدة مايكلز في توزيع الأدوار. أقول لها في رأسي: *لا تعطيني دورًا، لا تفعلي ذلك يا سيدة مايكلز.*

قالت: «نور، ستؤدِّين دور الكورال».

تعرف أنني أكره أداء الأدوار، أكرهه منذ المرحلة الابتدائية حين كنت أستطيع بالكاد نطق الكلمات. عندما كان المدرس يطلب منا القراءة بصوت مرتفع، يتذمر جميع من في الفصل: *أي شخص غيرها*.

هذا لأنني قلت لجيمي أن تذهب إلى الجحيم، لأنني رسبت في المقال.

نبدأ قراءة المسرحية. قد تكون في اختبار الفصول الدراسية المتقدمة (AP)، ويمثل هذا الاختبار نصف درجتنا، لذا أنتبه إليها جيدًا. منذ أول يوم أخطو به في مدرسة أمريكية، لم أتوقف يومًا عن الانتباه، لم أتوقف يومًا عن بذل قصارى جهدي. مكتبة سُر مَن قرأ

لكن الخوف يلتهمني من الداخل، رعب في أحشائي من أنني مهما أبليت بلاءً حسنًا، فلن أهرب من جونيبر أبدًا.

- نور؟

أسارع لإيجاد موضع دوري في المسرحية، وأقرأ: «أيها الخادم القديم المحترم لبيت عظيم، هل تعتقد أنه من الحكمة أن تترك سيدتك هناك وحدها، باستثناء بضعة عبيد ربما، تبني أكروبوليس مريعًا من الأفكار القاتلة؟ نحن اليونانيين نؤمن بأن العزلة شديدة الخطر، تنمو المشاعر الجياشة... الجياشة...».

أتوقف. ربما خصصت لي السيدة مايكلز هذا الجزء عن قصد. ربما تعرف شيئًا لا أريدها أن تعرفه.

توقفي عن الارتياب يا نور.

يحدِّق الجميع إلَيَّ، فأتظاهر بالسعال وأواصل: «تنمو المشاعر الجياشة لتتحول إلى وحوش في ظلام العقل، لكنك إذا تشاركتها مع أصدقاء محبين تبقى بشرية، ويمكن تحملها».

لا يهمني التحمل، أرغب في الهرب، أرغب في الرحيل من جونيبر، أنا وحدي بإمكاني تحقيق هذا لنفسي، وأنا على وشك الفشل.

اللعنة على يوربيديس، اللعنة على السيدة مايكلز، اللعنة على هذه المسرحية الغبية وكل جامعة رفضتني. أريد أن أصرخ قائلة هذا، أن أقلب طاولة، أن أكسر كرسيًّا.

أنتِ أفضل من هذا المكان. تستحقين أكثر من هذا المكان. أحاول أن أتمسَّك بتلك الكلمات، لكنها تذوب في الظلام مثل عائلتي، مثل ماضيٍّ، مثل مستقبلي. كل ما تبقى هو الخوف.

ينغلق العالم، ويبدو صوت السيدة مايكلز بعيدًا، كل شيء ينكمش إلى أن يصير نقطة، والكلمات التي على الصفحة –الكلمات التي يجب أن أقرأها– تصبح مشوَّشة.

يريد بعض الأشخاص أن يبقوا في ذكريات زملائهم، ما أريده هو أن أختفي من ذاكرة جونيبر، لكنني أعرف هؤلاء الحمقى. ما زالوا يتحدثون حول أن بيلي كننجهام تغوط في سرواله في الصف الرابع. إذا لم أتمالك نفسي، سأكون الفتاة اليتيمة السمراء التي صدمت رأسها بحافة المكتب مغشيًّا عليها في السنة النهائية.

أحتاج إلى موسيقى، شيء يعيدني إلى الواقع، صراخ كارين أو في نسختها من «أغنية المهاجرين» (Immigrant Song). يتردد اللحن في رأسي. لا يمكنني التنفس. أحاول أن أهمس لنفسي بالكلمات، لكن هذا ليس كافيًا.

ثم ينطلق جرس إنذار الحريق.

أحوِّل رأسي تجاه صلاح الدين، فأرى ذراع تشغيل جرس الإنذار الأحمر الذي بجانبه مسحوبًا لأسفل.

قالت السيدة مايكلز: «ليصطف الجميع. اخرجوا بطريقة منظَّمة».

لا تحتاج إلى أن تقول هذا مرتين، إذ تُخلَى الغرفة في ثوانٍ، ثم تربت على ظهري يد كبيرة دافئة.

«نور، أنفاس عميقة، شهيق لخمس ثوانٍ وزفير لسبع ثوانٍ». ثم يخفض صلاح الدين صوته: «قولي إنك شممتِ رائحة غاز طبيعي، اتفقنا؟ وإلا سينتهي أمري».

«نور». ليست السيدة مايكلز متعجلة للخروج، وتنظر إلى صلاح الدين بشكٍّ. «هل أنتِ بخير؟ أعرف أن يوربيديس يمكن أن يكون محزنًا، لكن...».

– لقد... شممت شيئًا، أمم، كأنه غاز طبيعي؟

زمَّت السيدة مايكلز شفتيها وهي تقلب نظرها بيني وبين صلاح الدين: «لماذا لم تقل أي شيء قبل أن تسحب الذراع يا سال؟».

قال صلاح الدين: «كانت الرائحة قوية للغاية»، وأندهش من مدى قدرته على الكذب بسهولة. «ظننت أنه قد يقضي علينا جميعًا قبل أن نجد فرصة للهرب. لقد ذُعِرت».

لا يبدو صوته مذعورًا. ولكن من ناحية أخرى، إنه لا يبدو كذلك أبدًا.

تنهدت السيدة مايكلز: «إطلاق جرس إنذار الحريق دون سبب يُعَدُّ جنحة...».

قال صلاح الدين: «لم أطلقه من أجل الهر... المزاح يا سيدة مايكلز؟ لقد شممت شيئًا غريبًا وكان يشعرني بالغثيان. كان واضحًا أن نور تشعر بالغثيان. ربما يجب أن نخرج من هنا». لا يزال جرس الإنذار يرن، وتتعالى الأصوات في الممر.

سددت السيدة مايكلز إلينا –دون عجالة– نظرة ثابتة، ثم قالت: «سال، هل كتبت تلك القصة؟ من أجل المسابقة؟».

تنهد صلاح الدين: «سأبدأ العمل عليها مباشرةً».

«هذا جيد». تشم السيدة مايكلز رائحة الهواء: «الآن بعدما ذكرت الأمر، ربما أشم غازًا أيضًا. هذا كل ما سأقوله للمدير إرنست»، ثم تتجه إلى الباب. ليست مُدَرِّستي المفضلة من دون سبب.

ترتجف ركبتاي عندما أقف، كنت لأكون بخير بعد ثانيتين، لكن صلاح االدين يمد ذراعه خلفي ليرفعني، ويتلامس جانبا جسدينا، فخذانا، ووركانا، وصولًا إلى كتفي. يسعني تحت ذراعه تمامًا.

جسده دافئ، مع أنه نسي معطفه مرَّة أخرى. تطلب مني السيدة مايكلز أن أسرع، لكنني لا أريد أن أتحرك. أكاد أشعر بمثل ما شعرت عندما عانقني قبل بضعة أسابيع.

لذا لا أخبره أنني يمكنني السير بمفردي.

الممر مزدحم، ولا يبدو أحد قلقًا بشأن سبب إخلاء الطوارئ غير المخطط له. عندما نخرج، تقود السيدة مايكلز مقعدها المتحرك لتصبح في مواجهتي.

وتقول: «صلاح الدين، أحتاج إلى لحظة مع نور إذا سمحت».

أريده ألا يتركني. لكنه يتركني وينتظرني أمام حائط على بعد بضعة أمتار.

قالت السيدة مايكلز بهدوء: «حاشا لي أن أطلق افتراضات، لكنك لم تبدي على ما يرام في الداخل. هل لهذا أي علاقة بالتقدير الذي على مقالك؟».

- لا يا سيدة مايكلز.

تنطلق صافرات الإنذار من بعيد، ويمر المدير إرنست وسط مجموعة من الطلاب وهو يصيح: «هذه ليست فرصة لتتركوا المدرسة. أحتاج إلى أن يذهب الجميع إلى ملعب كرة القدم. إلى ملعب كرة القدم يا سيد مالك...».

قالت السيدة مايكلز: «يمكنك التعويض عنه». نسير عبر الحشد. «لا أسجل التقديرات النهائية إلا بعد ظهور نتائج اختبار الفصول الدراسية المتقدمة في الصيف. إذا نجحت في الاختبار، سأمنحك امتيازًا مباشرةً. أعرف أن الالتحاق بالجامعة مهمًّا بالنسبة إليكِ. هل... جاءتك ردود بعد؟».

أشعر بالأرض تهتز تحتي مرَّة أخرى، فأجبر نفسي على التنفس.

قلت: «لا شيء بعد».

«فهمت. عملك... هل هو داعم لكِ يا نور؟ هل حياتك المنزلية...» تطرق بأظفارها الوردية على مسند الذراع بمقعدها المتحرك، وتتفحص وجهي: «هل هناك أي شيء تحتاجين إلى الحديث عنه؟».

أهز رأسي: «شكرًا لجعلي أشعر بتحسن بشأن المقال».

تومئ برأسها، وترتخي كتفاها. ربما لشعورها بالارتياح. تتحرك مبتعدة بسرعة بعد ذلك، ولا تنظر إلى الخلف، كأنها قلقة من أن أغير رأيي، كأنها إذا بقيت لفترة طويلة، سأقول شيئًا لا تريد أن تسمعه.

24
سال

تلك الحيلة التي نفَّذتها بإطلاق جرس إنذار الحريق، يترتب عليها قضاء ساعات في مكتب إرنست محاولًا إقناعه ألا يتصل بالشرطة.

وعندما أطلق سراحي أخيرًا، كنت قد فوَّتُّ موعد الغداء. لكن كان الأمر يستحق ذلك. أشعر بوخز في صدري حين أفكر في كيف ارتجفت يدا نور حين كانت تقرأ، وإذا كان إطلاق جرس إنذار غبي هو ما يلزم لتخليصها من أيًّا كان الجحيم العقلي الذي وجدت نفسها فيه، إذن فليكن هذا.

بعد المدرسة، أسرعت إلى سيارتي حين قطع آرت طريقي.

صاح: «سال. انظر، بما أننا شركاء عمل الآن، لماذا لا نشاهد بريكنج باد معًا الليلة؟ يمكننا أن نبدأ ماراثون مشاهدة». أدفعه جانبًا بحقيبتي، فدارث ديريك يحوم في الجوار، وآرت لا يخفض صوته إطلاقًا.

أكمل آرت: «يمكننا أن نحصل على أفكار بشأن كيف نتوسع».

- آرت، أنا أعمل لحسابك إلى أن تتحسن أوضاع الموتيل، ثم سأتوقف عن هذا.

قال آرت: «حسنًا. لكن إذا كنت تنتظر من والدك أن يحل مشكلاته، فهذا لن يحدث. أيًّا كانت المشكلات التي يعانيها الآن، سيظل يعانيها بعد عشرين عامًا، لأنك إذا لم تكن سببًا كافيًا لدفعه إلى أن يتغير، فلن يحدث تغيير أبدًا».

دائمًا يفاجئني العمق الذي يتحلّى به آرت من آن لآخر، وبخاصّة بالنظر إلى الكمية التي يتعاطاها من سلعته.

«ألديك خطط مع سيدتك؟» يهز آرت حاجبيه ويومئ إلى حيث تقف نور مستندة على جانب سيارتي، ووجهها مُظلّل داخل الهودي.

منذ انكسرت دراجتها، أصبحت أوصلها إلى المدرسة والمستشفى ومنهما. ويبدو باقي اليوم كأنه فيلم صامت بالألوان الداكنة مقارنةً بحيوية تلك اللحظات معها، عندما تشرح كلمات أغنية لفرقة لندن جرامر أو تجادلني بشأن لماذا تُعَدُّ أنظمة السحر في مسلسلاتي المفضلة غير منطقية.

أحيانًا أتخيل إخبارها أنني أقع في حبها، لكن عندئذ أسمعها تقول لي «*لقد تجاوزتك*». وحين تداهمني هذه الفكرة، تميد الأرض بي، وأشعر كأنني أسقط في الفضاء.

قلت لآرت: «إنها ليست سيدتي»، وآمل أن يذهب بعيدًا. إذا رأتني نور معه، ستوجه لي المزيد من الأسئلة.

«آه، بحقك». يلكزني آرت بكوعه: «إنها جذابة، تلك الجاذبية النابعة من 'أنا خجولة لكنني سأبرحك ضربًا إذا نظرت إلَيَّ نظرة خاطئة'. إذا كنت غير مهتم، ربما يمكنك أن تخبرني بما يثير اهتمامها...».

صوبت نحوه نظرة قاتلة فتراجع مبتعدًا، وهو مبتسم ابتسامة عريضة.

تبجح قائلًا: «كنت أعرف أنك معجب بها. أخبرها. هي ذكية، أليست كذلك؟ ستتخلى عنك عندما تذهب إلى الجامعة، فيمكنك على الأقل...».

قلت من بين أسناني: «إنها هناك تمامًا. لذا أيمكنك أن تخرس؟» لكن نور بالفعل تقلب نظرها بيننا أنا وآرت، وتضيق عينيها. *اللعنة*. إنها تعرف أنه لا يوجد سبب وجيه يدفعنا إلى أن نسير معًا.

همست غاضبًا: «ارحل»، فيتراجع آرت، مرتسمًا على وجهه تعبير موحٍ مثير للاشمئزاز.

«ماذا كان ذلك؟» تنظر نور إلى آرت كأنه Daku[1] ينتظر للاعتداء عليها.

- لا تريدين أن تعرفي. أتضور جوعًا، وليس لديك عمل في المتجر اليوم، أليس كذلك؟ مطعم «ثوربرز» (Thurber's)؟

---

(1) مجرم في اللغة الأردية.

«سيسعدني تناول بعض البطاطس المقلية الملتوية». دخلت إلى مقعد الركاب الأمامي. «لكنني سأدفع، فأنا أدين لك عن اليوم».

قلت: «لا تدينين لي بأي شيء، فلولاكِ...» *لم أكن لأنجو خلال الشهرين ونصف الماضيين.*

«لم تكن لتضطر إلى قضاء فترة الغداء في إقناع إرنست بألا يطلب الشرطة لتقبض عليك». تهز رأسها لكنها تبتسم: «لا أستطيع تصديق أنك فعلك ذلك».

- أحاول فقط أن أرقى إلى مستوى أبطال الدراما الباكستانية الذين يصيبونكما أنتِ وآما بالهوس.

أدارت عينيها: «أرجوك. لا يمكنك أبدًا أن ترقى إلى مستوى سيف إلياس في Dilan dey Soudeh...».

«لاااا». أصفق بيدَيَّ على أذنَيَّ وأقود السيارة بركبتَيَّ. «لا تبدئي الحديث عن سيف إلياس وعضلات بطنه، أرجوكِ...».

ثوربرز مزدحم، لكنني أحجز طاولة في حين تحضر نور الطعام، شرائح اللحم البقري المشوي لها وشطيرة نباتية لي. كانت آما صارمة فيما يتعلق بالالتزام بتناول طعام حلال وأشعر بالذنب إذا كسرت هذه العادة.

تدندن نور بنشوة وتقول: «آه، لحم قطط، لقد افتقدته». ثم تحملق فيَّ غاضبة وتركل حذائي تحت الطاولة بعنف. «ذلك لأنك أبعدتني عن ثوربرز».

- لم أوقفك عن القدوم إلى هنا.

- هل جئت هنا بعد الشجار؟

أعترف: «لا، شعرت أنه سيكون غريبًا».

يصل إلي إشعار على هاتفي المؤقت بصوت خفيض. لقد تجاهلته طوال اليوم، لذا عندما تذهب نور لإعادة ملء كوب المياه الغازية، ألقي نظرة سريعة. مجموعة من الأرقام لا أعرفها، ورقم أعرفه، إنها أشلي.

لقد طلبت مني مسكنات ثانيةً، وأعرف أنه من الحماقة أن أدعي الأخلاق فجأة وأنا أبيع سمومًا للناس، لكنها عندما اتصلت بي، أردت أن أنهي المكالمة لأنني سمعت كايا في الخلفية، سمعت والدة أشلي تنادي كلتيهما.

وفي الوقت نفسه، الألم الذي تشعر به أشلي حقيقي، وأنا في حاجة إلى المال. أقول لنفسي *إنها تعرف ما تفعله، ستكون بخير.*

أشلي: انظر إلى أعلى.

أفيق فجأة من أفكاري. تجلس أشلي في مقصورة بالجانب الآخر من ثوربرز مع كايا ووالدتها اللتين تجلسان وظهراهما تجاهي. عندما تلتقي أعيننا، تبتسم لي، ويصعقني كم تبدو هزيلة، كأنها فقدت خمسة كيلوجرامات في الأيام القليلة التي تفصلنا عن يوم رأيتها.

عندما تأخذ والدتها كايا وترمي قمامتهم، تومئ لي لأذهب إليها.

فأنظر بعيدًا -إلى أسفل- إلى أي مكان ما عدا تجاه أشلي. أشعر بنظرتها تتردد بيننا أنا ونور، وأنظر إلى أعلى في اللحظة التي يتصلب جسدها بها. ثم تتبع والدتها وكايا إلى الخارج.

حدقت نور إلى الاتجاه الذي سارت فيه مفكرة بعمق: «في المرة القادمة، ربما يجب أن تقول لها مرحبًا».

قلت ونور تنهي طبقها من البطاطس المقلية وتبدأ في السرقة من طبقي: «اعتقدت أنك لا تحبين أشلي».

قالت: «اعتقادك خاطئ. مهلًا، لقد رسبت لأول مرَّة اليوم، في مسودة مقال 'فن واحد'».

وضعت شطيرتي على الطاولة: «ألهذا السبب أُصَبتِ بالإعياء في الفصل؟».

«لا». وبهذه البساطة يبدو أن نور فقدت شهيتها. «ستة ردود بالرفض يا صلاح الدين. الحمد لله أن تشاتشو لا يتفقد صندوق البريد بتاتًا. إذا عرف الجامعات التي تقدمت إليها...» ترتجف. «لم يأتِني رد من جامعة كاليفورنيا (لوس أنجلوس)، لا بريد إلكتروني، لا مظروف، وكلما حاولت تصفح موقعهم الغبي، يقول إن هناك خطأ. على الأغلب لأنهم يغلقون حسابات كل الأشخاص المرفوضين. بالنسبة إليهم، لم أعد موجودة».

تذهب عيناها بعيدًا، وأتساءل ما إذا كانت في القرية حيث ماتت عائلتها، أم مع آما في المستشفى، أم وحدها في منزل تشاتشو.

- لا يمكنك أن تستسلمي.

- أنت تخبرني أنني لا يمكنني الاستسلام؟ ما أخبار التسجيل في المسابقة يا صلاح الدين؟

قلت: «وضعي مختلف، إذ يجب أن أعالج مشكلات الموتيل. وعلى أي حال، كنت أعرف دائمًا أنني سألتحق بجامعة جونيبر الأهلية، وسأنتقل إلى برنامج دراسي لأربع سنوات في النهاية. لكنك تحتاجين إلى الرحيل من هنا يا نور».

- لقد تقدمت إلى سبع جامعات فحسب يا أخي.

أبتسم لأخفي كم أكره أنها نادتني للتو بأخي. «في الواقع، أنتِ لم تستلمي ردًّا من جامعة كاليفورنيا (لوس أنجلوس). ولا يحتاج الأمر إلا إلى نعم واحدة».

- أشعر ببعض الإهانة لأنك تحاول التخلص مني يا صلاح الدين. ألا تريدني أن أبقى في الجوار؟

قلت: «بالطبع أريدك أن تبقي، لكنني أحبك كثيرًا لدرجة... آه...».

زحف الاحمرار على وجهها.

همست: «يا إلهي. ما هذا الشعور الغريب بالحرارة؟ هل يحمر وجهي؟ ما الفائدة من أن تكون بشرتك سمراء إذا كان من الممكن أن تحمر؟ عدم الاحمرار هو حرفيًّا واحد من الامتيازات القليلة التي نحصل عليها».

«أنا لا أرى أي شيء». وأنظر عمدًا نحو الحائط، على الرغم من أن رؤية وجه نور يحمر هو أحد أفضل الأشياء التي شهدتها في حياتي، ومستعد للتنازل عن شهر من عمري لأرى كل هذا مرَّة أخرى.

تغطي نور وجهها بأصابعها، وتقول: «رجل شهم، تحافظ على كرامتي. لا بأس». تخفض يديها بعدما استعادت هدوءها مجددًا. «أعرف أنك قصدت ذلك بصفتك صديقًا».

«غير حقيقي». أقولها قبل أن أفكر، لأنني غبي.

أو لأنني مللت من محاولة التحكم في كل شيء. ترغب النسخة الشجاعة مني، النسخة التي أطلقت إنذار الحريق هذا الصباح، في أن تعرف نور بمشاعري.

مددت يدي نحو يدها ببطء، حتى تستطيع أن تبتعد إذا أرادت ذلك، وعندما أمسك بها، تضغط بشدة وتغمض عينيها. تبدو سعيدة نوعًا ما، وغير سعيدة نوعًا ما. لكن ينتابني شعور ما لرؤيتها هكذا، ينطلق مباشرة إلى أسفل بطني.

يا إلهي.

قلت: «تعرفين أنني لدي... بعض المشكلات».

قالت: «نعم، كلانا هكذا».

- أخبريني، في تلك الليلة كنتِ...

- أخبرني بأسرارك يا صلاح الدين مالك.

تفتح نور عينيها: «وسأخبرك بأسراري».

للحظة، أتصفَّح سريعًا بُحَيرة مظلمة في ذهني، مثل طائر يغمس مخلبًا في الماء فيجفل بسبب البرد القارس الذي ينخر في عظامه.

أتصبب عرقًا وأشعر بوخز في جلدي وأترك يدها. نجلس هناك نحملق في بعضنا بعضًا، وقد نسينا الطعام. وعلى الرغم أنه ليس بيننا سوى ربع متر، أشعر كأن بيننا العالم كله.

25

نور

مكتبة
t.me/soramnqraa

بعدما غادرنا ثوربرز، ذهبنا بالسيارة إلى الموتيل. وأرى سيارة دفع رباعي رمادية مألوفة تقف في المدخل.

«الإمام شفيق». أسند صلاح الدين جبهته على عجلة القيادة، إذ سيضطر إلى إخفاء خمور عمي توفيق، والإسراع لتنظيف المنزل، والتظاهر بأن والده ليس سكيرًا.

أتململ حين أتخيل تعبيرات صلاح الدين إذا أشار الإمام شفيق إلى المحادثة التي أجريتها معه بشأن عمي توفيق.

«يجب أن أذهب إلى المنزل». أقفز خارج السيارة، ويرتفع رأس صلاح الدين مباشرةً.

همس لي: «لا ترحلي». تجلس خديجة في السيارة، والنافذة بجانبها مفتوحة. «أيمكنك أن تدخلي لخمس دقائق؟ تشتتين انتباه الإمام؟ حتى أخفي خمـــ... أشياء آبو».

تنمو المشاعر الجياشة لتتحول إلى وحوش في ظلام العقل، لكنك إذا تشاركتها مع أصدقاء محبين تبقى بشرية، ويمكن تحملها.

قلت له: «ربما لست مضطرًّا إلى تنظيف المنزل أو إخفاء والدك يا صلاح الدين. ربما يحتاج الإمام شفيق إلى أن يرى ذلك».

«لا أحد يحتاج إلى أن يرى ذلك». يخرج صلاح الدين من السيارة ويأخذ حقيبتي من المقعد الخلفي. «سيكون من الأسهل كثيرًا أن أكره آبو لو كان أكثر قسوة، لو كان يعميه الغضب أو يكسر أشياء، لو كان يستخدم قبضتيه مثلما يفعل السكارى في الأفلام».

يمر خدر بجسدي عند سماع تلك الكلمات، وأجبر نفسي على أن أقول: «أدار الإمام شفيق مساجد في مدن كبيرة. لقد تعامل مع من هم أسوأ من والدك».

«السلام عليكم يا شباب». تلوح لنا خديجة من مقعد السائق حيث يوجد ملف ضخم مفتوح في حضنها.

قال صلاح الدين: «مرحبًا. أقصد، وعليكم السلام يا أخت خديجة. هل يمكنني... هل تحتاجين إلى شيء؟».

تهز خديجة رأسها، ثم تنقل نظرها بيننا وتبتسم: «أراد شفيق أن يطمئن على والدك. لقد أراد أن يأتي بعد الجنازة، لكنه انشغل تمامًا في العمل. إنه في انتظارك بالداخل».

مرر صلاح الدين أصابعه في شعره، فيبرز لأعلى بصورة مجنونة. أريد أن أسويه، أن أضع يدَيَّ على كتفيه وأقول له: *بعض الأشياء خارج أيدينا، وربما ذلك لسبب وجيه، ربما تحتاج إلى طلب المساعدة*. لكنني أشعر بأن القيام بأي من ذلك أمام خديجة سيكون غريبًا.

قال صلاح الدين: «الفكرة هي أن والدي على الأغلب... آه...».

«جميعنا نخوض صراعات يا صلاح الدين». تقول خديجة اسمه لكنها تنظر إلَي. «يعرف شفيق ذلك، ولا يحق له إطلاق أحكام».

لا أستطيع النظر بعيدًا. إنها تتحدث إلى صلاح الدين، إذن لمَ تحملق فيَّ؟

رن هاتف خديجة، فتقول: «يجب أن أجيب على هذه المكالمة»، وتلتفت بعيدًا في حين ينظر صلاح الدين إلي بعينين حزينتين متسائلتين.

- نور...

«لا تكذب على الإمام شفيق. إنه رجل جيد يا صلاح الدين، وبالنظر إلى أنني من يقول هذا الكلام...» لا أحب الناس عادةً، وصلاح الدين يعرف هذا.

رفع حقيبتي وأعطاني إياها. ثم قال: «إذا شعرتِ بالسوء ثانيةً أو جاءك رد من جامعة كاليفورنيا (لوس أنجلوس)، اتصلي بي. لقد أخبرتني ألا أنغمس في أفكاري، اعملي بنصيحتك».

الطريق إلى المنزل أقصر من اللازم. تقف سيارة تشاتشو أمام المدخل، ولا تزال دراجتي مربوطة بالسياج بسلسلة على جانب المنزل.

تغرب الشمس، وتتلون السماء بلون وردي جديد بقسم خاص به في القاموس. لا يزال الضوء كافيًا لأسير، لذا أتجول حول الحي وأقف بالقرب من شجرة جوشوا في الصحراء الخالية المجاورة.

تُدعَى «Izote de desierto» أي خنجر الصحراء. وهناك ألبوم لفرقة يو تو مسمى تيمُّنًا بهذه الشجرة. شغله تشاتشو ذات مرَّة في طفولتي وأحببته للغاية، فطلبت منه أن يشغله مرَّة أخرى، رفض وأخفى الألبوم. عندما حصلت أخيرًا على هاتف خاص بي، كانت «شجرة جوشوا» (The Joshua Tree) أول ألبوم أشتريه.

أفكر فيما قالته خديجة: جميعنا *نخوض صراعات*، فتنطبق قبضتاي. عادة أخرى اكتسبتها من تشاتشو. يملؤني الغضب بسرعة جدًّا، كأنه ينتظر في عقلي، وبمجرد أن أعيره انتباهًا، يسيطر علَيَّ.

لكن الغضب لا يصف حقًّا ما أشعر به، فأنت تشعر بالغضب لأن شخصًا ما يكاد يصطدم بك في ممر الدراجات، تشعر بالغضب لأن أحدهم يقتحم الصف في وول مارت.

ما هي الكلمة المناسبة لما تشعر به عندما يواظب شخص ما على شرب الخمر، فيخرب حياة صديقك المفضل؟ أو الكلمة المناسبة عندما يكون رجل يملؤه الحقد بشأن ماضيه لدرجة أنه يريد تدمير مستقبلك؟ ما هي الكلمة المناسبة لامرأة ظلت مريضة لشهور، لكنها رفضت الذهاب إلى الطبيب حتى فات الأوان؟ الكلمة المناسبة لوجود فتاة في المدرسة تعتبر العبث برأسك هو رسالتها في الحياة؟

ليس الغضب الكلمة الصحيحة.

الاهتياج. هذا هو ما أشعر به، ويلتهمني من الداخل.

أصرخ في الليل البارد، وأكاد أخنق الصوت قبل أن يولد، إذ أضع يدَيَّ فوق فمي بقوة. لقد كنت صاخبة جدًّا لدرجة أنني أفزعت نفسي.

ثم يعود إلَيَّ المنطق في الحكم على الأمور، فأكبح اهتياجي، وأدفعه إلى أعماق عقلي. أنا لا أعرف حتى ممن أنا غاضبة. من تشاتشو؟ عمي توفيق؟ جيمي؟ آنتي مصباح؟ الله؟

من نفسي؟

سامحي. ذلك ما قالته لي آنتي مصباح في آخر لحظاتها. آخر محاولة لتوجيهي، لمساعدتي. *سامحي*.

لكنه غير مفهوم بالنسبة إلَيَّ.

من أسامح يا آنتي مصباح؟

كيف أسامح؟

26
مصباح

نوفمبر، حينئذٍ

جونيبر، كاليفورنيا

تولى والدي وظيفة حكومية في مدينة كويتا عندما كنت على بعد عام من الالتحاق بالجامعة. وبينما كان سائقنا يمر بجانب الشاحنات المطلية بألوان زاهية على الطرق الجبلية في مقاطعة بلوشستان، التفت بابا إلَي.

وقال: «تمتلئ كويتا بالكثير من بساتين التفاح يا فراشتي الصغيرة، لدرجة أنك تستطيعين تذوق عذوبتهم في الهواء. إنه مكان بين السحب، على ارتفاع خمسة آلاف قدم فوق سطح البحر. هل تعرفين أنها تدمرت بالكامل في زلزال عام 1935؟».

- وهم أعادوا بناءها؟ أعادوا بناء كل شيء؟

فقال بابا: «نعم، ولا تزال قائمة كشاهد على قوة البشرية».

كانت كويتا جافة ومُترَّبة في الصيف، لكن الجبال المحيطة بها كانت مكسوَّة بالجليد في الشتاء، لتعد بوجود شيء نقي. لقد عشنا هناك لسنتين فحسب، لكنني أحببت تلك الجبال التي على مرمى البصر.

تذكرت كويتا هنا، في أمريكا، عندما كان توفيق يقود سيارتنا الهوندا الخضراء على طريق يحتضن جبال سييرا نيفادا الصخرية الزرقاء، وكانت

نافذة السيارة تتجمد. كما كانت سماء الليل تشبه سماء كويتا أيضًا، صافية بما فيه الكفاية لرؤية سحابة كثيفة من المجرة تنفجر عبر أنحائها، مضيئة قمم الجبال المغطاة بالجليد، فتمنحها مظهرًا من خارج العالم.

كان بابا ليحب هذا المكان. لقد بكى عندما غادرت، مع أن أمي كانت متماسكة. وقد آلمتني معرفة أننا نادرًا -إن حدث- ما سنرى النجوم نفسها في الوقت نفسه.

- هل سيكون أجيت هناك؟

أجيت سينج هو من توسط في عملية شراء الموتيل، عَرِفَه توفيق في الجامعة، وقد قال لنا: «إنه سيجني لكم دخلًا جيدًا في حالة واجهت صعوبة في وظيفتك».

كان يعرف توفيق جيِّدًا.

فأجابني توفيق: «لا، لكنه سيزورنا. لقد سمعت أن هناك بعض العائلات الهندية، ويأتي أشخاص إلى القاعدة طوال الوقت، تنتظرك العديد من القصص يا فؤادي. كما أن يوسمايت ليس بعيدًا، يمكننا أن نزروه، مع أنني لم أفكر قَطُّ...».

...أن هذه ستكون الطريقة. مع وفاة والديه، ورحيل أعمامه وعماته، وتفَرُّق أبناء أعمامه، أصبح توفيق حالة استثنائية لباكستاني ذي عائلة صغيرة، فلم يوجد أحد يبقيه مربوطًا بمكان لم يجلب له إلا الألم، لذا عندما حصل على وظيفة مهندس في قاعدة جونيبر العسكرية، لم نكن بحاجة إلى اتخاذ قرار، فقد كانت باكستان وطني، لكنها ليست وطنه، وأردته أن يكون سعيدًا.

قدنا على طريق سريع ذي مسارين لفترة طويلة جدًّا حتى بدأ الخط الأصفر المنقط يتشوش، وبعد ساعات، أشار توفيق إلى وادٍ مظلم شاسع في الشرق.

- ها هو ذا.

تلألأت الأنوار عن بعد، مبهجة في وسط صحراء منتصف الليل الخالية التي تحيط بها. وحين تركنا الطريق السريع وقُدنا في طريق ضيق، ظهرت حولنا تشكيلات صخرية عجيبة، بدت كأننا في عالم آخر، فقفز قلبي بحماس. لقد كانت هذه بداية مغامرة جديدة، من نوع المغامرات التي أردت أن أعيشها حين كنت فتاة صغيرة.

بدت المدينة كأنها مهجورة، باستثناء ماكدونالدز حيث تسكعت سيارة وحيدة. وسيارة شرطة كانت تتجول في الطريق الرئيسي، وقللت سرعتها عندما مررنا.

«هناك». أشرت إلى لافتة شارع خضراء قديمة بجانب مرأب سيارات اسمه ’ماكفينز فورد‘. «**جادة يوكا**».

أوقفنا السيارة بجانب مجموعة من المباني المنخفضة، أمامها حائط أبيض يصل ارتفاعه إلى الخصر ويشكل مستطيلًا حول ثلاث أشجار شاحبة ومساحة من العشب اليابس، وكانت الأشجار تحدث صوتًا بسبب الرياح.

وراء الفناء الأمامي، يوجد مبنى خفيض به نافذة زجاجية عريضة ويتألق بداخله مصباح وحيد، بينما كان بقية الموتيل مظلمًا، ومن فوق الجدار الطوبي أخذ قِطٌّ يراقبنا دون خوف.

عندما خرجت من السيارة، كانت الرياح قوية للغاية حتى كادت تنتزع حجابي، وكانت هناك لافتة كبيرة تئن كرجل عجوز نَزِق، مكتوب عليها «موتيل نُزُل يوكايبا».

فقلت لتوفيق: «أول شيء ينبغي أن نقوم به هو منح المكان اسمًا جديدًا».

أخذ حقائبنا من صندوق السيارة وحدق كالبومة إلى اللافتة: «لماذا؟».

فأخبرته: «تأتي يوكايبا في نهاية الأبجدية، وهذا سيئ للعمل التجاري. كما نحتاج إلى اسم ذي لحن جذاب، شيء يجعل ضيوفنا يشعرون بأنهم مُرحَّب بهم».

تصارع توفيق مع القفل المتيبس، وأضأنا المصابيح الداخلية لنجد غرفة مكتب صغيرة ليس بها الكثير من الأثاث وشقَّة متجمدة، ويوجد ظرف تركه المالك السابق فوق طاولة متهالكة، وتفوح من المكان رائحة التراب والصابون. كان السرير، الذي يوجد في كبرى الغرفتين الخلفيتين، متروكًا عاريًا وعليه بقعة مريبة.

فسحبت ملاءة من أحد الحقائب، وبمجرد أن استقرت الملاءة، انهار توفيق فوقها وفي لحظات كان نائمًا.

لم أفهم كيف يمكنه أن يكون متعبًا، فقد كان حماسي عظيمًا لدرجة أن قدمَيَّ لم تلمسا الأرض حتى. مررت بأصابعي على المدخنة الطوب الضخمة التي تتردد بداخلها صرخات الرياح العاتية، عبرت من خلال غرفة نوم صغيرة

بها نافذة ستتدفق منها أشعَّة الشمس على سرير الطفل إذا أتم الله نعمته علينا. المطبخ المُصمَّم على شكل حرف «L» مفروش بمشمَّع أرضية لامع وبه طاولة خشبية قديمة للغاية حتى إنني أستطيع أن أنقش فوقها حروف اسمي الأولى بظفري. وكانت الخزانات بها مقرمشات، فتذوقت واحدة ثم دهنتها بالعسل الداكن الذي صنعه نحل أمي في لاهور.

يطقطق السقف بنسق إيقاعي تحدت الأقدام الرقيقة لحيوان ما يجتازه، وتحته، أخذت أقطع بيتي الجديد ذهابًا وإيابًا مفكرة بعمق.

يمكن للاسم أن يشكل الإنسان، ويمكنه أن يشكل المكان أيضًا. فكرت في أسماء الفنادق التي رأيتها من قبل، أفاري. بيرل كونتيننتال. بارك لين، لم يبد أي من تلك الأسماء مناسبًا.

ثم جاءني الاسم في منتصف الليل، عميقًا في أحلامي، فهززت توفيق لأوقظه.

همست له: «كلاودز ريست. سنطلق عليه موتيل نُزُل كلاودز ريست».

27
سال

داخل الشَّقَّة، جلس آبو إلى طاولة الطعام، وجلس الإمام شفيق قبالته. أشعر بالارتياح لأنني نظفت المطبخ صباح اليوم، فرائحة منظف باين سول تكاد تخفي رائحة العرق والخمر التي تفوح من آبو.

على الأقل زجاجاته خارج نطاق الرؤية، ويجلس مستقيمًا.

أومأ الإمام شفيق محيِّيًا: «اجلس يا صلاح الدين. كنت أدردش مع والدك بشأن كم سأحب رؤيته في المسجد. أنا هناك صباح الجمعة أيضًا، إذا كنت تفضل القدوم عندما يكون أقل ازدحامًا».

بما أنني أستطيع أن أحصي عدد السلمين في جونيبر على يدين، أعتقد أن كلمة **ازدحام** لا تنطبق على مسجدنا الذي يتكون من غرفة واحدة.

أومئ على أي حال: «بالتأكيد. شكرًا لك».

يتململ والدي مثل طفل حضانة عابس. هذا محرج وأكاد أصنع ثقوبًا في راحتَيْ يدَيَّ لأن قبضتَيَّ مغلقتان بإحكام شديد. لمجرد ليلة واحدة، أتمنى أن يتصرف كبالغ لعين.

قلت دون تفكير: «هل تريد شيئًا للأكل يا إمام شفيق، أو...» عادات الضيافة لدى أجيال من الباكستانيين لا تزول بسهولة.

قال شفيق متفوِّقًا عليَّ في العادات الباكستانية: «لقد أحضرت معي كاراهي 'karahi'. حضَّرَت خديجة الروتي[1] لذا فإنه... منبعج بدلًا من أن يكون مستديرًا، لكن طعمه جيد. دعني أرى ما إذا كانت تريد الانضمام إلينا».

سألت آبو عندما غادر شفيق: «كم تناولت؟ هل يمكنك الجلوس لتناول وجبة؟»

- لا أريد أن أفعل ذلك.

«آبو، لقد حَضَّر عشاء». *وهو أكثر مما يمكن لسكير مثلك أن يقوم به*. لا أقولها، لكنه يجفل لسماع العداء في صوتي. «أقل ما يمكنك فعله هو تناوله».

«لم أدعُه ليأتي». يكاد آبو يهمس الكلمات، إنه ليس عدوانيًّا، فقط مرتبك.

قلت: «اذهب للاستحمام». ترتجف يداه، وأتمالك نفسي وأمسك بهما، فيرفع رأسه متفاجئًا. على الأغلب لمسته مرَّتين في الأسابيع الماضية منذ ماتت آما، وإحدى المرَّتين كانت لأوقظه عندما لم أستطع العثور على مفاتيح السيارة.

- أرجوك يا آبو... هل يمكنك فقط أن تحاول؟ لقد كان هو وخديجة صديقَي آما.

ربما لأنني ألمسه، وربما لأنني ذكرت آما، وغالبًا لأنه لم يكن لديه الفرصة للانغماس في الشرب، تستقيم كتفاه وينظر إلى وجهي فأشعر بحرارة في عينَي لأنني لا أستطيع تذكُّر آخر مرَّة فعل بها ذلك.

أريد أن أقول: *آبو*؟ كما لو أن الرجل الذي كان يجر قدميه عبر أنحاء المنزل طوال العامين الماضيين غريب ويمكنني أخيرًا أن أطرده وأرحب بعودة والدي الحقيقي.

يعتصر آبو يدَي: «حسنًا». يقف وأفكر في كيف ظلت نور تخبرني أن أتحدث معه. كان يجب أن أحاول ثانيةً بعدما فشل الأمر في المرَّة الأولى. «ليبدأ كلاكما تناول الطعام، وسأنضم إليكما».

بحلول الوقت الذي يعمل به الدش، يعود الإمام شفيق ممسكًا بسلطانية طعام لكن خديجة ليست معه.

---

(1) Roti، وهو الخبز الباكستاني.

قال: «يحاول مكتب المدعي العام القيام بحيلة ما». تعمل خديجة محامية دفاع جنائي. «لذا ستأتي لاصطحابي بعد قليل».

آخذ منه السلطانية. ما زالت دافئة ورائحتها جيدة لدرجة أنني أريد أن أهرب بها، أسكب كل ما فيها في حلقي مزمجرًا في وجه أي شخص يقترب مني.

ألقى شفيق نظرة على المكان حيث كان آبو يجلس. «هل أخفتُ والدك؟».

«لا شيء يخيفه». آخذ من شفيق الروتي وأرميه على مقلاة لأسخنه. «ولا حتى الموت بالتليف الكبدي».

ها أنا ذا قد قلتها. ولدهشتي، أشعر بتحسن.

قد يكون شفيق مشمئزًّا من آبو، أو يفكر أننا مسلمون سيئون، لكنه هنا، يجلس في منزلي، ويأكل معي.

أدهن الروتي بالزبد كما اعتادت آما، ونبدأ تناول الطعام. إنه كاراهي باللحم الضأن، قطع من اللحم الطري تتساقط عن العظم في صلصلة برائحة الكمون مصنوعة من الطماطم والبصل والثوم. إنها أول وجبة باكستانية لائقة أتناولها منذ قبل الجنازة. عندما قلت هذا لشفيق، ابتسم وقدم لي المزيد.

- لم أكن لأتوقع هذا. إذن... صلاح الدين...

أشعر أنه على وشك أن يطرح علي الأسئلة التي يطرحها الكبار المسؤولون على الصغار المستهترين. كيف *حال المدرسة؟ هل يمكنك إحضار والدك إلى المسجد؟ هل يمكنك الحصول على مساعدة له؟*

لذا أسبقه بالحديث: «أنت مهندس، أليس كذلك؟».

فيجيب: «مهندس إنشائي. لقد عمل والدي قائد سيارة أجرة لفترتين في اليوم طوال حياتي، وهذا ما أراده. لحسن الحظِّ، أستمتع بهذا العمل. لكنني أود أن أكون إمامًا فحسب يومًا ما. لقد فعلت ذلك لبعض الوقت حين كنا نعيش في لوس أنجلوس، وأحببته».

قلت: «والأخت خديجة محامية، ألم يكن بإمكانكما أن تعيشا في أي مكان؟ لماذا تأتون إلى هذه المزبـــ... أمم، جونيبر؟».

«لقد عرَض عليَّ الجيش وظيفة هنا، وراتبها جيد. نشأنا كلانا في مدن كبيرة بها مجتمعات إسلامية ضخمة، المجتمع الباكستاني في واشنطن

بالنسبة إلَيَّ، ومجتمع المسلمين السود في أتلانتا بالنسبة إلى خديجة». عندما يضحك، تذكرني ضحكته كم هو شاب. «لقد أردنا كلانا أن نجرب شيئًا مختلفًا، أكثر هدوءًا. لا أعتقد أننا سنبقى هنا إلى الأبد، لكننا لا نخطط للرحيل قريبًا. ماذا عنك؟ أخبرتني والدتك أنك تحب أن تكتب».

«لم أعد أحب ذلك كثيرًا». يقبع دفتر مذكراتي دون مساس في خبايا درج جواربي. «لأنني مشغول جدًّا في... في أشياء أخرى».

- أعتقد أنه سيصعب عليك مغادرة جونيبر على أي حال، فقبر والدتك هنا.

يقضي الشعور بالذنب على شهيتي. يجب أن أذهب إلى قبر آما، وأصلي هناك. كانت لتريد مني أن أفعل هذا.

لكن كلما بدأت القيادة نحو المدفَن، أستدير عائدًا. لا أريد أن أرى اسمها مكتوبًا على ذلك الحجر، لا أريد أن أرى الكلام المنقوش عليه. لقد اختارته نور بعدما سألها الإمام شفيق، ولا أعرف حتى ما هو المكتوب.

قلت: «أحتاج إلى العمل على تشغيل هذا المكان مجدَّدًا، لكنني لا أمانع. نور هي من تريد الرحيل من هنا».

«هل هي... على ما يرام؟» يمسح شفيق آخر ما تبقى بطبقه من الكاراهي. «لقد جاءت إلى المسجد الأسبوع الماضي».

إذا كان لا يعرف بشأن الجامعات. فلست على وشك أن أخبره.

- اختبارات الفصول الدراسية المتقدمة على الأبواب، ونور تسعى دائمًا إلى الحصول على أعلى درجات.

- هل تعرف عمها بأي شكل من الأشكال؟

«رياض شخص حقير. اللعنة... لم أقصد أن...» رفع شفيق حاجبيه. اللعنة. *إنه إمام يا صلاح الدين.*

قلت: «إنه، أمم... ليس لطيفًا. يكره أن نور متدينة، ويجبرها على العمل في متجر الكحوليات على الرغم من أن الوقت الباقي بالكاد يكفي لأداء الواجبات المنزلية، ولا يريدها أن تلتحق بالجامعة لأنه يريدها أن تتولى العمل في المتجر لكي يستطيع هو الالتحاق بالجامعة».

- هل تعرف ما إذا كان رياض قد تعرَّض لنور من قبل؟

أحملق فيه للحظة طويلة. لم أفهم السؤال.

- تعرَّض لها... مثل...

«ضربها». نظر شفيق إلى عينَيَّ مباشرة. إنه شاب لكنه إذا كان أدار مساجد من قبل، فلا بد كان أفراد المجتمع يذهبون إليه ليحكوا له مشكلاتهم طوال الوقت. «كانت والدتك تشعر بالقلق على نور».

قلت: «إذا كان رياض يؤذيها، كانت لتخبرني. نور...».

قفزت من مكانها عندما لمست كتفها، بسبب الألم لا المفاجأة.

بكت على الهاتف ورفضت أن تخبرني ما السبب.

تضع مكياجًا بين الحين والآخر على منوال غير مفهوم طوال الشهرين الماضيين، على الرغم من أنها قالت لي إنها تكره المكياج.

التزمت الصمت عندما قلت تعليقًا عن استخدام آبو لقبضتيه في التعامل معي. عجبًا *يا صلاح الدين، أيها الأحمق.*

«رياض اللعين...» ذلك الكائن الحقير. يجب أن يركل شخص ما وجهه. أنا. أنا هذا الشخص. أوشك على النهوض من مقعدي حين رفع الإمام شفيق يده.

وقال: «اجلس يا سال. لن يؤدي المزيد من العنف إلى مساعدة نور، ولسنا متأكدين حتى من أن هذا ما يحدث حقًّا».

«أيجب... أيجب أن أسألها بشأن ذلك؟» أحاول أن أفكر بطريقة عملية، أن أخمد ثورتي. «أيجب أن نتصل بالشرطة؟ لا أريد إخافتها، فهي تتوتر عند التعامل مع رجال الشرطة».

يفكر شفيق بعمق. «قد نحتاج إلى اللجوء إلى الشرطة في مرحلة ما. لكن في الوقت الحالي، يجب أن تشعر بأنها في أمان، بأنها تحظى بالدعم».

اقترحت: «ربما في المرة القادمة عندما أتحدث معها، يمكنني أن... أخبرها أنني أشعر بالقلق، من دون اتهامات، من دون أسئلة، وسأرى ما الذي ستقوله».

قال شفيق: «وفي أثناء ذلك، سأتحدث مع خديجة. إذا اعتقدت أن نور تواجه أي خطر، خذها بعيدًا عن رياض، ثم اتصل بي أو بخديجة في أي وقت من اليوم».

رن صوت الإشعارات بهاتفه، فقال: «خديجة بالخارج. يؤسفني أنني لم أجلس مع والدك، لكنني سأزوره في نهاية الأسبوع وأرى ما إذا كنت سأستطيع إقناعه بالسير معي قليلًا».

ينغلق الدش وأسمع صوت ارتطام في غرفة آبو.

«لم يكن هكذا دائمًا». أشعر بأنني بحاجة إلى التبرير. «كان والدًا جيِّدًا. لقد كانت الأمور قاسية عليه، على... علينا».

قال شفيق: «هذه الحياة جهاد... كفاح. وأحيانًا يكون الكفاح أصعب مما يمكن لأي إنسان عاقل أن يتحمله. لن أحكم على والدك بسبب ما يتوجب عليه من جهاد يا صلاح الدين. كيف أجرؤ على ذلك في حين لا يمكنني البدء في استيعابه؟».

عندما يرحل، يستحوذ على عقلي التفكير بشأن ما قاله عن نور. *كانت والدتك تشعر بالقلق على نور.* لكن إذا شكَّت آما أن نور ليست في أمان، كانت لتفعل شيئًا ما.

أفتح الرسائل في هاتفي.

نور.. أحتاج إلى الحديث معك...

لا. يجب أن تكون هذه المحادثة وجهًا لوجه، ويجب أن تتعلق بها لا بي.

لقد فاتك طبق كاراهي رائع. تركه شفيق إذا كنتِ تريدين بعضًا منه.

لا شيء في هذه الرسالة يقترب مما أريد أن أقوله، لكنني أرسلها على أي حال. ونور لا تجيب.

يأتي صوت ارتطام آخر من غرفة آبو، وبينما أوشك على الذهاب للتحقق من الأمر، ينفتح بابه. يبدو متيقظًا، وحين أغرف له صحنًا من الكاراهي، يجلس ليتناوله.

- قال شفيق إنه سيأتي في نهاية الأسبوع.

قال آبو: «لا يحتاج إلى القيام بذلك».

منذ بضع دقائق فحسب، كنت لأغضب بشدة من كلماته إلى درجة أن أغادر، لكنني أفكر في رياض ونور، مع أن آبو سكير، فإنه لم يضربني قط.

- ربما سيكون وجود شخص تتحدث معه في مصلحتك يا آبو.

بينما يتناول الطعام، وأجلس معه مصرًّا على رفقته، تتغير الإضاءة في المنزل وتتحول إلى لون برتقالي ناري إذ تغرب شمس جونيبر فوق الجبال البعيدة وتتسلل عبر النافذة الأمامية. ولا تزال حقيبة الحياكة التي تخص آما في الزاوية، وموضوع فوقها علبة بسكويت بداخلها عدة الخياطة.

تحدث آبو فجأة: «عندما كنت طفلًا، ذهبت لأعيش مع فوبو». (Phopo) تعني عمته. «كان لديها نصف دستة من الأطفال، لكن والدتي كانت سكيرة وكان أبي يحاول أن يوفر لها سبل المساعدة».

أذهلتني المفاجأة. لم يتحدث آبو قط عن والديه، فعلى حد علمي، بدأت حياته عندما كان في الثامنة عشرة من عمره وانتقل إلى إنجلترا للالتحاق بالجامعة.

«أحبتني فوبو كثيرًا كأنني ابنها. كانت هي وزوجها أناسًا طيبين لكنهما فقيران، وحتى مع المساعدة التي قدمها لهما والدي، كانا يعانيان. وكان أصغر أبناء عمتي في سني نفسها، سمير». يمرر آبو يده في شعره الكثيف الذي أصبح مخَطَّطًا باللون الأبيض. «كان ’chalak’[1] للغاية يا صلاح الدين. كان يخدع بائع المشروبات ليعطينا ’آر سي كولا’ مجانًا. ويطري على الفتيات الأكبر سنًّا اللاتي يعشن في البيت المقابل لكي يشترين له حلوى. لم أضحك في حياتي أكثر مما ضحكت معه».

لكن بعدما عشت مع فوبو لمدة عام، كان سمير يتسلق سياجًا وخدش مسمار رجله، فأصيب بالتيتانوس. أرسل والدي نقودًا لكن لم يأتِ الطبيب في الوقت المناسب. وأنا بقيت معه. إنها... إنها طريقة مروعة للموت.

نظر لأسفل إلى يدَيه وقال: «لم أستطع أن أفعل أي شيء. توقفت فوبو عن تناول الطعام، ولم أستطع إنقاذها أيضًا. ثم عدت إلى والدَي، إلى والدتي، لكنها لم تكن أفضل حالًا مما كانت عليه وقت أن غادرت».

هناك حياة كاملة في الصمت الذي يلي ذلك، حياة لن أعرفها أبدًا. أتخيل والدي طفلًا، يشعر بالوحدة والرعب في ألف لحظة.

---

(1) كلمة أردية تعني ماكرًا.

ربما إذا أمسكت بيَديه لن يشعر أنه وحيد. ربما لن يشرب ثانيةً الليلة. ويمكنني الاتصال بجانيس غدًا وإقناعه بالذهاب إلى اجتماعات العلاج. بينما يُخَيِّم عليَّ الهدوء أفكر في معالم الخطة، فأمد أصابعي نحوه وأفتح فمي لأقول له، لكنه يقف بسرعة جدًّا مما يؤدي إلى انقلاب كرسيه.

يصدر الطبق صوتًا حادًّا عندما يُلقَى في الحوض، وتنفتح خزانة، وتوضع كأس فوق الطاولة. أشم رائحته، تلك الرائحة الكريهة الحادة التي لن أعتادها أبدًا. وأسمعه يتنفس الصعداء إذ تنساب ذكرياته بعيدًا لينعم بنسيان هادئ ورحيم.

الجزء الرابع

فقدت ساعة أمي، وانظر! بيتي الأخير
-أو شبه الأخير- من ثلاثة بيوت أحببتها وذهبت
فن الفقد لا يصعب إتقانه.

- إليزابيث بيشوب
«فن واحد»

28
مصباح

أكتوبر، حينئذٍ

من نافذة المطبخ، حجبت الأمطار الموتيل، وبدت الأضواء الفلورية الصارخة أهدأ، وتحولت أرقام الغرف النحاسية إلى أسماك برتقالية صغيرة في أثناء السباحة.

كانت الأمطار نظيفة وعذبة، بعثت رائحة الأرض القاحلة حين تزدهر وتشرب وترقص. لقد شممت رائحة الأمل، الاحتمالات.

كما شممت رائحة باكورة البطاطس المحشوَّة بالفلفل الأخضر الحار التي أخرجتها للتو من المقلاة. لقد صُنِعَت الباكورة وصلصة الشنتي الأخضر خصيصى للأمطار.

ألقيت واحدة في فمي، وفي اللحظة نفسها رن جرس الباب. كان صوته كالصراخ لكنني اعتدته، فقد ذكرني بقرد رباه أحد أعمامي في بيته، وكان يعلن عن امتعاضه لأي شخص لم يطعمه بالسرعة الكافية.

فتحت قفل باب المكتب، فزمجر حين جذبته لأفتحه.

كانت امرأة ذات جسد صغير تنتظر تحت الأمطار المنهمرة، ومعها جسد أصغر مربوط على صدرها. كان شعرها الأشقر النحيل متكتِّلًا فوق رأسها كطيور ميتة تعيسة. وكان يستقر على عنقها قلب فضة في مركزه جوهرة حمراء.

همست: «أنا آسفة على إزعاجك في هذا الوقت المتأخر». مسحت أنفها وعينيها بغطاء طفلها. «آمل ألا يكون لديكِ أطفال».

فقلت: «ليس بعد».

- أحتاج إلى مساعدتك، فأنا معي هذه الطفلة المريضة وأحد عشر دولارًا فحسب في جيبي، وليس معي بطاقات ائتمانية ولا بطاقة هوية لأن محفظتي سُرِقَت. أرجوكِ يا سيدتي، لقد مات زوجي وأعيش مع أمه، لكنها طردتني والملجأ مُغلَق و...

- جدة طفلتك طردتك؟

فأومأت المرأة وفكرت في جدتي، باري دادي[1]، متغضنة وتفوح منها رائحة الثوم والرمان وبطنها كبير ولين، كنت أصدم رأسي بقوة فيه.

لقد ربت عشرات الأحفاد، إذ ربت جميع أبناء أعمامي الكثيرين. كانت تغير الحفاضات وتهدئ نوبات الغضب وحتى تتسلق الأشجار.

لكن الجدات يطردن أحفادهن، كم كانت أمريكا بلدًا غريبًا.

أخذت أتأمل المرأة، وأنت اخترت أن تركل بطني في تلك اللحظة يا صلاح الدين، بدا كأنك تقول: *آما، ساعديها*.

حتى عندئذٍ، كنت تثق في الناس.

أعطيتها الغرفة التي كنا قد جددناها للتو، إذ أخرجنا منها السرير المتهالك والأثاث المُمَزَّق واستبدلنا بهما مرتبة مريحة وكراسي برتقالية مُنَجَّدَة حديثًا، وأصلح توفيق التليفزيون المُعَطَّل، وكنت قد وجدت مجلة ناشيونال جيوجرافيك مصفرَّة تتعلق بيوسمايت، فأخذت منها الصور ووضعتها في إطارات لأعلقها فوق السرير، وكان الباب مطليًا حديثًا. لقد كانت غرفة أفتخر بها.

«تفضلي». كانت مفاتيحنا قديمة الطراز، نحاسية ومعلقة ببطاقات أرقام بيضاوية، لكنني كنت أراها فاتنة. «غرفة رقم واحد، على اليمين».

رفعت المرأة نظرها إلَيَّ واغرورقت عيناها، وعندئذ رَبَتُّ على كتفها، فجفلت.

«آسفة». نظرت المرأة إلى أسفل. «أنا آسفة».

---

(1) تعني «جدتي الكبرى» باللغة الأردية.

في تلك الليلة، بجانب زوجي النائم ظللت أدعو، أدعو أن تكون طفلتها قد أصبحت أفضل حالًا وأنها نامت جيدًا ولم تبقَ مستيقظة طوال الليل.

في الصباح، ذهبت لتنظيف الغرفة وطرقت على الباب أولًا، لكن لم يأتِ رد، فأخرجت المفتاح الرئيسي ودخلت.

في البداية، لم أفهم وخطوت إلى الخلف لأتحقق من رقم الغرفة. كانت الغرفة الصحيحة.

لكنها كانت خالية، ليس بها التليفزيون المصلَّح، ولا أغطية السرير الجديدة، ولا الكراسي المُنَجَّدة، ولا الطاولة الفورميكا الحديثة، ولا المرتبة المتينة. كل شيء اختفى، وتُرِكَت الغرفة عارية.

على الأرض، وجدت ورقة منزوعة من الإنجيل الذي كان على الطاولة الصغيرة بجانب السرير، فقرأت الكلمات بأعلى الصفحة، سفر الجامعة. أما الكتابة في الهوامش، فكانت بخطٍّ مضطرب.

«*أنا آسفة، أجبرني على فعل هذا*».

اتصلت بتوفيق من الشَّقَّة، وهمست: «توفيق، يا إلهي. أنفقنا على تجديدها الكثير من المال. ماذا سنفعل الآن؟ كم أنا حمقاء».

«طيبة القلب ليست حماقة يا فؤادي». وضع ذراعه حولي. «وبأية حال، على الأقل لم يسرقوا الصور».

29
نور

إبريل، الآن

أعلنت جيمي جينسن أنها قُبِلَت في جامعة كاليفورنيا (لوس أنجلوس) في نهاية إبريل. إنها الطالبة الوحيدة غيري في مدرسة جونيبر الثانوية التي تقدمت إليها، حسب علمي على الأقل. لقد تأخرت القرارات هذا العام، لكن ما دام جاءها رد منهم، يجب أن يأتيني رد أيضًا.

لكن لم يأتِني رد.

قالت لأتيكس وجريس وصوفي في نهاية صف التفاضل والتكامل: «سأذهب إلى جامعة برنستون بالطبع، لكن من الجيد معرفة أن لديَّ بديلًا مقبولًا».

نظرت إلَيَّ عندما قالت هذا، وكذلك أصدقاؤها، فأشعر بحرارة في وجهي وأوجه تركيزي إلى إقحام حافظة الأوراق في حقيبة الظهر. لكنني لم أكن متأنية فتسقط بعض أغراضي من حقيبتي: ملابس بديلة وقطع جرانولا وجواز سفري ومحفظتي وهاتفي.

«هل أنت مُشرَّدة أو شيء من هذا القبيل؟» وتضحك جيمي: «لماذا تحملين كل هذه الأشياء في حقيبتك؟».

بينما ألتقط هاتفي، تلتقط جواز سفري وتفتحه فتسقط منه بطاقة الإقامة الخضراء القديمة.

«أووو يا شباب». ترفعهما جيمي أمام عيون أصدقائها: «انظروا إلى نور الطفلة». إنها تبتسم لكن عينيها ميتتان. «لماذا تحتفظين بهذه الأشياء معك؟ لكيلا تتعرضي للترحيل أو ما شابه ذلك؟».

أمسكت بجواز السفر لكنها تجذب بطاقة الإقامة الخضراء بعيدًا: «انتظري لحظة». وتضيق عينيها: «هذه البطاقة منتهية الصلاحية».

يناديها السيد ستيفنسون من مقدمة الفصل: «آنسة جينسن، كفى».

رفعت البطاقة وقالت: «سيد ستيفنسون، إقامة نور منتهية الصلاحية، وضعها غير قانوني».

«ليس كذلك». بالكاد أستطيع إخراج الكلمات من فمي، فأنا غاضبة جدًّا: «عمي معه بطاقة إقامتي الحالية». لقد تمكنت من أخذ بطاقتي القديمة من ملفه خلسة لأنني كنت بحاجة إلى الرقم المكتوب عليها من أجل تقديم طلبات الالتحاق بالجامعات. لا أعرف لماذا احتفظت بها، أعتقد أنها جعلتني أشعر بأمان أكثر. أحاول الإمساك بالبطاقة لكن جيمي تسحبها بعيدًا عن متناول يدي.

قلت: «أرجعيها لي».

- أعتقد أننا يجب أن نحتفظ بها من أجل تقديمها إلى وكالة إنفاذ قوانين الهجرة والجمارك، ألا تعتقدين...

قال لها أتيكس بهدوء غريب: «توقفي عن هذا يا جيمي». أتذكر على نحو غامض تقريرًا عائليًّا كتبه في الصف الثامن متعلقًا بجدة كوبية كانت طالبة للجوء. بعدما تحملق جيمي في أتيكس بغضب، تعطيني بطاقتي.

رن الجرس وأهرب سريعًا. لكن حتى إذا كنت قد انتهيت من جيمي، فهي لم تنتهِ مني.

«ما هي اللعبة التي تلعبينها يا نور؟». تجري لتلحق بي، وعندما أواصل السير، تقفز أمامي فجأة مثل فيلم رعب. «لماذا لا تتحدثين بتاتًا؟ أنت تعرفين أن التقدم إلى الجامعات غير قانوني إذا لم يكن معك بطاقة إقامة خضراء».

«جيمي». أواصل السير. «ابتعدي عن وجهي. يجب أن أذهب إلى صف الاقتصاد».

قالت: «لا. هذا خطأ يا نور. انظري، أعرف أنك عانيتِ صعوبات، لكن لا يمكنك القدوم ببساطة إلى دولة...».

أهُس في وجهها: «لست هنا بصورة غير شرعية». تأخذ خطوة إلى الخلف. «وحتى لو كنت كذلك، لن يُعَدَّ التقدم إلى الجامعات جريمة، فهناك العديد من البرامج الدراسية للطلبة غير الموثَّقين...».

قالت: «الطريقة الوحيدة التي تعرفين بها ذلك هو أن تكوني غير موثَّقة».

أشعر أنني متعبة جدًّا. «لماذا يعنيكِ هذا؟ توشك المدرسة الثانوية على الانتهاء وسنذهب في طرق منفصلة. لن تضطري إلى رؤيتي ثانيةً أبدًا».

- يعنيني لأنني مواطنة فعلية في هذه الدولة، ويدفع والداي الضرائب لإبقاء الناس الذين على شاكلتك خارجها.

«من ممثلنا في الكونجرس يا جيمي؟». تصمت، فأجيب: «إنها أبيجيل وين. وذلك سؤال في اختبار المواطنة بالمناسبة. بما أنك تحبين هذه الدولة، ألا يجب أن تعرفي الإجابة؟».

- تظنين نفسك أفضل كثيرًا من الجميع، أليس كذلك؟

هناك جنون بشخصيتها، نَهَم. لا أثق في الناس الذين يقولون إنهم يمكنهم رؤية المستقبل، فالآن هو الآن، والشيء الوحيد الذي نعرفه هو أننا لا نعرف شيئًا. لكن للحظة، أرى جيمي شخصًا بالغًا، باردة وشفتاها رفيعتان، ولها معصمان عظميان وصوت صاخب، تحاول إقناع الناس السذج بأن الطريق الخاطئ هو الطريق الصحيح.

تقترب مني جدًّا لدرجة أنني أستطيع رؤية مسامِّ وجهها، وأستطيع أن أشم رائحة لحم الخنزير المقدد الذي تناولَته في الإفطار.

- قولي شيئًا يا سقطة.

«ليس لديَّ ما أقوله لكِ». لا أرفع صوتي. «لم يكن لديَّ قط».

عندما انتقلت إلى جونيبر، لم أكن أتحدث كلمة بالإنجليزية. لم يعرف والدي أنني سأحتاج إليها، وكان تشاتشو متكبِّرًا شامخًا لدرجة تمنعه من الحديث بالأردية أو البنجابية. كنت أستمع إليه في متجر الكحوليات، ثم أذهب إلى الحمام وأتمرن في المرآة.

مرحبًا، اسمي نور

أنا آسفة، هل يمكن أن تقول ذلك ثانيةً؟

أنا آسفة، لا أفهم.

كانت المدرسة مريعة. يمكن للأطفال أن يكونوا قاسين. كان صلاح الدين الوحيد الذي لم يسخر مني يومًا، لكن بالطبع سخر مني جميع الأطفال الآخرين، من لكنتي، ملابسي، شعري الذي يبرز من كل مكان برأسي. لم أفهم لماذا كانوا بهذا اللؤم، لكنني الآن أفهم الأمر. إنها حكاية قديمة مملة، لقد بدا شكلي مختلفًا، تحدثت بطريقة مختلفة، كان من الأسهل أن يجتمعوا ضدي بدلًا من رؤية عيوب في أنفسهم.

قالت جيمي فجأة: «أعرف سرك الصغير، سرك الآخر. وأيًّا كانت الجامعة التي سينتهي بكِ الأمر إلى الالتحاق بها يا نور، سأحرص على أن يعرفوه أيضًا».

- أنتِ... ماذا تعنين؟

حدقت إلَيَّ منتصرة، وينتابني أغرب شعور، ليس خوفًا كما كان فيما مضى، ليس غضبًا.

ارتياح.

أخيرًا. شخص ما يعرف. *سرك الآخر.*

قالت: «مقالاتك. لقد جعلتِ صلاح الدين يكتبهم بدلًا منكِ».

عندما ترى التعبير الذي على وجهي، الذي لا بد أنه مزيج من الصدمة والحزن، تكاد جيمي تزقزق. تقول شيئًا آخر، لكنني لا أسمعها.

عندما قالت *أعرف*، اعتقدت أنها عرفت فعلًا، عرفت أكثر شيء أخاف من أن يعرفه أي شخص.

الشيء الذي أتمنى لو كان يعرفه شخص ما.

لكن لا أحد يرى، لا أحد يعرف، ولا حتى الفتاة التي ظلت تراقبني مثل الصقر منذ اللحظة التي قررت بها أنني أمثل تهديدًا لها.

في منتصف جعجعتها، أسير مبتعدة، كأنها كلب ينبح علَيَّ، لا إنسان يتحدث معي. لا أريد أن أستمع. لا أريد أن أسمع ما لديها لتقوله. لا يهمني.

لأنني أدرك أخيرًا أن أحدًا لن يرى أبدًا.

أصبح هناك ناس حولنا الآن، ناس يشاهدون، وأحاول أن أتجاهلهم.

زمجرت علَيَّ: «مهلًا»، ووجهها أحمر ساطع، كأن كل الكراهية التي خزنتها تجاهي تنفجر تحت جلدها. «أجيبيني أيتها القافزة على السياج التي تركب الجمـ...».

أمسكت بذراعي، فأنتزعها بقوة وأطوح بها. تلتقي قبضتي وجهها بصوت ارتطام غليظ أعرفه تمام المعرفة، فتقع على الأرض وتصرخ وتمسك بأنفها.

فجأة، يصطدم شيء ما بجانبي دافعًا الهواء خارج رئتَي. ثم يلوي دارث ديريك ذراعي خلفي ويضغط وجهي في التراب.

- ابتعد عني أيها اللعيـ...

يصيح مثل رجال الشرطة في التليفزيون: «توقفي عن المقاومة. توقفي عن الحركة».

لكنني لا أستطيع. كل غضبي يغلي بداخلي ولا يوجد منفذ له للخروج، فأضرب وأصرخ وأزمجر وأعض، أدعه يمر من خلالي، أدعه يسيطر علَيَّ.

وبالقرب مني، تبكي جيمي بشدة.

30
سال

تقول جريس إن نور هددت جيمي بالقتل، ويقول أتيكس إن جيمي قالت شيئًا فظيعًا لنور ففقدت أعصابها. لكن لا يعرف أحد من اتصل بالشرطة، لكن ظهرت سيارة دورية سريعًا، وأرى شرطيًّا يتجول في الحرم المدرسي في أثناء الغداء.

في غضون هذا، أصبح دارث ديريك يتصرف مثل جنود العاصفة في سلسلة حرب النجوم[1] ويفتش الخزائن وحقائب الظهر، مع أن ذلك لا علاقة له بالشجار الفعلي.

هل أنت بخير؟

نور، ما الذي حدث؟

هل تريدين مني أن أخدش سيارة جيمي بالمفتاح؟

---

(1) Stormtrooper هم جنود الإمبراطورية الاستبدادية في عالم فيلم «حرب النجوم»، ويتسمون باتباع الأوامر دون تمييز أو تفكير.

لا تجيب، والآن أشعر بالقلق. إذا عرف رياض ما حدث، فقد يغضب منها. منذ أخبرني الإمام شفيق بشكوكه ليلة أمس، أجهد عقلي محاولًا اكتشاف كيفية دفع نور إلى الكلام عن رياض، لكن كل الطرق التي تخطر ببالي تبدو واضحة للغاية. عدت إلى قراءة رسائلنا القديمة والبريد الإلكتروني بيننا محاولًا أن أرى إذا كان هناك شيء قد فوته. وحتى قرأت مقالها الذي قدمته إلى جامعة كاليفورنيا (لوس أنجلوس) مفكِّرًا أنها ربما ألمحت إلى الأمر بطريقة ما.

لم أستطع الهروب من المدرسة لأرى ما إذا كانت نور في بيتها حتى موعد الغداء. لكن بينما أتجه إلى سيارتي، يناديني آرت، وليس مبتسمًا.

«قل لي إنك لم تبع لأشلي». إنه قريب –قريب جدًّا– من وجهي، وتدفعني يداه نحو باب سيارتي، فأبعده عني بعنف كافٍ لإيقاف بعض الطلاب بالقرب منا ليشاهدوا ما يحدث، منتظرين مشاجرة.

يراهم آرت أيضًا، ولأول مرَّة في حياته يخفض صوته.

- لقد اتصلت بي للتو. قالت إنها في السيارة بالقرب من روني ديز، وبالكاد تستطيع أن تتكلم. سمعت صوت كايا في المقعد الخلفي. ماذا بعت لها؟

قلت: «ما أعطيتني. أرادت مسكِّنًا لآلام ظهرها، وطلبت مني علبة لكنني أعطيتها حبتين فقط».

دفعت لي مائة دولار. لقد وضعت كل النقود في البنك صباح اليوم، وأخيرًا سددت مستحقات بنك الاتحاد الأول. كان من المفترض أن أشعر به انتصارًا، لكن بدلًا من ذلك تساءلت كيف سأجد قسط الشهر التالي.

«اللعنة». شد آرت شعره حتى يبدو كقنفذ ممسوس. «لقد بعت لها علبة يا سال. اعتقدت أنها لا تشتري إلا مني. لم أكن لأفعل ذلك لو عرفت أنك أعطيتها أي شيء».

«هل تناولت الاثنين؟» يتملكني الذعر. «يجب أن نجدها».

بينما أفتح سيارتي قال: «لا يمكننا يا رجل، فهذا ليس آمنًا».

- هل تتحدث بجدية الآن؟

«ماذا لو جاءت الشرطة؟» يمسك بكتفَيَّ: «من الممكن أن يفتشونا...».

قلت بصوت منخفض وهادئ: «لا تلمسني»، بينما أغلق يدَيَّ في قبضتين ويراهما، فيتراجع بقلق، وأدخل سيارتي. بمجرد أن أقود، أتصل بأشلي لكنها لا تجيب الهاتف.

جونيبر صغيرة بما يكفي ليستغرق الوصول إلى روني ديز بضع دقائق، لكنني لا أرى سيارة أشلي الموستانج. أدور حول المنطقة وأوشك على التوجه نحو منزلها حين تمر سيارة الإسعاف بجانبي صارخة.

ثم سيارة شرطة.

ثم سيارة إسعاف أخرى.

ثم سيارة إطفاء الحريق.

وقبل أن أتبعهم إلى الشارع الخلفي لروني ديز، قبل أن أسمع صراخ كايا، قبل أن أرى سيارة أشلي الموستانج، كنت أعرف. أعرف أن شيئًا مريعًا قد حدث. وأعرف أنه خطئي.

لم يحظَ رجال الشرطة بالوقت الكافي بعد لوضع شريط حول المكان، وبعدما أوقف سيارتي جانبًا، أركض نحو سيارة أشلي.

«مهلًا». يخطو شرطي ليقف أمامي: «لا يمكنك أن تكون هنا يا فتى».

«إنها... إنها صديقتي». ينظر إلَيَّ الشرطي، رجل أبيض كبير السن له شارب كثيف، كما لو أنني قد أحاول سرقة سلاحه الشخصي.

«هل هي بخير؟ هل...» أوشك على السؤال عمَّا إذا كانت كايا بخير، لكن صراخًا يحطم الآذان يخبرني بالإجابة. يحاول شرطي استمالة كايا لتخرج من السيارة، لكنها لا تقبل هذا.

تصرخ: «ماما. أريد ماما».

سحب اثنان من المسعفين أشلي من السيارة في حين يحضر الاثنان الآخران نقَّالة. ويتسرب العاملون في روني ديز من الباب الخلفي ليشاهدوا ما يحدث.

- ضغط الدم سبعة وستون على ثلاثة وأربعين وينخفض. نسبة الأكسجين أربعة وتسعون.
- معها علبة مخدرات...
- ها هو ذا الناركون...

تتشظَّى الكلمات وتتكسَّر ثم تصبح صامتة عندما أَلمَح أشلي. فمها مفتوح، وعيناها زجاجيتان نصف مفتوحتين تنسال منهما الماسكارا في الزوايا الخارجية. عندما يحركها المسعفون، تتمايل كأن كل عظامها قد تحولت إلى ماء. وتتناثر القيء على ملابسها.

لا تبدو كطالبة في المدرسة الثانوية، بل كأنها ناجية من حرب.

قال أحد المسعفين: «إنها لا تتنفَّس»، ولا أفهم كيف يمكنه أن يكون بهذا الهدوء.

فيبدؤون الضغط على صدرها لأسفل وأعلى. ويصرخ صوت في رأسي: *أنت فعلت ذلك، هذا ذنبك.*

أسمع صوتًا في أذني، إنه الشرطي ذو الشارب، يقول: «ليس هذا عرضًا ترفيهيًّا. ارحل من هنا».

ينقل المسعفون أشلي إلى داخل سيارة الإسعاف.

أنت. أنت. أنت. يحدث *هذا* بسببك *أنت*. لقد عرفت أنه من الممكن أن يحدث، عرفت هذا ومع ذلك بعت تلك الحبوب لأشلي.

إذا كانت آما تستطيع أن تراني الآن، كانت لتصاب بالغثيان لرؤيتي. عندما كنت صغيرًا، كانت تسألني ماذا أريد أن أكون عندما أكبر. *ما رأيك في الكتابة، بوتر؟ خذ كل هذه القصص وضعها في كتاب*. لقد توقعت مني ما هو أفضل بكثير مما أصبحت عليه.

ونور. إذا عرفت نور، فلن تتحدث معي ثانيةً أبدًا.

لقد سألَتني أمس ما إذا كنت قد أنهيت مقالي بعد. تطفو الفكرة في ذهني الآن. *اكتب قصة خيالية بناءً على تجربة حياتية، يمكنك استخدام تجربتك أو تجربة شخص آخر، لكن يجب أن تكون مستوحاة بدرجة كبيرة من أحداث حقيقية.*

الآن أعرف ما سأكتب عنه: عن فتى، ومدى غبائه إذ اعتقد أن مبنى، بيتًا، قيمته أعلى من حياة إنسان. سأكتب عن كم كان أنانيًّا، وعن ندمه وكيف التهمه من الداخل إلى أن أصبح جسده مجرد قشرة متحللة تضم روحًا لم يعد يعرفها بعد الآن.

31
نور

سألتني السكرتيرة في مكتب الاستقبال عمن الشخص الذي يجب أن تتصل به، فأعطيها رقم بروك، وبعد عشرين دقيقة، تصل.

«آسفة لأنك اضطررتِ إلى مغادرة العمل». ندخل مكتب إرنست، ولا يعدو صوتي أن يكون همسًا لأنني إذا تحدثت بصوت أعلى، سأبدأ في الصراخ، ولن أتوقف.

المكتب في حالة من الفوضى المنظمة. يضع إرنست ملصقًا قديمًا متربًا لصقر يغطس مكتوب عليه «الشجاعة»، وتحته يوجد ورقة لاصقة تقول «أحب سن 45». وهناك على مكتبه حاسوب شخصي ومجموعة من الكتب. حين أنتظره ليتحدث، أقرأ العناوين، يُدعَى الكتاب الأصفر الفاقع «عزيزتي أمريكا: مذكرات مهاجر غير موَثَّق» (Dear America: Notes of an Undocumented Citizen)، وفوقه كتاب يُدعَى «الشمس أيضًا نجم» (The Sun Is Also a Star).

رآني أنظر إلى الكتب، فقال: «ابنتي محامية هجرة، وتصر على أن تحاول تعليمي».

فأسأله: «وهل نفع هذا؟». يبتسم إرنست، مما يفاجئني، وللحظة يبدو إنسانًا.

«قليلًا يا آنسة رياض». ينظر إلى بروك: «هل سينضم إلينا زوجك؟».

قالت كاذبة: «إنه غير متاح الآن، سأتحدث معه في المنزل».

قال إرنست: «هذه مخالفة جسيمة للغاية. من الممكن أن تكون الآنسة رياض قد آذت وجه الآنسة جينسن بشدة. وأمامنا احتمال لتوجيه تهمة اعتداء. لديَّ ضابط شرطة هنا...».

«هل ستجعل الشرطة تلقي القبض علَيَّ؟» أفشل في إخفاء الذعر في صوتي، وقبل أن يستطيع إرنست أن يجيبني، ينفتح الباب ويطل الضابط برأسه. إنه شاب أسود اللون وعيناه اللتان تستقرَّان عليَّ لأقصر لحظة هما الشيء الطيب الوحيد في هذه الغرفة.

قال: «سيد إرنست، أنا على وشك الحديث مع والدَي الآنسة جينسن، هل يناسبك هذا؟».

يومئ إرنست برأسه ويغادر الضابط. «الضابط ديكسون هنا لأخذ إفادة لا إلقاء القبض على أي شخص. لكن...».

قلت: «هل أخبرتك جيمي بما قالته لي؟ إنها...».

«ذكرت الآنسة جينسن أنكما تبادلتما كلمات حادة». رفع إرنست يدًا: «لكن العنف الجسدي ليس حلًّا للرد على إهانة، بغضِّ النظر عن طبيعتها».

- لقد دعتني القافزة على السياج التي تركب الجمال. إنها تتصرف معي بطريقة مريعة منذ المرحلة الابتدائية.

- إذا شعرتِ أن الآنسة جينسن تتنمر عليكِ، فلدينا بروتوكول...

ضحكت: «لم تكن لتفعل أي شيء، ولا أعرف ماذا قالت لك، لكنني لست هنا بصورة غير قانونية، وإن كان ذلك الأمر ينبغي ألا يكون مهمًّا...».

- آنسة رياض، أعرف تمامًا من هم طلابنا غير المُوثَّقين، وأعرف أنك لستِ واحدة منهم. وبالتأكيد، ينبغي ألا يكون هذا مهمًّا، وهو ليس مهمًّا.

تنهد مُقَلِّبًا نظره بيني أنا وبروك.

«نور...» ربما يعتقد إرنست أن الانتقال إلى مناداتي باسمي الأول سيخفف من حدتي. «أنتِ واحدة من أفضل الطلاب في مدرسة جونيبر الثانوية. وقد شهد السيد ستيفنسون لصالحك، إذ قال إن الآنسة جينسن أثارت أعصابك في الفصل. ومن ثم لن يُكتَب هذا في سجلك إذا كتبتِ رسالة اعتذار إلى الآنسة جينسن، وإذا...».

أوشكت على النهوض من مقعدي حين تجذبني بروك لأجلس ثانيةً. «لن أعتذر».

- إذن ستتعرضين للفصل من المدرسة لمدة يومين، وسُيكتب هذا في سجلك الدائم وتُبلَّغ الجامعات به في سجلك الأكاديمي لهذا العام.

قلت: «حسنًا. هل انتهينا؟».

«نور...» تتحدث بروك بصوت رقيق للغاية لدرجة أنني أكاد لا أسمعه. «ربما...».

- أناشدك أن تعيدي التفكير يا آنسة رياض. يمكن أن يكون لهذا آثار وخيمة على فرصك في...

«لن أعتذر إلى جيمي جينسن بأية حال من الأحوال». لا يمكنني كبح غضبي الآن، لا أريد ذلك. «بالنسبة لي، لم ألكمها بقوة كافية».

وقفت واتجهت للخارج. أتساءل ما إذا كان الضابط ديكسون سيوقفني، لكنه في الجانب الآخر من المكتب مع جيمي ووالدتها، امرأة سمراء يبدو عليها الإرهاق، يعقد ذراعيه أمام صدره ويبدو غير متأثِّر وهي تثور بأنفٍ دامٍ.

قالت: «تحتاج إلى إلقاء القبض عليها. لقد اعتدت عليَّ ووضعها هنا غير قانوني. هل تفهم حتى ما...».

- آنسة جينسن، ستتحدثين معي باحترام وإلا ينتهي حديثنا...

لا أسمع بقية الكلام، فبعد لحظات، أصبحت خارج المكتب متجهة إلى موقف السيارات، وأسمع صوت خطوات بروك الهادئة خلفي.

- نور.

- أرجوكِ لا تخبري تشاتشو.

تلحق بخطواتي: «لن أخبره. تعرفين أنني لن أخبره».

- هل أعرف هذا؟

قالت: «كنتِ لتعرفيه لو تحدثتِ معي يومًا».

وقفت: «لو أنا تحدثت معك يومًا؟ أنتِ لا تسأليني عن أي شيء، وليست لديكِ كلمتان تقولينهما لي في معظم الأيام، وعندما...».

تشاتشو هو السبب الوحيد لوقوفي هنا، وليست بروك.

لا تجيب ونظل صامتتين طوال الطريق إلى المنزل. وعندما نصل أخيرًا إلى المدخل، تنظر إلَي: «سنقول إنك عدتِ إلى المنزل لأنك مريضة. وستبقين مريضة إلى أن ينتهي الفصل».

إنها لحظة نادرة من التضامن، لحظة أشعر بالامتنان لها، فأومئ برأسي.

قالت: «سنبقي هذا بيننا، اتفقنا؟».

ونبقيه بيننا بالفعل، لمدة يوم.

ثم يسوء كل شيء.

32
سال

تقطع والدة أشلي غرفة الانتظار في قسم الطوارئ ذهابًا وإيابًا. وعندما تراني، تجذبني في عناق أمومي يشمل الجسم كله بسرعة جدًّا لدرجة أن كل ما أستطيع فعله هو أن أنتظر انتهاءه.

«مدام ماكان...».

«سيدة ماكان من فضلك». تتركني والدة أشلي. «ماكان اسمي أنا وليس اسم اللص الذي كان زوجي سابقًا. لم أرَ ذلك الحقير منذ سبعة عشر عامًا وأشكر الرب على هذا».

- آسف جدًّا بشأن أشلي...

«لا تعتذر يا عزيزي». تجعلني السيدة ماكان أجلس بجانبها. «أعرف أنكما انفصلتما، وأتفهم ذلك. لقد أخبرتها، قلت لها 'أشلي، أم هذا الفتى المسكين تُوُفِّيَتْ للتو، لا تجعلي ما يحدث متعلِّقًا بكِ'. لكن الفتيات المراهقات، يا إلهي، إنهن يعتقدن أن كل شيء مسألة حياة أو مو...» تضغط شفتيها معًا وتهز رأسها.

- هل جاء الطبيب وقال أي شيء؟ كيف حالها؟

قالت السيدة ماكان: «لقد سألت كثيرًا، ويواصلون إخباري بأنني يجب أن أنتظر».

«أين كايا؟ هل... هل هي بخير؟» توقعت أن أرى ابنة أشلي هنا، مستمرة في البكاء كما كانت عندما جذبها رجال الشرطة من السيارة.

- إنها مع قسيسي وزوجته.

يرتجف صوت السيدة ماكان وأفكر أنها على وشك البكاء، لذا أجد لها علبة مناديل وأطلب قهوة. إنها محروقة لدرجة أن الشياط يصل إلى أنفي، لكن السيدة ماكان تشربها دون تعليق.

قالت لي عندما عدت للجلوس: «لا بد أن جسد أشلي أصيب باستجابة غريبة بسبب شيء ما. لقد تناولنا طعامًا من Jimmy's Grill ليلة أمس، وبدا على أشلي الإعياء لكنني اعتقدت أن النوم الجيد ليلًا سيساعدها». أمسكت بقلادتها، قلب فضة صغير في مركزه جوهرة حمراء. «وربي، إذا لم تنج ابنتي الصغيرة، لن أنعم براحة حتى يُلقَى جيمي في السجن، وإذا لم يكن في السجن، سيتمنى لو أنه كان به».

إما إنها ليس لديها فكرة أن أشلي تعاطت جرعة زائدة، وإما إنها لا تريد أن تعترف بذلك.

لكن الطريقة التي تتحرك عيناها بها فلا تستقرّان في مكان واحد بتاتًا، الطريقة التي تمسك بها بقلادتها، تجعلانني أفكر أنه الخيار الثاني على الأغلب.

«معذرةً». أتعرف على الطبيبة ذات الشعر الرمادي والبشرة الشاحبة التي يترهل تحت عينيها نصفا قمرين منتفخان. إنها الدكتورة إليس، طبيبة الأطفال التي كنت أذهب إليها فيما مضى. تومئ للسيدة ماكان من الباب المؤدي إلى جناح المستشفى الرئيسي.

- هل هي بخير؟ أرجوك يا رب...

- حالة ابنتك مستقرة، لكن سيكون من الأفضل أن تتحدثي مع طبيبها المعالج...

- لا يا دكتورة إليس. أنت تعتنين بها منذ كانت طفلة صغيرة جدًّا. أثق بكِ.

تلاحظ دكتورة إليس وجودي لأول مرة، وتبدو متفاجئة. «صلاح الدين... لماذا...».

قالت السيدة ماكان: «إنه من العائلة. هل يمكننا رؤيتها؟».

«ليس بعد». لا تزال دكتورة إليس مشوشة، لكنها تقودنا إلى الجناح الرئيسي نحو غرفة اجتماعات قبيحة حيث على الأغلب لم يُنَاقَش أي شيء سار من قبل.

عندما نجلس، تنظر إلَي دكتور إليس ثانيةً بإمعان، لكنها تبدو حائرة هذه المرة، كأنها لا تستطيع اكتشاف ما الذي أفعله هنا.

- سأناقش معك معلومات طبية حساسة يا سيدة ماكان، هل أنتِ مرتاحة بشأن...

- ليس لونه مثل لوني ومن ثم لا يمكن أن يكون من العائلة؟ كم مرَّة يجب أن أقولها؟

توقعت أن تنفعل دكتورة إليس، لكنها تهز رأسها: «لقد سألت لأنني من المفترض أن أسأل يا سيدة ماكان».

أتمتم: «يمكنني أن أغادر»، وحين أقف، تشير لي السيدة ماكان لأجلس مرَّة أخرى.

تفتح دكتورة إليس ملفًّا على الطاولة: «وفقًا للطبيب المعالج، كان في جسد أشلي جرعة عالية من الكارفنتانيل، إنه نوع اصطناعي شديد الخطورة من مسكن الألم فينتانيل. كان في جسدها أيضًا أوكسيكونتين...».

تتقلص معدتي، أوكسي، إنها الحبوب التي بعتها لها.

- كلاهما أفيون. لقد شهدت جونيبر عددًا غير قليل من حالات تعاطي جرعة زائدة...

«جرعة زائدة؟». تتمسك السيدة ماكان بقلادتها. «لا تتعاطى ابنتي مخدرات».

- هذا ما وجدته التحاليل في جسدها...

- ربما تناولت هذه الأدوية لأنها لم تكن على ما يرام. إنها تعاني مشكلات في الظهر منذ ولدت طفلتها، لكنها أم بحق السماء. لن... لن... تتعاطى هيروين وابنتها في السيارة مثل المدمنين...

تصحح دكتورة إليس كلامها برفق: «لم يكن هيروينًا، كان أفيونًا. تشير الكمية التي وجدناها في جسدها إلى أنها تناولت الكثير منه في وقت واحد.

سيدة ماكان... أعرف أنه أمر يصعب عليكِ سماعه. أحيانًا لا نعرف لماذا يقوم الناس بأفعال بشعة...».

تنظر إلَي دكتورة إليس حينئذٍ، لكن لا يرتسم على وجهها اتهام، بل... شيء آخر.

ترفض السيدة ماكان أن تقتنع: «تبًّا لذلك، ليست أشلي مدمنة مخدرات».

تُخرِج الطبيبة ملفات أشلي ونتائج الفحوصات، وتوضح المكتوب بها برزانة وهدوء. إنها طبيبة أطفال لا طبيبة طوارئ، وأتساءل ما إذا كانت قد خاضت مثل هذه المحادثة من قبل.

لكن السيدة ماكان تواصل هز رأسها، ويبدو من الجنون أن تنكر ما أمام عينيها مباشرةً.

لكنني عندئذٍ أفكر كيف يكون رد فعل آما إذا تعاطيت جرعة زائدة، فيما فعلته عندما وجهت بشأن إدمان آبو للخمور. أفكر في كيف يمكن للإنكار أن ينسج طريقه بداخل عائلة، يهمس بأكاذيب لطيفة، ويعتبر هذا المكان منزله.

لقد طلبت آما من آبو أن يذهب إلى اجتماعات منظمة مدمني الكحول المجهولين، أن يذهب إلى مركز إعادة تأهيل، طلبت لكنها لم تطالبه بذلك قَطُّ. ظلت تصلح ما يتسبب فيه من فوضى، لكنها لم تتركه حين أدركت أنه لن يتغير أبدًا. أخفت عني إدمانه إلى أن أصبح واضحًا أمامي. وحتى عند ذلك، لم أسمع قط كلمة «مدمن خمور» تخرج من شفتيها.

لم تخبر أي شخص في باكستان قط. لم تطلب المساعدة قط. لم تفعل ذلك حين ظل آبو يتغيب عن العمل ويُطرَد من وظيفة تلو الأخرى، ولا حين واجهتنا مشكلات مالية. ربما اعتقدت أنه ليس هناك أحد سيساعدها. ربما اعتقدت أن الله سيساعدها.

أفكر كيف كانت آما تتعامل معي أيضًا. تزفر الذكريات وتتحرك كمخلوقات قديمة كانت في سبات طويل، ذكريات غريبة، أشياء لم أفكر فيها منذ زمن بعيد: تمني وجود آما عندما كنت محاطًا بالأطفال الآخرين، وإخبار المدرسة أنني أحتاج إلى الذهاب إلى المنزل، أقول هذا ثم أصيح به ثم أصرخ به. يسيطر عليَّ الغضب، الذعر، الحاجة إلى التحكم، ولا أفهم لماذا أشعر بأي من هذا.

تضع آما يدها برفق على صدري: «Bas, Putar, bas». **كفى يا بني، كفى.**

أدرك أنني أصدرت صوتًا ما لأن الغرفة يعمها الصمت، وتنظر إلي كلٌّ من دكتورة إليس والسيدة ماكان.

فأقول: «سيدة ماكان، والدي... لديه مشكلة». أحاول أن أتظاهر بأن الطبيبة لا تجلس هنا، تطلق الأحكام علَي. «إنه يشرب الخمر، كثيرًا». الآن أعرف لماذا تتحدث نور بعبارات قصيرة، فأحيانًا تكون هذه هي الطريقة الوحيدة لاجتياز محادثة. «يجب أن يتوقف عن هذا لكنه لا يتوقف. لم يعد أبًا بالنسبة لي».

إنها أول مرَّة أعترف بتلك الحقيقة بصوتٍ عالٍ، حتى لنفسي.

- ربما ليس من الحتمي أن يكون الأمر هكذا بالنسبة إلى أشلي.

تقف السيدة ماكان بسرعة: «سأذهب... سأذهب لأجد الطبيب المعالج». ثم تلتفت لي: «شكرًا لقدومك يا عزيزي. أنت مثل والدتك بالضبط».

لا يمكنني تخيل متى تقاطع طريق آما مع طريق السيدة ماكان، لكنني عندئذٍ أفكر في كل الأشخاص الذين أتوا إلى جنازة آما ولم أكن قد قابلتهم من قبل. «هل كنتِ تعرفينها؟».

«نعم». تبدو حتى أكثر حزنًا مما كانت عليه من قبل. «لم تعرفني، لكنني كنت أعرفها».

ترافق ممرِّضة السيدة ماكان بعيدًا، وأجد نفسي بمفردي في الغرفة أحدِّق إلى دكتورة إليس.

قالت بهدوء: «صلاح الدين، اتصلت بك كثيرًا».

«اتصلتِ بي؟» للحظة قصيرة أصاب بجنون الارتياب وأفكر أنها رأتني أبيع مخدرات، لكنني أتذكر كل المكالمات الفائتة من المستشفى، وكومة الفواتير غير المدفوعة.

- هناك شيء أردت مناقشته معك، إنه أمر حساس قليلًا.

أقف وأقول: «أجمع النقود من أجل الدفع للمستشفى. لا... لا تحتاجين إلى الاتصال بي بشأنها».

إنه أمر غريب أن تتصل بي، فلم تكن حتى طبيبة آما بل هي طبيبتي. أفتح الباب، لأنني أريد الخروج من هذا المكان، لكن دكتورة إليس تتبعني إلى غرفة الطوارئ.

قالت: «سال، لم أكن أتصل بك بشأن الفواتير». وتتعمق التجاعيد حول عينيها. «هل... هل تحدثت معك والدتك من قبل عن سجلاتك الطبية؟».

أتوقف عن السير قلقًا: «سجلاتي الطبية؟ لماذا قد تتحدث معي بشأن هذا؟ هل هناك مشكلة بي؟ هل أعاني ... مرضًا أو شيئًا...».

«لا. لا شيء من هذا القبيل». تنظر دكتورة إليس حولها في غرفة الطوارئ، وتلوح بفتور عندما تناديها ممرضة بتحية. «أود فقط مناقشة سجلاتك معك. سأتصل بك. انتظر...».

تخرج هاتفها، وتأخذ رقمي، ثم ترسل لي رسالة وتقول: «الآن ستعرف أنني المتصلة. وسال...» تنتقل من قدم إلى أخرى: «أرجوك أجب المكالمة عندما أتصل. الأمر مهم».

***

خارج المستشفى، ألتقي آرت حيث يتوارى في الظلال.

قلت: «إذا كنت هنا لترى قريبتك، فاذهب لرؤيتها. لكنك إذا كنت هنا لتتحدث معي، فاغرب عن وجهي».

نظر آرت حوله، على الأغلب ليتأكد من عدم وجود رجال شرطة. «لقد احتجزت الشرطة سيارتها الموستانج. هل قلت أي شيء...».

أقلد صوته المرتفع: «’كيف حال قريبتي يا سال؟ ماذا قال الأطباء؟’». يتمتع آرت باللياقة على الأقل ليبدو أنه يشعر بتأنيب الضمير. قلت بصوتي: «شكرًا لسؤالك يا أحمق. أظهر تحليل السموم أنها مزجت بين أوكسي وشيء مريع يُدعَى كارفنتانيل، تلك العلبة التي بعتها لها. إنها محظوظة لأنها ما زالت على قيد الحياة».

تنفس آرت الصعداء لأنه ليس وحشًا بالكامل على ما أعتقد.

قلت: «لقد انتهيت من هذا. لن أبيع بعد الآن».

- سال، لا تكن داعرًا هكذا...

أسير مبتعدًا عنه بسرعة وأشعر كأنني أسير على رمال متحركة، لأنني في الواقع لا أسير مبتعدًا عن آرت، أو المخدرات، أو تجارة المخدرات، بل أسير مبتعدًا عن الموتيل، عن الأمل.

أسير مبتعدًا عن حلم آما.

***

وصلت إلى المنزل في وقت العصر، ولا يمكنني أن أجد آبو في أي مكان. عادةً لا يخرج في هذه الساعة، فالساعة الرابعة مساءً هي ذروة وقت النسيان.

وقد نُظِّف المنزل، ليس جيِّدًا مثلما نظفته أنا ونور، لكنه بالتأكيد تحسن عن حالته المعتادة.

أسير خارجًا إلى الفناء الأمامي، تحت الأشجار الثلاث التي قالت آما إنها تمثل عائلتنا. على الرغم من أن الصباح لا يزال باردًا، تطلق الأشجار أوراقًا جديدة، وتحمل الرياح لمسة من نسيم الربيع.

يئن مفصل باب؛ يتأرجح باب غرفة الغسيل، فأتلكأ أمامها، راغبًا عن الدخول: «آبو؟».

قال والدي: «لا تحتاج إلى الدخول يا صلاح الدين. أوشكت على الانتهاء».

لقد اعتدت سماعه متلعثمًا وغير واضحٍ لدرجة أنني أشعر بالارتباك.

وبينما أراقبه، أدرك أنه واعٍ. نعم تهتز يداه ويتصبب عرقًا، لكن عينيه متيقظتان عندما ينظر إلي من خلال نظارته السميكة.

سنرى إلى متى سيستمر هذا.

قلت له: «يمكنني مساعدتك في الطي».

«لديك واجب منزلي؟ أو...» يختار كلماته بحذر خائفًا من كيف سأرد. ربما يجب ألا أشك فيه، كانت لتريدني آما أن أدعمه، لقد أرادت هذا دائمًا.

قلت: «نعم، لديَّ بعض الواجبات المنزلية، واختباران الأسبوع القادم».

قال: «آه، إذن اذهب. ستجد جبن كيري ومقرمشات مملحة في الثلاجة». يفاجئني تذكره للوجبة الخفيفة المفضلة لدي. «لن... لن أكون في البيت هذه الليلة، إذ لديَّ... اجتماع مع جانيس... هل تتذكر...».

«راعيتك». يطل برعم أمل من الصحراء التي في رأسي. «أتذكرها».

يمكنني أن أغضب منه، أقول له إنه انتظر لوقت طويل جدًّا قبل أن يتوقف عن الشرب، إنني وآما استحققنا أفضل من ذلك. وفي هذه اللحظة، ربما سيستوعب ما أقول.

لكنني أفكر في شفيق. *هذه الحياة جهاد... كفاح. وأحيانًا يكون الكفاح أصعب مما يمكن لأي إنسان عاقل أن يتحمله.*

- أنا فخور بك يا آبو. أعرف أنه ليس سهلًا.

قال آبو: «لم تكن الأمور سهلة بالنسبة إليك، وكانت سهلة جدًّا بالنسبة لي، لكنني الآن... أتغير. والدتك» يهبط صوته «كانت لتخجل من أفعالي». يأخذ آبو نفسًا عميقًا: «لقد مر اليوم الأربعون بعد وفاتها، بوتر. كان يجب أن نقرأ قرآنًا إلى جانب قبرها، ولم نفعل هذا. لكن يمكننا أن نفعله الآن، سيمنحها الراحة. نحن... نحن...».

أحنى آبو رأسه، شاعرًا بالرثاء حين تداهمه حقيقة كلماته. حتى الآن، شعرنا أن غياب آما مؤقت، كأنها مسافرة، في رحلة إلى باكستان ربما، أو لزيارة خالي فيصل لبضعة أسابيع. وستعود. طبعًا ستعود.

لكن اليوم الأربعين نهائي تمامًا، ونحن حتى لم نجعله ذكرى.

أذهب إليه، لكنني بمجرد أن أدخل غرفة الغسيل، تباغتني رائحة المنظفات والمبيضات وأريد أن أتقيأ. سألت آما ذات مرَّة لماذا تجعلني هذه الرائحة أشعر بإعياء شديد.

«*هذا مثلما تكره نور الأماكن الصغيرة، إنها فقط طبيعتك*».

يتوتر وجه آبو وهو يراقبني.

«أنا بخير». أترنح متراجعًا للخارج: «آسف. أنا بخير».

«أنت...» يتجعد وجهه، ينهار، وتختفي كل القوة التي جعلته آبو مرَّة أخرى لبضع دقائق. ينزلق لأسفل بجانب الغسالة متنفِّسًا بصعوبة في نحيب متدفق صامت.

أتنفس من فمي وأدخل لأنني لا أعرف ماذا يمكنني أن أفعل غير ذلك. أضمه بين ذراعَيَّ. إنه أصغر بكثير مني، ففي وقتٍ ما العام الماضي، أصبحت أطول من أبي، أضخم من أبي، أقوى من أبي، وأكره مدى الظلم في هذا.

إنه ينتحب، هذا الرجل الجسور الذي دفن والديه وعبر المحيطات، الذي تُيِّمَ بحب امرأة كان بالكاد يعرفها وبنى معها حياة في مكان موحش.

يهمس آبو: «أشتاق إليها. لقد عرفت كل أسراري».

أهمس بدعاء وأعانق آبو بالطريقة التي اعتادت آما أن تعانقني بها، كأن الأمل يعيش في جلدها وإذا عانقتني لمدة طويلة بما فيه الكفاية، فإنه سيعيش في جلدي أيضًا.

قلت: «يمكنك أن تخبرني بأسرارك يا آبو، سأحتفظ بهم من أجلك».

- لم أستطع أن أحمي أي شخص، لا ابن عمتي، ولا فوبو، ولا والدَيَّ، ولا والدتك، ولا أنت.

- ماذا تعني بقول «ولا أنت»؟

لكن آبو ينتزع نفسه مني ويدير ظهره كأنه لا يطيق رؤيتي. وأسمع قصيدة إليزابيث بيشوب في رأسي: *فن الفقد لا يصعب إتقانه*.

كانت محقة، فأنا فقدت والدتي بالفعل، والآن أفقد والدي أيضًا.

33
مصباح

نوفمبر، عندئذٍ

عندما وُلِدت يا بني، كانت عيناك لطيفتين مثل والدك، وشعرك منفوشًا مثلي، وكنت هادئًا للغاية حين نظرت إلى أعلى بينما كنا نتأملك في تلك المرة الأولى.

همس والدك بالأذان في أذنك، وأنت استمعت وكنا نحن الثلاثة نعيش لحظة مثالية. لقد اعتدت أن تأكل جيِّدًا، وتنام نومًا عميقًا كأنك في حلم، وتستيقظ كل صباح بابتسامة، كنت ممتلئ الجسم وسعيدًا وجميلًا، وأحبك ضيوف الموتيل وطالما قالوا إنك يجب أن تكون في إعلانات طعام الأطفال. كما عشقك جداك عن بعد، حتى إن بابا أخذ يستعرض صورتك للـ «ilaqa» كلها.

ووالدك... يا إلهي، كنت مصدر فخره وسعادته. كان يعود إلى المنزل من العمل ليطعمك في وقت الغداء يوميًّا، حتى لو عنى هذا ألا تتسنى له الفرصة لتناول طعامه. وكان يهز سريرك كل ليلة حتى تنام. وكان يقص أظفارك الصغيرة بحذر شديد لدرجة أنك كنت تضحك عندما يقوم بهذا. لم أستطع تصديق أنه فكر يومًا أنه سيكون أبًا سيئًا.

لقد كنت عالمي، لكن بالنسبة إلى والدك يا صلاح الدين؟ كنت النظام الشمسي، بل أكبر، الكون نفسه. قال والدك: «سيكون جراح أعصاب. سيكون كاتبًا. سيكون مهندسًا معماريًّا».

كم كانت خططه من أجلك رائعة، وكم كانت أحلامه رائعة، لكن أليس ذلك حالنا جميعًا؟ نخطط، ونحلم، ونأمل.

في أمريكا، تبدو الأحلام أحيانًا قريبة جدًّا لدرجة أنك تستطيع الشعور كأنها حقيقة. والأطفال، بوتر؟ الأطفال هم أعظم الأحلام كلها، فهم حلم متجسد، يسيرون ويتكلمون ويغامرون في العالم الواسع، عرضة للنجاح والفرحة والعظمة، عرضة للاحتمالات المذهلة الجامحة.

لكنهم عرضة للتدمير أيضًا.

34

نور

مايو، الآن

- لن تذهبي إلى المدرسة، هل أنتِ مريضة؟

لقد مضى يوم واحد فقط منذ لكمتُ جيمي، ويقف تشاتشو عند باب غرفتي. أستلقي متكورة على السرير، أتظاهر بأنني أشعر بالغثيان، حتى إنني أتشبث بحاويات نفايات أمام صدري.

لكن تشاتشو لا يصدق الأمر.

- هل تعانين حمى؟

«يؤلمني جسدي». على الأقل ليست هذه كذبة، فما زال جسدي مصابًا بكدمات من هجوم دارث ديريك عليَّ.

يضيق عمي عينيه، ويسأل: «ما هو المرض الذي لديك؟ الأعراض؟».

قالت بروك من الباب: «صداع وحمى». لقد اتضح أنها أفضل في الكذب مما كنت أعرف. «وتقيأت ليلة أمس».

يضع تشاتشو يده على جبيني، فأحاول ألا أنكمش.

«لا تتقيئين، وليس لديكِ حمى، وعلى ما يبدو لديكِ جميع وظائفك الإدراكية». يخفض يده: «ومن ثم، إذا كنتِ لن تذهبي إلى المدرسة، ستساعدينني في المتجر، فإنه سيكون مزدحمًا».

«شوكت...» تقولها بروك في اللحظة نفسها التي أقول بها: «تشاتشو...».

- انهضي. العقل الخامل يُوَلِّد الشرور.

يرحل، وتستند بروك على إطار باب غرفتي ناظرة إلى عينَيَّ. يبدو كأنها تقول لي: كوني حذرة. هذا سهل بما فيه الكفاية، يمكنني أن أبقي فمي مغلقًا إذا أبقت فمها مغلقًا.

تشاتشو محق بشأن ازدحام المتجر. تبلغ جائزة يانصيب Megaball تسعمائة مليون دولار، لذا يوجد بالفعل طابور حين نفتح الأبواب في السادسة صباحًا. ويمزح بعض الزبائن المعتادين مع تشاتشو فيسألونه عما إذا كانت لديه نظرية بشأن فرصهم في المكسب.

لكنه يبقي ورق الرسم البياني مخفيًّا، فحتى تشاتشو يعرف أنه من الغباء أن تشرح الاحتمالات المستحيلة إحصائيًّا لزبائن اليانصيب.

بعد ساعة، يتباطأ تدفق الزبائن. وحين يغادر آخرهم، ينطلق تشاتشو في شرح الاحتمالية الإحصائية، أو عدم الاحتمالية في حالة اليانصيب.

«باختصار...» يخرج سيجارة Pall Mall ويشعلها: «كل من يشتري تذكرة أبله».

«ماذا ستفعل إذا فزت؟» يخرج السؤال من فمي قبل أن أستطيع التفكير.

«لم تكوني تستمعين». ينفخ تشاتشو الدخان في وجهي: «كالعادة. أولًا، يجب أن أشتري تذكرة يانصيب يا نور، وهذا لن أفعله أبدًا لأنه غير مُجْدٍ».

أعود إلى ماكينة صنع مشروبات السلاشي التي أنظفها. يقول تشاتشو إن الأمل يخص ذوي أنصاف العقول، لكن هناك شخصًا ما سيفوز بهذه الجائزة.

هل أنا غبية لأنني آمل في أن تقبلني جامعة كاليفورنيا (لوس أنجلوس)؟ في أن يكون خطابهم قد ضاع، وهناك مشكلة في بوابة القبول الإلكترونية؟ إنها فرصة ضئيلة، احتمالية غير ممكنة إحصائيًّا كما قد يقول تشاتشو.

لكنني ما زلت أتخيل نفسي أسير في ذلك الحرم الجامعي المبني بالطوب الأحمر والحجر الجيري، أَحضَر الدروس وأذاكر في المكتبة وأذهب إلى عروض في النوادي التي قرأت عنها فقط.

يصدر الباب صوتًا.

- مرحبًا يا نور. مرحبًا يا سيد رياض.

جيمي جينسن. أسمع في رأسي أغنية «سبعة شياطين» (Seven Devils) لفرقة فلورنس أند ذا مشين، جيمي هي السبعة كلهم.

في رأسي، أهاجمها، ألقي على رأسها كيسًا من خليط السلاشي، تتصدع القشرة الأرضية وتنفتح فجوة تبتلعها بالكامل.

لكن في الحياة الحقيقية، أحملق. ويومئ تشاتشو بتحية، فهو يعرفها بصورة غير واضحة.

«يسعدني أن أرى أنك تشعرين بتحسن يا نور». يبدو أنف جيمي بخير، فقط أحمر قليلًا. إما أنها لديها طبيب تجميل مذهل، وإما كان إرنست يكذب عندما قال إنني «أذيت وجهها بشدة».

تلتقط شوكولاتة لونا وزجاجة مياه Smartwater، ثم تعطي تشاتشو النقود. «هل ستذهبين إلى المدرسة اليوم يا نور؟».

لا أثق في صوتي، لذا أهز رأسي.

«آه، صحيح». ترسم جيمي حزنًا مزيَّفًا على وجهها: «لقد تعرَّضتِ للفصل. أتمنى ألا يؤثِّر هذا على قبولك في الجامعة».

قالت آنتي مصباح لي ذات مرَّة عندما شكوت لها من جيمي: *إنها تشعر بالغيرة، تتمنى أن تكون أكبر سمكة في بحيرة صغيرة، ويزعجها أنك تتمنين العثور على بحيرة أكبر وأكثر إثارة للاهتمام.*

فتعجب صلاح الدين متسائلًا هل لهذا السبب تكرهني جيمي بهذا القدر؟ *ربما لم يعانقها والداها في طفولتها.* لكن تشاتشو لم يعانقني أيضًا، ولست وحشًا. ربما لا يتعلق الأمر بالوالدين ولا الطفولة، ربما بعض الأشخاص مريعون ولا يوجد تفسير أو منطق لذلك.

«الجامعة؟» يتحدث تشاتشو بصوت منخفض، ولا ينظر إلي.

فأقول: «تشاشو، لم...».

«لقد بذلت الكثير من الجهد في طلبات الالتحاق». تلمع عيناها، وأفكر في اتهامها لي بأن صلاح الدين كتب مقالاتي بدلًا مني. «المهاجرون، إنهم ينجزون العمل، أليس كذلك؟ أراكِ لاحقًا».

تسير للخارج في حين يدخل روبرت، وهو زبون معتاد يتكلم كثيرًا.

لم أشعر يومًا بالسعادة لرؤيته مثل سعادتي الآن. ولا يبدو تشاتشو منزعجًا.

يصل زبون آخر، ثم زبون آخر، ويسجل تشاتشو مشترياتهم دون أن ينظر إلَيَّ.

يأتي صوت زئير من الخارج حيث تقف الشاحنة التي تحمل بيرة Coors، فيقول تشاتشو لي: «أعيدي ملء الثلاجة». لا تقطيع في كلماته، يداه سائبتان، وكتفاه مسترخيتان.

ربما لم يصدِّق جيمي.

أنتهي من طلبية البيرة، ثم أمسح الأرضيات، وأعيد تعبئة رفوف الحلوى، وأكنس الرصيف الأمامي وأمسح الغبار. عندما تصل بروك في وقت الظهيرة، تجدني أتسكع في الجزء الخلفي من المتجر. إذا لم يرني تشاتشو لبعض الوقت، فربما ينسى أنني أعيش.

يناديني: «نور، هيا لنذهب إلى المنزل».

- يمكنني... آه... أن أبقى لمساعدة بروك.

يقول بطريقة قاطعة: «يجب أن ترتاحي، لكيلا تمرضي نفسك مرَّة أخرى».

يدير رأسه نحو الباب، وترفع بروك عينيها من المجلة التي أمسكت بها، باديًا عليها التردد، فيحملق تشاتشو فيها غاضبًا. أحاول أن ألفت أنظارها، لكنها تتجنب النظر إلَيَّ.

جميع الأشخاص لديهم غريزة السحالي، ذلك الصوت الذي يقول لك *لا تلمس ذلك الثعبان السام أو ابتعد عن مسار القطار يا غبي*، الغريزة التي تبقيك على قيد الحياة.

لقد فقدت من ذاكرتي معظم ما حدث قبل الزلزال، لكنني أعرف أن في ذلك الصباح، كانت الكلاب تتصرف بطريقة غريبة، تنبح وتزمجر، وحتى كلبتنا من نوع الراعي الألماني عضتني عندما حاولت تقديم الإفطار لها مما أربكني، فقد كنت الشخص المفضل لديها.

لا أتذكر وجوه عائلتي جيِّدًا أو أصواتهم، لا أتذكر اسم كلبتنا، لكنني أتذكر صوت الأرض وهي تئن، يشبه زمجرة كلبتنا لكنه أعمق وأعتق.

بدأ الناس يصرخون، فركضت إلى غرفة والدَي، إلى الخزانة، لم أفكر بل دفعتني الغريزة إلى هناك، وأجبرتني على فتح الباب، على طي نفسي داخل ذلك المكان الصغير، على جعل نفسي صغيرة وصامتة بينما كل عالمي ينزف وينهار ويموت ببطء.

لقد أبقتني الغريزة على قيد الحياة في ذلك اليوم، وتصرخ فيَّ الآن، تعنفني: لا تذهبي *يا* نور.

«ادخلي السيارة يا نور». وتقريبًا قبل أن ينتهي من نطق اسمي، أسير نحو السيارة وأفتح بابها.

فبعض الأشياء أقوى من الغريزة.

الخوف. العادة. اليأس.

أدخل السيارة.

35
سال

في صباح اليوم التالي لمشاجرة جيمي مع نور، مررت على بيت نور لكن لا أحد يفتح الباب. لقد أرسلت لها نحو خمسين رسالة من دون جدوى. وذهبت إلى المدرسة لأني آمل أن تكون في الفصل، لكنها ليست هناك ومن ثم أترك المدرسة.

في طريقي إلى المنزل، تكتب لي السيدة ماكان رسالة.

السيدة ماكان: سنخرج من المستشفى عصر اليوم. أش متعبة لكنها في حالة معنوية جيدة. ستعود إلى المدرسة يوم الاثنين، وسأدرس الخطوات التالية عندئذ. ستحب أن تراك.

أرسل إليها وجهًا مبتسمًا. ثم أخرج هاتفي المؤقت وأراسل آرت.

سأجلب الواجب المدرسي إلى بيتك، وسأتركه خلف خرطوم الحديقة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

وبمجرد أن تصل إليه الرسالة، أحطم شريحة الهاتف، أسحقها بشاكوش عدة مرَّات، وألقي بها في مكب نفايات. ثم أحفر لأخرج علبة الطلاء حيث أخفي مخزوني: الكثير من زجاجات الحبوب المحشوة بالقطن لكيلا تحدث ضجة، إلى جانب بعض أكياس الهيروين.

أقحمها كلها في جيوبي، وأشعر بها أثقل مما هي فعلًا.

تصدر الرياح، التي أصبحت أدفأ الآن لأن الصيف يقترب، حفيفًا عبر أغصان شجرة الرمان التي زرعتها آما بالقرب من السقيفة.

يبدو كأن أوراق الشجرة تهمس: *أعرف ما فعلت*.

عندما أعود إلى الشقة، أجد آبو يسير ذهابًا وإيابًا في المطبخ. لا يسألني لماذا لست في المدرسة، لست متأكِّدًا من أنه يدرك أنني يجب أن أكون هناك. يبدو صراعه ضد ما يحتاج إليه محفورًا في وجهه، شقوق تجعله يبدو كأنه يتألم طوال الوقت.

قال: «بوتر، أيمكنك أن تجلس لبعض الوقت؟».

تجاوز الوقت الحادية عشرة صباحًا، وأريد أن أذهب إلى منزل آرت ثم أمر على متجر الكحوليات لأرى ما إذا كانت نور هناك.

لكن نادرًا ما يطلب آبو أي شيء، لذا أجلس ملاحظًا أن الطاولة الجانبية، حيث يضع آبو كوبًا من الشاي، ممسوح عنها الغبار ونظيفة. لقد وضع صورة لآما فوقها، تحملني وأنا في الرابعة من عمري، يتلألأ شعرها تحت أشعة شمس الصحراء، وجبينها مقطَّب وهي تنظر إلي. أتساء أين وجد آبو هذه الصورة.

- صلاح الدين، نحتاج إلى بيع الموتيل.

هذا مستحيل. *شهيق لخمس ثوانٍ، وزفير لسبع ثوانٍ*. أحاول أن أتنفَّس، لكنني أشعر بضيق شديد في صدري.

- لا نحتاج إلى بيعه، فكل شيء تحت السيطرة يا آبو. دفعت فواتير المرافق حتى نهاية مايو...

يلوي يديه معًا: «لا يتعلق الأمر بالمال، بوتر». ثم يهز رأسه: «Woh harh jagah mojood heh. Iss ghar keh dar-o-diwar bhee rotay-henh».

يتحدث بالأردية لا البنجابية، لكنني مع ذلك أفهمه. *إنها في كل مكان، جدران هذا المكان تنتحب.*

- لقد تحدثت والدتك معي بشأن بيع هذا المكان على أي حال، أرادت أن تدخر المال لدفع نفقات تعليمك أنت ونور، أرادت...

«لا يمكننا أن نبيعه». أمسك بالطاولة بإحكام، محدِّقًا لأسفل إلى يدَيَّ اللتين لونهما وشكلهما يماثل يدَيْ آبو. «لقد أحبت آما هذا المكان. أنت تدمر كل ما أرادت أن تتمسك به». يرتفع صوتي: «وكل هذا لأنك لا تستطيع التحكم في هرائك...».

- صلاح الدين...

«لا». أُصبِح فجأة ناظرًا إليه من أعلى، وقبضتاي مغلَقتان. «لا يمكنك أن تنسحب لسنوات –سنوات– ثم تأخذ قرارات بالنيابة عن كلينا. ليس لديك ذلك الحق».

- ما زلت والد...

«هراء. يرعى الآباء أبناءهم. لا يتصرف الآباء كأطفال رُضَّع لأنهم يشعرون بالحزن. أنا أيضًا حزين، لكنني ما زلت أتمالك نفسي...» يتلاشى صوتي، وأدير ظهري نحوه لكيلا يرى الدموع في عينَيَّ. قلت: «كانت آما والدتي ووالدي. أنت؟ أنت لا شيء. كان يجب أن تكون أنت في سرير المستشفى ذاك، لا هي».

لا ينهض حين أخرج من الباب. وتهتز يداي وأنا أدير السيارة لكنني أجبر نفسي على ترديد دعاء حفرته آما في عقلي، هذا الدعاء الذي كانت تقوله دائمًا قبل أن تقود السيارة إلى أي مكان.

ويجب أن أكون ممتنًّا له لأنه الشيء الوحيد الذي يمنعني من الرجوع بالسيارة بسرعة جدًّا لأدهس الشخص الواقف بلا حراك خلفي في وسط الطريق المؤدي للخارج.

36
نور

ظل تشاتشو صامتًا في السيارة، لكن أصابعه تطرق، فتتحرك مفاصلها الغليظة لأسفل وأعلى. هذا أسوأ من أي شيء، هذا الانتظار، أتمنى أن يصيح بي الآن.

عندما نصل إلى المنزل، أتجه إلى غرفتي. لكن صوته يوقفني.

قال: «غرفة المعيشة يا نور».

أجلس على طرف الأريكة، ولمدة دقيقة لا يقول أي شيء. تبدو الثواني الستون أبدية عندما تُمضَى بصمت مع حيوان خطير. وعندما يتحدث تشاتشو أخيرًا، يتحدث باقتضاب، كأنه مدرس يطرح مسألة حسابية.

- إلى كم جامعة تقدَّمتِ؟

أهمس: «سبع».

- وكم تكلفة كل طلب التحاق؟

- كان... كان بعضهم بأربعين، وقليل منهم بثمانين.

حدَّق لأسفل إلى السجاد القديم أحادي اللون، وعيناه محجوبتان فلا أستطيع معرفة مدى غضبه.

- هل سرقتِ المال من المتجر؟

أهز رأسي: «لقد وفرته، من أي وقت دفعت لي فيه، و... ومن العيد...».

«العيد؟» يحرك رأسه لأعلى عندما أذكر الاحتفال الديني. لقد اعتدت تغيير ملابسي لارتداء ملابس العيد في بيت صلاح الدين. وكانت آنتي مصباح تتصل بالمدرسة لتبلغهم بأنني مريضة، لم يشُك في الأمر أي شخص في أي من المدارس التي ذهبت إليها.

«من كان يمنحك المال في...» ثم يفهم، فيقول: «تلك المرأة محظوظة لأنها ميتة، وإلا كنت سألقنها درسًا لتدخلها في شؤونك، وتعليمك كل ذلك الهراء الديني...».

أصيح به: «لا تتكلم عنها». ينطلق غضبي من العدم، فقد انتقلت مباشرةً من كوني *هادئة يا نور إلى اخرس يا تشاتشو*. أشعر بحرارة في وجهي، وتذبذب في رأسي كأنه ممتلئ بالنحل.

- لقد كانت أُمًّا لي، اهتمت بي، أحبتني، فعلت من أجلي أكثر مما فعلتَ يومًا، وأرادت أن أذهب إلى الجامعة...

تشاتشو هو السبب الوحيد لوقوفي هنا.

كنت في السادسة من عمري عندما تعرضت قريتي في باكستان لزلزال. قاد تشاتشو السيارة لمدة يومين من كراتشي لأن الرحلات الجوية إلى شمال البنجاب كانت...

تهبط قبضته في معدتي مباشرةً ولا أستطيع التنفس.

عندما وصل إلى القرية، زحف فوق أنقاض منزل جدي وجدتي، حيث كان والداي يعيشان أيضًا، وبحث بين الأحجار بيد...

يداه تمزقان وجهي. يصيح تشاتشو، يصرخ، بغضب، بأسى. ولا يمكنني فهمه.

أخبره العاملون في خدمات الطوارئ أن...

يزأر تشاتشو: «عديمة الفائدة. أنتِ عديمة الفائدة أيتها العاهرة الناكرة للجميل. تخليت عن كل شيء من أجل الاعتناء بكِ». يدفعني فأصطدم بالحائط بقوة لدرجة أنني أسمع اصطكاك أسناني. لكن لا بأس في ذلك، ليست هناك مشكلة ما دامت الإصابات بالداخل. سأكون في مأزق فقط إذا ضرب وجهي، إذا ظهرت الآثار. *عودي إليها يا* نور. *عودي.*

لقد دُميت راحتا يديه...

الدماء في كل مكان، تتدفق من أنفي، من عيني، وهذا سيئ لأنني لا يمكنني إخفاؤه. سيعرفون، في المدرسة سيعرفون. أتذوق طعم الدم...

نُزِعَت أظفاره. كان الجميع ميتًا، والداي وأولاد أعمامي وجداي، رحل الجميع، لكن تشاتشو واصل الحفر على أي حال حتى سمعني...

«أنا آسفة يا تشاتشو». لا أصيح الآن، أنتحب، أريد فقط أن ينتهي هذا. «أنا آسفة...».

أخرَجني من هناك، وأخذني إلى المستشفى ولم يفارق...

جانبي مشتعل من الألم. أنا ملقاة على الأرض وهو يركلني ويزمجر قائلًا شيئًا لا أفهمه. كأن اثني عشر عامًا مما كان يشعر به حقًا تنفجر دفعة واحدة. فأتكور وأنتظر أن ينتهي هذا. تتلاشى الذكرى، تتحلل فلا يبقى منها إلا ما يحدث هنا، الآن.

نعم، تشاتشو أنقذني، أخذني إلى المستشفى، لم يتركني.

وأخذ يشكو بشأن عدم قدرته على الاعتناء بي، بشأن أنه مشغول في الجامعة وليس لديه الوقت لذلك. وفي النهاية، أمره الأطباء بالجلوس في الخارج إلى أن يهدأ. إنها أول ذكرى واضحة لديَّ عنه.

اتصل بقريب بعد آخر، لكن كان الجميع قد ماتوا، كأن عائلته لم توجد يومًا. بكى، حزن، ثم اهتاج، صرخ، صاح في الله.

كان تشاتشو يتمتم بشأني من دون أن يوجِّه الكلام لشخص بعينه: «*لماذا هي؟*». طرح هذا السؤال في المستشفى، ثم لاحقًا في النُّزُل الذي أقمنا به وهو يجهز تذكرتي وتأشيرتي. سأله في الطائرة إلى كاليفورنيا. على الأغلب اعتقد أنني لن أتذكر، أو ربما لم يعنِه ذلك.

كان يقول لنفسه: «*لا بد أن هناك شخصًا ما يمكنه أخذها*».

لكن لم يكن هناك أحد. لقد كنا –نحن– آخر اثنين.

«كيف تجرئين؟» إنه يصرخ فيَّ الآن، لكنه يبكي أيضًا. ربما يبكي على ما فقده، أو على ما يفعله. «كيف تجرئين؟».

كيف أجرؤ على تحديه.

كيف أجرؤ على النجاة.

يضرب حذاء التنس ضلوعي بقوة. *لا تنكسري. لا تنكسري.*

يا إلهي، ساعدني. ليساعدني أحد. *ساعدني*.

بروك؟ لكن حتى لو كانت هنا، بروك أكثر خوفًا من أن توقفه. لقد أمضت سنوات عديدة تتفادى غضب الرجال، لذا حتى عندما ترى، تنظر بعيدًا وتنظر بعيدًا وتنظر بعيدًا.

في أحد أيام الأحد، بين المسلسلات التي كنت أشاهدها مع آنتي مصباح، شغلت برنامجًا عن الحياة البرية يعرض أسدًا يطارد عجل النو الأزرق. كان العجل ضعيفًا وصغيرًا، لكنه أراد أن يعيش بإلحاح، ومن ثم ركض وراوغ، حتى عندما بدا أن الأسد أحكم قبضته عليه. لقد استغلَّ كل فرصة أتيحت له، كل أفضلية لديه، قفز فوق الصخور وإلى أعلى التلال وفي النهاية، هرب.

ذلك ما يجب أن أفعله.

أفتح عينَيَّ وأجده قد أدار ظهره لي. يتمتم كما فعل عندما كنت طفلة، محاصرًا، ربما، في تلك اللحظات منذ أمد بعيد، حين أدرك لأول مرَّة أنه وحيد في هذا العالم.

أمسك بأقرب شيء مني، تمثال ثقيل لنسر من النحاس اشترته بروك من سوق الأغراض المستعملة. أسارع بالوقوف، ويستدير تشاتشو عندما يسمعني، فألقيه عليه ويصرخ قائلًا شيئًا ما، اسمي أو شتيمة ما.

ثم أترنح مبتعدة. أمسك بحقيبة الظهر التي لا تزال بجانب الباب، وأركض وأركض وأركض.

37
مصباح

أغسطس، حينئذٍ

كان صلاح الدين يحب التجول في أنحاء الموتيل منذ اللحظة التي استطاع فيها السير، وكان مكانه المفضل غرفة الغسيل، فكان يسعى إليها برجلين صغيرتين عنيدتين وأنا أغير الملاءات أو أكنس موقف السيارات، وأتظاهر أنني ليست لديَّ أي فكرة عن أين ذهب، ثم أضيء المصابيح وأنتشله من عشه الصغير تحت المناشف.

في أحد الأيام، استلقيت على السرير في غرفة رقم 6 للحظات، إذ كان الوقت مساءً وكانت آخر غرفة أنظفها. كان صلاح الدين يلعب بمكنسته اللعبة بالقرب مني، وأنا أبتسم وأستمع إلى صوته الصغير يقول «فووم فووم».

أغمضت عينَي، فأخذتني غفوة.

وحين فتحتهما، كان العالم قد تغير.

لقد وجد توفيق ابننا في غرفة الغسيل.

في البداية، لم أفهم ماذا حدث، وتوفيق أخبرني.

أخذنا صلاح الدين إلى غرفة الطوارئ، واتصلنا بالشرطة لكن المستأجر الذي أذى ابننا أعطانا اسمًا مزيَّفًا ودفع نقدًا، لقد اختفى.

«لن يتذكر صلاح الدين الاعتداء». كانت الدكتورة التي أخبرتنا بهذا صغيرة السن ذات عينين طيبتين وحزينتين، وتحمل شارة باسم إلين إليس. اتصلت بها العديد من المرات في السنوات التالية وكانت دائمًا لطيفة. «فلتبقي عينيكِ عليه، انتبهي إلى السلوك العدواني والكوابيس والتبول في الفراش...».

أومأت برأسي، لكنني لم أرغب في أن أومئ، بل رغبت في أن أصرخ، أن أجد الرجل وأصنع منه عجينة، أن أقتله ببطء، أن أوذيه بالطريقة التي أذى بها ابني، أن أحطمه بالطريقة التي حطمنا بها.

عندما عدنا إلى المنزل صباحًا، كان صلاح الدين نائمًا بين ذراعي، ما زال تحت تأثير التخدير. كنت سعيدة لأنه مُخَدَّر، سعيدة لأنه لن يتذكر أي شيء.

لم يتحدث توفيق بكلمة.

أيًّا كان. تنفست رائحة شعر ابني، بالعذوبة نفسها التي كانت بها أمس، وضممته بقوة هامسة مئات الأدعية، وعلى الرغم من أنني لم أرد أن أضعه على سريره، فعلت ذلك، ثم وضعت سجادة الصلاة بجانب السرير.

دعوت: *يا رب لا تَدَعه يتذكر، عاقب الشخص الذي فعل هذا، اجعله يتألم يا الله، عاقبه كما يمكن لك وحدك.*

عندما انتهيت، وجدت توفيق يراقبني، في صمت.

توسلت إليه: «قل شيئًا. أي شيء». مع من غيره يمكنني أن أشارك هذا الحزن؟ ليس مع أمي ولا أخي بالتأكيد، وليس حتى مع بابا الذي طالما رجاني لأعود إلى باكستان: «*أرجوكِ يا فراشتي الصغيرة، تعالي إلى البيت*».

لم يكن هناك مكان للجوء إليه سوى زوجي.

لكن توفيق لم يتحدث، وبدلًا من ذلك، ذهب إلى الخزانة حيث احتفظنا بكل الأشياء التي تركها مستأجرونا، وأخذ كأسًا ملأها بسائل عنبري اللون قوي جدًّا لدرجة أنه لسع عينَيَّ بمجرد النظر إليه، ثم تَجَرَّعه كما فعل مرَّة واحدة من قبل، عندما مات والداه.

لكن هذه المرَّة، لم يتوقف.

38
سال

مايو، الآن

ذراعا نور كأنهما درع يبقي عظامها متماسكة. عندما أخرج من السيارة، تقابل عيناها عينَيَّ. هناك جرح في جبهتها يقطر منه الدم على وجهها، حقيبتها الممتلئة لآخرها ملقاة عند قدميها، ضفيرتاها في حالة فوضى ووشاحها الأزرق مائل إلى جانب واحد. أفتح فمي مرعوبًا، متجمِّدًا لأن هذا لا بد أن يكون كابوسًا.

- صلاح الدين...

تحاول أن تقول اسمي لكن لا يخرج صوت من فمها. أسرع إليها وتقع بين ذراعَيَّ، واهنة وصامتة.

قلت: «نور، يجب أن آخذك إلى المستشفى». ثم *سأتصل بالشرطة ليلقوا القبض على عمك الحقير.*

همست: «لا. لا شيء مكسور، لقد تحققت».

- نحتاج إلى طبيب...

همست: «أرجوك. دعنا فقط نقود السيارة إلى أي مكان».

أبتعد عنها بحذر وأنحني لأنظر إلى عينيها.

- نور، لا. أنتِ مصابة حقًّا.

«سأدخل السيارة». نظرت لأعلى إلَيَّ، مرتجفة بانفعال لم أره من قبل، انفعال جامح أُطلِق له العنان، فأخطو للخلف. «إذا بدأت تقود في تجاه المستشفى، سأقفز خارج السيارة. أعني ما أقول. وإذا اتصلت بالشرطة، فإن ذلك... ذلك سيصعب عليَّ الأمور، لذا لا تفعل هذا».

- اسمحي لي أن أتصل بالإمام شفيق... أو خديجة. نور...

تفتح باب الراكب الأمامي في السيارة السيفيك وتجلس، فتنسحب منها كل ما لديها من طاقة.

قالت: «قُد فحسب أرجوك. أرجوك استمع إلَيَّ. ليستمع شخص ما إلَيَّ».

أمسك بحقيبتها فينسكب ما فيها. إنها دائمًا ممتلئة، لكنني لأول مرَّة أفهم السبب. جواز سفرها بالداخل، وملابس بديلة في كيس مغلق، ومسبحة سوداء براقة أهدتها آما لها، وكيس مغلق آخر به قطع جرانولا رخيصة ومكسَّرات وزجاجة مياه. مكتبة سُر مَن قرأ

كانت دائمًا مستعدة للهروب. كل يوم، تأتي للمدرسة متسائلة ما إذا كان هذا اليوم الذي ستضطر فيه إلى الرحيل. يجعلني هذا الإدراك أشعر بالعار لدرجة الغثيان. كان يجب أن أرى، أن أفعل شيئًا ما.

قالت نور: «قُد يا صلاح الدين».

ومن ثم أقود. نغادر جونيبر، وعندما تصبح المدينة نقطة بعيدة خلفنا، تسترخي نور أخيرًا. لن تغرب الشمس قبل ساعات، لذا أتجه إلى فيل ميدوز، في أعماق الجبال على بعد ساعة شمالًا. كان آبو يأخذنا هناك أحيانًا للتخييم عندما كانت آما لا تزال بخير.

أتنحنح: «لم آتِ إلى هنا منذ...».

الشجار.

همست: «إذا رحلت يومًا من جونيبر، أريد أن أذهب إلى مكان أخضر، مكان لا يوجد به تراب ولا حشائش متدحرجة ولا غبار».

قلت: «عندما ترحلين. ليس هذا الأمر محل شك، إنه سيحدث».

أرفع يدًا من فوق عجلة القيادة وأمدها نحوها قبل أن أفقد جرأتي. لا أعرف ما إذا كانت تريد أن يلمسها أحد في هذه اللحظة. ربما بعد ما فعله رياض، تريد أن يبقى الجميع بعيدًا عنها.

لكنها تأخذ يدي وتمسك بها بإحكام شديد لدرجة أنها تؤلمني شاعرًا بكل الأشياء التي لا تستطيع قولها.

نخرج من الطريق السريع ونسير في طريق متعرج يقود إلى المروج، فتصير المناظر الطبيعية حولنا ألطف وتضع نور أصابعها النحيلة على النافذة، كأنها تريد أن تتمسك بالأشجار التي تتجاوزنا بسرعة. لا نسمع إلا صوت الحصى يتهشم تحت عجلات السيارة، والرياح التي تهب أقوى كلما اتجهنا لأعلى.

- هل تريدين موسيقى؟

هزت رأسها، ممسكة بيدي بإحكام أشد، وسألتني: «هل لا تزال لديك الطائرة الورقية في الخلف؟ الطائرة التي طيرناها آخر مرة؟».

«جاندالف؟» الطائرة الورقية على شكل ساحر يبسط ذراعيه، ومن ثم كَان الاسم استنتاجًا محتومًا، لكن يفاجئني أن نور تذكرت وجودها. «أعتقد أنني لم أخرجه قط من صندوق السيارة».

وقفنا عند المتجر الشامل خارج المروج مباشرةً. وتنتظرني نور في السيارة وأنا أشتري الشطائر والمشروبات الغازية ورقائق بطاطس وشوكولاتة أكثر بكثير مما يمكن لأي منا أن يتصور أكله.

عندما أعود إلى السيارة، أجدها تريح رأسها على ذراعها. الجرح فوق حاجبها تكونت عليه قشرة، ووجنتاها حمراوان. كذلك، تحولت الكدمات على عنقها إلى لون داكن، ويستنزفني الغضب بسرعة جدًّا لدرجة أنني أشعر بالدوار. رياض أصغر مني حجمًا، ومدى ذراعه أقصر مني، يمكنني أن أجعله يدفع الثمن.

«أنتَ». تلوح نور بيدها أمامي.

قلت: «آسف. أرجوكِ دعيني آخذك إلى المستشـ...».

- لا.

- نور، أنتِ تقمعين احتياجي غير الطبيعي إلى إصلاح الأشياء. على الأقل سأنظف الجرح الذي على رأسك.

«حسنًا». تومئ برأسها: «يمكنك تنظيف الجرح».

بينما أخرج عدة الإسعافات الأولية، أجهد عقلي في البحث عن طريقة لإقناعها بأن تسمح لي بأخذها إلى المستشفى.

هذا النوع من الأشياء لا يعلموننا إياه في المدرسة لكننا نحتاج إلى معرفته. ماذا تفعل عندما تكون صديقتك المفضلة مصابة بكدمات وتنزف، وترفض الذهاب إلى المستشفى؟ ماذا تفعل عندما تريد أن تساعدها، لكنها لا تسمح لك؟

تستند نور على باب السيارة، تضع يديها في جيبيها وتميل للخلف. الجو أبرد في الجبال، وتي شيرت المغنية «سانت فينسنت» الذي ترتديه ليس ثقيلًا بما فيه الكفاية، لذا أخلع سترتي.

«لأول مرَّة في حياتك تحضر سترتك». تشم رائحتها وهي ترتديها: «رائحتها جيدة».

- أعتقد أنك ألقيتِها في الغسالة منذ أسبوعين، وقد وجدتها في الجزء الخلفي من خزانتي اليوم. لولاكِ لكانت تفوح منها رائحة الفتيان النتنين.

ابتسمت نور، ابتسامة تجعل نبض قلبي يتسارع: «الفتيان النتنون ليسوا سيئين جدًّا».

تُرَكِّز عيناها علَيَّ، كحيلتان وبُنِّيَّتان. بينما تحل ضفيرتيها وتجذب شعرها بعيدًا عن وجهها أغمس عود قطن في محلول مضاد للبكتيريا وأمسح به على الجرح، وكلما ألمسها، أتمنى لرياض حياة كاملة من الإصابات بالجروح الناجمة عن الورق في عينيه.

أقول: «نور، أرجوكِ دعيني أتصل بخديجة، أو الإمام شفيق».

همست: «سأفعل ذلك، أعدك، لكن ليس بعد. أحتاج... أحتاج...» تنفُّسها غير عميق وينسحب اللون من بشرتها السمراء.

فأقول: «تنفَّسي. شهيق لخمس ثوانٍ، وزفير لسبع ثوانٍ. هكذا». وأريها كيف تتنفس، فقد قمت بهذا لسنوات، وفجأة أتساءل متى تعلمته. تتلكأ الذكرى على حافة ذهني، خجولة وملتوية، قبل أن ترقص مبتعدة.

أهز رأسي متخلِّصًا منها. ما يهمني هو أن نور تأخذ تلك الأنفاس العميقة، أنها معي وأنني أخذت يديها بين يدَي وأن هذا يشعرني بالراحة.

عندما يعود اللون إلى وجهها، أضع عدة الإسعافات الأولية بعيدًا، وأجد الطائرة الورقية مدفونة تحت أكياس تسوق قماشية وملاءة ذات رسومات زهور وقفل عجلة قيادة صدئ.

فيل ميدوز هي نقيض جونيبر. إنها تلك الزمردة الهادئة المثالية في جبال سييرا نيفادا. العشب طويل وناعم، تخترقه عشرات الجداول ذات الضفاف كثيفة العشب واللون الأزرق العميق المماثل لألوان ألعاب الفيديو. لا يأتي الكثير من الناس هنا لأن يوسمايت على بعد ساعتين فقط، ومن يريد زمردة عندما يمكنه أن يحصل على ماسة؟

نتبع مسار غزلان قديمًا متجهًا لأسفل نحو مرج منبسط حيث العشب أقصر. الملاءة ذات رسومات الزهور كبيرة بما فيه الكفاية لننشر فوقها كنزنا من الوجبات الخفيفة والحلوى غير الصحية على نحو مغرٍ. تتجاهل نور الطعام وتمد يدها إلى جاندالف.

قلت: «سأُطيِّرها»، وتكاد تعترض لأنها أفضل في إطلاق الطائرات الورقية، لكنها تتألم بالفعل وفي حالة كان لديها إصابة داخلية، لا أريدها أن تجعل الأمور أسوأ. فقلت: «أنا أطول، أقرب إلى تيارات الهواء».

أدارت عينيها، لكن تأخذ البكرة وتفك الخيط، وبالكاد أحتاج إلى إطلاق الطائرة، إذ تمسك بها الرياح الجبلية وتنتزعها بقوة لدرجة أن نور تبدو كأنها ترتفع عن الأرض، واهية مثل ورقة.

استحوذ عليَّ الخوف عند رؤية هذا. صرت مقتنعًا أنها ستختفي، مثل آما. لكنها عندئذٍ تثبت أقدامها ونهبط على الملاءة. ترخي الخيط ببطء إلى أن يصبح جاندالف ذرة بيضاء متموجة في وسط السماء الزرقاء الواسعة.

تمسك نور بالبكرة في يد واحدة وأصابعي في اليد الأخرى. فأندهش من شعوري بلمستها، بجلدها، بحرارتها، لا يقل روعة عن الشعور الذي من المفترض أن يثيره العناق. أندهش من أنه لا يؤلمني.

قلت: «قوة سرية، الاختفاء أم الطيران أم التحول؟».

قالت: «أتحول إلى تنين، ومن ثم أستطيع الطيران، وسيكون بطني لونه أزرق لكي أستطيع الاختفاء في السماء».

أقول: «لا، لا، لا. يجب أن تختاري قوة واحدة...».

أصل إلى نهاية الفقرة الثانية في توضيح لماذا إجابتها غير صالحة وعندئذٍ أدرك أنها تدير رأسها نحوي.

وفجأة يصبح الكلام مهمة معقدة تستلزم أكثر مما يمكنني من التنسيق بين فمي وعقلي.

«مرحبًا». ترفع يدها، وتحركها بالقرب من وجهي. يمكنني الشعور بدفئها.

قلت: «مرحبًا»، ثم أميل على يدها لبضع ثوانٍ، وأبتعد قبل أن تؤلمها، لكنها لا تبدو منزعجة. نجذب جاندالف لأسفل رابطين الخيط حول البكرة، ونصنع قوارب من أوراق نبات الديس لنجعلها تتسابق في الجدول.

قالت نور: «ثلاثة أحجار لكلٍّ منا، مَن يغرِق مركب الآخر يحصل على قطعة الشوكولاتة الأخيرة».

أفوز، لأن تصويبها مريع، لكنني أعطيها الشوكولاتة على أي حال. ثم نتجادل بشأن نزاعات المشاهير الغبية ونستمع إلى عشرات الأغاني التي لم تكن قد عرفتني بها بعد.

أتهمها: «أصبحتِ تخفين الأغاني عني. تعرفين أنني لا أستطيع العثور على مثل هذه الأغاني بمفردي».

تقول: «كنت أحتفظ بهم، ليوم مثل هذا».

ألقي نظرة على هاتفها، عليه أغنية تُدعَى «أراكِ» (I See You) لكايجو، وعندما أرى عنوان الألبوم –«صغار عاشقون» (Kids in Love)– أفكر أنني سأطفو بعيدًا. تصبح الملاءة القديمة ذات رسومات الزهور جزيرة خارج الوقت، حيث لا أكره آما وآبو بسبب خياراتهما، ورياض ليس وحشًا؛ نور ليست متألمة.

إنها مثل رحلة العام الماضي المشؤومة إلى فيل ميدوز، لكن هذه المرة نفذناها كما يجب. يمتزج دفء نور مع دفئي، ويبدأ الخوف المُلقَى فوقها كغطاء منذ الصباح يتلاشى.

عندما يحل الظلام، نستلقي على ظهورنا ونتأمل روعة النجوم. تشير نور إلى نطاق الجبار، وترفرف رموشها.

قالت: «إنه حبيبي السماوي، كم يبدو نبيلًا وهو ممسك بقوسه».

أنظر غاضبًا إلى الكوكبة، شاعرًا بموجة من الكره تجاهها. «إذن، عليه اللعنة».

- أتغير؟

«من مجموعة من النجوم الغبية؟» أنخر، ثم أفكر في الأمر: «نعم. نعم، أغير».

ترتجف بداخل سترتي، لأن الجو هنا ليلًا أبرد من جسم بطريق. لقد أُغلِقَت المروج رسميًا، لكن لا يوجد أحد ليزعجنا. عندما تنقر نور على ساقَيَّ، أرفع ركبتي حائرًا، فتباعد بين ساقَي برفق وتستقر بينهما، فيصبح ظهرها مواجهًا لصدري.

تطلق الكثير من الوصلات العصبية إشاراتها، يلمس الكثير من جسدها الكثير من جسدي، وأشعر بوخز في جسدي كله.

تظل ثابتة في مكانها، لكن ليس بطريقة سيئة، بل بطريقة «أحاول أن أتعلم لغتك». بعدما أسترخي قليلًا، تميل للخلف، فينتابني شعور بالغموض، وأمد يدَي بجانبي كأنني أتوازن على جبل مشدود. ثم تمرر راحتيها على ساعدَيَّ وتطوي أصابعي بين أصابعها. أشعر بحرارتها عبر ساقَيَّ، بطني، ذراعَيَّ، صدري. هي في كل مكان.

أضمها بحذر، قلقًا من أن تكون ذراعاي ثقيلتين جدًّا على أجزاء جسدها التي تؤلمها، فتجذبني نحوها أكثر. يتضرَّع إلَيَّ الانحناء الطويل بعنقها لأقبله، لذا أحني رأسي، أشمُّ رائحتها، وألمس بشفتي جلدها. فتصدر صوتًا غريبًا، صوت بين الشهقة والتأوه.

مما يجعلني أشعر بإحساس يقلقني للغاية أنها ستشعر به أيضًا، لذا أسحب جسدي للخلف قليلًا.

همست: «هل أنت بخير؟»، وحتى ذلك يرسل وخزًا خفيفًا في أنحاء جسدي، لأن صوتها منخفض وخشن نوعًا ما، وأنا بغباء، وعلى نحو مذهل، أشعر بالإثارة بسببه.

أحاول أن أقول: «نعم»، لكن ما يخرج هو «نعآآه».

قالت: «صلاح الدين، أدين لك باعتذار».

أشعر بحيرة. «اعتذار لي؟».

- عندما كنا صغارًا، سمعت آنتي تقول لك ملايين المرات «سأعانقك، اتفقنا بوتر؟»، ومع ذلك في الخريف الماضي، في أثناء الشجار، ألقيت بنفسي عليك. لم... لم أمنحك خيارًا.

«لا أعرف لماذا أنا...» كنت سأقول هكذا، لكنني أجد صعوبة في أن أتكلم على الإطلاق.

تنقلب لتستدير كُلِّيًا وأجد نفسي أفتقد دفئها.

همست: «أنت مثالي. اتفقنا؟» أنظر إلى أعلى في عينيها اللتين تتلألآن ببريق داكن وأضع يدَيَّ بلطف على خصرها، ثم أمرر إبهامي على الجلد الناعم فوق وركيها، فيرتعش جسدها كله، لكن عندما أتوقف، تتذمر. *المزيد*.

يداها على ساعدَي، عضلات ذراعَي، كتفي. تمرر أصابعها خلال شعري، وتتأمل وجهي طوال الوقت. عندما تخدش أظفارها رأسي برفق، ببطء مُعَذِّب، أضمها نحوي أكثر. يتشكل شيء بداخلي بإحكام شديد، ويمتد الوخز إلى كل جزء من جسدي، متيقِّظًا بأفضل طريقة ممكنة.

تدفعني مستلقيًا على ظهري، ويتدلى شعرها على جانبي وجهي وتتلألأ النجوم في الوسط كأنها مصنوعة منهم. تهبط عيناها نحو فمي.

فأسألها: «هل... امم... هل أنتِ متأكدة؟ إنك تتألمين».

همست: «أريد أن أشعر بشيء آخر، فقط لبعض الوقت، أريد ألا أتألم، أريد أن أنسى. ساعدني أن أنسى يا صلاح الدين».

عندما تلتقي شفانا، أثق أنني سأتحول إلى تيار حي. فجأة، أشعر أنني بحاجة إليها، إليها كلها، بحاجة إلى أن تكون قريبة مني. ألف ذراعي حول خصرها وأجذبها نحوي.

يسقط كل شيء بعيدًا، ولا يوجد ظلال بيننا. نصبح مدموجَيْن معًا، شفتاها على شفتي، وحرارة خصرها تحت أصابعي. أستكشف فمها بعمق أكثر وتزفر بداخلي، تمر يداها بخفة على ذراعَيَّ، على صدري.

تبتعد عني لاهثة لتلتقط أنفاسها. يتموَّج العشب حولنا ويغنِّي قصيدة من أجل نور، ويسقط ضوء القمر على شعرها ليمنحه لونًا أزرق. تنظر عيناها البنِّيَّتان الواسعتان إلى عينَيَّ بسعادة وإثارة. وأفكر، تقريبًا إلى حد جنوني: تذكر *هذا*. تذكره.

«واو». تبتسم، فينقبض قلبي وأريد أن أُقبّلها ثانيةً، لكنني لا أُقبّلها، لأننا عندئذ قد نفعل أشياء لسنا مستعدَّين لها وأنا أرفض إفساد هذا، بما أنه أفضل شيء حدث في حياتي كلها.

همست: «نور، يجب أن نتوقف. إذا لم نتوقف فربما، امم...».

فتتدحرج مبتعدة عني، وتقول: «ليس من المفترض أن نفعل هذا، تعرف، من الناحية الدينية. لا يمكننا ذلك إلا إذا كنا...» وتنظر بعيدًا، محرجة.

ابتسمت لها ابتسامة عريضة: «هل تطلبين مني الزواج بكِ؟».

«يا إلهي، لا». لا أحتاج إلى رؤيتها لأعرف أن وجهها يحمر.

قلت: «أمزح معك. وعلى أي حال، هناك على الأغلب أشياء أخرى تغضب الله أكثر من شخصين يقبلان بعضهما». وأكملت: «الحروب، التفجيرات، القتل».

همست نور: «الوحوش». بتلك الكلمة الواحدة، يصطدم بنا الواقع كنيزك. هذه الساعات القليلة الماضية، هذه الملاءة، هذا المرج، كلهم تشتيت للانتباه عن الأمور المريعة التي حدثت لها، التي حدثت لكلينا.

قلت: «نور»، فتلتفت بعيدًا عني. «هل... هل ستخبرينني بما حدث؟».

«لا شيء... أنا...» صوتها مختنق، وتتصرف بالقدر نفسه من الذعر مثلما كانت عندما أخذتها بالسيارة: «تشاتشو هو السبب الوحيد لوقوفي هنا. لقد... لقد قاد...».

توقف نفسها.

تتمتم: «لا يمكنني التحدث عن الأمر. أنا فقط أريد أن أنسى. آسفة».

نجمع الملاءة ونسير عبر مسار مضاء بضوء القمر يتتبع منحنيات النهر. أتمنى لو أستطيع نقلها إلى المستشفى في طرفة عين. أتمنى لو أستطيع نقل رياض خارج الكوكب، إلى فراغ الفضاء حيث يمكنه أن يختنق، أو إلى موردور حيث يمكن للأورك[1] أن تأكله.

أحتاج إلى أن تخبرني نور بما حدث، لأنني خائف من أنها إذا لم تخبرني، ستقنع نفسها بأن تعود إلى منزل رياض، أن تستمر كما كانت من قبل.

---

(1) موردور هي مملكة الشر في سلسلة سيد الخواتم، حيث يوجد جيش من الكائنات الشريرة يُدعَى الأورك.

قلت: «الذاكرة غريبة». ربما لكي تشعر بالأمان بما يكفي لتتحدث عن أمور مخيفة، تحتاج مني إلى أن أقفز أولًا. ربما لتفتح الباب إلى أسرارها، تحتاج إلى سماع أسرار شخص آخر. «أقول إنني لا أتذكر لماذا يجعلني اللمس غير مرتاح، لكنني أتساءل... أتساءل ما إذا كان حدث شيء ما تسبب في جعلي أشعر بتلك الطريقة».

أتعثَّر في الكلمات التي لم أسمح لنفسي قَطُّ بأن أفكر فيها، ناهيك بأن أقولها.

أهمس: «أعرف... أعرف أن شيئًا سيئًا حدث، جسدي يعرف هذا. وأعتقد أن لذلك السبب... لذلك السبب السيطرة مهمة للغاية بالنسبة لي. لكنني لا أتذكر هذا الشيء السيئ، وعدم تذكره يشعرني كأنه لم يحدث، وإذا لم يكن قد حدث، فلا أعرف إذن لماذا أنا محطم».

- أنت لست محطَّمًا.

قلت: «جزء مني محطَّم. قَول إنني لست كذلك يمحو حقيقة أن شخصًا ما فعل بي شيئًا فظيعًا. يمحو أنني نجوت. لأنني نعم ربما أكون محطَّمًا، لكنني قويٌّ أيضًا».

أنظر إلى داخلي، بالطريقة التي لم أسمح بها لنفسي من قبل، إلى مساحة غريبة بداخلي، مساحة فارغة ناصعة البياض، الأبيض الذي يميز الكفن، الأبيض الذي يميز أرضيات المشرحة، الأبيض الذي يميز جدران الملاجئ. تاك المساحة هي الأذى. تلك المساحة هي الشيء الذي حدث. أريد أن أجد اللحظات التي تملأ تلك المساحة، لكنني لا أريد أن أجدها. أريد أن أفهمها، لكنني أريد أن أهرب منها.

أتساءل ما إذا كانت ستظل هكذا عندما أكون في الثامنة والعشرين، والثامنة والثلاثين، والمائة وثمانية. أتساءل ما إذا كنت سأموت يومًا ما وتلك المساحة البيضاء لا تزال مفتوحة وفاغرة فمها بداخلي، أسنانها حادة ومجهولة إلى الأبد.

أكملت: «ما أقوله هو أن هناك بعض الأشياء يجب ألا ننساها، لأننا إذا نسيناها، سيفلت أشخاص سيئون بأفعالهم المريعة، ونحن نستمر في التألم».

قالت نور: «يغضب بشدة. يحاول ألا يغضب، يسير ذهابًا وإيابًا أو يدخن، يحادث نفسه. لكن لا شيء يمكنني أن أقوله صحيح، لا شيء مما أفعله صحيح. وبعد ذلك يفقد أعصابه، كأن هناك وحشًا بداخله».

قلت: «إنه هو. هو الوحش».

- كلما... كلما يغضب، أختبئ داخل عقلي لأنه أسهل من التفكير بأن هذا كل ما سيكون عليه الأمر إلى الأبد. ولكنه هذا الينبوع الساخن من الكراهية وأنا الثقب الأسود الذي يصبها فيه، وأحيانًا يكون الأمر أكثر مما يحتمل. لكنني أفسدت حياته كلها. هل من العجيب أن يكون غاضبًا؟

«إنها ليست غلطتك». أتوقف عن السير: «ليست كذلك. نور، ابقي في منزلي. لن أزعجك، ولا والدي سيزعجك، على الأغلب لن يلاحظ حتى. سأنام على الأريكة. أرجوكِ».

قالت نور: «لا أستطيع. لديك ما يكفيك من الأمور التي تقلق بشأنها. هل وجدت حتى حلًا لمشكلة بنك الاتحاد الأول؟».

- لقد دفعت لهم لكنني نسيت أن...

- كيف؟

تسأل السؤال بسرعة جدًا لدرجة أنني أحتاج إلى التحقُّق مما سمعت.

قالت: «لقد... سمعت بعض الأشياء، بشأنك أنت وآرت. سمعت أنك... تشارك في أمور سيئة».

ربما يجب أن أعترف. لقد استوعبت من مسلسلات آما ما يكفي لأعرف أن الاحتفاظ بالأسرار له عواقب دائمًا. لكن نور لديها الكثير من الأشياء التي تشغل بالها، وللتو فقط أصبحنا على ما يرام، إخبارها سيدمر هذا الشيء الجميل الهش الذي بيننا.

استنكرت: «فتى أسمر يمضي وقتًا مع آرت، بالطبع سيتحدث الناس بكلام سيئ. لا شيء يحدث».

تخفي الظلال وجهها وتدندن شيئًا مألوفًا، شيئًا هادئًا شغَّلته من قبل.

قالت بهدوء: «'حب رهيب' (Terrible Love) لفرقة ذا ناشونال».

ونسير باقي الطريق صامتين.

39
نور

كيف يمكن لأسوأ يوم في حياتك أن يكون أيضًا الأفضل؟

أنا وصلاح الدين نضع أشياءنا في السيارة ونجلس داخلها، أصابعنا متشابكة. نصرخ مع جيمي هندريكس وهو يغني «طوال الوقت على برج المراقبة» (All Along the Watchtower). أخبره عن تزيين وجه جيمي، ويخبرني عما حدث مع والده في غرفة الغسيل.

أسأله ما إذا كان قد ذهب إلى قبر آنتي مصباح بعد، فلا يجيبني وأخبره قليلًا عن الساعات السابقة لوفاتها، ولكن لا أخبره بكل شيء.

لو استطعت، لبقيت في سيارته إلى الأبد، أشغِّل موسيقاي، أسمع صوته المنخفض الدافئ. لكن عندما يتجاوز الوقت منتصف الليل، يدير المحرك.

يقول: «أبو يا نور. لقد تشاجرنا في وقت سابق اليوم، وسيشعر بالقلق». يجول بعينيه على وجهي ويقول: «سآخذك إلى المستشفى، وأرجوكِ لا تهدديني بالقفز من السيارة. عندما نصل إلى هناك، سأتصل بالإمام شفيق. يمكنه أن يساعدنا على تحديد ما يجب أن نفعل بشأن إخبار الشرطة».

ذات مرة، عندما كنت في الثامنة من عمري، سمعني شخص ما أبكي، ربما من الجيران. جاءت الشرطة إلى البيت، ورحب تشاتشو بهم، وأحضرني إلى الخارج. ابتسمت لأنه أخبرني بما يمكن أن يحدث إذا لم أبتسم. ثم سألوه بضعة أسئلة، وعرف تمامًا كيف يجيبها، وغادروا.

بعد ذلك عندما تسوء الأمور، كنت أحدِّق إلى نفسي في المرآة وأفكر: *أخبري شخصًا ما، فقط أخبري شخصًا ما.* لكن من الذي يمكنني أن أخبره؟ رجال الشرطة لن يصدقوني، والمدرسون في المدرسة سيتصلون بخدمات حماية الطفل ومن ثم سأُوضَع في دور الرعاية. كان تشاتشو عائلتي، عائلتي الوحيدة، وإذا فقدته لن يكون لديَّ أحد. كما لم أرِد توريط آنتي مصباح في الأمر، ماذا لو أذاها أيضًا؟

كانت لديَّ الكثير من الأعذار، وجميعها وليدة الخوف. كنت أخاف من ألا أُصدَّق، أن أصرخ في العالم قائلة «*إنه يؤذيني*» ويستمر العالم كما هو.

أغمض عينَيَّ وأميل برأسي إلى الخلف. الطريق سلس تحت عجلات السيارة، والنافذة باردة بجانب الكدمة التي على وجنتي. تغني أنا ليون «ذات مرة» (Once) حول ما يعنيه أن تتجاوز الماضي وتمضي قدمًا.

قلت: «أحيانًا يا صلاح الدين، أشعر أن هذا أكثر من اللازم. أفكر فيما قرأنا في المدرسة، تتعلق كل تلك الكتب بمشكلة واحدة، فتى تعرَّض للتنمُّر، فتى تعرض للضرب، فتى فقير، وأفكر في حالنا وكيف فزنا بيانصيب الحظِّ السيئ. لدينا كل المشكلات».

«Nazar seh bachau». نطق دعاء آنتي مصباح للوقاية من العين الحسودة بحماسة شديدة حتى إنني أضحك.

أسمع آنتي مصباح في رأسي تقول: *تأتي المجاعة عندما تندب الفيضان. يمكن دائمًا أن تصبح الأمور أسوأ.*

أسأله: «هل تعتقد أن سنوات نضجنا ستعوضنا عن كل ما عانيناه في طفولتنا؟».

- بمعنى أن نرحل من هنا وتذهبي إلى كلية الطب وأصبح كاتبًا وتصبح حياتنا رائعة؟

«لا يلزم أن تكون رائعة، فقط ليست...» يضطرب وجهي: «ليست هكذا».

«ستهربين من هذا المكان يا نور». يلقي نظرة علَيَّ: «ستصبحين طبيبة، وستعوِّضك سنوات نضجك عن كل شيء».

يتوهَّج الأمل في صدري عندما يقول هذا. يبدو واثقًا بقدر ثقة آنتي عندما كانت تتحدث عن الله، واثقًا بما يكفي ليجعلني أومن.

يأخذ صلاح الدين المنعطف إلى جونيبر، وأرتجف لرؤية تلك الأضواء الصغيرة تقترب. لا أريد أن أعود. لا أريد مواجهة ما سيحدث بعد ذلك.

أشتت نفسي: «ماذا عنك؟ لا تزال لديك مسابقة الكتابة لتشارك فيها، ودروس جامعية لتسجل بها».

- يريد آبو أن يبيع الموتيل.

كنت أتساءل كم سيستغرق عمي توفيق من الوقت ليصل إلى هذا الاستنتاج. أقول: «يمكنك أن تنتقل إلى مدينة أكبر. ويمكنني الذهاب معكما والالتحاق بجامعة أهلية، أبتعد عن تشاتشو. ويمكن لوالدك أن يحصل على مساعدة».

«مستحيل». يُحكِم صلاح الدين يديه على عجلة القيادة. «كان كلاودز ريست يعني الكثير جدًّا بالنسبة إلى آما ولا يمكنني أن أتخلى عنه».

سألته: «هل تتذكر تلك الأغنية التي أحبتها والدتك؟ 'الهائم'؟». فيومئ برأسه.

- الأغنية بالكامل مبنية على فقرة في الإنجيل بشأن أنك يجب ألا تضفي قيمة على الأشياء، على الأماكن، فكل ذلك لا معنى له وسيجعلك فقط تشعر بخواء. كانت والدتك تعرف هذا يا صلاح الدين، وستتفهم إذا بعتم كلاودز ريست.

هز رأسه وقال: «أنتِ مثل الراوية في 'فن واحد'، تخبرينني أنه لا يوجد مشكلة في أن أفقد أشياء. لكنني لا أستطيع، كانت لتصاب بخيبة الأمل. ثقي بي، فأنا أعرف آما بطريقة لم تعرفيها بها».

أريد أن أقول: *لا لم تعرفها*، لكنني أصمت بدلًا من ذلك. نحن في جونيبر الآن والشوارع خالية تقريبًا. أريد أن أنسى المستشفى، أن نستمر في القيادة هكذا إلى الأبد، لكن عندما نصل إلى الطريق الرئيسي، يتجه صلاح الدين يسارًا تجاه الصليب الأحمر الكبير الذي نراه عن بُعد ويسرع.

تتقلص معدتي.

لا أريد أن أفعل هذا، أريد فقط أنا أنام. أوشك على أن أقول ذلك حين تومض أضواء خلفنا، وتدوي صفارة إنذار.

«ماذا بحق الجحيم؟» يتوتر صلاح الدين فورًا، مما يعد غريبًا. فالقاعدة هي أنه يضبط مشاعره بإحكام.

قلت: «تقود، وأنت بشرتك سمراء، كيف تجرؤ؟»

لا يضحك صلاح الدين.

قال: «لا بد أنني كنت مسرعًا. اللعنة. اللعنة».

ينغلق باب السيارة خلفنا بقوة، ويكبر انعكاس الشرطي المقصوص في المرآة الخلفية. فيأخذ صلاح الدين نَفَسًا عميقًا.

«انظر، الأمور بخير». ألمس معصم صلاح الدين، فيجفل مبتعدًا كأن جلدي يحرقه. «صلاح الدين، ستكون الأمور بخير».

يؤلمني وجهي، الكدمات والجروح. إذا رآني الشرطي، سيعتقد أن صلاح الدين فعل ذلك بي. لا عجب أن صديقي متوتر.

لذا حين يتجه رجل الشرطة إلى نافذة صلاح الدين، أرفع الهودي وأميل برأسي على النافذة. ربما إذا تظاهرت بأنني نائمة، لن ينظر إلَيَّ عن قرب.

«أنتما الاثنان في الخارج لوقت متأخِّر جدًّا». يسلط الشرطي مصباحه اليدوي على وجه صلاح الدين، ويبقيه عليه طويلًا قبل أن يسلطه عليَّ بطريقة خاطفة. يبدو ضجرًا حين يطلب الرخصة وأوراق التسجيل.

ويقول حين يسلمهم صلاح الدين له: «حد السرعة خمسة وعشرون، وكانت سرعتك خمسة وأربعين على الأقل».

«آسف أيها الضابط». يرتجف صوت صلاح الدين، ويطرق بأصابعه على عجلة القيادة فأريد أن أمسك بهم فقط ليتوقف. «سأبطئ سرعتي».

- إلى أين كنت متجهًا؟

- المستشفى، فصديقتي... ليست بخير.

وجه الضابط مصباحه اليدوي نحوي فأرفع يدي.

- من فضلك اخفضي يدك يا آنسة وانظري إلَيَّ.

اللعنة. أفعل هذا، ويبقى المصباح مسلَّطًا عليَّ لمدة أطول بكثير مما أريده أن يبقى. أشعر أن الشرطي يلاحظ كل كدمة، كل خدش. لا يمكنني رؤية وجهه جيدًا، لكنني أرى شارة اسمه: **ماركس**.

«انتظرا هنا». نبرة صوت ماركس قاسية، باردة. يختفي في سيارته ويصدر جهاز اللاسلكي خشخشة.

قال صلاح الدين: «اللعنة. أعرف هذا الرجل، كاد يلقي القبض على آبو في المستشفى يوم ماتت آما». ينظر من فوق كتفه، ثم يندفع نحو درج السيارة ويأخذ منه شيئًا، كيسًا ورقيًّا.

يجول بنظره في المقعد الخلفي وفي النهاية يخفي الكيس تحت حصيرة أرضية، ثم يدفع حقيبتي فوقها.

- صلاح الدين، ماذا...

قال صلاح الدين: «الأمر على ما يرام». لكن يمكنني أن أرى أنه يتحدث مع نفسه لا معي. «كل شيء على ما يرام».

لا يزال الضابط ماركس في سيارته، ويمر شخص ما ببطء، شرطي آخر، ويقف بسيارته أمامنا.

فيتوقف نَفَس صلاح الدين. يمسك بسرواله الكارجو، وأيًّا كان ما يخرجه منه يلمع لمعانًا خافتًا، ويعطيني إيَّاه. شيآن بلاستيكيان، أحدهما صلب والآخر زلق، زجاجة حبوب وكيس صغير.

همست: «ما هذا؟ صلاح الدين؟».

همس: «ادفعيهم تحت مقعدك. أسرعي».

لا أفكر. أفعل فقط ما يقوله، وفي اللحظة نفسها ظهر الضابط ماركس مجدَّدًا.

«سيد مالك». يضع يدًا على حزامه، ليست على سلاحه لكنها ليست بعيدة عنه: «من فضلك اخرج من السيارة».

قلت: «مهلًا. إنه لم يفعل هذا». وأشير إلى وجهي: «لم يكن هو...».

- يا آنسة، ابقي مكانك. سيد مالك، أحتاج منك إلى الخروج من السيارة، الآن.

قال صلاح الدين: «بالتأكيد. ليست هناك مشكلة».

تحرك صلاح الدين كأن جسده جديد عليه، ويبدو جلده باللون الأزرق تحت أضواء سيارة الشرطة. تهب عاصفة من الرياح فتدفع حشيشة متدحرجة بجانبنا ودوَّامات ترابية. وعلى الجانب الآخر من الشارع، تتباطأ شاحنة لينظر سائقها بفضول. أشعر أن الصحراء خارج السيارة كبيرة جدًّا، كأنها تمتد إلى الأبد، كأن لا يوجد شيء سوانا وهذه السيارة والفراغ الذي يحيط بنا.

تصاعد الذعر بداخلي، وليس له مُتَنَفَّس، فقلت باندفاع: «لماذا تجعله يخرج من السيارة؟ فقط حرر له مخالفة لنستطيع الرحيل».

«يا آنسة». يتحدث ماركس ببطء كما لو أنه يتحدث إلى طفلة صغيرة: «نحن فقط سنتحدث بسرعة جدًّا».

سيكون كل شيء بخير. لن يحدث شيء شنيع لأن حياتنا كانت مزرية لفترة طويلة جدًّا ولا يستحق أيٌّ منا أن تصير أسوأ.

سنحكي هذه القصة بعد سنوات من الآن، وسنضحك عليها.

يوقف ماركس صلاح الدين أمام السيارة.

أصيح من السيارة: «لماذا تحتاج إلى الحديث إذا كان مسرعًا؟». يخرج السؤال بغضب أكثر مما أقصد.

اهدئي يا نور. تحَكَّمي في نفسك.

لكنني دائمًا أتحكم في نفسي، دائمًا أخفي ما أشعر به، ولم ينفعني بأي شيء.

«هذا هراء». أصرخ الآن، ثائرة جدًّا لدرجة تمنعني من الخوف.

يستخدم الضابط ماركس اللاسلكي طالبًا الدعم. مع أنه توجد بالفعل سيارتا شرطة وثلاثة ضباط هنا، كلهم يحملون أسلحة، ونحن نحمل حلوى وطائرة ورقية على شكل ساحر.

أمد يدي إلى مقبض الباب، ثم أتذكر المرَّة التي اتصل فيها تشاتشو بالشرطة حين بدأ زبون يكسر الزجاجات، كان الرجل غاضبًا لأن بروك سحبت نقودًا من بطاقته الائتمانية، لكن الشرطة ألقت القبض على تشاتشو بدلًا منه. هكذا تسير الأمور في المدن الصغيرة، وجونيبر ليست مختلفة.

إذا خرجت من السيارة، فربما أجعل الأمور أسوأ، ومن ثم أعود للجلوس وأنا أغلي.

باب صلاح الدين مفتوح، وكذلك نافذته. يربت الضابط على جسده من أعلى لأسفل ولا يمكنني رؤية وجهه، لكن يمكنني تخيله عابسًا.

ثم أسمع صلاح الدين يلعن، فأميل على مقعده محاولةً أن أكتشف ماذا يحدث.

لقد أخرج الضابط شيئًا ما من جيوب صلاح الدين، ويواصل البحث فيجد أشياء أخرى صغيرة جدًّا لدرجة أنني لا أستطع رؤيتها.

يبرق وميض فضي، ويستدير صلاح الدين واضعًا يديه خلف ظهره، فكه مشدود لكن هذا كل ما أستطيع تبينه من وجهه. لا أفهم ماذا يحدث.

ثم أفهم.

يقيِّده الضابط بالأصفاد.

يلقي القبض على صلاح الدين.

«لا. مهلًا». أبدأ في الخروج من السيارة، لكن تقف ضابطة أخرى بجانب بابي واضعة يدها عليه. لم ألاحظها حتى تسير نحوي.

قالت: «يا آنسة، ابقي في المركَبة».

- إنه يلقي القبض على صديقي. لم نفعل أي شيء...

«يا آنسة». ينفعل صوتها فأجفل. «ابقي في السيارة، ويداكِ على لوحة القيادة حيث يمكنني رؤيتهما».

أفعل ما تطلبه مني وأقول: «لا أفهم لماذا تفعلون هذا. فقط حرِّروا له مخالفة واتركونا نرحل، فهو لم يفعل أي شيء، نحن لم نفعل أي شيء».

تتبادل الشرطية بضع كلمات مع ماركس، وعندما تعود إلَيَّ، تتحدث بصوت أهدأ.

- أحتاج إلى أن تخرجي من السيارة ببطء، وتسيري معي إلى الرصيف هناك. سأفتح الباب الآن.

أفعل ما تطلبه مني. عندما نصل إلى الرصيف، تطلب مني أن أضع ذراعَيَّ فوق رأسي.

- سأربت على جسدك من أعلى لأسفل. هل لديكِ إصابات بأي مكان آخر غير وجهك؟

قلت: «ضلوعي». وعندما تربت على جسدي، لمستها لطيفة، وأراها تنظر إلى وجنتي مقطبة حاجبيها. يجلس صلاح الدين أيضًا على الرصيف لكن على الجانب الآخر من الشارع، ويقف ضابطان أمامه، لكنني لا أستطيع سماع ما يقولون.

- لماذا تلقون القبض عليه؟

- يعرف حبيبك لماذا نلقي القبض عليه.
- ليس حبيبي... وهو لم يفعل أي شيء.

تتنهد الضابطة –التي تحمل شارة باسم أورتيز– وتسألني: «هل يغضب كثيرًا؟».

فأجيب: «إنه لا يغضب مطلقًا. مطلقًا».

- إذن من فعل بوجهك هذا؟ ولا تقولي لي إنك تعثَّرتِ وسقطتِ.
- ليس من شأنك اللعين.

تطقطق أورتيز بلسانها: «أتُقَبِّلين أُمَّك بهذا الفم؟».

- ماتت أُمِّي وأنا في السادسة من عمري.

إنها ليست عبارة أقولها كثيرًا، إذا لا أضطرُّ إلى ذلك. يعرف جميع مَنْ في المدرسة أنني أعيش مع عمي وزوجته، وكذلك يعرف جميع مَنْ يأتون إلى المتجر، وذلك هو كل عالمي تقريبًا. إذا كان قد شعر شخص ما بالفضول بشأن والدَيَّ، فإنه لم يسأل قط.

لا يمكنني رؤية رد فعل أورتيز، فالظلام حالك وهي تسلط المصباح علَيَّ، لكن تمر بضع ثوانٍ وتتنحنح.

- هل يجعلِك صديقك تبيعين مخدرات؟
- لا.
- هل تجعلينه يبيع مخدرات.

فأقول: «لا، ولقد انتهيت من الكلام معك».

تقريبًا أبصق في وجهها. يرى الناس دائمًا أمورًا خاطئة؛ نظرَت جيمي إلَيَّ ورأت غشاشة، تنظر أورتيز إلى صلاح الدين وترى معتديًا، لكنهم سينظرون إلى جيمي ويرون فتاة ذات شعبية لا حقيرة عنصرية، سينظرون إلى رياض ويرون منقذًا اعتنى بابنة أخيه اليتيمة لا وحشًا.

قالت أورتيز: «انظري، لا يمكنني مساعدتك ما لم تساعديني. حبيب... صديقك مُقَيَّد بالأصفاد، لا يمكنه أن يؤذيكِ».

- هو لم يضربني.
- دعينا نضع هذا جانبًا في الوقت الحالي. أتعتقدين أننا سنجد أي شيء عندما نفتش السيارة؟

أنظر إلى السيفيك، صندوقها مفتوح وجاندالف مُلقَاة على الأرض، نصفها تحت حذاء أحد رجال الشرطة، ويفتش ضابطان آخران المقعد الأمامي. ثم يرتفع صوت عجلات على الطريق إذ تصل سيارة شرطة أخرى.

يتحدث صلاح الدين، أسمع صوته لكن لا أسمع ما يقوله. أريد أن أصيح به: *لا تخبرهم بأي شيء، كلما تخبرهم أكثر، تزداد قدرتهم على الإيقاع بك.*

قالت أورتيز: «أخبريني أين أخفيتم مخزونكم، وربما نتساهل أكثر معك، فأنتِ صغيرة، وسواء أردتِ الاعتراف بذلك أو لا، من الواضح أنه يؤذيكِ».

تلك الأشياء التي دفعتها تحت مقعدي، إنها حبوب. لكن لا بد أن صلاح الدين لديه تفسير بشأنها، لأنه أخبرني بأنه لا يبيع مخدرات وهو لا يكذب علَيَّ.

يقول أحد الضباط الذين يفتشون المقعد الأمامي بالسيارة: «حسنًا، اللعنة»، وفجأة يتوتر الجميع ويصمتون.

ثم يكسر الضابط الصمت: «ماركس تحتاج إلى أن تأتي لتلقي نظرة على هذا».

40
سال

استغرقتُ وقتًا طويلًا لأندمج عندما كنت صغيرًا. وقبل أن أعرف ما هي المشكلة بي، بدا أن الأطفال الآخرين يعرفونها. شعروا بها في الطريقة التي أبقيت بها عينَيَّ لأسفل، والطريقة التي بدا بها أنني لا أسمع المدرِّسة، والطريقة التي فعلتُ بها كل شيء متأخِّرًا للحظات. لم يتحدثوا معي قَطُّ أكثر مما يتوجَّب عليهم. لم يجلسوا بجانبي قَطُّ. استمعوا إلى ذلك الجزء من أنفسهم الذي همس: *مختلف*. *آخر*.

جعلني هذا حزينًا، لأنهم لم يعرفوا أشياء عرفتها، لأنهم كان بإمكانهم أن يكونوا طيبين لكنهم لم يعرفوا كيف يكونون هكذا.

وربما كان ليتحوَّل الحزن إلى شيءٍ أسوأ، شعور بالمرارة، غضب مدى الحياة، لكنه فقد تأثيره، انتُزِعَتْ منه قوَّته بعد شهر من بداية الصف الأول بسبب فتاة وصلت متأخِّرة ودخلت بمفردها من دون والدَيْن يصطنعان جلبة حولها.

تدلَّت ملابسها عليها وكان شعرها مجذوبًا في ضفيرتين غير متساويتين، ولم تتحدث الإنجليزية.

كان أي شخص طيِّب لينظر إليها ويرى فتاة في السادسة من عمرها تحتاج إلى الحب، لكن المدرِّسة، السيدة بريدلو، نظرت إليها ورأت مصدر إزعاج. قالت السيدة بريدلو: «هذه نورا. إنها من باك-ييي-ستان، مثل سال»، ثم وضعت الفتاة في الكرسي الوحيد الخالي، بجانبي في مؤخِّرة الفصل.

تحدث الأطفال الآخرون وضحكوا ولعبوا. لكن أنا والفتاة حدَّقنا إلى بعضنا بعضًا مثل كلبين عابسين، تتلاقي العيون البُنِّيَّة، مُحطَّم يلتقي مُحطَّمة القلب، صلاح الدين يلتقي نور.

لم أعرف عندئذٍ ما الدور الذي ستؤدِّيه تلك العيون في حياتي، كم مرَّة سأنظر إليهما، وكم مرَّة سأنظر بعيدًا. لم نقُل أي شيء، فقط تبادلنا التحديق، ولم يبدُ أن أحدًا منا يجد هذا غريبًا.

«ما هذا؟». أشرتُ إلى شيء باللون البنفسجي والأخضر على ذراعها.

فأخفته بيدها لكن لم تتكلَّم.

قلت لها: «Ghoray varga lagadha heh» (**يشبه حصانًا**)، لأنها من باكستان ولم أكن كبيرًا بما يكفي لأدرك أنها ربما لا تتحدث البنجابية.

فأَمْعَنَت النظر إليه، كأنها لم تفكر قَطُّ أن الألم يمكن أن يأخذ شكل حيوان مزرعة. وعندما نادتنا المدرِّسة لكي تحكي قصَّة، تبعتني نور إلى البساط وجلست بجانبي حين بدأت القصة. ضَحَكَتْ حين ضَحَكْتُ، ولم يكن هذا حين ضَحِكَ كل الأطفال الآخرين. وفي لحظة ما، أشارت إلى عنكبوت يشق طريقه نحو رف الألعاب بجانبنا، وراقبناه معًا.

فجأة، فهمت لماذا طلبت مني آما، بتلك النظرة المتلهِّفة في عينيها، أن أُكَوِّن صداقات. فهمت لماذا يجتمع كل هؤلاء الأطفال معًا. لأنك تشعر بشعور جيد عندما يكون لديك صديق.

كانت هذه هي المرَّة الأولى التي أدعو فيها أحدًا بذلك، في رأسي. ولا يمكن لكل الأصدقاء الآخرين أن يرقوا أبدًا إلى الشعور الذي انتابني في ذلك اليوم عندما فكرت في تلك الكلمة، لأنه لم يوجد مطلقًا، في أي وقت في حياتي، أي شخص مثل نور.

أفكر في ذلك اليوم الآن حين يُخرِج رجال الشرطة المخدرات من السيارة، وهم يقيِّدون يديها بالأصفاد، وهم يدفعونني إلى المقعد الخلفي من البلاستيك الصلب في سيارة الشرطة، وهي تستدير لتنظر إلَيَّ من خلال الزجاج بفَكٍّ مشدود وعينين مغرورقتين، وهي تلتقي وجهًا لوجه الحد الذي وصل إليه كذبي وخداعي وغبائي.

وهي تدرك أن حياتها لن تكون أبدًا كما كانت.

أشاهد ما يحدث، وأتعجب من التماثل المروع في كل شيء- منبوذان دائمًا من آنذاك إلى الآن، من اللحظة حين أنقذتني طفلًا إلى اللحظة حين دمرتها بالغةً.

أتمنى لو أنها جلست في أي مكان آخر في ذلك اليوم. أتمنى لو أنني كنت مريعًا معها. أتمنى لو أنها كانت مريعة معي. سأتخلى عن كل مغامرة جمعتنا يومًا إذا كان هذا يعني أنها لن تضطرَّ إلى مواجهة ما هو قادم.

لكنني لا أستطيع. وستصبح حياتها مقسمة إلى الأبد إلى اللحظة التي قبل أن توقفنا الشرطة واللحظة التي بعدها.

وهذا خطئي أنا.

الجزء الخامس

فقدت مدينتين جميلتين، وأكثر من هذا
بعض العوالم التي امتلكتها، نهرين، قارة.
أشتاق إليهم، لكنها لم تكن كارثة.

- إليزابيث بيشوب
«فن واحد»

41
مصباح

يناير، حينئذٍ

لم أكن يومًا امرأة عنيفة، لكن مدرستك في الصف الأوَّل، روبرتا بريدلو، كانت شنيعة لدرجة أن أصابعي كانت تحكني لأعطيها «thappad»[1] على مؤخرة رأسها كما كانت تفعل جدَّتي بأي شخص وقح.

كان شعر السيدة بريدلو كخوذة صغيرة من الشعر الأشقر الرمادي، وشفتاها تبدوان كأنها أكلت الكثير من المخلَّل.

«صلاح الدين». **سال-يييو-دين**. نطقها الخاطئ لاسمك الجميل جعلني أتساءل كيف أصبحت مدرسة إذا كانت لا تعرف كيف تقرأ حروفًا بسيطة. «إنه ليس لديه دافع، سيدة مالك».

- إنه في السادسة من العمر.
- إنه لا يقرأ ولا يكتب.

عقدت ذراعَيَّ أمام صدري، وقلت: «إنه يحب القصص، سيتعلَّم».

فقالت: «انظري، لا أعرف كيف يكون الأمر في البلد الذي جئتِ منه، لكن هنا في أمريكا، يجب على الوالدَين أن يشاركا مشاركة فعالة في حياة أطفالهم

(1) صفعة في اللغة الأردية.

المدرسية. لديَّ اثنان وثلاثون طفلًا في ذلك الفصل ولا يمكنني مساعدتهم كلهم».

- فقط ذوو البشرة البيضاء إذن؟

فتحت فمها وأغلقته كسمكة غبية للغاية: «ليس... ليس لهذا أي علاقة بذلك. سال –نحن ندعوه سال في الفصل– لا يتطوَّر يا سيدة مالك. هل يتحدث الإنجليزية في البيت؟».

- يتحدث الإنجليزية بطلاقة، والبنجابية أيضًا.

- لا بد أن تعدد اللغات يربكه...

- أو ربما لا تقومين بعملك.

ابتلعت ريقها بصوتٍ عالٍ جدًّا حتى إنني فكرت أنها ستختنق بالصوت، ثم تنحنحت: «ربما التعليم المنزلي...».

- تريدينني أن أعلمه في المنزل لأنك لا تستطيعين القيام بعملك؟

- هناك مشكلات اجتماعية أيضًا يا سيدة مالك، فهو لا يندمج، وينزعج إذا لمسه الأطفال الآخرون. هل هو... بأمان؟ في المنزل؟ هل أنتِ بأمان؟ كنت أعرف فتاة متزوجة برجل مسلم ويمكنهما أن يكونا...

وقفت بسرعة جدًّا مما جعل كرسي الأطفال الذي كنت أجلس عليه يسقط على ظهره مُصدِرًا صوتًا مكتومًا: «سأتحدث مع مدير المدرسة بشأن هذه المحادثة، سيدة بريدلو».

ثم غادرت، لكنني لم أتحدث مع مدير المدرسة، بل مع صديقتها دكتورة إليس.

ولم تتحدث مدرِّستك عن التعليم المنزلي ثانيةً.

لكنها كانت محقَّة بشأن أنك عانيت صعوبة في الاندماج. لقد أخذتك إلى طبيبة، معالجة نفسية، وأرادت أن تواصل رؤيتك لكنني خفت من أن يجعلك هذا تتذكر ما حدث، أن يجعلك تعيشه مرَّة أخرى.

لقد انكسر قلبي لرؤية الطريقة التي تغيَّرْتِ بها، أشياء صغيرة، إذ حَلَّ الصمت حيث كان يوجد الضحك يومًا، والتحفُّظ حيث كنت يومًا لتجري نحوي، وبدا أنك نفسك لا تفهم الأمر. في أعماق الليل، كنت تستيقظ وتصرخ، لكن الأسوأ كان حين تصمت، حين تصير بعيدًا.

لم أعرف ماذا يمكنني أن أفعل، ولم يستطع والدك مساعدتي مهما قلت له. ربما كان يجب أن أدعك تظل ترى الطبيبة، ربما كانت ستساعدك على فهم نفسك.

لكنني كنت شابة وحمقاء، فلم أعُد إليها وبدلًا من ذلك فكَّرت: *ما سيصير إليه طفلي لن يكون محصلة ما حدث له*. لم أكن لأترك أحدًا يكسرك؛ إذا لم يمنحك العناق الاطمئنان، فربما تمنحه لك قصة. وإذا سببت لك محادثة ما القلق، فربما يهدئك اللطف. وإذا كان الأطفال الآخرون لا يفهمونك، إذن أحدثك عن الله الذي يفهمنا جميعًا، عقلًا وقلبًا وروحًا.

لقد حاولت يا بني، حاولت أن أعيد إليك ما أخذه ذلك الوحش، وآمل أنني قد نجحت. لأن الآن، في حين يهرب مني الوقت، أدرك أن أعظم ما قد يكون سرقه منك ليس براءتك، بل أملك.

42
نور

مايو، الآن

فريارسفيلد، كاليفورنيا

منطقة الحجز في سجن المقاطعة مزدحمة. إنها تبدو -وتفوح منها رائحة- مثل غرفة تغيير الملابس في مدرسة جونيبر الثانوية. يسلمني الضابط الذي ركبت معه -لا أرى اسمه- إلى شرطية شقراء ممتلئة الجسم، تفك الأصفاد من يدَيَّ وتفحص بصمات أصابعي، ثم تصحبني إلى حائط أبيض فارغ. لا أفهم أنها تلتقط صورتي الجنائية حتى تقول: «انظري هنا»، وتشير إلى كاميرا حاسوب نقال صغيرة.

أتساءل ما إذا كانوا أحضروا صلاح الدين أيضًا إلى سجن المقاطعة في فريارسفيلد، فيؤلمني صدري عند التفكير فيه. لقد عرفت أن شيئًا غريبًا يحدث، لكنني لم أرد أن أصدق هذا، وهو اعتقد أنني لا أستحق معرفة الحقيقة.

اثنا عشر عامًا من الصداقة، من كونه الجاذبية التي تمنعني من الدوران في العدم، والآن أُترَك بلا شيء يمسك بي.

لماذا، لماذا، لماذا يا صلاح الدين؟

لا، لم يعد صلاح الدين بعد الآن، بل هو الكاذب.

تجد الضابطة مكتبًا معدنيًّا صغيرًا وتُجلِسني أمامها، ثم تأخذ المعلومات الأساسية: الاسم، تاريخ الميلاد، حق المواطنة.

- أحتاج إلى بطاقة إقامتك الخضراء.

- إنها... إنها وسط أشيائي، لكنني أعرف الرقم.

تدونه. «أين وُلِدتِ؟».

- كوت عنايت، باكستان.

- كوت-ماذا؟

«كوت-عن-اي-ت». أقولها ببطء، لكنها تجعلني أتهجاها.

«باكستان إذن؟ تلك قريبة من أفغانستان، أليس كذلك؟». تقول «أفغانستان» متناغمة مع «a span of man». عندما أومئ برأسي، تصفر: «العديد من الإرهابيين هناك».

قالت هذا كأنني ربما أعرف بعضهم شخصيًّا، كأن ربما هناك بعض منهم في عائلتي.

- نعم، الكثير. إنهم في كل مكان.

إذا كانت قد أدركت تهكُّمي، فهي لا تظهِر هذا. بدلًا من ذلك، تكمل بقية الأسئلة: العنوان، الوظيفة، رقم الضمان الاجتماعي.

- لنتجه إلى الردهة لتجري مكالمتك الهاتفية.

أهزُّ رأسي. لا يوجد إلا شخصين أكلمهما في هذا الموقف، واحدة ماتت والآخر كاذب.

فتهز الضابطة كتفيها وتأخذني عبر ممر من القوالب الأسمنتية الرمادية ينتهي إلى باب أملس أبيض اللون. أعرف إنه سجن بمقاطعة لا سجن الولاية، وأعرف أنني سأكون هنا لبضعة أيام، ربما، لا أعوام.

ومع ذلك أتذكر أغنية «السجين 1 و2» (Prisoner 1 & 2) للوبي فياسكو، المكالمة الجماعية في البداية، وقعقعة أبواب الزنزانة عندما تُفتَح وتُغلَق. علمتني تلك الأغنية عن السجن أكثر من أي شيء على التليفزيون أو في كتاب. وعندما سمعتها لأوَّل مرَّة كنت مدهوشة من أنها لم تكن عن الخوف.

بل كانت عن الغضب، عن اليأس.

تساعدني الأغاني على التعامل مع الحياة، تساعدني على الشعور. لكنني في هذه اللحظة، لا أريد أن أفعل أيًّا منهما، لذا أدفع الموسيقى من عقلي.

يفتح ضابط آخر الباب الأبيض، فتصطدم بي موجة من الضجيج. أخطو داخل زنزانة طولها ستة أمتار وعرضها ستة أمتار، وممتلئة. عندما أدخل، تحملق فيَّ بعض النساء، وتهُس إحداهن.

هناك سرير قابل للطي في زاوية الزنزانة، تستلقي عليه سيِّدة كبيرة السِّنِّ وسيِّدة أخرى –يبدو أنها ابنتها– تقف للحراسة عاقدة ذراعيها. أحتاج إلى التبوُّل، لكن لا يوجد حائط يخفي المرحاض ولا توجد مناديل ورقية.

تجلس معظم النساء أو يقفن بمحاذاة الحائط، بعضهن بشرتهن بيضاء، وبعضهن بشرتهن سمراء، وبعضهن بشرتهن سوداء. وجدت زاوية خالية واستندت عليها تاركة شعري يسقط فوق وجهي ليخفي إصاباتي. ينادي ضابط اسم امرأة فتقف وهو يفتح الزنزانة.

لا أحد سيأتي من أجلي، لا أحد حتى يعرف أنني هنا، ما عدا الكاذب.

توقفي *يا نور، فكري*. سأكون بخير. لم تكن المخدرات ملكي، ولم أبِعها مطلقًا من قبل. ستشهد السيِّدة مايكلز بهذا، وسيشهد السيِّد ستيفنسون بهذا، وستشهد أولوتشي في المستشفى بهذا. وستشهد سجلَّات مكالماتي بهذا.

أكرِّر هذا الكلام لنفسي لساعة كاملة، ثم يبدأ يتداخل إلى أن يصبح متشابكًا في عقلي. تشرق الشمس، أستطيع أن أراها من خلال شق النافذة في أعلى حائط الزنزانة.

أغمض عينَيَّ، وأشعر بيدَي الكاذب على جسدي، حذرتين بشدة. أفكر في كيف شعرت كأن جسده بيتي. كيف كاد القرب بين كل جسده وكل جسدي أن ينسيني لماذا كنا في فيل ميدوز من البداية.

ووجهه عندما سألته عن آرت، ذلك الظل في عينيه، الكذبة. لقد كان يبيع المخدرات، بالطبع كان يفعل هذا، وإلا كيف أصبح يسدِّد جميع الفواتير في الموتيل؟

لم يكن الأمر يستحق. لقد دمر الكاذب نفسه، ودمرني أيضًا.

عندما هربت من منزل تشاتشو، أردت إشارة من العالم، شيئًا جيِّدًا. أردت أن أعرف أنني حتى إذا لم ألتحق بالجامعة، ستحتوي حياتي على أكثر من عم غاضب ومتجر كحوليات ومدينة صحراوية صغيرة.

واعتقدت أن الكاذب هو تلك الإشارة.

ربما كان يجب أن أموت في ذلك الزلزال. ربما كان الله يعطيني إشارات إلى أنني أعيش في وقت مُقتَرَض، وكنت فقط أكثر غباءً من أن أراها.

- نور رياض؟

يفتح ضابط الباب واضعًا يده على سلاحه، استعدادًا لحالة أن تحاول أي من النساء المرهقات هنا مهاجمة رجل مسلح حجمه ضعف حجمهن.

أقف لكنني لا أقول أي شيء، فيضع الأصفاد في يدَيَّ، وتعتصر أصابعه ذراعي فوق كدمة تمامًا.

الغرفة التي أُقاد إليها صغيرة ودون تهوية، بها طاولة على كلٍّ من جانبيها كرسي، وهناك ساعة على الحائط تخبرني أن الوقت يقترب من الظهر. أُتْرَك بمفردي لوقت طويل بما فيه الكفاية لتتحوَّل حاجتي الضئيلة إلى التبوُّل إلى مشكلة فعلية، وبحلول وقت ظهور رجل برتقالي بصورة غريبة يحمل شارة باسم برورير، أكون مستعدة لجلوس القرفصاء على الأرض.

«نور رياض». يجلس برورير على الكرسي ومعه ملف رفيع. يرتدي زيًّا رسميًّا ضخمًا، وصُدَيرِيًّا به مليون جيب، فأتساءل ما إذا كان من المفترض أن يذهب لمداهمة وكر مخدِّرات بعد هذا.

حدق إلى الملف –ملفي– لمدة طويلة، طويلة بما فيه الكفاية لأدرك أنه لا يقرؤه، بل فقط يحاول إيصال فكرة معيَّنة.

حسنًا، يمكنني أيضًا أن أوصل فكرة معينة. فأسترخي في مقعدي وأحملق في القوالب الأسمنتية.

وأخيرًا يقول: «نور، نور، نور، اسم جميل. ماذا يعني؟».

قلت له: «أحتاج إلى استخدام الحمام».

قال: «بالتأكيد. بعدما ننتهي هنا».

أربع كلمات فحسب، لكن يتضح فورًا أنه ليس مثل الضابطة التي حجزتني، أو مثل أورتيز واستجوابها البسيط ليلة أمس.

«آنسة رياض، سأوجه أسئلة، وأنتِ ستجيبين عنها». لا ينتظر ردًّا: «وجد الضابط الذي أوقفكما أدوات تعاطي المخدِّرات بالإضافة إلى زجاجة

أوكسيكونتين واثني عشر جرامًا من الهيروين تحت مقعدك. منذ متى تبيعين المخدِّرات؟».

- تلك الأشياء ليست ملكي.

- وجدوا أيضًا زجاجة هيدروكودون في المقعد الخلفي تحت حقيبتك. هل تستطيعين الحصول على وصفة طبية للهيدروكودون؟

- أليس ذلك مسكن ألم.

- تعرفين أفيونك.

أهزُّ كتفَيَّ. فينظر بتركيز إلى الكدمات على عنقي، على ذراعَيَّ: «هل فعل حبيبك ذلك بكِ؟».

- ليس لديَّ حبيب.

نقر بروير بقلمه على ملفِّي. لا يمكنني تحديد ما هو لون عينيه، ربما أزرق، أو أخضر، شيء بارد مثل عينَي حيوان زاحف.

لقد اتخذ قرارًا بشأني سابقًا.

«إذا كان صلاح الدين مالك قد أرغمك على بيع المخدرات، فيمكننا القبض عليه بتهمة العنف الأُسري وتهمة نقل المخدِّرات وتهمة الحيازة. لقد فحصت سجلَّك المدرسي». يتوقَّف بروير وأتساءل ما إذا كان هناك فقرة، في مكان ما في دليل الاستجواب، عن كيف يجعل الصمت المجرمين يتَلَوُّون.

- تقديراتك جيدة، جيدة بصورة مفاجئة، وقال مدير مدرستك إنك تخططين للالتحاق بالجامعة، لكن لديكِ بضع مشكلات متعلقة بالانضباط.

- مشكلة واحدة متعلقة بالانضباط.

- مكتوب هنا أن والدك هو شوكت رياض، وأنه يمتلك متجر كحوليات...

قلت: «إنه عمِّي».

رفع بروير حاجبًا وسألني: «هل تعملين في ذلك المتجر؟».

أتململ. أشعر كأنني مضطرة إلى إجابته لكنني لا أعرف ما الذي يخطط لأن يفعله بما أقول.

«نعم». الحقيقة هي الأبسط. «أعمل هناك».

- مكان جيد لتبيعي حبوبك، غطاء جيد. هل ورطك عمك في هذا؟

اللعنة. ينتظر بروير ردًّا، لكنني لا أمنحه واحدًا. بدلًا من ذلك أفكر في تشاتشو، في كيف يصرخ على التليفزيون حين يشاهد حلقات مسلسل قانون ونظام: لا *تخبرهم بأي شيء أيها الغبي*.

- أريد أن أتحدث مع محامٍ من فضلك.

«بالتأكيد». يبتسم من دون أسنان: «لكن يا نور؟ نصيحة صغيرة، اعترفي بالذنب. لا تجرِّي عائلتك إلى موقف مُعَقَّد».

- منذ بضع ثوانٍ كنت تسألني ما إذا كانت عائلتي ورَّطتني في هذا.

- هل فعلوا ذلك؟

أهزُّ رأسي وأقولها أبطأ هذه المرة: «أريد أن أتحدث مع محامي».

«بالطبع». نهض بروير لكنه يتوقف عند الباب ويقول: «تعرفين، أنظر إلى فتاة مثلك وفقط لا أفهم الأمر. أنتِ ذكية، جميلة، لديكِ عائلة، أنتِ لديك كل شيء في صالحك، ومع ذلك تفرِّطين فيه».

في هذه اللحظة، أتمنى لو كنت شاعرة، لا لأتحدث عن الجمال بل لأتحدث عن الألم.

كنت لأجد طريقة لأفسر أن ذلك ليس خطئي، أنني لم أفرِّط في مستقبلي بل أُخِذ مني، أخذه الشخص الوحيد الذي اعتقدت أنني يمكنني الوثوق به.

لا أتكلم. لا جدوى من ذلك. لقد قرَّر بروير أنه يعرف من أكون، ولن يغيِّر رأيه، ولن أضيع وقتي في محاولة جعله يغير رأيه.

يرى الناس ما يريدون أن يروه، وأنا سئمت من الأمل في أنهم سوف يرونني.

43
سال

يجيب آبو الهاتف في الرَّنَّة الثالثة، وعندما أسمع كيف يبدو صوته، فإن الكلمات التي تدرَّبت عليها -*هل يمكنك من فضلك أن تأتي لتُخرِج نور من سجن مقاطعة فريارسفيلد*- تغادر رأسي. فحين يتحدث، أسمع آما، ليس وجودها بل غيابها، وطأة الحزن الذي يعتصر قلب آبو، النبرة المضطربة في صوته التي تخبر عن وحدته.

«آبو». ترن في عقلي الأشياء المريعة التي صحت بها في وجهه سابقًا. «كانت آما لتخجل مني بشدة. لقد أخفقت. لقد أخفقت حقًّا».

«أين أنت، بوتر؟» صوته واضح، إنه لم يكن يشرب. يظل صامتًا حين أخبره، ويظل صامتًا حين أنتهي.

قلت: «لا تقلق بشأني، لكن هل يمكنك أرجوك أن تُخرِج نور؟ لا يمكنها الاتصال برياض، فإنه...».

أوقف نفسي قبل أن أقول المزيد، فنور لم تخبر الشرطة بشأن رياض، وعلى الأغلب يستمعون إلى هذه المكالمة.

قلت: «أرجوك، آبو. فلتُخرِج نور ثم يمكننا البحث في أمري».

- سأكون هناك قريبًا، وسنحل هذه المسألة، اتفقنا؟

- اتفقنا، آبو.

علمتني آما أن قول شكرًا لوالديك ليس ضروريًا، يماثل أن تشكر رئتيك على التنفس. وفي المرات التي حاولت فيها، نظرت إلَيَّ كأنني رفضت تناول الباراثا يوم السبت صباحًا.

لكنني آمل أن يسمع الامتنان في صوتي، آمل أنه يعرف.

يقول لي الرجل الواقف ورائي أن أسرع بحق الجحيم، فأغلق السماعة بسرعة، وحين أستدير لأحملق فيه بغضب، يأخذ خطوة إلى الوراء. عبَّرت نور ذات مرَّة عن أسفها لأنني لديَّ وجه قاتل -من دون انفعالات، أبدو كقاتل- لذا لا أبتسم عندما يقودني ضابطان إلى زنزانة الاحتجاز، وليس هذا صعبًا، إذ أشعر بأيديهما على ذراعَي كمنجلة تُرِكَت في النار لفترة طويلة جدًّا.

يقترب طولي من مترين، وأوجه لكمة شرسة، ولديَّ وجه قاتل، لكنني مع ذلك أخاف بشدة عندما أدخل زنزانة الاحتجاز في سجن مقاطعة فريارسفيلد.

فقط لا تغضِب أي شخص، ولا تتسبب لنفسك في أن تُضرَب.

لا يوجد إلا بضعة أشخاص هنا. يتجاهلني بعضهم، لكن رجلًا أبيض ذا رأس محلوق ووشم صليب معقوف ينظر إلَيَّ نظرة متفحصة، فأجبر نفسي على ملاقاة عينيه الغاضبتين وأخاف للحظة طويلة من أنه سيكون آخر قرار متماسك أتخذه لفترة من الوقت.

لكنه ينظر بعيدًا.

أتخيَّل إخبار نور بأن لأوَّل مرَّة في حياتي، كان وجه القاتل مفيدًا. هذا إذا تحدثت معي مرَّة أخرى يومًا ما.

ستفعل ذلك. سيُخرِجها آبو، وستدرك الشرطة أنها لا علاقة لها بغبائي. ستصرخ عليَّ لكنها في النهاية ستسامحني.

أنتقل بسبب نظرة فتى يبدو أصغر مني، يلقي بجسده على سرير متسخ قابل للطي، وشعره البني الفاتح مقصوص قصيرًا، شبه أصلع في بعض الأماكن كأنه قصه بنفسه. من الممكن أنه ينظر إلَي لمليون سبب، لأنه مذعور، لأنه يعتقد أنني جدير بالثقة، لأنه معجب بتي شيرت «لا يحقُّ لك المرور» الذي أرتديه.

في النهاية، يأتي نحوي جارًّا قدميه: «مرحبًا. مرحبًا». عينا الفتى حمراوان، وعن قرب يبدو عليه ذلك المظهر المضطرب المتعرِّق الذي يجتاح المدمنين حين يحتاجون إلى جرعة. «ماذا فعلت؟».

لقد قرأت ما يكفي من كتب إلمور ليونارد لأدرك أنني يجب ألا أقول أي شيء لأي شخص في السجن، لكن الفتى يعتبر صمتي دعوة له ليتكلم.

«لقد طلبت حبيبتي الشرطة لي بسبب الضرب». رفع كمه حيث توجد أربعة شقوق عميقة تبدو كخدوش، وأحدهم بدأ يتكون فوقه قشرة. وأنا فقط أحدق إلى مفاصل أصابعه الحمراء جدًّا.

«تلك العاهرة ضربتني. تعتقد أنني أعبث مع أختها المدمنة على الميثامفيتامين». ينظر إلَيَّ ليُقَيِّم ردي وعندما لا أقول شيئًا، يميل مقتربًا: «انظر... هل معك أي شيء؟ معي نقود».

«ليس مع الفتى مخدِّرات في مؤخرته يا مدمن». يسير نحونا رجل ممتلئ الجسم ذو بشرة أفتح درجة من بشرتي، فيسرع المدمن بعيدًا مثل صرصار في ضوء الشمس.

قال الرجل لي: «تجاهله، لقد كان يسأل الجميع. أتمنى أن يضعوه في زنزانته الخاصة في الحال».

يوجد وشم على ذراع الرجل، سفر الجامعة (Ecclesiastes 1:14).

ثم قال: «أنا سانتياجو. أوَّل مرَّة لك هنا، أليس كذلك؟». وعندما لا أجيب، يضحك: «لديك ذلك المظهر. الأمر على ما يرام يا رجل، فلا أحد في زنزانة الاحتجاز سيفعل بك شيئًا في وجود الشرطيين يراقبون، ولا حتى وايت باور[1] الجالس هناك».

ينظر إلينا حليق الرأس من مجلسه بالقرب من السرير القابل للطيِّ، بعينين مشتعلتين، ويطقطق مفاصله. فيحدق إليه سانتياجو ضجرًا.

- إنه السجن الحقيقي ما تريد تفاديه. هل تحدثت مع الشرطيين بعد؟

هززت رأسي.

فقال سانتياجو: «جيد. لا تتحدث معهم. أتمنى لو كان شخص ما أخبرني بذلك في أول مرَّة أُلقِيت بها هنا. يعني هؤلاء الحمقى ما يقولون حين يخبرونك بأن كل ما تقوله وتفعله سيُستَخدَم ضدك».

هبط نظري إلى ذراعه ثانيةً.

وسألته: «ماذا يعني وشمك؟».

مكتبة
t.me/soramnqraa

(1) يشير له بلقب يعني القوة البيضاء.

فقال سانتياجو: «إنها آية من...».

انفتح باب الزنزانة مصدرًا قعقعة، ونادى أحد الضباط اسمي. في بادئ الأمر، أفكر أن آبو قد وصل، لكن لم تمُر سوى ساعة وسيستغرق ضعف هذه المدَّة في مجرد القيادة إلى هنا من جونيبر. وعلى أي حال، من المفترض أن يُخرِج نور أولًا.

يقيدني الشرطي بالأصفاد ويأخذني إلى غرفة استجواب رائحتها تشبه مكب نفايات مليئًا بظرابين ميتة. وبعد بضع دقائق، دخل رجل ذو بشرة مرشوشة برذاذ سمرة برتقالي وصُدَيرِيٍّ أسود فوق زيٍّ رسمي، ومكتوب على شارة الاسم بروير.

حدَّق إلى ملفي لمدة طويلة، فأتململ.

«صلاح الدين، صلاح الدين، صلاح الدين». ينطقه نطقًا خاطئًا، بالطبع. «اسم لطيف. ماذا يعني؟».

قلت: «يعني 'استقامة الإيمان'».

«امم». يومئ بروير برأسه: «هل أنت متديِّن؟».

- أومن بالله.

ابتسم: «من الجيد أن أرى شابًّا يؤمن بشيء. إذن، سال... هل يمكنني أن أناديك سال؟ أنا الضابط بروير، وأنا هنا فقط للدردشة».

يستفيض لبعض الوقت في الحديث عن سجلي النظيف، ويقول لي إنني إذا أخبرت المدعي العام من هو مُوَرِّدي، سيتساهلون معي.

قلت: «أنا فقط أريد أن تكون صديقتي بخير. هل هي بخير؟».

- هل باعت صديقتك مخدِّرات معك؟

قلت: «لا، إنها... ليست هكذا».

يكشِّر الشرطي عن أسنانه، أو ربما تكون ابتسامة، فهو لديه شارب بني سميك، كما هو الحال في عروض شرطة السبعينيات قديمة الطراز التي يشاهدها آبو حتى ينام.

- إذن المخدِّرات ملكك؟

- إذا قلت لك إن المخدِّرات ملكي، ستترك نور تذهب؟

«لنركِّز عليك للحظات بدلًا من نور». يلاحظني بروير واضعًا ذقنه في يده: «قال الضابط الذي ألقى القبض عليك إن والديك يديران موتيل كلاودز ريست في جونيبر. والدتك ماتت، ووالدك أُلقِي في زنزانة السكارى مرتين، يبدو أنه لم يستطع التعامل مع الأمر».

أهز كتفَي وينقر بروير بقلمه على ملفِّي.

يقول: «كان والدي أيضًا يشرب الخمر بكثرة، واعتاد أن يضربني في أثناء ذلك».

- والدي لا يضربني.

يتنحنح بروير: «ألم يصفعك في أحد المستشفيات قبل شهرين؟».

بالطبع شارك الضابط ماركس ذلك الموقف.

- كان ذلك... انظر، أمي ماتت تلك الليلة...

يقول بروير: «صحيح. إذن دعنا ننظر في الأمر خطوة بخطوة، والدتك تموت، ووالدك لا يتصرَّف كوالد، مما يجعلك تدير كل شيء بمفردك، وأنت مجرَّد فتى يحاول الانتهاء من المدرسة الثانوية. يبدو هذا غير عادل قليلًا».

عند وصف الأمر بتلك الطريقة، يبدو غير عادل فعلًا. لا أستطيع معرفة ما إذا كان مخلصًا، يبدو كأنه كذلك. أتمنى لو أنني شاهدت كل تلك الحلقات من مسلسل قانون ونظام التي كان رياض مهووسًا بها. ليست معرفتي الموسوعية بالحقائق التي تهم المهووسين بالفنتازيا ذات جدوى في الوقت الحالي.

أقول: «لم يرد والداي أن يكون الأمر هكذا».

- بالطبع لا. إذن، أنت تحتاج إلى المال، فتبدأ تجارة المخدِّرات. هذا خطأ عَرَضي يا فتي، وعلى الأغلب لن يُحكَم عليك بالكثير من الوقت في السجن. لكن صديقتك...

«ليست نور تاجرة مخدرات». أمسك بالطاولة بقوة. «إنها تعمل في مستشفى، وستكون طبيبة. إنها تساعد الناس...».

- المستشفى؟ مثير للاهتمام. متأكد أن هناك الكثير من الأدوية التي يسهل الوصول إليها.

- لا، انتظر... ليس ذلك...

- بالنسبة إلى شخص أمضى وقتًا طويلًا هناك، ربما ليس من الصعب أن تسرق قليلًا منها، أليس كذلك؟ هل هدَّدتها؟ هل هدَّدها شخص آخر؟

- لا...

- انظر، لدينا شابة في مدينتك تعاطت جرعة زائدة منذ بضعة أيام، ونجت بالكاد. الأشياء التي تبيعها أنت وصديقتك شريرة، تؤذي العائلات وتدمِّر حياة الأشخاص، وأنت لا تبدو من نوع الفتية الذين يريدون أن يكونوا قتلة، لذا لماذا لا تعكس بعض الضرر الذي قمت به؟ من مُوَرِّدك؟ من أين تحصل أنت ونور على المخدرات التي تبيعانها؟

لست على وشك تسليم آرت. أكرهه في هذه اللحظة، لكنه يحصل على معظم بضائعه من الشبكة المظلمة ولا أعرف من سأغضِب إذا وشيت به.

قلت: «أريد محاميًا».

ولأول مرة، يبدو بروير منزعجًا. ينهض وعندما يفتح الباب، يطل شرطي برأسه.

- يجب أن أصحبه إلى المحكمة من أجل جلسة الإقرار بالذنب.

«أحضر له محاميًا». يلتفت لي بروير ثانيةً ويقول: «أنت تعجبني يا سال، تذكرني بنفسي عندما كنت طفلًا. فكر في والدك حين يأتي الوقت للإدلاء بدفاعك في المحكمة. أي فتاة هي مجرد فتاة، لكن والدك هو دمك، حتى إذا كان يشرب الخمر. إذا انتهى بك الأمر في السجن بعد وفاة والدتك مباشرةً، سيؤثِّر ذلك عليه تأثيرًا أسوأ من أي شيء. لن أكون متفاجئًا إذا شرب والدك حتى الموت قبل أن تخرج من السجن».

***

تبدو قاعة المحكمة التي تُعقَد فيها جلسة الإقرار بالذنب، وتبدو رائحتها، كصندوق تعيش به العثة، جدرانها قريبة جدًّا لدرجة أنني أستطيع سماع صوت تنفس حاجب المحكمة، وضوء الفلورسنت فوقنا يجعل الجميع يبدو كأنهم مجاميع في مسلسل «الموتى السائرون».

الكرسي الذي أُقاد إليه متهالك ومعدني، يذكرني بالمقاعد التي كانت آما تسحبها من المرأب عندما تكون لدينا رفقة.

حذَّرني المحامي: «حاول أن تبدو غير مؤذٍ يا صلاح الدين». إنه رجل وسيم بصورة مبالغ فيها يُدعَى مارتن تشان، ويلائم مظهره هذه القاعة كما يلائم مظهر مُلَّا شاطئًا للعراة. «سنبقى هنا لبعض الوقت».

«حسنًا». أشعر بأنني مجبر على الهمس، قلق من أنني إذا رفعت صوتي سينهار السقف.

تنجز القاضية، ذات الشعر الرمادي والفم الصارم، العمل بسرعة مع معظم الأشخاص الذين يسبقونني. وأستمع إلى المحادثات الهادئة بين المحاميين وعملائهم مذهولًا لإدراك أن بعض المجرمين جاؤوا إلى هنا مرات عديدة لدرجة أنهم يعرفون أي القضاة موجودون في أي من القاعات، وأي موظفي المحكمة أوغاد.

أخيرًا، يُنادَى اسمي وتسرد القاضية قائمة بالاتهامات: «حيازة هيروين بغرض البيع».

إنها تتحدث عني، لا عن تاجر مخدرات ما في التليفزيون.

«نقل هيروين بغرض البيع. حيازة أوكسيكونتين بغرض البيع».

ليس شخصًا غريبًا في تقرير إخباري، أو شخصية في كتاب.

«نقل أوكسيكونتين بغرض البيع. حيازة فينتانيل بغرض البيع».

تتحدث عني.

أنا المجرم هنا، الجاني، الشخص السيئ. لم أر هذه الحقيقة عندما أُلقِي القبض عليَّ، ولا في غرفة الاستجواب مع الضابط بروير.

الآن تخترق عقلي، مع كل اتهام تلقيه القاضية بذلك الصوت الروتيني الخالي من التعبير.

تعود كلمات بروير إلى رأسي: *لن أكون متفاجئًا إذا شرب والدك حتى الموت قبل أن تخرج من السجن.*

كان يخدعني حين وصف ما فعلته بأنه «خطأ عَرَضي»، فهذه التهم – وهناك الكثير جدًّا منها– تهم خطيرة، إنها جنايات. وإذا أُدِنت بها، سينتهي بي المطاف في السجن. ستسوء أحوال آبو، ربما لا يبيع الموتيل، بل ربما يأخذه البنك منه، وينتهي به الأمر مشرَّدًا، أو ميتًا.

يبدأ مارتن دفاعه عني بإنكار الذنب ثم يقدم الحجج من أجل إطلاق سراحي بكفالة. يتحدث عن آبو والموتيل، عن انتظامي في الدراسة وتقديراتي في اللغة الإنجليزية والتاريخ.

أشعر بالإحراج لسماعه، الطريقة التي ينبش بها في حواف حياتي من أجل العثور على شيء جيد يقوله. وفي النهاية، تومئ القاضية برأسها: «تحدَّدت الكفالة بمبلغ خمسة وعشرين ألف دولار».

أهُس بعدما يشكر القاضية: «مارتن، من المستحيل أن يأتي أبي بهذا القدر من المال».

- يحتاج إلى أن يأتي بعشرة في المائة منه فحسب، وهو بالفعل على اتصال بضامن. يجب أن تخرج من هنا في غضون ساعات قليلة.

أسأل مارتن: «ماذا عن نور؟ هل سمعت...».

تنهد مارتن وتحدث بهدوء: «صلاح الدين، يبدو أنك فتى صالح، حقًّا، لكنك في مياه عميقة وإذا كنت تريد ألا تغرق، فيجب أن تبدأ التفكير في نفسك، وفي كيف سنهزم هذه الاتهامات». قلت: «أفهم ذلك، لكنني فقط أشعر بالقلق بشأن...».

- صديقتك، أعرف هذا، لكنك قد تُطرَد من المدرسة، ومن الممكن أن تمضي نحو ثماني سنوات في السجن.

ثماني سنوات. *ثماني سنوات؟*

قال مارتن: «لذا ابتعد عن المشكلات، وابق نظيفًا، وابق بعيدًا عن نور رياض، من أجل صالحك، وصالحها».

44
نور

الساعات القليلة التالية كانت بائسة، وتعليمية. تعلمت كيف يمكن للأطباء بالسجن تقييم حالتك من دون تبادل كلمة معك، وتعلمت كم أن كراسي المحكمة غير مريحة، وكيف يمكن لقاضي أن يناقش مستقبلك بالكامل من دون أن ينظر إلى عينيك لمرَّة واحدة، وكم تصبح قاعة المحكمة حارَّة عندما تكون الشخص الذي يتحدث القاضي عنه، وتعلمت أن «إطلاق السراح بالضمان الشخصي» يعني أنني لست مضطرَّة إلى وضع أصفاد أو وجود شرطي يتبعني.

«لكِ حرية الذهاب». المحامية المعينة هي امرأة صغيرة الحجم وأنيقة ذات نظارة سميكة وشعر بني مموَّج وَخَطَهُ الشيب. «جلستك السابقة للمحاكمة...».

قاطعها صوت لطيف: «سيدة برادلي، أليس كذلك؟ سأتولى الأمر من هنا. السلام عليكم يا نور».

ترتدي خديجة بذلة، وحجابها حالك السواد. بالنسبة إلى أي شخص آخر، ستبدو محامية مزعجة قليلًا.

أما بالنسبة لي، فهي تمثل كل بطلة أسطورية تغنى بها الكاذب يومًا، مس مارفل، أوكوي، الأميرة ليا.

- ماذا... ماذا تفعلين...

تلوح خديجة لتصرف محامية الدفاع العام –التي تبدو مرتاحة– وتقودني بسرعة نحو باب الخروج من المحكمة.

قالت: «لقد اتصل توفيق. إنه يحاول إخراج صلاح الدين، لكنه لم يُرِد أن يأتي عمك». تفلت من خديجة نظرة إلى وجهي قبل أن تنظر بعيدًا. «سأتولى الدفاع عنكِ الآن، وسنجد حلًّا لهذا الأمر، لكن...».

تقف قبل الباب مباشرةً. وأسمع صوتًا كهبوب الرياح تصدره حركة الناس، مجموعات لا تنتهي من البشر يدخلون ويخرجون.

«نور». تمد يدها نحوي وتلمس الكدمة التي على وجهي: «يجب أن تخبريني بكل شيء».

أريد أن نظل هادئتين في طريق العودة إلى جونيبر، لكن خديجة لديها عشرة أسئلة. وبعد ذلك، لديها عشرة آخرون. إنها رفيقة، وأيضًا مثابرة، فلا تدعني أنجرف بعيدًا.

ربما هي محقة في ألا تتركني أنجرف بعيدًا.

حل الظلام وهي تقود، توقفت عند مطعم إن-أند-أوت وطلبت لي شطيرة بيرجر ومخفوق الشوكولاتة. لم أتناول الطعام منذ أمس، ومع ذلك أكلت نصفه بالكاد.

ولأنني أخبرتها بشأن رياض.

«ستقيمين معنا». إنه ليس طلبًا. «لدينا غرفة إضافية. لقد قال توفيق إنه يمكنك الإقامة معه هو وصلاح الدين، لكن...».

«لا أريد...» يدا الكاذب بين يدَي، وجهه الجميل، خيانته. «لا أريد أن أتحدث عنه أرجوكِ».

قالت: «هل ستكونين بخير عند رؤيته في المدرسة؟».

لقد نسيت أن في مكان ما في جونيبر، يفكر زملائي بشأن الواجب المنزلي وحفل التخرج واختبارات الفصول الدراسية المتقدمة، وتنتقي جيمي جينسن الملابس التي سترتديها في أول يوم لها في برنستون.

قلت: «لا يمكنني الإقامة معكما، فالسجن لم يُعِد حقيبتي... ليس معي ملابس...».

- لقد تحدثت مع بروك سلفًا لتحضر لكِ بعض الأشياء. وأنتِ ستعودين إلى المدرسة، وستجرين اختبارات الفصول الدراسية المتقدمة، وتتخرجين. لديكِ مستقبل يا نور، ولن أسمح للمحكمة بأن تأخذه منكِ.

قلت: «لماذا تساعدينني؟ لا يمكنني أن أدفع لكِ يا أخت خديجة».

«لا تهينيني يا نور». يبدو على خديجة الغضب لأول مرَّة منذ قابلتني في المحكمة. «أتعتقدين أنني أفعل هذا لتدفعي لي؟» هزت رأسها: «هل تعرفين ما هي الصدقة يا نور؟».

«الأفعال الطيبة؟» علمتني آنتي مصباح ذلك.

- نعم، وذلك جزء من العطاء الذي يُعَد أمرًا ضروريًّا لدى المسلمين. لا يهم أننا لا تجمعنا صلة دم، أو أنني سوداء وأنتِ باكستانية، أنا أفعل هذا لأن ديني قوي. بالإضافة إلى ذلك، أنتِ ستسددين لي يا نور، عن طريق مساعدة شخص آخر بالمثل يومًا ما عندما تصبحين طبيبة.

تشبه بكلامها آنتي مصباح للغاية، فتغرورق عيناي. وأنظر من النافذة إلى النجوم التي تلمع هنا في وسط كل تلك العتمة، ثم أضغط بجبيني على الزجاج البارد.

- هل يعرف تشاتشو؟ بشأن ما حدث؟

- ليس بعد، نعتقد أنه لا يعرف.

يا لها من نعمة. «لقد فقدت وظيفتي في المستشفى على ما أعتقد».

قالت خديجة: «في الوقت الحالي، لكنني قد أحتاج إلى رئيسك أو زميلك في العمل ليكون شاهد سلوك، أو على الأقل لاستبعاد فكرة أنك ربما سرقتِ الحبوب من المستشفى».

علاقتي ودية بالعديد من الممرضات في المستشفى، وحتى قد كتبت لي أولوتشي خطاب توصية.

- أيمكنني... أيمكنني أن أذهب إلى هناك؟ أشرح لهم ما حدث؟

قالت خديجة برفق: «من الأفضل ألا تفعلي هذا. أنا سأتحدث مع رئيسك».

تقود خديجة ببطء قبل دخول شارعها، وتجول بعينيها في الظلام متفحصة السيارات الواقفة بجانب الرصيف.

فأدرك أنها تبحث عن المشكلات، عن تشاتشو.

المصابيح مضاءة في منزلها، وعندما ندخل، يرفع الإمام شفيق نظره إلينا من الأريكة ويوقف حلقة Crown of Fates، مسلسل اعتاد الكاذب أن يشاهده خلسة لكيلا تصرخ عليه آنتي مصباح بسبب كل أجزاء الجسد المكشوفة.

- أليس ذلك غير محتشم قليلًا بالنسبة إلى إمام؟

«أُسَرِع متجاوزًا المقاطع السيئة». يهز كتفيه، وتقبله خديجة ثم تصفعه على ذراعه.

قالت: «أتعرفين أنه جعلني أفَوِّت تصفيات دوري كرة السلة للمحترفين NBA من أجل هذه التفاهة. التصفيات يا نور. كنت أشعر بالحرج الشديد وإخوتي يرسلون لي النتيجة على الهاتف؛ إنها المباراة الحاسمة في الوقت الإضافي وهذا الأبله يخفي الريموت لأن الملك -أيًّا كان اسمه- يشعر بالذعر بشأن من هو والده».

«آه، بحقك». يتهرب شفيق بوضوح من ملاقاة نظرتها المستاءة. «كان هذا اكتشافًا مهمًّا».

تُسقِط خديجة حقيبتها وتدير عينَيها: «أحمق». لكنها تقولها بحب، وعندما يقترب منها ليقبلها، تسمح له. فأنظر بعيدًا.

«أنتِ لم تأكلي». تهز خديجة الكيس الهش من إن-أند-أوت: «ليُحَضِر شفيق لكِ شيئًا حتى أجد لكِ ملابس». ثم تختفي في الممر وهي تحل الحجاب في أثناء سيرها.

قال شفيق: «إنها تحب Crown of Fates، لكنها فقط تتظاهر بعكس ذلك لأن إخوتها يسخرون منها».

أتبعه إلى المطبخ حيث يُعِدُّ لي طبقًا من كادو جوشت «kadu gosht» الذي يتكوَّن من لحم الضأن واليقطين الصغير. ويشعرني الهدوء بالارتياح.

قلت: «آسفة لهذا، لقدومي إلى منزلك...».

قال: «أنا آسفِ لأننا لم نر قبل ذلك، كان يجب أن نرى، كان يجب أن أرى».

وضع الطبق أمامي ثم أحضر واحدًا لنفسه: «فقط لكي يرافقك أحد وأنت تأكلين، بالطبع».

رائحة الكادو رائعة، بروعة الذي تُعِده آنتي مصباح نفسها. لقد اعتقدت أنني لست جائعة لكنني قضيت على الطبق.

قلت: «اعتادت آنتي مصباح أن تقول إن الله لا يعطينا إلا ما نستطيع تحمله، أتظن أن هذا حقيقي؟».

فكر شفيق بعمق، ثم قال: «كانت امرأة حكيمة. لقد تحدثت معي عنكِ، كانت تحبك، كانت تحبك حقًّا، أعتقد أنها لو رأتك الآن، ستكون في السجن بتهمة الاعتداء على عمك. لكنني...» يقضم قطعة من الطعام ويتأمَّل ثانيةً قليلًا: «لا أوافق على أننا نحصل فقط على ما نستطيع تحمله. فكري في عمك توفيق، إنه لا يستطيع تحمل ما حدث، ومن ثم يتجه إلى شرب الخمر. فكري في اللاجئين القادمين من سوريا، الأشخاص الذين يفقدون كل شيء في الفيضانات في باكستان كل بضع سنوات، فكري في الناجين من الحروب الذين يموتون وهم يحاولون عبور البحر. كلهم يتعرضون لأكثر مما يُحتَمل».

قلت: «لماذا يفعل الله هذا؟ لماذا يجب أن نصلي؟ لماذا نؤمن على الإطلاق؟».

- لأن ما يقدمه الدين -العديد من الأديان في الحقيقة- هو التعزية عندما يكون كل شيء أكثر مما يُحتَمل، سببًا للألم، يدًا في الظلام إذا حاولنا الوصول إليها.

قلت: «وماذا لو كانت غير حقيقية؟ اليد؟ ماذا لو حاولت الوصول إليها فتختفي؟».

قال شفيق: «لن أخبرك ما هو الحقيقي وما هو غير الحقيقي، لكنني أومن أن هذه اليد هي ما نحتاج إلى أن تكونه، لا ما نريدها أن تكونه».

ليس لهذا أي معنى. أشعر بثِقَل اليوم، ثِقَل أمس، أكثر مما يُحتَمَل. أريد حياة مختلفة، حياة بها ما يقلقني هو أشياء من قبيل مادة الرياضيات والألعاب الرياضية في المدرسة الثانوية، حياة بها الجامعة مجرد محطة في الرحلة لا طوق نجاة.

لكن تلك الحياة لن تنتمي إلَيَّ أبدًا، بدلًا منها أحصل على جيمي جينسن، ومرارة تشاتشو، ومرض آنتي مصباح. أحصل على الزلزال والأجساد المتعفنة. أحصل على الفرحة لبضع ساعات ثم إلقاء القبض عليَّ وتهمة بيع مخدرات.

أحصل على أعز صديق يخونني خيانة مريعة لدرجة أن حياتي قد لا تتعافى أبدًا.

أحصل على العقل الغبي الذي ما زال يفكر فيه، الذي ما زال يريده، الذي ما زال متيَّمًا بحبه، حتى مع أنني أعرف أنه لا يستحق هذا.

45
مصباح

سبتمبر، حينئذٍ

عندما أحضر شوكت رياض نور إلى الموتيل لأوَّل مرَّة، بدت مرعوبة.

«شكرًا على استضافتها يا مصباح». لقد أثار حفيظتي أنني أكبر منه ومع ذلك لم يشر إلَيَّ بلقب باجي.

كنت قد التقيته قبل ذلك ببضعة أسابيع عندما جاء ليقدم نفسه بصفته مالك متجر الكحوليات في شارع جونيبر الرئيسي، وعندما ألقيت عليه التحية قائلة «السلام عليكم»، تراجع كأنني ألقيت عليه عناكب.

- لست مسلمًا.

نطقها «موزليم» كما يقولها الأشخاص الذين يظهرون في الأخبار. هززت كتفَي لأنني لم أبال بأي حال، فهناك الكثير من الباكستانيين ليسوا مسلمين، مسيحيون أو ملحدون أو سيخ أو هندوس، ما زالوا يقولون سلام، وما زالوا يتحلون بالاحترام.

قال لي رياض في ذلك اليوم الأول: «الإيمان الحقيقي الوحيد هو الإيمان بالرياضيات. يجب أن نناقش غطاء رأسك يومًا ما يا مصباح، ولماذا تشعرين بالحاجة إلى ارتدائه».

لكنه حاليًّا، بات يعرف جيدًا أنه من الأفضل له ألا يذكر حجابي.

قال رياض من فوق كتفه متجاهلًا ابنة أخيه تمامًا: «أرجوكِ لا تتحدثي معها بالأردية أو البنجابية، ولا طعام باكستاني... أنا أفضِّل الأطباق الأمريكية وأريدها أن تعتادها».

تمتمت: «بالطبع»، وعندما اختفت سيارته في نهاية الطريق، التفت إلى الطفلة.

وقلت لها: «Asalaam-o-alaikum, Thinu pookh lagi heh?». **السلام عليكم، هل أنتِ جائعة؟**

نظرت إلَيَّ بدورها بعينيها الواسعتين، ثم إلى الطريق، إلى حيث اختفى عمها.

«Hanh-jee, Auntie». **نعم آنتي**. بالكاد سمعت همستها.

لذا ابتسمت وجذبت إحدى ضفيرتيها: «Hai, tou bholdhi kidda sona-inh». **كم تتكلمين برقة.**

أخذتها إلى المطبخ، وأجلستها، ثم أعددت لها باراثا، فشم صلاح الدين رائحة طهوها وجاء مسرعًا من غرفته.

قال: «مرحبًا، نور»، إلى أن صوبت إليه نظرة فطأطأ رأسه وقال بسرعة: «سلام».

«وعليكم السلام. امم... مرحبًا». كانت مترددة مع أنهما كانا معًا في المدرسة منذ بضعة أسابيع.

- أتريدين اللعب بقطع المكعَّبات؟

تحدث بالبنجابية لأنه أدرك أنها لم تستطع فهم الإنجليزية، ثم ركضا بعيدًا. لم يتصرف صلاح الدين معها مثلما كان يتصرف مع الأطفال الآخرين، بحذر وهدوء للغاية. فمع نور، كان صلاح الدين متحمِّسًا ومبتهجًا.

راقبتهما من خلال باب غرفته. بنيا برجًا معًا، وحين سقط جزء منه منهارًا، قفزت نور وطوت نفسها ككرة، ركبتاها في صدرها ورأسها منخفض بينهما.

قال صلاح الدين: «أنا آسف».

عندما كنت أعيش في لاهور، كان فناء منزل والدَي تتردد فيه أصوات البهجة من أبناء أخواتهم وبناتهم، أبناء أعمامي وأخوالي العديدين، ولأنني كنت الفتاة الكبرى، كنت أعتني بهم. الأطفال مثل القطط في أثناء اللعب،

يلمسون أيدي بعضهم بعضًا ويتصارعون، يضحكون ويجلسون كتفًا بكتف ويتشاركون التراب والهواء، ويتجاذبون اللعبة نفسها.

لكن صلاح الدين ونور كانا يلعبان بحذر. عندما أخفت وجهها، عَدَل القطع بهدوء حتى انحسر توترها. وعندما جفل للمستها، حرصت على أن تجلس في الناحية الأخرى منه.

هؤلاء الاثنان لم يكونا كالقطط، بل كانا عصفورين صغيرين حذرين يغردان بلغة لا يعرفها غيرهما، لغة الألم والذكرى.

لكنهما كانا يتحدثان مع ذلك، يتحدثان في حين اعتقدت أن صلاح الدين ربما يظل صامتًا دائمًا.

نظرت إلى الفتاة وإلى الطريقة التي سقطت بها قُصَّتها فوق عينيها، واستمعت إلى ضحكتها، الجزء الوحيد بها الذي لم يكن حذرًا، فتذكرت العرافة التي أخبرتني أنني سيكون لديَّ ثلاثة أطفال.

« *فتى وفتاة، والثالث ليس هو ولا هي ولا من الجنس الثالث*».

الفتى هو صلاح الدين، والثالث هو الموتيل.

وكانت هذه هي الفتاة، آخر أطفالي.

46
سال

مايو، الآن

فريارسفيلد، كاليفورنيا

يصل آبو إلى فريارسفيلد بعد استعارة سيارة الإمام شفيق.

يدفع الكفالة لإطلاق سراحي.

يخبرني أن نور بأمان وأنها مع شفيق وخديجة.

يقودني نحو السيارة.

ثم يعطيني المفاتيح ويتجه إلى مقعد الراكب، وقبل حتى أن أغلق بابي، يسحب آبو زجاجته ويتناول رشفة طويلة.

حسنًا، ألسنا شخصين ناجحين.

إنه لأمر جنوني مدى السرعة التي يمكنك أن تعتاد بها الأشياء التي تريدها. لم يتوقف آبو عن شرب الخمر غير يومٍ واحدٍ ومع أنني كنت أعرف أن ذلك لن يدوم، ومع أنه فشل في التوقف عن الشرب وعاد إليه مرارًا وتكرارًا، فإنني بأعماقي فكرت: *هذه المرَّة سينجح، إنه أفضل حالًا*.

والآن عندما أراه يشرب مجدَّدًا، أشعر بالخذلان، سكينًا يخترق جسدي ببطء بينما يقبِّلني حامله على جبيني. إنه ليس مجرَّد وعد لم يُوَفَّ به، بل خيانة.

- من أين... امم... من أين حصلت على المال للكفالة، آبو؟

لا يجيب، ونقود باقي الطريق في صمت.

***

نحو منتصف الليل في اليوم التالي، استيقظت على صراخ جرس الموتيل، وتتحوَّل الطرقات على الباب سريعًا إلى خبطات بكامل القبضة. شخص ما غاضب بشدة.

باب غرفتي مفتوح وأرى آبو يجر رجليه إلى المكتب، فأسحب الغطاء فوق رأسي. لقد أمضيت يوم أمس بأكمله في تنظيف الغرف، محاولًا ألا أرسل رسالة إلى نور، وأنتظر لأرى ما إذا كان إرنست قد نجح في طردي من المدرسة.

لذا أيًّا كان ما يحدث الآن –مناشف غير كافية، مناديل ورقية غير كافية، لا توجد مياه ساخنة، الواي فاي مُعَطَّل– لا أريد معرفته. لكن عندئذٍ، أسمع...

- ... في منزل ذلك المُلَّا الملعون؟

وفي لحظة، أقف على قدمَيَّ. إن ذلك صوت رياض.

يُغْلَق الباب بقوَّة، لكن قبل أن أستطيع الخروج، يقف آبو أمامي ويده تحوم فوق صدري، ترتجف، إنه واعٍ مجدَّدًا.

- فقط اترك الأمر، بوتر.

- هل أخبرته بمكانها؟

يبدو على آبو الشعور بالإهانة. «بالطبع لا».

قلت: «نحتاج إلى الاتصال بشفيق وخديجة، لنخبرهما بأنه يبحث عنها».

قال: «سأتصل بهما، انظر...» يجد هاتفه ويتصل بالرقم وأنا أسير ذهابًا وإيابًا أمامه، وبعد ثوانٍ يترك رسالة.

- ماذا لو لم يسمعاها؟ ماذا لو كانا نائمين وفعل شيئًا؟

- صلاح الدين، إنه لا يريد الذهاب إلى السجن. لقد ذهبت الشرطة بالفعل إلى متجره ليسألوه عن المخدرات، وفتشوه لأن نور كانت تعمل هناك، فوجدوا لديه بعض مسكنات الألم والآن يشعر بالقلق من أنهم

سيقولون إنه كان يبيع مخدرات أيضًا. اذهب إلى السرير الآن، اتفقنا؟ اذهب، بوتر.

أذهب، لكن ليس إلى السرير. لا يمكنني أن أسمح لرياض بتعقب نور، يجب أن أفعل شيئًا.

أرتدي سترتي وحذائي بهدوء، وأنتظر حتى ينغلق باب غرفة آبو. لم تُعِد الشرطة سيارتنا إلينا، ولا مشكلة في هذا، فبالنظر إلى حظِّي، ستكون هذه ليلة هادئة أخرى لدى شرطة جونيبر.

منزل شفيق وخديجة على بعد اثنين كيلومتر أو نحو ذلك. أفكر مع كل هزَّة لقدمي وهي تصطدم بالرصيف: *أسرع. لا تسمح له بأن يؤذيها. لقد تعرضت لما يكفي من الأذى.* وبحلول وقت وصولي إلى نهاية شارعهما، كان نفسي منقطعًا لدرجة أنني قد يُغمى علَيَّ، ورياض واقفًا أمام الباب بالفعل.

تقف خديجة إلى جانب شفيق في الشرفة، وتقف نور خلفهما عاقدة ذراعيها أمام صدرها، وتبدو كأنها تستمع وعمها يتحدث إليها بكل المنطق والهدوء الموجودين في العالم.

لكن وجهها جامد، وذراعاها تلتفان بإحكام أشد حول جسدها. عندما كنا أطفالًا كانت تصبح هكذا أحيانًا، إذا كان الفصل صاخبًا جدًّا، إذا كان أحد الأطفال في الملعب خشنًا جدًّا، كان وجهها يتغيَّر وتختبئ داخل عقلها حيث تشعر بالأمان.

«أنتَ». أتحرك في تجاه المنزل، ويتصارع بداخلي عمر كامل من مناشدة آما لي بأن أحترم من هم أكبر مني ضد احتياج مسعور إلى إبعاد رياض عن نور. «اتركها وشأنها...».

«آه، ها هو ذا». يبدو رياض هادئًا، لكنني أرى غضبه كامنًا، كذئب في الظلال وراء عينيه. «المجرم الصغير. ألم تكتفِ من إفساد حياة ابنة أخي؟».

«نعم، لقد أخفقت». سيكون من المرضي بشدة أن أصرخ عليه وألكمه ليطير مثل كرة قدم رُكِلَت إلى خارج الملعب، لكن هذا سيجعل كل شيء أسوأ بالنسبة إلى نور. «لكنك ضربتها، ولن تضربها مرَّة أخرى أبدًا ما دمت حيًّا وأتنفس...».

- لم يضرب أحد نور. نور سقطت...

«أنت ضربتها». تهبط نظرتي إلى يدَي رياض: «وإلا كيف تفسر ما تبدو عليه تلك المفاصل؟».

فيكوِّر يديه المحمرتين إلى قبضتين ويلتفت بعيدًا عني.

ثم قال: «نور، تعالي إلى المنزل، لا داعي للمسرحيات، فهذا ليس واحدًا من مسلسلاتك الصغيرة. وأنا وبروك سنحل أمر إلقاء القبض عليكِ».

قلت: «أنت لن تفعل أي شيء». يشتعل وجهي بالغضب، وإذا رآني أحد الجيران واتصل بالشرطة، سأكون في ورطة، لكنني لا أبالي. «أنت ستغادر الآن».

وضع شفيق يده على كتفي: «صلاح الدين، تراجع يا رجل. ابتعد. إن الأمر لا يستحق».

قلت: «بل يستحق. لماذا فتحت بابك له؟ ألا تستطيع أن ترى ما من المؤكد أنها تشعر به إزاء هذا؟».

لكن ربما لا يستطيعون، فحتى أنا لا أستوعب. تعيش نور في ذلك الكابوس كل يوم، لا تستطيع الاستيقاظ منه، ولا تستطيع الهروب.

«كوني منطقية». يتحرك رياض نحو نور: «يمكننا أن نعالج هذه المشكلة. فما هي الخيارات التي لديكِ؟ لن تذهبي إلى جامعة فرجينيا أو جامعة كاليفورنيا (لوس أنجلوس) أو أي...».

إنه مثل الكوبرا التي تمدد رأسها محاولةً سد مجال رؤية فريستها. أخطو لأقف أمامه، وترفع خديجة هاتفها: «لا أريد أن أتصل بالشرطة. كلاكما تحتاجان إلى الرحيل».

«ليس قبل أن يرحل». أحملق في رياض بغضب.

«فقط اذهبا». أنزلت نور ذراعيها، يداها مغلقتان في قبضتين، وتنقل عينيها بيني أنا ورياض: «كلاكما».

- أنا لا أريد أن أراك مرَّة أخرى أبدًا، تشاتشو...

- نور، لقد ربيتك، لقد أنقذتك، أنا السبب الوحيد لوقوفك...

قالت: «أعرف، تشاتشو. وأنا دفعت الثمن، لقد دفعت. ارحل».

ظل واقفًا لدقيقة أخرى، يبحث جاهدًا عن أي طريقة لفرض سيطرته على نور، ثم هز كتفيه.

وقال: «لا تأتي لتطلبي أشياءك. أنتِ تكسبين معيشتك بنفسك الآن، فلتري كم هذا سهلًا».

عندما أغلق باب سيارته بعنف وقادها مبتعدًا، أسمع خطوة خفيفة خلفي، فأستدير لأواجه نور.

قلت: «نور، هل يمكنني التحدث معك؟ فقط لدقيقة واحدة...».

آسف. هذا ما كنت سأقوله، لكن وجهها مغلق، وعينيها تلتهبان بغضب.

«أنت أسوأ منه». أشعر بهمستها كأنها صياح. «لقد عرفت ما هو عليه، لكن أنت...».

تصدع قلبي، كأن قوى داخلية تطحن أملي ليصبح عدمًا، إذ أدرك عندئذٍ أنها لن تسامحني، مطلقًا.

أستطيع إصلاح هذا، لا بد أن أصلحه. «نور... أنا غبي ولم أقصد أن يكون الأمر هكذا. أنا... أنا متفهم إذا كنت لا تستطيعين مسامحتي، لكن أيمكن... أيمكنني أن أكلمك؟ أو مراسلتك...».

- يمكنك أن تذهب إلى الجحيم.

تلتقي عيناها عينَي لثانية وأجفل متراجعًا. فوراء غضبها، هناك شيء أسوأ. الألم.

والخيانة.

47
نور

أول أغنية وقعت في حبها في أمريكا تُدعَى «رصاصة بأجنحة فراشة» (Bullet with Butterfly Wings) لفرقة ذا سماشينج بامبكنز. كنت قد استمعت إلى الكثير من الموسيقى حينذاك، لكن هذه الأغنية تحدثت إلى روحي من أول نغمة جيتار إلى النغمة الأخيرة. كان بيلي كورجان غاضبًا بشدَّة، محبطًا بشدَّة، ولم يكن لاهتياجه مكان يذهب إليه، كان عالقًا معه.

مثلي تمامًا.

كانت تلك الأغنية تساعدني حين أغضب، كانت تساعدني على أن أهدأ، أتمنى لو أستطيع سماعها الآن.

لكن الشرطة أخذت هاتفي وحاسوبي ولم تعد معي موسيقاي. كما لا أذهب إلى المدرسة، مما يعني أنني لا أستطيع الاستماع إليها على حواسيب المكتبة. ومن ثم في الأيام التالية لإلقاء القبض علَيَّ، لا يهدأ غضبي، ولست متأكدة من أنني أريده أن يهدأ.

بعد بضعة أيام من إقامتي في منزل الإمام شفيق، في يوم أربعاء، أتاني زائر غير متوَقَّع، إنها أشلي ماكان.

تحمل كومة من الورق في يديها: «طلب سال مني أن... اللعنة».

فتحت الباب دون تفكير، وبعد فوات الأوان أتذكر الكدمات التي على وجهي، لقد بهتت لكن ليس بما فيه الكفاية.

امتقع وجه أشلي: «عمك؟».

أحاول أن أقول نعم، لكن فمي يرفض نطق الكلمة.

قلت أخيرًا: «أنتِ الوحيدة التي لم تظن أنه صلاح الدين».

تصعد أشلي دَرَج الشرفة. لقد بدت لي دائمًا طويلة، لكنها الآن مختلفة، فعلى الرغم من المكياج المثالي والأظفار الفضية اللامعة، تبدو أصغر، ذابلة.

«لا يمكن أن يفعل سال ذلك». تسلمني الأوراق: «لقد جمع واجباتك المنزلية، وطلب مني أن أحضرها إليكِ. أتمنى ألا يكون في هذا مشكلة».

لا أريد أن آخذ الورق، لا أريد أن ألمس شيئًا لمسه.

«لقد سمعت عن إلقاء القبض عليكما». تُنزِل أشلي ذراعها عندما لا أمسك بالواجب. «تعمل عمتي في قسم الشرطة. أتخططين للعودة إلى المدرسة؟».

تبدو المدرسة جذابة بقدر سجن المقاطعة. ترى خديجة أنني يجب أن أعود، لكن مجرد التفكير بشأن ذلك يجعلني أشعر بالألم في معدتي.

- لا أعرف. ربما.

نقف معًا من دون أن نتحدث. أنا لا أعرف أشلي على الإطلاق، لذا من المفترض أن يكون هذا غريبًا، لكنه ليس كذلك. أتساءل ما إذا كانت تفكر فيما أفكر فيه، أنه من المؤسف أنني لم أعرفها من قبل، أن صداقتها كانت لتسعدني.

قلت: «أنا... خائفة من العودة، خائفة من أن يعرف الناس ما حدث و... لا أعرف، يقولون أشياء».

«نعم، سيتكلمون». تخرِج أشلي سيجارة وتشعلها. «لكنهم لا يعرفون ما حدث، وحتى إذا عرفوا، أنتِ لست مضطرة إلى تأكيد حدوثه». تسحب نفسًا طويلًا من السيجارة، وتنظر إلي نظرة تقييم: «لقد تعاطيت جرعة زائدة في اليوم السابق لإلقاء القبض عليكِ».

أسمع إيقاعات السينث[1] من أغنية «لا تخذلني مجدَّدًا» (Never Let Me Down Again) لفرقة ديبيتش مود تنفجر في رأسي. بعد ما يقرب من عقد من صدور تلك الأغنية، نجا ديف جاهان بالكاد من تعاطي جرعة زائدة.

---

(1) Synthesizer هو آلة موسيقية إلكترونية تستخدم لإنتاج الصوت بطريقة اصطناعية، ويُطلَق عليه آلة المزج.

قالت أشلي: «قال الطبيب إنني لم أتعاف إلا لأن المسعفين حقنوني بالناركون بسرعة جدًّا. كنت مستعدة تمامًا للتغيب عن المدرسة لبضعة أيام، لكن أمي أخبرتني أنني سأعود الاثنين صباحًا، قالت إنني إذا لم أتخرَّج، فما الذي سأعلمه لكايا؟».

- هل ذهبتِ؟

«نعم، وأنا سعيدة لأنني عدت. ابنتي... إنها في الثانية من عمرها، أتعرفين؟ تعتني بها أمي، وتصر أن تستيقظ في الموعد نفسه كل يوم، وتأكل في الموعد نفسه، وتأخذ قيلولة في الموعد نفسه. في البداية، فكرت أن أمي مستبدة». تبتسم أشلي: «لكن الروتين يساعدني أيضًا، وبخاصَّة عندما تهاجمني أعراض الانسحاب». تدفع الواجب نحوي ثانيةً، وهذه المرة آخذه.

قالت: «عودي إلى المدرسة، ستكون مصدر إلهاء. وإذا كنت تشعرين بالقلق بشأن الكدمات، سأعلمك كيف تخفينها تمامًا».

- دائمًا تضعين مكياجًا جميلًا.

«إنه درع». تهز أشلي كتفيها وهي تسير مبتعدة: «يجعلني أشعر أن العالم وكل ما به من هراء أكثر بعدًا».

***

بعد بضعة أيام، في صباح يوم بعطلة نهاية الأسبوع، تحضر بروك ملابسي ولا تتوقف للحديث. تفتح خديجة الباب فتجد الحقيبة الزرقاء الرديئة التي اشتراها تشاتشو مقابل اثنين دولار من سوق جونيبر للأغراض المستعملة وصندوق بيرة ممتلئًا بأشياء عشوائية من غرفتي.

يتضح مما يوجد بداخلهما -كتاب علوم بالصف الحادي عشر، وسوار لم أرتده قط، وحذاء بكعب منخفض لا يلائم قدمي- أن بروك كانت مستعجلة، وأنها تعرفني تقريبًا بقدر ما تعرف الرئيس.

لكن يوجد هاتف جديد رخيص، بالإضافة إلى سماعاتي السلكية القديمة. فأفكر: *موسيقى أخيرًا.*

جرت خديجة الحقيبة إلى الداخل وقالت: «من الجيِّد أنها لم تطرق الباب، وإلا كنت قلت لها...».

نادى الإمام شفيق من المطبخ: «الغضب خطيئة».

ردت خديجة بسرعة: «إذن كان يجب ألا يمنحني الله الكثير منه بداخلي».
ويضحك شفيق.

بينهما تفاهم قوي لدرجة أنني أضطر إلى النظر بعيدًا. أتساءل ما الذي تشعر به عندما تكون مع شخص يستطيع أن يحبك في وسط غضبك.

مع أنني أعتقد أنني أعرف كيف يكون هذا الشعور، أو عرفته، لبضع ساعات.

آخذ أغراضي إلى غرفتي وألقي بها في الزاوية مع كومة متنامية من الواجبات المدرسية غير المنتهية، وحين أعود إلى الخارج، تلمس خديجة كتفي.

وتقول: «تعالي لتناول الإفطار. هناك شيء نحتاج إلى مناقشته».

وضع الإمام شفيق على الطاولة مجموعة غير متطابقة من أطباق كوريل التي يمكن العثور عليها تقريبًا في كل المنازل الجنوب آسيوية في أمريكا. لقد حَضَر وافل، لكن ليست من النوع الذي يأتي في علب من روني ديز، وهو النوع الوحيد الذي تناولته من قبل، فهذه منفوشة وذهبية، ومقرمشة أيضًا، وبداخلها قطع بيكان.

إنها وافل من أجل الرشوة، وبمجرد أن أقضم قطعة، أدرك أن أيًّا كان ما لدى خديجة لتقوله لن يعجبني، لذا أسبقها بالحديث.

قلت: «كنت أفكر بما أنني لن أعود إلى المدرسة، فيمكنني أن أتقدم للحصول على شهادة التنمية التعليمية العامة».

وضعت خديجة قطعة وافل أخرى في طبقي وتبادلت نظرة مع الإمام شفيق.

ثم قالت: «لقد كنت أفكر أنه قد حان الوقت لتعودي إلى المدرسة يوم الاثنين، فقد التأمت جروح وجهك إلى حد كبير، ولم يتبق إلا خمسة أسابيع حتى التخرج».

فأهز كتفَي، إذ لا تعني الدرجات لي أي شيء، وقلت: «أفضل الحصول على شهادة التنمية التعليمية العامة، فأنا عالقة في جونيبر على أي حال».

«نور». يضع شفيق شوكته على الطاولة. «لقد بذلتِ الكثير من الجهد، ونحن تحدثنا مع المدير إرنست ويريدك أن تعودي، لكن...».

«لا جدوى من ذلك». لم أعد أشعر بالجوع. «لم أُقبَل في أيٍ من الجامعات التي تقدمت إليها. وحتى لو قُبِلت، فلن يسمحوا لي بالالتحاق بالجامعة مع وجود جناية في سجلي».

قالت خديجة: «ستبدأ اختبارات الفصول الدراسية المتقدمة الأسبوع بعد القادم، وتُحسَب تلك الفصول كرصيد جامعي، فيمكنك الانتهاء من المقرر الدراسي في جامعة جونيبر الأهلية في خلال عام واحد، ثم تنتقلين».

وأضاف شفيق: «أنتِ لم تتغيَّبي عن المدرسة إلا أسبوعًا واحدًا، ولقد تحدثت مع مدرسيكِ وقال معظمهم إنه كان أسبوع مراجعة فحسب».

- هل... هل صلاح الدين...

«إنه لن يزعجك، لقد تحدثت معه». صوت شفيق محايد بصورة غير مألوفة، وهذا أقرب ما سيصل إليه من الغضب على ما أعتقد، فأجد فيه مواساة غريبة.

قالت خديجة: «إنه لن يتحدث معك، لكن يجب أن تعتادي رؤيته يا نور، إذ تنتظركما جلسة سابقة للمحاكمة، وجلسة استماع أولية، ثم جلسة أخرى للإقرار بالذنب، وأخيرًا محاكمة».

- هل لديه محامٍ؟ هل هو...

- اتركي سال يقلق بشأن سال، وأنتِ تقلقين بشأنك.

الكلام سهل جدًّا. أتمنى لو يمكنني انتزاعه، اقتلاعه من قلبي كالحشائش.

بدلًا من ذلك، أفكر فيه بداخل السجن، في لطفه، تلاعبه المريع بالكلمات، الشِّعر الذي يتحدث به جسده، كيف سينجو هناك؟

اتركي سال يقلق بشأن سال.

قالت خديجة: «ستؤثر عودتك إلى المدرسة على القاضي إذا تخرجتِ بتقديرات جيدة. قد يجعلهم ذلك النوع من الأشياء يترددون بشأن إدانتك بالتهمة الجنائية يا نور».

لا يمكنني أن أقول لهما لا ببساطة، فخديجة تتولى الدفاع عني، ويسمحان لي بأن أعيش في غرفتهما الإضافية، وشفيق صلى معي الساعة اثنين صباحًا عندما لم أستطع النوم لأنني أشعر كأن العالم يسحقني بالطريقة التي حاول أن يسحقني بها في الزلزال.

لكن العودة إلى المدرسة تعني مواجهة التحديق والنميمة والهمسات بينما الشيء الوحيد الذي أردته يومًا هو أن أبقى بعيدًا عن الأنظار ثم أغادر مدرسة جونيبر الثانوية.

أتمنى لو لم يزعجني الأمر بهذا القدر، أتمنى لو يمكنني أن أشرح لماذا يزعجني. لكنني، كما هو حالي دائمًا، لا أستطيع العثور على الكلمات.

48
مصباح

حينئذٍ

ظللت لسنوات لا أفهم لماذا أخفى والدي مرضه عني.

لكن الآن، بينما كنت أحدق إلى ورقة ليس لها معنى، في غرفة طبيب باردة، فهمت. لم يجد والدي الكلمات، لقد علقت في حلقه كما علقت كلماتي في حلقي، كما لو أنني أكلت الكثير من خبز النان ولم أستطع العثور على ماء.

بابا حتى لم يذهب إلى الطبيب قَطُّ، مات بسرعة مروعة عندما كان صلاح الدين في العاشرة من عمره. لا مزيد من الحكمة عبر مكالمات الهاتف الأقصر من اللازم، لا مزيد من الالتماسات لكي أعود إلى البيت، لا مزيد من «فراشتي الصغيرة». لقد تركني، وكذلك والدتي بعده بفترة وجيزة.

لم يساعدهما الأطباء، كما لم يساعدوني. لقد أجريت تحاليل الدم، ثم انتظرت بقلق لأرى لماذا لم أستطع أخذ ما يكفي هذا الجسد من النفس، لماذا في سن الواحد وأربعين فحسب وابني ما زال في السادسة عشرة من عمره، شعرت كأن عظامي مُبَطَّنة بالرصاص والنار.

قال الطبيب: «مرض كلى مزمن، في مرحلة متقدمة إلى حد كبير يا سيدة مالك، المرحلة الرابعة. ستحتاجين إلى القيام بتغيرات جذرية في أسلوب

حياتك، لكنه شيء يمكننا التحكم فيه. ومع ذلك، أود أن أناقش معك خيارات زراعة الأعضاء...».

«لا». هززت رأسي. كانت لغتي الإنجليزية تَفِرُّ مني دائمًا في مثل تلك اللحظات، جميع اللغات تَفِرُّ. «لا عمليات زراعة أعضاء». غادرت، وكان الطبيب يناديني، إذ لم يكن لدينا تأمين طبي، ولا نستطيع تحمل تكلفة زراعة أعضاء. كان توفيق واعيًا، ويجني مرتَّبًا ضئيلًا من العمل مقاولًا في قاعدة جونيبر، وكان لم يتناول شرابًا منذ سنتين حينذاك، لكنه كان تمسُّكًا هشًّا بالبقاء واعيًا، والله وحده يعلم ما الذي سيفعله إذا عرف إلى أي مدى أنا مريضة.

كان بابا محقًّا منذ سنوات بعيدة حين قال إنني قوية، فبيني أنا وتوفيق، حملت نصيب الأسد من الشجاعة.

لكن توفيق كان غالبًا مشغول البال بالعمل، إذا لم أرده أن يرى، فلن يرى. وكذلك صلاح الدين كان مشغولًا بكتبه والكتابة وكرة القدم ونور، فقد وضع نظامًا في حياته، هيكلًا، وفي الغالب لم ير الكثير خارجه.

لكن نور كانت مختلفة، فقد رأت.

«آنتي مصباح». كانت قد جاءت بعد ذلك الموعد الأوَّل ببضعة شهور لترى صلاح الدين، لكنها اتجهت إلى المطبخ وبدأت تساعدني في إعداد العشاء.

«ربما يجب أن تذهبي إلى الطبيب». كان صوتها هادئًا وذكرتني بأشجار الريدوود في يوسمايت، قوية ورزينة، تطالب بالقليل وتقدم الكثير. «لقد كنت أبحث في الأمر، وتكلمت مع اختصاصي أمراض كلى في المستشفى، فقال إن أحيانًا عندما يكون الشخص متعبًا بقدر ما أنتِ متعبة، يعني هذا أن هناك مشكلة ما».

قابلت نظرة نور وهي تلاحظني، وقد بثت عيناها سَكينة كنهر يتدفق بلطف.

لكنني كنت أعرفها.

سرعة يديها عندما قلبت البصل في المقلاة، والطريقة التي قفزت بها عندما تصاعد البخار، وانحناءة كتفيها، كل هذا كان يعبر عن خوفها علَيَّ.

في نظري، كانت لا تزال في السادسة من عمرها، تنظر إلى كومة من الباراثا الهشَّة المقرمشة التي أعددتها خصِّيصى لها بعينين متفائلتين جائعتين، ويتدلَّى شعرها في ضفيرتين فوضويتين، وتهمس لي بالبنجابية لأن رياض جعلها خائفة جدًّا من أن تتحدث بصوت أعلى.

هذه الطفلة لم تكن من جسدي أو من دمي، لكنها كانت من روحي.

وقد عانت الخوف في حياتها بما فيه الكفاية، لذا منحتها الابتسامة التي ورثها ابني مني، وقبلة على وجنتها.

- لا تقلقي علَيَّ، دي. أنا بخير.

49
سال

مايو، الآن

كل شيء سيئ. لا أريد الذهاب إلى المدرسة لكن مارتن أنقذني من الطرد، ويصر على أن أذهب.

قال: «ابق بعيدًا عن المشكلات، مغلقًا فمك، ولا تفوِّت فصلًا واحدًا».

لذا بعدما ذهبت إلى المنزل بيومين، أجر نفسي عائدًا إلى مدرسة جونيبر الثانوية. وقبل أن يُدْفِئ جسدي الكرسي الذي أجلس عليه، يخرجني إرنست من فصل اللغة الإنجليزية لأذهب إلى مكتبه، محدِّقًا إلَيَّ بعنف كأنني لا ينقصني إلا قنبلة مولوتوف لأحرق المكان.

وبعد خطاب لعشرين دقيقة يتراوح من «كيف أمكنك أن تخرب مستقبلك؟» إلى «إذا قمت بأي أنشطة غير قانونية في حرم المدرسة، ستُطرَد في الحال»، أرسلني ثانيةً إلى فصل السيدة مايكلز.

حيث لا أستطيع التركيز، وذلك بصورة أساسية لأن الجميع يتهامسون وراء ظهري كأننا في فيلم درامي تدور أحداثه في المدرسة الثانوية.

لكن المدرسة أفضل من البقاء في البيت، فقد انحدر آبو مجدَّدًا بسرعة جدًّا لدرجة أن الأيام القليلة التي كان واعيًا خلالها تبدو كحلم.

أريد أن أسأله: *ألا يمكنك أن تكون والدي؟ ألا يمكنك التوقف عن الشرب من أجلي؟ ألا تحبني بما يكفي؟*

يا إلهي، أنا مثير للشفقة. لقد قرأت عن كل هذا بعد حادث المسبح حين أخبرتني آما أخيرًا بأن آبو يعاني مشكلة متعلقة بشرب الخمر. أعرف أن الإدمان ليس منطقيًّا، وأن آبو يحبني، لكن في الوقت الحالي، احتياجه إلى النسيان أكبر من ذلك الحب. وإلى أن يستطيع تغيير نفسه، فذلك ما سيبقى عليه الوضع.

على المستوى الفكري، أفهم هذا. أمَّا على المستوى العاطفي، فأنا طفل في الصف الثالث يظهر غضبه عابسًا.

ونور... أفتقدها كثيرًا. لا يمكنني النوم إذ أظل أتساءل ما إذا كانت ستعود إلى المدرسة، ما إذا كانت آمنة من رياض. أحاول أن أكتب كل هذا، أن أخرج كل الشعور بالذنب والخوف والقلق من داخلي، لكنني عندما أفتح دفتر مذكراتي، تقفز الكلمات بعيدًا عني.

أخذ رجال الشرطة هواتفنا، وأفكر في كل الموسيقى التي كانت لديها على هاتفها، الأغاني الغريبة المهربة من أسطوانات قديمة وتسجيلات الحفلات الموسيقية المباشرة. أتساءل كيف تستمع إلى الموسيقى الآن.

الجلسة السابقة للمحاكمة هي أوَّل مرَّة أرى بها نور بعد ما حدث مع رياض. أنا ومارتن قد جلسنا بالفعل قبل أن تدخل، وخديجة بجانبها. تتحرك صديقتي في العالم بحذر أكثر حتى من حركتها فيما مضى، وحين تراني، تتشنج عضلات فكها لكن تهمس خديجة بشيء فتسترخي.

قالت خديجة: «سلام يا صلاح الدين». صوتها لطيف، وتربت بيدها برفق على كتفي: «هل يمكنك أن تبدل مقعدك مع مارتن من فضلك؟».

لكي تكون نور أبعد ما يمكن عني. لا تسعفني الكلمات بأي شكل، فأومئ برأسي وأتحرك لكي تصبح خديجة ومارتن بيننا.

تمتم مارتن: «لا تنظر إليها، وحاول ألا تفكر فيها، فمستقبلك على المحك. المدعي العام هو مايك ماهوني، قد يبدو كأنه جد طيب يصنع الألعاب من أجل الأيتام، لكنه يراقب كل حركة تقوم بها».

دخل القاضي، وخديجة تتناقش مع مارتن بشأن مذكرات الالتماس والجداول الزمنية، أحاول ألا أحدِّق إلى نور، أو أتساءل عمَّا تفكِّر. لكن كل تحوُّل في جسدها ينفجر بداخلي كأنه برق، الطريقة التي تطبق بها يديها عندما يشير إليها السيد ماهوني باسم آنسة رياض إذ كانت دائمًا تكره اسم

عمها، تغير المشاعر التي تظهر على وجهها، الإحباط المتصاعد من خلال أطرافها. أنا سفينة في بحرها، أُغرَق وأُبعَث وأُدَمَّر عشرات المرَّات في غضون بضع دقائق.

بعد الجلسة، جلس مارتن معي على مقعد خارج المحكمة.

قال: «لقد عرض المدَّعي العام صفقة إقرار بالذنب، وأنت بحاجة إلى قبولها. إنها تعني إدانة نور، لكن إذا لم تقبلها، قد يُحكَم عليك بسنوات خلف القضبان. يمكننا أن نزعم أنك كنت تتعاطى المخدرات وربما يكون القاضي أكثر تساهلًا، لكنني أُفَضِّل ألا أخاطر».

- لن أورِّط نور.
- بالنظر إلى الكمِّيَّة التي وُجِدَت تحت مقعدها، وتحت حقيبتها، لا يبدو الأمر جيِّدًا بالنسبة إليها، لكن من الممكن أن يساعدك هذا، فالكميات التي وجدها رجال الشرطة معك كانت أقل كثيرًا. إذا أمكنك فقط...

أحملق فيه بنظرة قاتلة: «لن نلصق هذه التهمة بها».

«صلاح الدين». دعك مارتن عينيه، وعلى الرغم من صغر سنه، بدا فجأة مرهقًا. «وظيفتي هي أن أدافع عنك، حتى إذا كان هذا سيؤذي صديقتك، لأنك ما زال بإمكانك أن تحظى بحياة يا صلاح الدين. لكن من دون تدخل جذري؟ ستذهب نور رياض إلى السجن، فالمدَّعي العام قرَّر أنها مذنبة. وكلما تقبَّلت ذلك أسرع، ستتحسَّن فرصك في إنقاذ نفسك».

***

ليس لديَّ رقم نور أو سيارة، لذا من السهل جدًّا أن أبقى بعيدًا عنها. لكنني قدت الدرَّاجة بجانب منزل رياض مرَّتين، وذات مرَّة كان في الخارج يتفقد البريد. أكره وجهه، لكن رؤيته تجعلني أشعر بتحسُّن، لأنها تعني أنه بعيد عنها.

بعد الجلسة بأسبوع، جلست خارج المدرسة قبل بداية الفصل مراقبًا الطلاب يتدفَّقون إلى الداخل. وعلى الرغم من أن الساعة السابعة صباحًا، يرتدي معظمهم قمصانًا قصيرة وشورتات لأن الصحراء تحوَّلت من كونها باردة وبائسة إلى حارَّة وبائسة في غضون سبعة أيام.

رأيت آرت كامنًا في الظلال بين مبنيين، يتحدث مع أتيكس ويتبادلان الحقائب، فأتساءل كم من الوقت سيمر قبل أن ينتهي الأمر بآرت أيضًا أمام قاضٍ.

على الأغلب لن يحدث أبدًا، إذ لديه حظُّ الفتيان الأثرياء.

«إنه محظوظ لأنك لست واشيًا». ظهرت أشلي وجلست بجانبي: «قالت أمي له إنها ستكسر ركبتيه إذا جاء مرَّة أخرى. لم أخبرها أنني اشتريت منك». نظرت حبيبتي السابقة إلى عينَي نظرة حادة: «أعتقد أن السجن عقاب كافٍ».

ترتعش يدا أشلي رغبةً في سيجارة، وهي تجذب واحدة، تمُرُّ جيمي مع جريس وصوفي، ويتبعها أتيكس.

قالت جيمي: «... يجب أن تطرَد، فهي تقريبًا حاولت قتلي. لقد قرأت عن كيف تحمل أسامي المسلمين معاني عنيفة مثل 'محارب' أو 'سيف' أو...».

تتابعهم أشلي بعدما يمرُّون: «تزداد جرأتها جدًّا في استعراض تفاهاتها».

- تستعد للعمل السياسي.

بينما تضَيِّق أشلي عينيها تراقب جيمي، ثم يرن الجرس فتطفئ سيجارتها وتقول: «لقد عادت نور». تقولها بصورة عارضة كأن هذا الخبر ليس ألعابًا نارية تنفجر في عقلي.

«حقًّا؟ آه. انتظري، حقًّا؟» أتلعثم كالأبله، وتبتسم أشلي بتسامح.

- توقَّعت أنك قد يُغمَى عليك إذا رأيتها في الفصل.

«صحيح... آسف». أتململ: «هذا محرج».

نخرت قائلة: «أرجوك. لقد تجاوزتك وأواعد فتى يعرف عن حرب النجوم أكثر مما عرفت في حياتك. وربما حتى سأقدمه إلى كايا يومًا ما». صوبت إلَي نظرة مباشرة: «ستفعل الصواب مع نور؟».

- ماذا تعنين؟

تنفخ أشلي الدخان من جانب فمها، مثبتة عينيها الباهتتين علَي: «أعني هل ستحرص على ألا تذهب إلى السجن؟».

- سأحاول...

«'افعل أو لا تفعل'». تقتبس أشلي كلمات يودا، إذ كان «الإمبراطورية ترد الهجوم» هو فيلمها المفضل دائمًا. «'لا توجد محاولة'».

تلتصق كلماتها بذهني وانا أسير إلى الفصل، وعندما أخطو داخل فصل اللغة الإنجليزية، أشعر بحلقي جافًا للغاية لدرجة أنه لو كانت نور هناك، كنت على الأغلب سأنعق في وجهها.

لكن مكتبها خالٍ.

وعندما أقترب من السيدة مايكلز بعد انتهاء الفصل لأسألها، تتنهد: «لا أعرف أين هي. بالنظر إلى ما أخبرني المدير إرنست به، قد يكون من الأفضل أن تبقى بعيدًا عنها وتركز على التخرج». تعقد السيدة مايكلز ذراعيها: «هل كتبت المقال المطلوب في المسابقة؟».

قلت: «أريد أن أكتبه يا سيدة مايكلز، لكنني... لا أعرف ماذا أكتب». قبل إلقاء القبض علَيَّ، جلست لأنتهي من كتابة مسوَّدة وحملقت في الفكرة التحفيزية لساعتين. *اكتب قصة خيالية بناءً على تجربة حياتية*. وعندما لم ينبثق شيءٌ، أجبرت نفسي على إخراج دفتر مذكراتي، آملًا في أن توحي الكلمات القديمة بكلمات جديدة، لكنني كنت أفكر في تجارة المخدِّرات ولم أكتب إلا جملة واحدة. **أنا وحش**.

قالت السيدة مايكلز: «لا تأتي القصص الجيدة بسهولة مطلقًا. ستُفَوِّت موعد التسليم النهائي بالمسابقة، لكن عِدني بأنك عندما تأتي إليك القصة، ستكتبها، حتى لو من أجلك فقط».

أومئ برأسي وأغادر، وما زلت آمل في أن أجد نور، لكن لم أرها حتى وقت الغداء، فبينما أنظر من فوق كتفي بحثًا عنها، ألتقيها وجهًا لوجه. كم هذا مُتوَقَّع.

تقفز بعيدًا بسرعة. ويتسارع نبضي حين أرى التي شيرت الذي ترتديه، لأنه تي شيرت أهديتها إيَّاه، مكتوب عليه «أستمع إلى فِرَق لا توجد بعد».

تلك علامة جيدة، أليس كذلك؟ أنها ترتدي شيئًا أعطيتها إياه؟ إلا إذا لم تكن تتذكر أنني أعطيتها إياه، وهذا محتمل تمامًا.

قلت قبل أن تستطيع السير بعيدًا: «مرحبًا. لم تكوني في فصل اللغة الإنجليزية».

خلعت سمَّاعات الأذن، لكن لا يخرج منها صوت. لا تستمع نور إلى الموسيقى بهدوء، مما يعني أنها على الأغلب تسير من دون موسيقى، وليس

هذا من شيمها لدرجة أنني أفكر في أن أطرح عليها سؤالًا شخصيًّا للغاية لأتأكد من أن جسدها لم يُختَطَف.

قالت ردًّا على تعليقي، بصوت لا مبالٍ: «نعم، لم أرَ ما الجدوى من ذلك. عن إذنك».

حاولت أن تمُرَّ بجانبي، لكنني أخطو خطوة جانبية غريبة كخطوات فرس النبي، مستميتًا لإيقافها.

قلت بسرعة: «ستُقام اختبارات الفصول الدراسية المتقدمة الأسبوع القادم. لقد أعطتنا السيدة مايكلز أسئلة للمراجعة». أفتِّش داخل حقيبتي. هذا غريب وشنيع للغاية، أن أتحدث معها كأنها غريبة. وجدت ورقة الأسئلة وأمدُّ يدي بها.

فلا تأخذها.

قلت: «لم يصل إليك ردٌّ من جامعة كاليفورنيا (لوس أنجلوس)، أليس كذلك؟ لقد كان مقالك جيِّدًا للغاية، ربما تُقبَلين في الجامعة».

«لن يهم إذا قُبِلت في الجامعة». تنتزع الورقة مني وتجعدها، فيتوقف بضعة أشخاص ليحدِّقوا إلينا.

- اليوم هو العاشر من مايو، انتهت المهلة للموافقة على القبول منذ أسبوع. وأنا سأذهب إلى السجن يا صلاح الدين.

قلت: «هل تحقَّقتِ من منصَّة جامعة كاليفورنيا (لوس أنجلوس) مرَّة أخرى؟ ربما...».

«سأقبل صفقة الإقرار بالذنب». تبصق الكلمات في وجهي. «ستتصل خديجة بالمدَّعي العام الليلة بعدما تعود إلى المنزل من عملها. إنها... إنها تريد أن أكون أنا وشفيق موجودين».

- لا يا نور، لا تفعلي ذلك.

«ماذا من المفترض أن أفعل غير ذلك؟». تنفجر الكلمات منها بصياح مفاجئ يصمُّ الآذان، فيصمت الطلاب الواقفون حولنا.

ويرتفع صوتها أكثر: «أنتظر المحاكمة ويُحكَم عليَّ بثماني سنوات بدلًا من ذلك أيها الحقير؟ إذا لم أقبل الصفقة، سيوجهون إلَي أقصى عقوبة».

- سأشرح أنها ملكي، سأخبرهم بالحقيقة.

- يا إلهي، أنت غبي. أنت أخبرتهم بالحقيقة يا صلاح الدين، وكذلك أنا. بمَ نفعنا هذا؟

يجتمع المزيد من الأشخاص ليشاهدوا، وأشلي بينهم، ويحمل بعض الطلاب هواتفهم كأنهم ينتظرون أن نهاجم بعضنا بعضًا.

قالت نور: «كانت مخدِّراتك تحت مقعدي، تحت حقيبتي، في درج السيارة على بعد سنتيمترات من يدَيَّ. وكانت بصمات أصابعي على الزجاجات لأنني، كالغبية، أخذتهم منك. سأذهب إلى السجن مهما حدث».

- قال مارتن إننا يمكننا بناء دفاعنا على أننا كنا نتعاطى، يمكن للقاضي أن...

- اذهب إلى الجحيم يا سال.

أتجهم لسماعها تستخدم اسمي المستعار، إذ يبدو غريبًا من فمها بقدر ما يبدو غريبًا من آبو. «نور... أرجوكِ. لم أقصد أن يحدث هذا، ألا يمكنك فقط أن تسامحي...».

تقترب بما يكفي لتقبلني، أو تلكمني.

قالت: «إيَّاك أن تجرؤ على إخباري بأن أسامحك. إيَّاك أن تضع هذا العبء على كاهلي».

قلت: «حسنًا، لا تسامحيني. لكن اذهبي إلى الفصول، لا تيأسي، فكري في... فكري في آما يا نور. كانت لتقول لكِ إنك تستحقين أكثر من هذا».

ضحكت نور، لكنها ضحكة غير طبيعية بتاتًا: «ربما كنت أستحق أكثر من هذا. قبلك».

«آه، انظروا، بوني وكلايد ذوا البشرة السمراء». تتهادى جيمي عبر الحشد، وأتيكس معها يبدو عليه الخجل نوعًا ما. أعتقد أنه من الأسهل أن تكون حبيبتك عنصرية عندما لا تكون صريحة للغاية بشأن هذا.

فانفجرت فيها: «كان بوني وكلايد سارقي بنوك وقتلة، ومن ثم تلك مقارنة غبية».

«ما زالا مجرمَيْن، ما زالا قُدِّر لهما الفشل والموت المبكِّر، مثلكما تمامًا». تنظر إلى نور شزرًا، وبينما أغلي، تندفع أشلي عبر الحشد.

قالت: «أنتِ مختلَّة يا جيمي. لماذا لا...».

قالت جيمي: «لا تتحدثي معي أيتها الحثالة البيضاء. لقد ضاجعتِ ذا البشرة القذرة هذا، أليس كذلك؟ بالطبع ستدافعين عنه».

تدور همهمة منخفضة بين الحشد، ويخطو أتيكس بعيدًا عن جيمي، مع أنها لا تلاحظ.

يفتخر الكثير من ساكني جونيبر بعنصريتهم، وهناك أشخاص رشوا بالطلاء علامات النازية و«عودوا إلى بلدكم» و«القوة البيضاء» في غرفنا من قبل. وأخبرني آبو أن بعد هجمات 11 سبتمبر، اضطر هو وآما إلى استبدال زجاج النافذة الأمامية عندما ألقى شخص ما قالب طوب عبرها.

لكنني لم أتوقَّع ذلك النوع من الكراهية الصريحة من جيمي، فقد أخفتها تحت الاستعلاء.

تحدثت نور بصوت مرتفع، واضعة يديها وراء شريطي حقيبة الظهر، كأنها تقلق بشأن ما ستفعلانه إذا تركتهما سائبتين.

قالت: «اذهبي بعيدًا يا جيمي».

قالت جيمي: «سأذهب، إلى برنستون مباشرةً، بينما ستتعفنين في السجن حيث تنتمين».

هزت نور كتفيها وقالت: «لقد فزتِ. ذلك ما تريدين، أليس كذلك؟ ستذهبين إلى الجامعة وأنا لن أذهب، ستلقين خطبة الوداع وأنا في المرتبة الثانية. وأنتِ أيضًا وحش، أنا متأكدة تمامًا من أن والديك لا يحبانك، كما أعرف أن أصدقاءك لا يحبونك».

تضحك جيمي وتلتفت لتنظر إلى أتيكس الذي اختفى، ويشاهد باقي الجمهور في صمت.

احمر وجهها وقالت: «فلتهينيني كما تريدين، حياتك نفسها هي عقابك، وهي ما تستحقينه. لا يهمني ما هي أعذارك يا نور، فأنتِ وجودك غير قانوني، ومجرمة، ويجب أن تُشحَني مرَّة أخرى إلى البلد القذر الذي جئتِ منه، لتتزوجي برجل أكبر منكِ بخمسين عامًا أو من ماعز أو أيًّا كان ما يفعله ناس مثلكم».

أقف في وجه جيمي الآن، وعلى شفتَيَّ كلمات وحشية، لكن أشلي تجذبني بعيدًا ولا أشعر حتى بيديها، إذ يستحوذ عليَّ الغضب.

قالت أشلي: «لا تستحق يا سال». وعلى بعد بضعة أمتار، توجه لي نور نظرة لاذعة سريعة، تمتلئ بالاحتقار.

ثم تسير مبتعدة.

ولا أتبعها.

***

تدوي المحادثة مع نور في رأسي وأنا أسير إلى البيت، كأنها سجين يهز سلاسله ويحرك عظامه. ولا أعني الجزء الأسوأ بها، فقد وضعت كل ذلك بالفعل في صندوق ذكريات «لحظات تستحضرها عندما تكره نفسك».

لا. بل أفكر في جامعة كاليفورنيا (لوس أنجلوس)، في كيف لم تتلق نور ردًّا منهم على الإطلاق.

بقدر ما هو من المريع أن أقول هذا، أفهم لماذا لم تُقبَل في الجامعات الأخرى، إذ كانت مقالاتها رديئة، وقالت نور إن التوتر أوقف الكلمات في حلقها خلال المقابلات. لكنني قرأت مقالها الذي كتبته لجامعة كاليفورنيا (لوس أنجلوس)، وباستثناء بعض الفواصل في غير مكانها، وكلمة «memory» المكتوبة بحرفي «r» دون تفسير واضح، كان ذلك المقال رائعًا. كما كان لديها كل الأشياء الأخرى اللازمة لإثارة إعجاب لجنة القبول.

قالت نور إنها لم تستطع دخول منصة جامعة كاليفورنيا (لوس أنجلوس) الإلكترونية. *على الأغلب لأنهم يغلقون حسابات كل الأشخاص المرفوضين. بالنسبة إليهم، لم أعد موجودة.* لكن يبدو هذا غير منطقي، وأنا أعرف نور، أحيانًا يكون خوفها عاليًا للغاية لدرجة أنه كل ما تستطيع سماعه.

قالت أيضًا إنها لم تحصل على خطاب من جامعة كاليفورنيا (لوس أنجلوس)، لكن ربما حصلت على خطاب، وهي فقط لم تره.

الحمد لله أن تشاتشو لا يتفقد صندوق البريد بتاتًا. لكنه يتفقده، لقد رأيته يفعل ذلك منذ يومين.

إذا عرف الجامعات التي تقدمت إليها...

لم تخبر نور رياض قط، لكنه كان يعرف في تلك الليلة أمام منزل خديجة وشفيق. *لن تذهبي إلى جامعة فرجينيا أو جامعة كاليفورنيا (لوس أنجلوس).*

لا تحتاج نور إلا إلى نعم واحدة، انتصار واحد، شيء يعطيها سببًا تناضل من أجله، لكيلا تقبل صفقة الإقرار بالذنب.

مما أتذكر من يوم تسللت أنا ونور داخل مكتب رياض منذ سنوات بعيدة، فإنه كان يحتفظ بكل ورقة أخرى استلمها من قبل. لماذا لا يكون لديه خطاب قبولها؟

تقفز إلى الاستنتاجات يا صلاح الدين. ربما أخبرته بروك بشأن جامعة فرجينيا وجامعة كاليفورنيا (لوس أنجلوس)، أو ربما استلم خطابًا لكن كان خطاب رفض.

اعتادت آما أن تقول «hadiyan sach bolti hain». **تتحدث العظام بالحقيقة**. وتخبرني عظامي أن هناك شيئًا ما غريبًا فيما يتعلق بجامعة كاليفورنيا (لوس أنجلوس).

توقفت عن السير في وسط الرصيف، إذ ينفجر عقلي بفكرة عبقرية مفاجئة. فكرة من الممكن أن تدفعها نحو المستقبل الذي تستحقه.

فكرة من الممكن أن تدفعها إلى مسامحتي.

50
نور

لا أحد يوقفني وأنا أخرج من حرم المدرسة في وسط وقت الصف، لا أحد يهتم.

الكلمات التي صرخت بها على صلاح الدين تطرق أذنَي، ويستحوذ عليَّ غضب شديد فأفكر أنني سأنكسر إلى قطع.

سمَّاعات الأذن مُوَصَّلة، وقد حملت كل ما أمكنني العثور عليه من موسيقاي القديمة، لكن لا توجد أغنية أريد سماعها، لا توجد قائمة أغانٍ يمكنها إصلاح هذا الشعور بأنني لن يحدث لي أي شيء جيد مرَّة أخرى على الإطلاق.

الموسيقى الوحيدة التي لها مساحة في رأسي هي القيثارات المكسورة ومكبرات الصوت المعطلة، تشيلو مُلقَى داخل النيران، بيانو ساقط من ناطحة سحاب، طبول ذات جلود ممزقة.

أنا غاضبة لأن صلاح الدين كذب عليَّ بشأن تجارة المخدِّرات، لأنه جرني إلى هرائه، لأنني سأذهب إلى السجن، لأن مستقبلي دُمِّرَ.

لكن أكثر شيء يلتهمني من الداخل هو أن الشخص الوحيد الذي وثقت به في هذا العالم البائس سبب لي أشد أذى. لقد أعطاني ما أريده أكثر من أي شيء، الحب، الأمان.

ثم انتزعه مني. لا يمكنه إصلاح ذلك أبدًا.

أفكر في ذا فيرف يغنون «الحب ضجيج» (Love Is Noise)، في فلورنس أند ذا مشين والطبول المدوية في «الحب الكوني» (Cosmic Love)، في الألم الذي يستنزف ريانا في «حب في العقل» (Love on the Brain)، في معصومة أنور تندب قدرها في «Tainu Ghul Gayaan».

يمتزجون كلهم في رأسي، ضجيج من النغمات التي ليس لها معنى، ويقطعها صوت آنتي مصباح. «*إذا تهنا، فمشيئة الله كالماء، تجد المسار غير المعروف حين لا نستطيع العثور عليه*».

لكنني لست تائهة، فأنا أعرف تمامًا أين أنا، محاصَرة، عالقة في تلك الخزانة مرَّة أخرى، بينما يندثر العالم من حولي.

- نور.

بصيص من شعر داكن، إنها السيدة مايكلز تُلَوِّح لي ثم تشق طريقها عبر موقف السيارات.

قالت: «لقد رأيتك من غرفة المدرِّسين. لماذا لم تكوني في الفصـــ...».

قلت: «لأن لا جدوى من ذلك». وأتساءل ما إذا كان يجب أن أوشم الكلمات على رأسي لكي يتوقف الناس عن السؤال.

«حسنًا... تفضلي». حقيبتها الجلدية مربوطة بجانب كرسيها المتحرك، وتبحث داخلها قبل أن تسحب منها ورقة. إنه مقالي النهائي حول قصيدة «فن واحد». كتبته بسبب إلحاح خديجة، وسلمته بعدما قرأت المزيد عن حياة إليزابيث بيشوب.

التي كانت، لأكون صريحة، سيئة للغاية. وهو شيء أشرت إليه في خاتمة المقال.

أحد العناوين الأولى التي وضعتها بيشوب لقصيدة «فن واحد» كان «هبة فقد الأشياء»، ربما بسبب كل الفقد الذي تعرضت له في حياتها -عائلة، أصدقاء، بيوت، أشخاص- اضطرت بيشوب إلى رؤية الفقد كهبة، فقد أحاط بها، ومن أجل أن تمنع نفسها من الغرق فيه، لم يكن بإمكانها اعتباره طريقة العالم

في أن يقول لها «أكرهك». كان يجب أن تتصالح مع الفقد، وتقبل أنه جزء من حياتها، وتجد معنى به. كان يجب أن تتعلم أنه على الرغم من الفقد، فإنها ستمضي قدمًا.

قالت السَّيِّدة مايكلز: «كان رائعًا تمامًا، أفضل مقال قرأته هذا العام». وضعت الورقة في يدي: «نور، أنتِ لديكِ الكثير لتقدميه. أعرف كيف يكون الأمر عندما تمرين بأوقات صعبة، حقًّا أعرف، لكنني أومن بأن الأمور ستتحسن. وأنا أطلب منك، أرجوكِ لا تستسلمي».

تستدير لتعود إلى المدرسة، وبينما أراقبها وهي تختفي بين المباني، أفكر في آنتي مصباح.

«*إذا تهنا، فمشيئة الله كالماء، تجد المسار غير المعروف حين لا نستطيع العثور عليه*».

وللحظة، بينما أنظر إلى علامة الامتياز بأعلى الورقة، أصدق ذلك.

51
مصباح

مارس، حينئذٍ

بعدما أخبرني الطبيب أنني مريضة بشهرين، عرف توفيق بشأن مرضي، ولم أعلم هذا إلا لأنه بدأ يشرب مجدَّدًا.

حاول التكتُّم على الأمر، لكنه بعد ذلك أحدث فوضى في المسبح واكتشفه صلاح الدين.

وبعدما نظفت توفيق، وجدت صلاح الدين ينتظرني في المطبخ، مصدومًا. فأخرجت شاي PG Tips وكِريمة وحبهانًا وسكرًا.

«شاي، بوتر؟» أخرجت كوبًا آخر من أجله، تحسُّبًا، لكنه هَزَّ رأسه.

- هل أقول نعم يومًا، آما؟

تنهدت: «لا، لكنني دائمًا آمل».

- آما... ما خطب آبو؟ لماذا بدت رائحته مثل...

مثل المخمورين الذين يكسرون الزجاجات خارج الموتيل أحيانًا، أو يتشاجرون في الممر خلف المسبح.

«إن والدك...» كدت أقول الكلمة، مدمن خمور، لكنني لم أستطع حمل نفسي على ذلك. «يعاني والدك مشكلة، بوتر. مشكلة تتعلق بالشرب».

فانفجر صلاح الدين: «لكن آبو يصلي. أنا لا أفهم».

- يصلي والدك من أجل الهداية، فهو يتوه كثيرًا. أنت تعرف، الكبار أيضًا يتوهون.
- أنتِ لا تتوهين مطلقًا.

فقلت: «تلك مشيئة الله، وليس بفضل أفعالي».

قال: «آما، لماذا بدأ آبو يشرب حين كنت صغيرًا؟».

فقلت: «لم يستطع والدك أن يكون قويًّا. إنه ليس مثلي، بوتر، أو مثلك».

نخر صلاح الدين: «لست قويًّا».

أخذت يده فجفل متفاجئًا، لكنني اعتصرتها بقوة محاولة أن أتمسك به. فكرت: يجب *أن يفهم هذا*، يجب *أن يعرف أنه يستطيع النجاة من أي شيء.*

أخبرته: «أرى فيك الكثير من الأمل يا بني. يمكنك أن تكون ما تتمناه، فلتتمن القوة وسيجعلك الله قويًّا. قل لي إنك تفهم».

سحب يده بلطف من يدي، وقال: «أفهم. امم... أنا متعب للغاية، آما».

«اذهب». منحته قبلة على شعره وراقبت ظهره النحيل بينما يختفي في غرفته.

إنه لم يفهم، عرفت هذا، لكنه سيفهم، سأحرص على أن يفهم قبل أن أرحل من هذا العالم. دفعت الشاي بعيدًا وأخذت أدعو.

أرجوك يا رب. ضغطت يدَيَّ معًا بإحكام شديد لدرجة أنني شعرت بوخز فيهما. *امنحني مزيدًا من الوقت.*

52
سال

مايو، الآن

عندما يكاد يحل الظلام، يعود آرت أخيرًا إلى منزله في سيارته الكامارو اللامعة. والداه غير موجودين، وحين يقترب من الباب الأمامي، أخطو من وراء عمود بالقرب من شرفته.

«سال، اللعنة». قفز مبتعدًا نحو كيلومتر. «ماذا...».

«اخرس». لا ألمسه، لست مضطرًّا إلى ذلك، إذ يمكنه إدراك أنني أستجمع كل ما لديَّ من ضبط النفس لكيلا ألكم وجهه الغبي. «ستساعدني في القيام بشيء، وإلا سأخبر الشرطة بمن وَرَّد لي المخدرات يا أحمق».

أشرح له خطتي في السيارة، وأجعله يقود بجانب متجر الكحوليات حيث نرى سيارة رياض النيسان الزرقاء القديمة واقفة في الساحة الخلفية. وبعد بضع دقائق، نقف أمام منزله فنجد سيارة بروك قد ذهبت.

أشير إلى نافذة مكتب رياض، التي تواجه منزل الجيران، وسياج الشجيرات بجانبها.

قلت: «هذه بقعة اختبائنا. ويجب أن نتحرك بسرعة، نحتاج إلى الخروج من هنا قبل أن تتصل خديجة بالمدعي العام».

«حتى لو قُبِلَت في جامعة كاليفورنيا (لوس أنجلوس)» ينظر آرت نظرة جانبية إلى سياج الشجيرات «ستذهب إلى السجن. سيكون هذا الخطاب مفيدًا لها بقدر كيس من...».

- اخرس يا آرت.

لكنه يلح: «أعرف أنك تحبها، لكن ربما لا تواجه الواقع».

قلت: «أنا لا أواجه الواقع؟ ماذا عنك؟ لقد تعاطت قريبتك نفسها جرعة زائدة، ولا تزال تتاجر في المخدِّرات».

يتحسس آرت الراديو ويضبطه على محطة KRDK، محطة تقدم أفضل 40 أغنية لا أشغِّلها إلا عندما أحاول أن أزعج نور، فأغلقه بعنف.

قلت: «لا أزال أتكلم. فكر في كل من بعت لهم، ماذا لو تعاطى أحدهم جرعة زائدة؟ يموت؟ سيكون ذلك ذنبك».

- لقد كنت في اللعبة أيضًا يا سال.

قلت: «وسأندم على ذلك حتى أموت. أبي مدمن خمور، وأعرف كيف يمكن للإدمان أن يكون غادرًا. لقد مَكَّنت حدوث ذلك لأشخاص آخرين، لقد دمَّرت حياتي وعلى الأغلب حياة أفضل أصدقائي، لكنك ما زلت تستطيع الخروج من هذا يا أحمق».

هَزَّ آرت رأسه، وتبيض مفاصل أصابعه الممسكة بعجلة القيادة، ثم قال بهدوء، بأكثر صوت خافت سمعته منه مطلقًا: «نعم، ربما أنت مُحِقٌّ».

يدير سيارته ونقترب من منزل رياض في صمت. من السهل الوصول إلى نافذة المكتب، وعندما أحاول فتحها بالقوَّة لا تتحرَّك.

«لقد انتهى الأمر يا رجل». يتحرك آرت ببطء مبتعدًا: «لا تستطيع فتحها من دون أن تكسرها».

أخطف مفاتيحه منه، وأقحم واحدًا تحت النافذة ثم أحركه أسفل الزجاج. وبعد دقيقة عصيبة، يتنفس آرت خلالها بصوتٍ عالٍ لدرجة أنهم على الأغلب يستطيعون سماعه في ألاسكا، تنفتح النافذة مصدرة صريرًا.

قلت: «حسنًا، اذهب إلى الداخل».

تنهد آرت وتمايل بجسده النحيل عبر النافذة، حيث تبقى قدماه بارزتين منها بصورة مضحكة للحظة.

قلت: «ابحث عن ظرف كبير، على الأغلب أبيض، وسيكون عليه ختم أزرق...».

- أعرف كيف يبدو خطاب قبول في الجامعة يا سال.

أسمع خشخشة، ثم صوت ارتطام وسباب.

وتمتم آرت: «اللعنة، هذا الرجل يحتفظ بكل شيء».

أتحقَّق من الوقت وألقي نظرة من أول الشارع لآخره. تعود بروك إلى المنزل قبل الثامنة عادةً، والساعة الآن 7:50.

قال آرت: «لا أستطيع أن أرى أي شيء، سأغلق الستائر لأتمكَّن من إضاءة المصباح».

- استخدم هاتفك يا غبي.

تذمَّر قائلًا شيئًا غير مفهوم، ثم يومض ضوءًا أزرق خافتًا.

- بالنسبة إلى شخص يقود نيسان، فهذا الرجل شديد الهوس بسيارات BMW، لديه نحو ثلاثين نشرة...

تسطع المصابيح الأمامية بسيارة في نهاية الشارع، فأدقق النظر لكنها متربة للغاية بحيث يصعب تحديد ما إذا كانت سيارة بروك الفورد الرمادية، تبدو أكبر من أن تكون سيارتها، وليست رمادية، إنها زرقاء.

«اللعنة...» أنادي من خلال النافذة: «اخرج يا آرت، لقد وصل رياض للتو».

- لا، لقد وجدت شيئًا...

- اخرج يا رجل. الآن.

يقود رياض سيارته إلى المدخل، وأسمع صوت أنين الجيتار بأغنية لفرقة ساوندجاردن شغَّلتها لي نور مليون مرة، «شمس الثقب الأسود» (Black Hole Sun)، ثم يتوقَّف المحرِّك.

أشعر أن الصمت... نذير شؤم، إنها كلمة أفهمها من الناحية النظرية لأنني قرأتها في مليون كتاب، لكن التشاؤم في الواقع مثير للغثيان والاختناق كالوحل.

اركض يا سال، اهرب من هنا.

- مرحبًا؟

اللعنة. لقد سمع رياض صوت حركة آرت، فأغوص وراء سياج الشجيرات بأقصى ما يمكنني من الهدوء وآمل أن يتمتع آرت بقدر من الذكاء ليطفئ مصباح هاتفه. ثم يصدر التراب صوتًا تحت أقدام رياض وهو يقترب.

لا تأتي أقرب من هذا. أرجوك يا إلهي، تَرَفَّق بي.

وقف هناك للحظة طويلة، وأتساءل كيف يكون الأمر بالنسبة إلى شخص مثله، شخص يستقوي على من يظنهم أضعف منه. أتساءل كيف ينظر إلى نفسه في المرآة كل صباح.

يمكنني مهاجمته بسهولة جدًّا، ففي كل الأحوال، حُكِم على مستقبلي أن يكون بين أربعة جدران يفصل بينها ثلاثة أمتار. وكل ما سيحدث هو أنني سأعلق هناك لوقت أطول قليلًا.

لكنه يستدير ويغادر، ثم تخشخش مفاتيحه، ويصدر الباب الأمامي صريرًا. المكتب في نهاية الممر الممتد من الباب الأمامي، بعيد بما فيه الكفاية ليتمكن آرت من الخروج إذا لم يتلكّأ.

أهمس: «آرت، بسرعة يا رجل، إنه...».

«مرحبًا؟» هذه المرة، ينادي رياض من داخل المنزل. وبعد فوات الأوان، أدرك أن باب المكتب مفتوح.

هناك حركة مفاجئة، ويصيح رياض.

- من هنا؟

يقفز آرت من النافذة، متشبِّثًا بشيء أبيض أمام صدره.

فأمسك به، وأجذبه ليقف، ثم نركض بأسرع ما يمكننا.

53
نور

عاد الإمام شفيق إلى البيت الساعة السابعة بعد صلاة المغرب، فأغلقت بسرعة حلقات Crown of Fates التي أشاهدها منذ عدت من المدرسة، لكن ليس قبل أن يراه، فيضحك بشدة لدرجة أنني أظن أنه سيسقط كيس الطعام الجاهز.

وقال: «لا أستطيع الانتظار حتى أخبر خديجة. لقد ضبطتها تفعل الشيء نفسه قبل أسبوعين، يمكننا أن نشاهد معًا الحلقة الجديدة يوم الأحد. فقط تقبلي ذلك يا نور، تقبلي الدنلينيان بداخلك».

أتت خديجة من الجراج: «لا تتقبلي بداخلك هذا الشيء...».

قال شفيق: «دن-لين-يان. لا تتظاهري بأنك لا تعرفين ما يعنيه يا خديجة».

أخذا يتشاحنان، ويساعدني الاستماع إليهما على تجاهل حقيقة أنني يجب أن أتخذ قرارًا الليلة بشأن صفقة الاعتراف بالذنب. لقد ناقشتها مع خديجة بالفعل كثيرًا جدًّا حتى أصبح من اللازم اتخاذ قرار.

لكنني أظل أفكر في صلاح الدين، في الأمل الذي لديه. ثم أهز رأسي، صفقة الاعتراف بالذنب هي أفضل أمل لدَي.

قلت مقاطعة شفيق في منتصف جملة: «أريد قبولها». ثم أشعر بالذنب لأنني قاطعته: «أنا آسفة. أعتقد أنه أفضل شيء يمكنني فعله».

أخذت خديجة نفسًا عميقًا، وقالت: «سأتحدث إلى مايك ماهوني مرَّة أخرى، لأرى ما إذا كان بإمكاننا تقليص فترة مراقبة السلوك، وإسقاط التهمة الجنائية. ومع الالتزام بالسلوك الحسن يا نور، يمكنك الخروج بعد ثمانية عشر شهرًا فقط، بكل سهولة».

رن جرس الباب، وعلى الفور تمسك خديجة بهاتفها، ويسحب شفيق سكين مطبخ لا أستطيع حقًّا تخيله يستخدمه.

قال: «نور، اتجهي إلى الباب الخلفي من فضلك، وإذا حدث أي شيء، اركضي إلى منزل السيدة مايكلز، اتفقنا؟ إنها...» نظر شفيق من خلال ثقب الباب: «آه».

فتح الباب، وحتى تحت ضوء الشرفة الخافت ومن خلال الباب الشبكي، أميز الجسد الطويل والكتفين العريضتين والشعر الداكن المموج، صلاح الدين.

«هل يمكنني... الحديث... إلى... نور؟» يعلو صدره ويهبط وهو يحاول التقاط أنفاسه، ويتصبب عرقًا على الرغم من أن الجو في الخارج لطيف، فشهر مايو هو الوقت الوحيد في العام الذي لا يكون فيه الطقس في جونيبر مريعًا. أتحرك نحو الباب، لكن خديجة هناك بالفعل.

قالت: «بالطبع لا. لا يمكنك أن تكون هنا».

«اسمع». يضع شفيق يده على كتف صلاح الدين: «لنسير معًا، هي...».

«لقد قُبِلتِ». هز صلاح الدين ظرفًا أبيض كبيرًا: «نور... جامعة كاليفورنيا (لوس أنجلوس)، لقد قُبِلتِ».

أندفع متجاوزة خديجة. يتوارى آرت في نهاية الشارع في سيارته الكامارو السوداء، متظاهرًا بأنه لا يشاهد.

قالت خديجة: «نور، لا أعتقد...».

قال صلاح الدين: «دقيقتين فقط، أعرف أنك غاضبة، أعرف أنك تكرهينني، لكن امنحيني دقيقتين فقط، ثم سأختفي وحتى لن أقول اسمك مرَّة أخرى أبدًا».

قلت لشفيق: «لا بأس». فينزل يده أخيرًا. وتوجه لي خديجة نظرة معناها *إذا جعلك فقط تعبسين، سيموت*.

«سيبقى الباب مفتوحًا». تغلق الباب الشبكي، لكن لا تتراجع تمامًا.

مد صلاح الدين يده بالظرف لي. إنه أبيض، متجعد قليلًا، والختم في الزاوية يقول جامعة كاليفورنيا (لوس أنجلوس) بحروف كبيرة بارزة.

قال: «آسف لأنني فتحته. لقد توقعت أنه خطاب قبول لأنه كبير جدًّا، لكنني أردت أن أتأكَّد».

عزيزتي نور

تهانينا. نحن...

لا أقرأ الباقي، وأضع الورقة على سياج الشرفة، بسرعة. إنها مزيفة، لا بد أنها كذلك.

أنتِ أفضل من هذا المكان. تستحقِّين أكثر من هذا المكان.

- لكنني لم أستطع الدخول على المنصَّة الإلكترونية، مع أنني حاولت مرَّات عديدة.

قال صلاح الدين: «ليس لأنهم رفضوكِ. لا بد أن عمَّك فعل شيئًا ما، غَيَّر اسم المستخدم أو كلمة السر».

أو ألغى حسابي تمامًا. هذا بالضبط من نوع الأشياء التي قد يفعلها.

قلت: «لكن كيف عرفت؟ وكيف حصلت على هذا؟».

أجاب صلاح الدين: «لا تقلقي بشأن ذلك. اسمعي يا نور، لا تقبلي صفقة الإقرار بالذنب. انظري إلى ما فعلتِ، لقد قُبِلتِ في إحدى أفضل الجامعات في البلد، بل في العالم، وإذا قبلتِ الصفقة، ستفرطين في ذلك».

- حتى لو كان معي المال اللازم لأذهب...

قال: «هناك مساعدة مالية لكِ، منح وعمل دراسي. يمكنك الذهاب يا نور، لكن ليس وأنتِ مدانة جنائيًّا».

- الموعد النهائي للموافقة...

قال: «اللعنة على الموعد النهائي. اتصلي بهم، اجعلي خديجة تتصل بهم، أخبريهم بالحقيقة، ستكتشفين حلًّا ما. نور، هؤلاء الشباب...» يمسك بخطاب

القبول ويشير إلى صورة بها مجموعة من الطلاب الضاحكين الذين يقفون على عشب أخضر أمام برج يذكرني، بصورة غريبة، بمسجد بادشاهي: «يجب أن تكوني واحدة منهم».

خفت صوت الغضب برأسي، لقد آمن بي صلاح الدين، طالما آمن بي، والآن يعطيني سببًا لأحارب من أجله.

لكن لولاه، لم أكن لأحتاج إلى ذلك السبب من البداية.

أريد أن أقطع المسافة بيننا، أن أنظر إلى عينيه حيث أكثر مكان آمن ذهبت إليه، أن أشعر بأصابعه على خصري، بجسده بالقرب من جسدي.

يصبح فجأة غير واثق، فتعبث يداه الرشيقتان بالخطاب. أعرف أنه يمكنه الشعور بما بيننا، بتلك الشرارة، بتلك الرغبة.

يخطو للأمام مفعمًا بالأمل، إذ نترنح على حافة المسامحة.

لكن عند رؤية الضوء يلمع في عينيه، أتذكر كل ما سنضطر إلى خسارته، وبخاصَّة الآن بعدما أصبح لديَّ مستقبل أحارب من أجله، أدرك كم أصبح من غير المحتمل أن أرى ذلك المستقبل.

تصاعد غضبي مجددًا، أقوى من قبل، كأنه كان يتمرن ويقوي عضلاته منتظرًا أن يوجه الضربة القاضية. أنا فيونا آبل تقطر سمًّا في «اذهب» (get gone)، جوليان كازابلانكاس وذا فويدز يمزقون القيثارات في «حيث لا تطير النسور» (Where No Eagles Fly).

قلت: «هذا لا يصلح أي شيء. أنت تعرف ذلك، أليس كذلك؟ ما زال من الممكن أن يُحكَم عليَّ بسنوات في السجن».

انخفض وجهه، وقال: «أعرف. لقد اعتقدت...».

قلت: «لقد أخبرتك بالكثير مما قالته والدتك في الليلة التي ماتت بها، لكنني لم أخبرك بآخر شيء قالته». لا تزال الذكرى قريبة ومؤلمة، فصمت صلاح الدين.

- لقد قالت 'سامحي'. أعتقد أنها كانت تعرف أنك صديق رديء سيحتاج إلى المسامحة، لكنك لا تستحقها، فأنت لم تكن موجودًا من أجلها. أنا أمسكت بيدها في لحظات موتها، أنا عرفت أنها مريضة وأنت لم تلاحظ، أنا طلبت منها الذهاب إلى الطبيب. تقول إنني لم أعرفها،

لكنني عرفتها، وكانت تستحق أفضل منك. أنت حتى لا تستطيع غسل الملابس يا صلاح الدين. أنت حتى لا تستطيع تحمل هذا.

وأدفعه بعنف، فيجفل وأشعر بحرارة في وجهي كأنني صُفِعت للتَّوِّ، مع أنني من دفعه.

تلتهب يدي. *توقفي يا نور، هذا خطأ*. لكنني لا أستطيع التحكم في نفسي.

«من الأفضل أن تعتاد ذلك». الآن تتدفق دموعي ويرتعش صوتي: «لأنك ستذهب إلى السجن، وهناك لن يبالي أحد بما يؤذيك».

أدير له ظهري، وأحاول ألا أرى الصدمة على وجهَي خديجة وشفيق.

سامحي. ذلك ما قالته لي آنتي مصباح: *سامحي*.

لكن أعتقد أنني لست من النوع الذي يسامح.

54
مصباح

يناير، حينئذٍ

أفلتَت الأيام كالمياه من بين أصابعي. ثم في أحد أيام الأحد، راسلتني نور لتطلب مني ألا أذهب إلى متجر الكحوليات لشرب الشاي ومشاهدة Dilan dey Soudeh، قائلة إنها لديها الكثير من الواجبات المنزلية التي يجب إنهاؤها.

ثم بدأت تتجاهل رسائلي.

عندما سألت صلاح الدين عن الأمر، هز كتفيه وانصرف إلى غرفته. لقد صار أهدأ في الآونة الأخيرة، صامتًا في أثناء العشاء أو مختفيًا لساعات بعد المدرسة، إذ يعود بعد انتهاء تمرين كرة القدم بفترة طويلة.

«لقد تشاجر مع نور». توقف توفيق عن الشرب لبضعة أيام، بعد نوبة إرهاق جعلتني طريحة الفراش. «منذ شهر، عندما ذهبنا إلى الجبال».

«ما الذي تشاجرا بشأنه؟» وكيف أمكنني ألا ألاحظه؟

لكن لم يكن ليختلف هذا عن سؤال توفيق بشأن أداء صلاح الدين في آخر مباراة كرة قدم لعبها.

ماذا أفعل؟ لقد أحببت نور كأنها ابنتي، لكنني ليس لي الحقُّ في مطالبتها بشيء. لو كانت ابنة أخ من دمي، كنت لأزور بيتها وأتحدث مع عمها.

لكن على مدار أحد عشر عامًا، لم يتوقف شوكت رياض عن إطلاق الأحكام علَي، وبعدما أَدرَك أنني تكلمت مع نور بالبنجابية وقدمت لها طعامًا باكستانيًّا، توقف عن تركها معي. لقد كان يكره وجودي في حياتها، ومن ثم الذهاب إلى بيتها لم يكن ليؤدي إلا إلى تعريضها لمشكلة.

مرت أسابيع، وظللت أراسل نور لكنها لم ترد قط، لكنني لم أستطع التوقف عن التفكير فيها، وأخذت ألحُّ على صلاح الدين بالسؤال كثيرًا جدًّا لدرجة أن حتى صبره، الذي كان يشبه صبر والده أكثر مما يشبه صبري، نفد.

انفجر قائلًا: «إنها بخير، آما، حسنًا؟ إنها غاضبة مني بسبب شيء غبي».

ومن ثم ذهبت لرؤيتها في الأحد التالي، بعد نحو خمس عشرة دقيقة من فتح المتجر، ألقيت عليها السلام، ثم وجدت خبزًا وحليبًا ووضعتهما على الطاولة أمامها.

وقلت لها بالبنجابية: «لا أعرف ما الذي حدث مع صلاح الدين، دي. لكنني أحتاج إلى مشاهدة Dilan dey Soudeh، وإما تشاهدينها معي وإما أفعل ذلك بمفردي، لكنني لن أنتظر بعد الآن».

دخل زبون آخر وتنحيت جانبًا.

«أنا آسفة، آنتي. يجب أن تشاهديها من دوني». بدا صوت نور مهزومًا للغاية، لا يشبه بتاتًا الفتاة التي تجادلت معي بشأن نصرت فاتح علي خان. مدت يدها لأعلى نحو رف السجائر عندما طلب الزبون مارلبورو 100s.

وعندئذٍ رأيت الكدمة، صفراء وبنفسجية على بشرتها السمراء.

فقلت عندما رحل الزبون: «نور، ما الذي حدث لذراعك، ميري دي؟».

جَفَلَتْ وعرفْتُ، عرفْتُ الأمر في عظامي.

لقد لعب رياض دور عالم الرياضيات المهذب أمام زبائنه، المهاجر المستنير الذي قُدِّر له بقسوة أن يدير متجر كحوليات مع أن عقله مهيَّأ لشيء أعظم.

لكنه كان يحتقر النساء، بل أسوأ من ذلك، كانت لديه مرارة تغلي بداخله، كنمر غاضب محبوس ومسعور.

- آنتي مصباح؟ هل أنتِ بخير؟

نادتني نور وتساءلتُ لكم من الوقت كنت أحملق في الفراغ. ألقيت نظرة على ذراعها، لكن الكدمة كانت مخفية الآن.

لم أعرف ماذا أقول لأنني كنت بحاجة إلى التفكير. ذات مرَّة فيما مضى، اشتبهت بوجود شيء خاطئ واتصلت بالشرطة، لكنهم لم يفعلوا شيئًا.

لكن نور صارت أكبر عمرًا حينذاك، وربما كانت الشرطة لتصدقها إذا أخبرتهم أن رياض كان يؤذيها. وكذلك كانت ستبلغ ثمانية عشر عامًا بعد أسبوعين، كان بإمكانها أن تترك رياض، وتأتي لتعيش معنا أنا وصلاح الدين وتوفيق.

كنت بحاجة إلى الحديث مع دكتورة إليس، فقد كان وجودها هدية قَيِّمَة على مدار السنوات، وكانت تفهم صغار السن، ربما تعرف ما هو الأفضل.

«أنا... ينبغي أن أذهب». جررت قدمَي بعيدًا بسرعة: «أشعر أنني لست على ما يرام».

- أيجب أن...

صحت لكيلا تتبعني: «أنا بخير». لقد نسيت الحليب والخبز، لكن لا يهم، شققت طريقي إلى السيارة وقدتها إلى البيت.

لكن في مدخل السيارات أمام الموتيل، نفد حظي. جلست في السيفيك، وكانت عضلاتي ثقيلة للغاية لدرجة أنني شعرت كأنني أذوب في قماش المقعد الساخن، ورفضت عظامي أن تعمل، لم أستطع رفع ذراعي، لم أستطع حتى إيقاف محرك السيارة.

- آما؟

وقف صلاح الدين أمام النافذة، مقطِّبًا جبينه، فيبدو الخط العميق على جبهته مشابهًا تمامًا لجبهة والدتي.

قلت لابني: «هل كنت تعرف أنها أمطرت في اليوم الذي أخبرتني به جدتك أنني سأتزوَّج؟ دلاء ودلاء من المطر. ثم ذهبتُ إلى عرافة بعد...».

«آما». سمعت الخوف في صوت صلاح الدين بينما كان يساعدني لدخول المنزل: «هل تحتاجين إلى دوائك؟».

فهمست: «وقت. أحتاج إلى وقت، بوتر».

لكنه لم يستطع منحي الوقت، لم يستطع أحد.

55
نور

يونيو، الآن

نرفض صفقة الاعتراف بالذنب، وتريدني خديجة أن أدلي بشهادتي.

«إذا صعدتِ إلى منصَّة الشهود وأخبرتِ المحكمة بما حدث حقًّا، ستنقلين صورة قوية إلى هيئة المحلفين». تقدِّم خديجة الحُجَّة نفسها كل ليلة، وهي تسير ذهابًا وإيابًا في غرفة المعيشة ونستمع إليها أنا وشفيق. «ستظهرين أنك مستعدة لتحاربي من أجل مستقبلك».

لكنني لا أريد أن أحارب، فأنا خائفة جدًّا من الخسارة.

وأخيرًا في الليلة السابقة للتخرج، تلقي خديجة بيديها على طاولة العشاء وتقول: «لا يمكنني أن أجبرك على الإدلاء بشهادتك. إذا لم تريدي أن تكوني على تلك المنصة، سيكتشف المدَّعي العام ذلك وسيستغل الفرصة للضغط عليكِ. لكن على الأقل أيمكنك فعل شيء واحد لي؟».

فأنظر إليها مرتابة، وشفيق بجانبها يحاول أن يخفي ابتسامته.

«اذهبي إلى حفل التخرج». تختفي خديجة في غرفتها ثم تعود ممسكة بقبعة ورداء لونهما أخضر داكن، وأتذكر بوضوح أنني لم أطلبهما. «ستندمين إذا لم تذهبي».

وعندما آخذهما منها، تصفق.

***

الآن، وأنا أجلس في ملعب كرة القدم في وسط زملائي، أشعر بالسعادة لأنني أتيت، فقد عملت جاهدة من أجل هذه اللحظة. منذ إلقاء القبض علَي، كرهت كل لحظة في المدرسة، لكن أشلي كانت محقَّة حين قالت إن الروتين يساعد، وظلت خديجة طوال الوقت حتى آخر يوم تحثُّني من أجل بذل قصارى جهدي في كل المهام المدرسية.

كانت تقول: «لم أمضِ أسبوعًا كاملًا أتعقَّب عميد القبول بجامعة كاليفورنيا (لوس أنجلوس) لكي تتكاسلي».

أجد نفسي أنظر حولي متسائلة ما إذا كان صلاح الدين جاء. بعدما أخبرني بشأن جامعة كاليفورنيا (لوس أنجلوس)، توقف عن محاولة الحديث معي. لقد تخرج، فاسمه مكتوب في برنامج الحفل، لكنه ليس هنا.

«على الأغلب شعر بالقلق من أن يفسد الحفل لكِ إذا جاء». تتجاهل أشلي ترتيب المقاعد وفقًا للأبجدية الذي وضعه إرنست وتجلس بجانبي، وحبيبها جون على جانبها الآخر.

- هل قال ذلك؟

هزت أشلي كتفيها: «أسأليه بنفسك عندما ترينه».

أتعنين في المحكمة بعد بضعة أسابيع؟ أظل صامتة، فلا أريد أن أفسد المزاج.

بينما تعزف فرقة المدرسة نسخة خارجة عن اللحن من أغنية «البهاء والظروف» (Pomp and Circumstance)، أغبى أغنية تخرج على الإطلاق، يحدث اضطراب ما بالقرب من المسرح.

وتهمس أشلي: «نور، انظري»، فأرى مدرسًا لا أعرفه يهرول نحو المدير إرنست ويمُدُّ إليه هاتفًا.

ويتهامس الطلاب الذين بجواره بصوت وشوشة ينتشر سريعًا حتى يصل أخيرًا إلَي أنا وأشلي.

يهمس جون: «لقد شاهد فيديو على حساب شخص ما على مواقع التواصل الاجتماعي، **الفيديو**، والآن يقرأ المقال».

فألتفت إلى أشلي وأسألها: «أي فيديو؟». فيبتسم جون ابتسامة واسعة.

- أي مقال؟

«ألم أخبرك؟» تبتسم أشلي وتخرج هاتفها: «لقد التقطت فيديو للخطاب الصغير الذي ألقته جيمي في ذلك اليوم، وأرسلته إلى عميد القبول في جامعة برنستون، وحين لم يأتِني ردٌّ، فهمت أنني يجب أن أرسله إلى مكان آخر». مدت لي هاتفها مفتوحًا على مقال في Feedbait:

تعنيف عنصري يكلف فتاة بالمدرسة الثانوية بكاليفورنيا مستقبلها

تعرَّضت جيمي جينسن، البالغة من العمر 18 عامًا، لأزمة هذا الأسبوع عندما سجَّل لها أحد زملائها فيديو تلقي فيه خطبة عنصرية لمهاجمة طالبة أخرى.

صرَّحت إحدى طالبات السنة النهائية بجونيبر الثانوية، التي فضلت عدم الكشف عن هويتها، قائلة لموقع Feedbait: «لقد استمر هذا طوال العام. إنها عنصرية، وقد حاولتُ إخفاء تلك الحقيقة لكنها ظهرت للعلن أخيرًا».

أفاد المدَّعي العام في كاليفورنيا، جيمس أتكينز، بأنه على الرغم من أن كلمات جينسن بغيضة، فإنها لم ترتكب جريمة على وجه التحديد.

وعلى صعيد آخر، أصدر عميد القبول في جامعة برنستون، نيكولا واتسون، بيانًا يُنُّص على: «نأخذ نزاهة هذه المؤسَّسة على محمل الجدِّ، وتتجلَّى تلك النزاهة في طلابنا. كما نؤمن بأن الكلمات والمقصد من ورائها أمور مهمة، ومؤشِّر على قدرة الطالب على المساهمة في إثراء ثقافة برنستون. ومن ثم، نظرًا لأن سلوك الآنسة جينسن يُعَدُّ انتهاكًا مباشرًا لقواعد

السلوك بالجامعة، فقد ألغينا عرض القبول المقدَّم لها».

ومن المتوقَّع أن تحذو حذوها الجامعات الأخرى التي قبلت التحاق الآنسة جينسن بها. هذا ولم يكن مُمكنًا بالآنسة جينسن للتعليق.

يسرع المدير إرنست إلى جيمي، التي تردِّد لنفسها خطبة الوداع غافلة عما يحدث، ويحمَرُّ وجهها بشدة عندما ينحني إرنست بجانبها ويهمس شيئًا.

ثم بعد لحظات، يصعد على المسرح وينادي الأسماء التي تبدأ بحرف الألف، متجاوزًا خطاب جيمي تمامًا.

قالت أشلي بابتسامة عريضة: «أعتقد أنها لن تذهب إلى جامعة برنستون في النهاية». ثم تلكزني بكتفها: «وأنتِ، سمعت أنك ستذهبين إلى جامعة كاليفورنيا (لوس أنجلوس)».

أكاد أقول لها لا، لكنني أتذكر آنتي مصباح.

مشيئة الله كالماء، تجد المسار غير المعروف حين لا نستطيع العثور عليه.

قلت: «ربما».

نرمي قبعاتنا في الهواء، وجون وآشلي يتعانقان ويهتفان، وتكتسح العائلات الملعب، ثم يجدني خديجة وشفيق وهما يقفزان ويهتفان كأنني ابنتهما.

«هل تعتقدين حقًّا أنني يمكن ربح القضية؟» لا أعرف كيف تسمعني خديجة، فالجميع صاخبون للغاية، لكنها تسمعني.

تمد يديها لتمسك بوجهي بينهما، وتبدو قوية جدًا في تلك اللحظة لدرجة أنني أجد نفسي أكثر يقينًا: «أعتقد أن هناك أملًا دائمًا».

أغمض عينَي وأسمع آنتي مصباح. *سامحي.*

أنا آسفة، آنتي مصباح. لست مستعدة للمسامحة بعد.

لكنني مستعدة للمقاومة.

56

سال

مكتبة
t.me/soramnqraa

بعدما وجدت آبو منتحبًا وبكامل ملابسه تحت دش أصبح باردًا، ومُلقًى أمامه زجاجة ويسكي مكسورة على البلاط، اتصلت بالإمام شفيق.

«لا تنهي المكالمة، لا أتصل بشأن نور بل آبو، إنه..إنه...» دفعني الخوف إلى الحديث بسرعة جدًّا: «إنه يحتاج إلى مساعدة، نحن نحتاج إلى مساعدة».

وصل الإمام شفيق سريعًا جدًّا لدرجة أنني أتساءل ما إذا كانت لديه قوى خارقة لم يذكرها من قبل. أكاد أقول له ألا يبالي، وإن الأمر لا يستحق العناء، لكنه ترك العمل ليكون هنا. فأقول لنفسي: *لا يوجد ما يشعرك بالخجل، والإمام شفيق يفهم هذا.*

عندما دخلنا الحمام، قال آبو لنا: «اذهبا... اذهبا بعيدًا». تنزف قدماه من كل مكان. «لا أحتاج إلى مساعدتكما».

أغلقت المياه وقلت: «آبو... أرجوك...».

قال متلعثمًا: «ما الداعي؟ ما...».

فانفعلت عليه: «أنا الداعي. كانت آما الداعي، وقد استحقت أفضل من هذا. وأنا أيضًا أستحقُّ أفضل منه».

ينهار والدي ويفرك وجهه بيديه، ثم يوشك على الحديث لكنني لا أسمح له، لأنني إذا تركته يتكلم وأخبرني أنه يفتقدها أو أنه محطم من دونها، فلن تكون لديَّ الشجاعة لأكمل ما أحتاج إلى أن أقوله، ما يحتاج إلى أن يسمعه.

«لقد تركتني بمفردي لشهور، آبو. والآن ربما أذهب إلى السجن، ونعم، هذا خطئي، لكنه حدث أيضًا لأنني لم أعرف ما الذي يمكنني فعله وأنت لم تكن هنا لأسألك». ينظر آبو إلى أعلى الآن، منزعجًا. *هذا* جيد، *كن مستاءً، كن غاضبًا، أي شيء ما عدا خاويًا*.

- أقرُّ بأخطائي، لكنك من توقف عن أن يكون أبًا لي، بينما لم أتوقف قَطُّ عن أن أكون ابنك. ولا يمكنك أن تستسلم ببساطة لأنك تشعر بالألم، فأنت تحتاج إلى القيام بما هو أفضل من أجلي. نحن الموجودون يا آبو، أنا وأنت، إنما هي لن تعود مرَّة أخرى.

ظل آبو صامتًا لفترة شعرت كأنها الأبد، فيخطو شفيق إلى الأمام ويمسك بإحدى يديه وأمسك أنا بالأخرى، ثم نجذب آبو ليقف.

بعدما ننظف جسده وأضع الضمادات على قدميه، نخلي أنا وشفيق البيت من كل نقطة كحول، وعلى الرغم من أنني أعرف أنها لن تكون آخر مرَّة أفعل بها هذا، فما زلت أشعر براحة.

في الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي، يأتي شفيق ومعه جانيس، راعية آبو.

وقالت عندما أخبرتها عن انتكاسة آبو: «لا يمكنني أن أعدك بأي شيء يا سال، لكنه إذا ألزم نفسه بالذهاب إلى الاجتماعات، إذا تحمل المسؤولية، سأظل موجودة لمساعدته طوال الطريق».

عندما أتى وكيل العقارات ليرى الموتيل بعدها بأسبوع، كان آبو واعيًا. سبعة أيام، أطول مدة أمضاها من دون شرب منذ أكثر من عام. طلب مني آبو الجلوس معهما، وعندما اقترح الوكيل سعرًا مقابل الموتيل، سألني آبو عن رأيي.

تُعَلَّق لافتة أمام الموتيل، ويضع وكيلنا، السيد سينج، إعلانات في الصحف الهندية والباكستانية والصينية والكورية.

قال: «هذه أسرع طريقة للحصول على مشترٍ، لنأمل أن ينجذب شخص ما».

وفي النهاية، يأتي العرض من زوجين هنديين غير تقليديين في الثلاثينات من عمرهما، يأملان في تأسيس فندق مبيت وإفطار. تلمع أعينهما عندما

يسيران عبر المكان، ينظران إلى ما هو أبعد من الطلاء المتقشر والسقف المتهالك وموقف السيارات المتصدع.

قال أحدهما: «أحب الاسم، كلاودز ريست، إنه مثالي».

يرى كل منهما المكان بالطريقة التي كانت آما تراه بها، ما يمكن أن يصبح عليه. وينغرز حماسهما كالسكين بداخلي، لكنه أيضًا يمنحني أملًا، فتمر برأسي إحدى أغاني نور القديمة «السيمفونية الحلوة المرة» (Bittersweet Symphony).

«لن أبيعه إذا لم ترغب في ذلك». نجلس أنا وآبو لتناول العشاء بعدما اتصل السيد سينج ليخبرنا بالعرض. يحتوي الكاراهي على الكثير من الملح الليلة، لكنني لا أبالي بتاتًا لأن آبو هو من أعده لي.

قلت قبل أن أغير رأيي: «هذان الزوجان مثاليان. اقبل العرض، فالمحاكمة ستبدأ الأسبوع القادم ولا يمكنك إدارة هذا المكان بمفردك».

قال آبو: «والدتك فعلت ذلك».

قلت: «كانت هذه آما، وهذا أنت». ونظل صامتين لفترة طويلة قبل أن أتحدث ثانيةً.

أقول: «أخبرني عنها، آبو. أخبرني الأشياء التي لا أعرفها».

ولدهشتي، يسترخي في مقعده ويبتسم، ثم يقول: «التقيتها لأول مرَّة في مقهى، وكان أخوها مشرفًا على المقابلة. لقد كنت متوتِّرًا للغاية...».

بينما يتحدث، أفكر في كل ما علمتني أمي إياه: كيف تحب شخصًا ما حبًّا غير مشروط، وأنك يمكنك العثور على السعادة في الانتصارات الصغيرة، وأن المسامحة هدية للشخص الذي يمنحها والشخص الذي يحصل عليها.

لكن عندئذ يذكرني الغضب الذي يبدو أنه مقيم للأبد في عقلي بكل ما لم تعلمني آما إياه، أن الحب غير المشروط ليس دائمًا أفضل شيء لنا، وأن الانتصارات الصغيرة ليست دائمًا كافية.

أن هناك بعض الأشياء لا يمكن مسامحتها.

عندما ينهي آبو قصته، أطلب منه قصة أخرى، ثم واحدة أخرى، حتى يتأخر الوقت ويقف أخيرًا: «يجب أن نزور والدتك لنخبرها بأننا سنترك المكان».

وفي اليوم التالي، يذهب آبو إلى قبر آما حاملًا زهورًا ومصحفًا، ومرتديًا شالوار كميز طالما أحبته آما.

لا أذهب معه، فقد أصبح البقاء بعيدًا عادة لدي، وأشعر بالخجل، فأنا لم أَصِرْ ما كانت تأمله مني، لقد خذلتها، وخذلت آبو، وخذلت نور، وخذلت نفسي.

لا أذهب إلى قبرها لأنني لا أريدها أن تعرف هذا عني، ولأن ما زال هناك جزء بداخلي يأمل في أن أستطيع بطريقة ما تصحيح الأمور.

57
سال

يوم أن ألقى مارتن كلمته الافتتاحية، كانت محكمة فريارسفيلد شديدة الحرارة، وهو ما كان يجب أن أتوقَّعه إذ جئنا إلى هنا أنا ونور وخديجة ومارتن على مدار اليومين الماضيين من أجل اختيار هيئة المحلفين.

لكن لا تزال الحرارة أسوأ من أمس، ولذا يبدو كلٌّ من مُدَوِّن المحكمة وموظَّف المحكمة والنبتة الصغيرة الموضوعة على منصة القاضي مانويل أورتيجا في حالة ذبول.

حتى في برامج الجريمة حيث من المفترض أن يبدو كل شيء واقعي خشنًا، تظهر المحاكم بتلك الصورة السينمائية المميزة، لكن هذه المحكمة واقعية بطريقة مملة واعتيادية، غير جذابة ومثيرة للحزن نوعًا ما.

يبدو القاضي أورتيجا نفسه غير متأثر. إنه رجل ضخم، وتنعكس الإضاءة الفلورية انعكاسًا باهتًا على رأسه الأصلع ذي اللون البني. عندما يتجه نحو غرفته، يصمت الجميع، وعندما يوشك على الحديث، يحبس الجميع أنفاسهم.

مما يجعلني أكثر توتُّرًا. تعلو منصة القاضي درجتين فحسب عن المكان الذي نجلس به أنا ومارتن، لكن من هنا بالأسفل يبدو كأنه نصف إله من نوعٍ ما، مستعد لتطبيق العدالة بلا رحمة.

أجلس شاعرًا بحكة مزعجة في هذه البدلة، وأحدق إلى ختم ولاية كاليفورنيا الذهبي الضخم على الجدار الخلفي، محاولًا أن أبدو هادئًا ومسؤولًا ويوضح المدعي العام، السيد ماهوني، القضية ضدِّي أنا ونور بتفصيل لاذع مهين.

دائمًا يدخل ماهوني قاعة المحكمة مرتديًا معطف أمطار فوق بدلة مجعَّدة، بغَضِّ النظر عن حالة الجو، وليس اليوم مختلفًا. يجعله هذا يبدو مسالمًا ومشتت الذهن، لكنه أي شيء غير هذا.

يجلس آبو في القاعة خلفي، ولم أكن يومًا أكثر سعادة لأنني لا أستطيع رؤية وجهه.

كلمة الأخت خديجة الافتتاحية -التي تدور معظمها حول أنني مجرم بلا ضمير ورط نور في جريمته- تمر في لمح البصر.

ثم يقف مارتن ويتحدث عن تاريخ حياتي، وفاة آما، صداقتي مع نور. وتشاهد هيئة المحلفين مارتن بالانتباه نفسه الذي شاهدوا به خديجة والسيد ماهوني. أحاول ألا أحدِّق إليهم، فإذا كنت أجلس بهذا المكان لأقرر مستقبل شخص ما، لن أريد أن يجعلني هذا الشخص متوتِّرًا.

«يعاني موكلي مشكلة تعاطي». بدلة مارتن السوداء وربطة عنقه الزرقاء الداكنة يجعلانه يبدو حزينًا وهو يتحدث. «التي يجب أن يتعالج منها، لكن كمِّيَّة المخدِّرات الضخمة التي عُثِر عليها في سيارته كانت أسفل مقعد آنسة رياض، وتحت حقيبة ظهر الآنسة رياض».

ما هذا بحق الجحيم؟

يتصلَّب ظهر نور، فتضع خديجة يدها على معصمها لتطمئنها، لكنها تحملق أمامها مباشرةً من دون تعبيرات على وجهها.

قال مارتن لهيئة المحلفين: «سيقدم الادعاء حجة أن موكلي اعترف بجرائمه المزعومة في أثناء حديثه مع الشرطة، لكنني أؤكد أن الآنسة رياض استغلت سنوات صداقتها الطويلة بصلاح الدين في محاولة لدفعه إلى تلقي اللوم بدلًا منها، أنها تلاعبت بفتى فقد والدته للتَّوِّ لكي يكون جزءًا من مخطَّطها لكسب المال».

تلتفت نور لي ويظهر غضبها خالصًا وشديد الحرارة.

فأهس عليه: «مارتن، لقد قلت إنك لن تلصق التهمة بها...».

بينما يتصفَّح القاضي بسرعة مجموعة من الأوراق يهمس: «عملي هو أن أدافع عنك يا صلاح الدين، حتى إذا كان ذلك يعني الدفاع عنك أمام نفسك. اسمح لي بالقيام بعملي».

قال أورتيجا شيئًا ما للسيد ماهوني، وقد شاهدت ما يكفي من حلقات «القاضية جودي» لأدرك أن التسبُّب في ضجَّة حين يتحدث القاضي فكرة غبيَّة.

نظرت إلى نور، وابتلعت ريقي عند رؤية السخط في عينيها.

لكنني لا أنظر بعيدًا. تعتقدين *أنني لا يمكنني إصلاح هذا، لكنني أستطيع، وسأصلحه أقسم لكِ.*

***

في اليوم التالي للمرافعات الافتتاحية، تُقَدَّم الأدلة ويُستَدعَى الشهود. وأشعر كأن هذا سيستمر إلى الأبد لأن السيد ماهوني وخديجة ومارتن كلهم لديهم مليار سؤال.

تأتي أولوتشي، رئيسة نور في المستشفى، كشاهدة سلوك. ويحاول السيد ماهوني أن يجعلها تقول إنه من المحتمل أن تكون نور قد سرقت أدوية من دون أن ينتبه إليها أي شخص، لكن أولوتشي لا تنخدع بذلك.

وتقول أخيرًا: «كم مرَّة يجب أن أقول لك 'لا'؟ لم يكن لدى نور إمكانية الوصول إلى أي مستحضرات دوائية. إنها مساعدة رائعة بالمستشفى، ويومًا ما ستكون طبيبة رائعة».

يدلي كلٌّ من الضابطة أورتيز، التي فتَّشت نور، والضابط ماركس بشهادتهما. أورتيز واضحة تمامًا، لكن ماركس يجعلني أنا وخديجة نفقد أعصابنا.

سأل ماهوني ماركس: «كيف تصف الآنسة رياض عندما أخرجتها من السيارة في بادئ الأمر؟».

فأجاب ماركس: «مراوغة». يصدر الميكروفون صوتًا مزعجًا وهو يتحدث: «كانت بالتأكيد تخفي شيئًا».

تتنهَّد خديجة، وحتى مارتن يدير عينيه.

ثم تقول خديجة: «أعترض يا سيادة القاضي. تكهُّنات...».

- مقبول. التزم بالحقائق أيها الضابط.

وسرعان ما يصبح الشخصان الوحيدان المتبقِّيان للشهادة هما أنا ونور، وهي أولًا. لم أتوقَّع منها أن تصعد إلى منصَّة الشهود، فهي تحبُّ الحديث أمام جمهور بقدر ما أحب غرفة الغسل.

لكن نور تظل هادئة عندما يدعوها القاضي، وتبدو مرتاحة في سترة البدلة السوداء التي ترتديها فوق قميص ورديٍّ فاتح. وعبر أسئلة خديجة عن المدرسة ودرجاتها وحياتها المنزلية، تجيب نور برصانة مُتقَنة.

- لكم من الوقت عرفتِ صلاح الدين مالك؟

قالت نور: «منذ كنت في السادسة من عمري، فقد التقينا في الصَّفِّ الأوَّل. لم أكن أتحدث أي كلمة بالإنجليزية وكان الطفل الوحيد الذي بدا أنه لم يمانع ذلك».

- أتقولين إنكما كنتما صديقين مُقرَّبَين؟

«سيادة القاضي». يقف السيد ماهوني، على الأغلب لأنه لم يقل أي شيء خلال ثلاثين ثانية على الأقل ويفتقد سماع صوته: «ما هي صلة هذه الأسئلة بالقضيَّة؟».

قالت خديجة بسلاسة: «أحدِّد أبعاد العلاقة بين موكلتي والمتهم يا سيادة القاضي».

قال أورتيجا: «سأسمح بذلك».

«كنا صديقين مُقرَّبَين». وتواصل نور الحديث لتحكي قصة إلقاء القبض علينا من وجهة نظرها، ويلحُّ عليها بالسؤال عن الكدمات والجروح التي كانت على وجهها في تلك الليلة، ويسألها عما إذا كنت أعتدي عليها، ويسألها مَنْ اعتدى عليها.

قالت نور مرَّة أخرى إنني لستُ مَنْ جرحها، لكنها لا تستفيض في الحديث، ولا يجبرها القاضي أورتيجا على ذلك. إنها المرَّة الوحيدة خلال الاستجواب التي تبدو فيها متوتِّرة بصورة ملحوظة.

ويجعلني هذا أكره رياض بشدَّة مرَّة أخرى.

عندما تجلس نور أخيرًا، تزفر زفرة طويلة وبطيئة.

وتتمتم خديجة: «تحدثتِ على أكمل وجه».

ينجرف انتباه نور إلَيَّ، كسيارة تنزلق فوق الخط المزدوج إلى مكان لا يجب أن تذهب إليه، ثم تنظر أمامها ثانيةً بسرعة، لكن ليس قبل أن أرى عينيها.

لم ألاحظ الأمر عندما كانت هناك بالأعلى، لكنني ألاحظه الآن. لم يعد غضبها، التحدِّي بداخلها، مقيدًا، فقد أصبح الآن حرًّا وموجَّهًا إلى هدف خالص. إنها غاضبة ولن تستسلم من دون مقاومة.

إذا كان لي أيُّ حقٍّ في ذلك، كنت لأفتخر بها.

همس مارتن: «حان دورك يا صلاح الدين. هل أنت مستعد؟».

لا أنظر إلى عينيه عندما أومئ برأسي، فإذا عرف ما أنا على وشك القيام به، لن يسمح لي أبدًا بالإدلاء بشهادتي.

لكنه قالها بنفسه: *من دون تدخُّل جذري؟ ستذهب نور رياض إلى السجن.* وهذا هو تدخُّلي الجذري.

كن شجاعًا. أستمدُّ جرأتي من ذكرى نور وهي تهاجمني، وهي تنفث غضبها كأنه سُمٌّ. لقد استحققت ذلك، ولا يغير حبي لها، فلا شيء يمكنها القيام به سيغير ذلك.

ما تغيَّر هو أنني لا أتوقَّع منها مسامحتي. لم أعد أتوقَّع ذلك.

ينادي القاضي اسمي، ويبدو صوته كأنه يأتي عبر نفق، فآخذ أنفاسًا عميقة. *شهيق لخمس ثوانٍ، وزفير لسبع ثوانٍ.* ثم تبرز ذكرى في عقلي ببطء: غرفة بيضاء على جدرانها ملصقات سمكة برتقالية، صوت الورق الذي على الكرسي تحتي، دكتورة إليس جالسة على مقعد، وآما تضع يدًا دافئة على صدري والأخرى على ظهري.

سألت آما دكتورة إليس: «هكذا؟»، فأومأت برأسها.

«حسنًا، بوتر». ابتسمت آما لي فعرفت أن العالم به شيء صحيح، حتى إذا كان كل ما في عقلي مضطربًا.

- *تنفَّس، شهيق لخمس ثوانٍ يا صلاح الدين، وزفير لسبع ثوانٍ.*

يتساءل الفتى الصغير بداخلي بشأنها وأنا أشق طريقي إلى منصة الشهود، يتساءل ما إذا كانت تراقبني من مكان ما، أتساءل ما إذا كانت معي، أم أنا بمفردي.

- هل تقسم تحت طائلة عقوبة شهادة الزور أن الأدلة التي ستقدمها توضح الحقيقة، كل الحقيقة، ولا شيء إلا الحقيقة؟

لا يقولون «فليُعِنك الرَّبُّ» كما اعتقدت أنهم سيفعلون، لكنني أقولها في رأسي، من أجل آما.

- أقسم.

فيومئ القاضي برأسه: «إذن لنبدأ».

58
نور

كانت الأخت خديجة واثقة طوال المحاكمة، كتفاها مستقيمتان وصوتها واضح، لكن أكثر ما كانت تعبِّر به عن مزاجها هو حجابها.

أخبرتني اليوم صباحًا في طريقنا إلى المحكمة: «الأحمر الداكن عندما يحين وقت المقاومة، والبنفسجي حين أحتاج إلى السيطرة، والأحمر والأبيض والأزرق...».

- من أجل موريكا[1]؟

فتقول خديجة: «من أجل الانتصار».

إنها ترتديه اليوم. تمتزج الألوان معًا، ويتناسب اللون الأزرق مع محدِّد عينيها الداكن.

لكن عندما يصعد صلاح الدين إلى منصة الشهود، لا تبدو خديجة منتصرة بل قلقة، وشفيق، الذي يجلس في القاعة خلفنا، يمد يده ليلمس كتفها كأنه يقول *أنا هنا*.

وبينما يسرد صلاح الدين بياناته الأساسية، أفكر في عائلتي. أختلق أشياء عنهم في رأسي: أبي كانت عيناه لطيفتين وتشبهان عينَيَّ في استدارتهما، وكان يغني لي أغاني بنجابية قديمة عندما لا أستطيع النوم. أما أمي، فشعرها

(1) إشارة ساخرة إلى الولايات المتحدة تدل على المبالغة في الفخر والانتماء الوطني.

كان طويلًا ويمتد إلى خصرها في ضفيرة سميكة، وعلمتني كيف ألعب الليدو والسلم والثعبان.

مجرَّد قصص، ذكريات مُختَلَقَة، فأنا لا أعرف أي شيء عن والدَي. ماذا كانت آمالهما لي؟ بماذا كانا يحلمان؟

ليس هذا. أشعر بحرارة في وجهي، فربما يراقبانني من مكان ما، ينظران إلى أسفل ويتساءلان عما حدث.

أترك الماضي ورائي لأستطيع الاستماع إلى صلاح الدين. يخبر المحكمة عن مدة معرفته لي بذلك الصوت العميق الواثق الذي يبدو الآن فقط مناسبًا لقامته الطويلة.

- لديَّ بيان أريد... أريد أن أقرأه إذا كان ذلك ممكنًا.

يبتلع صلاح الدين ريقه، ويرفع محاميه، مارتن، حاجبيه.

قال مارتن: «سيد مالك، يمكننا أن نعود إلى ذلك، لنتكلم عن الليلة محل النظ...».

«أريد حقًّا أن أقرأ البيان». يخرج صلاح الدين ورقة مطوية من جيبه: «سيوفر الكثير من الوقت، من وقت الجميع».

تعمَّد صلاح الدين النظر إلى الساعة، إنها 4:15 مساءً، وعادة تنتهي المحكمة بحلول الساعة الرابعة، لقد كان يومًا طويلًا.

قال القاضي أورتيجا: «سيد مالك، أجب عن السؤال الذي يطرحه عليك محاميك».

ألح صلاح الدين: «أرجوك... أيمكنك أن تستمع؟». ولم يعد صوته ثابتًا للغاية الآن.

تنهد القاضي أورتيجا، وقال: «سيد تشان، أتحتاج إلى دقيقة مع موكلك؟».

«لقد بدأت بيع المخدِّرات بعد أسابيع قليلة من وفاة والدتي». يفتح صلاح الدين الورقة ويبدأ قراءتها: «بعدما...».

قال مارتن: «أعترض. ربما لا يدرك موكِّلي...».

هَزَّ أورتيجا رأسه وقال: «لقد أثار اهتمامي الآن، اتركه يقرأ بيانه أيها المحامي». ثم قال لصلاح الدين: «أكمل يا سيِّد مالك».

«بعدما ماتت آما، أدركت أننا سنفقد الموتيل الذي أفنت حياتها كلها فيه. وكنت أشعر شعورًا مريعًا لأنني لم أنقذها من مرضها، لذا فكرت أنني يمكنني على الأقل أن أنقذ الموتيل، ولذلك السبب بدأت بيع المخدِّرات. لكنه كان سببًا سيئًا، إذ كان يجب أن أتقبَّل أن في بعض الأحيان بالحياة نفقد أشياء ووالدين وأماكن». يتوقف عن الكلام وبعد صمت طويل يقول: «وأصدقاء. في الليلة التي أُلقِي القبض عليَّ بها، كان معي كل مخزوني من المخدرات، ولم يكن أيٌّ من ذلك ملك نور رياض، كان كله ملكي».

«لم أخبر نور بأنني أبيع مخدرات، ولم تكن تعرف أنني أبيع مخدرات. لقد أصابني الذعر لأنني كنت أعرف أنني إذا أُخرِجت من السيارة وفُتِّشت، سأقع في ورطة، لذا أعطيتها كل ما كان في جيبي وطلبت منها أن تضعه تحت مقعدها. وحتى عندئذ، لم تعرف ما الذي أعطيها إيَّاه، إذ لم يكن هناك مجال لتعرف. لم يكن إلا عندما...» تنهد: «عندما فتَّش الضباط سيارتي حين أدركت أخيرًا ما حدث، ما... ما فعلته».

سقط شعره على عينيه وهو ينظر لأسفل إلى ورقته، وارتجفت يداه، فأنظر لأسفل وأجد يداي ترتجفان أيضًا.

قال: «لقد اخترت أن أبيع مخدِّرات. كان ذلك قراري وخطئي. وفي الليلة التي أُلقِي القبض علينا بها، ارتكبت نور رياض خطأً أيضًا». يلقي نظرة على هيئة المحلفين. «لم يكن خطؤها هو بيع المخدِّرات، بل كان الثقة بصديق عرفته منذ طفولتها. كان خطؤها... كان اعتقادها بأنها تعرفني، تصديقها لأنني شخص جيِّد، اهتمامها بي. وقد كانت مخطئة، كان يجب ألا تثق بي، كان يجب ألا تتوقَّع مني الأفضل، لكنه ليس خطأ ينبغي أن تذهب إلى السجن بسببه».

تنحنح بصوتٍ عالٍ، يكاد يكون غاضبًا: «ذلك هو كل شيء، ذلك هو البيان. شكرًا على... على استماعكم».

صمت جميع من في قاعة المحكمة. ثم تحدث مارتن والسيد ماهوني وخديجة كلهم في الوقت نفسه، وحاول كلٌّ منهم أن يتحدث بصوت أعلى من الآخرين. حدق القاضي أورتيجا إلى صلاح الدين لثانية، يكاد يبدو مدهوشًا، ثم دَقَّ بمطرقته.

وقال أورتيجا: «أيها المحامون، إلى غرفتي».

بقي صلاح الدين في منصَّة الشهود غير واثقٍ مما يجب أن يفعل، فظل يطوي ورقته ويفتحها إلى أن أخبره الحاجب أنه يستطيع الجلوس. ومن دون محامينا يجلسان بيننا، يمكنني أن أمُدَّ يدي إليه إذا أردت، أن ألمسه.

لكنني مذهولة للغاية، فأنا غاضبة منه، وفي الوقت نفسه ممتنَّة له. لا أعرف فيما أفكر، وبما أشعر، ولأول مرَّة منذ أسابيع، أريده فقط أن ينظر إلَيَّ، لكنه لا ينظر.

انفتح باب الغرفة، ويبدو وجه مارتن ممتقعًا، والسيد ماهوني عابسًا، وخديجة... لا يمكنني أن أعرف فيما تفكر.

قال القاضي أورتيجا عندما عاد إلى منصته: «في ضوء شهادة الآنسة رياض، بالإضافة إلى بيان السيد مالك، قرَّر المدَّعي العام إسقاط التهم الموجهة إلى نور رياض. وتستمر المرافعات الختامية في قضية شعب ولاية كاليفورنيا ضد صلاح الدين مالك غدًا صباحًا كما كان مخطَّطًا لها. رُفِعَت الجلسة».

دَقَّ بمطرقته وأحدِّق إلى خديجة.

- ماذا... ماذا يعني هذا؟

تجذبني لتعانقني، وعندئذ أدرك أنها تبكي مما يثير ارتباكي، فما دامت تبكي، إذن على الأغلب هذا ليس جيِّدًا.

- ماذا يعني يا خديجة؟

قالت: «إنه يعني أنك سترحلين من جونيبر وتصبحين طبيبة يا نور رياض».

تلتفت إلى شفيق، وتلتقي عيناي عينَيْ صلاح الدين. إنه يبدو تائهًا، خائفًا، وما زلت لا أعرف فيما أفكر أو ماذا أقول، لذا أترك آنتي تتحدث بدلًا مني.

أهمس قائلة: « إذا تهنا، فمشيئة الله كالماء، تجد المسار غير المعروف حين لا نستطيع العثور عليه».

تومض عيناه بشيء ما، لكنني لا أجد الوقت لتفسيره، إذ تقودني خديجة إلى خارج القاعة نحو الرواق، وألتفت خلفي لأنظر إلى صلاح الدين في اللحظة التي يرتد بها باب قاعة المحكمة مغلقًا.

الجزء السادس

حتى فقدانك (الصوت المازح، إيماءة أحبها)
لن أكذب حين أقول، من الواضح
أن فَنَّ الفقد لا يصعب إتقانه
مع أنه قد يبدو (اكتبيها!) ككارثة.

- *اليزابيث بيشوب*
«فن واحد»

59
مصباح

فبراير، حينئذٍ

كم يمكن للجسد أن يخونك بسرعة. يحملك طوال حياتك وفجأة، ينتهي، لا يعُد قادرًا على حمل روحك.

هل كبرت الروح حتى صارت مُرهِقة للغاية بالنسبة إلى الجسد؟ هل كبر الجسد حتى صار مُرهِقًا للغاية بالنسبة إلى الروح؟ هل جاءت الخيانة من الأعضاء والأنسجة، من الأوتار والخلايا؟

أم كانت الخيانة هي أنني لم أهتم بجسدي كما كان يجب أن أهتم به؟ أنني عندما عرفت أن جسدي يصرخ طلبًا للمساعدة، تجاهلته لصالح ما أرادته الروح، الذي كان الراحة النابعة من الروتين والألفة.

مَنْ كان الخائن حقًّا؟ الجسد؟ أم الروح؟

لم أذهب إلى باكستان عند وفاة بابا، أو وفاة والدتي، ولم أرَ قبورهما قَطُّ، وندمت على هذا، إذ كيف يمكنني أن أتوقَّع من ابني أن يردِّد الأدعية بجانب قبري ويمنح روحي المواساة ما دمت لم أفعل المثل لوالدَيَّ؟

أين كان توفيق؟

كان ليفهم هذه المسائل. أين ذهب؟

عندئذٍ تذكرت بابا. *آه، بابا، أتمنى أن أستطيع رؤية وجهك مرَّة أخرى. أنا خائفة، بابا.*

أين كان جسدي؟

أين كانت روحي؟

- آنتي مصباح.

فتحت عينَيَّ لأرى ابنتي، احتجت إلى الحديث معها، احتجت إلى إخبارها أنها تستحق أفضل من ذلك الشرير الذي دعته تشاتشو.

«Pani». طلبت ماء لأستطيع الحديث بوضوح، فقد كان هناك الكثير لأقوله: أنني أحببتها، أنني كان يجب أن أفعل المزيد لها، أنني أردت أن أكون لها أُمًّا وأبًا، جدًّا وجدةً، أختًا، أخًا، أردت أن أكون كل ما فقدته وقد حاولت، لكن هذا الجسد... هذا الجسد اللعين.

قالت نور إن صلاح الدين سيأتي، ابني، تمنَّيت لو أنني أخبرتها كيف نظر إلَيَّ حين ولدته، لم أكن يومًا أقرب إلى الجنَّة مما كنت حينذاك، عندما اخْتُرِق الحاجز بين هذا العالم والعالم الآخر للحظة لا توصف بينما أنظر إلى عينَي طفلي للمرة الأولى.

ملأ صوت غريب رأسي، عالٍ ودؤوب، كأنه فيضان، كأنه أجنحة مسرعة لسرب من طيور الزرزور، كانت تهبط أحيانًا بالقرب من القنوات بجانب منزل بابا.

«Das pathar thoreingeh. Ake pathar katcha. Hiran ka bacha. Hirangaya pani meh...»

أغنية أطفال قديمة.

عشر صخور سنكسرها

منها صخرة ناعمة وخام

وطفلة الغزال

هربت عبر *الماء.*

اهربي يا نور، اهربي مثل الغزال.

همست: «أنتِ لا تنتمين إلى جونيبر ميري دي».

كانت يداها قويتَيْن ودافئتَيْن، ففكرت: ستكون طبيبة جيدة يومًا ما، *ابنتي ستكون كذلك، لكنها يجب أن ترحل أولًا*، يجب أن تقدر نفسها حق قدرها.

همست: «نور». لا بد أن أخبرها. لا بد. «نور».

كان اسمها يعني «الضوء». هل أخبرتها بذلك من قبل؟ كيف يمكنني أن أعوض عن كل الأشياء التي كان يجب أن أفعلها ولن يتسنَّى لي أبدًا أن أفعلها الآن؟

بابا، ساعدني. بابا، أنا خائفة.

«نور. نور». *أنتِ الضوء. أنتِ الخير. أنتِ تستحقين أفضل مما مُنِحتِ.* كان *يجب أن أفعل المزيد لكِ، كان يجب أن أفعل المزيد.* سامحيني يا بنتي، *الآن وأنا أذهب أخيرًا إلى الله، أرجوكِ... أرجوكِ... أرجوكِ...*

- سامحي...

سامحيني.

60
سال

يوليو، الآن

في اليوم التالي لإسقاط التهم عن نور، أُدِنْتُ بجميع التهم الموجَّهة إلَيَّ.

أُعلِنَ الحكم بطريقة روتينية، من دون أن ينظر إلَيَّ الحاجب ولا القاضي ولا أي من أعضاء هيئة المحلفين.

كنت أعرف أن هذا ما سيحدث، ومع ذلك تقلَّصت معدتي، إذ كان جزء بداخلي ما زال يأمل في أن يتهاون معي المحلفون.

على الأقل نور بخير، حرة، بعيدة عن رياض وفي طريقها إلى الحياة التي تستحقها.

ثم يحدِّد القاضي أورتيجا عقوبتي بعد إعلان الحكم مباشرةً بناءً على طلب مارتن، الذي غير الاتجاه بالسرعة نفسها التي غيرته بها إذ يركِّز الآن على الحصول لي على أقل عقوبة ممكنة.

بينما يدقِّق القاضي أورتيجا النظر في حاسوبه، أتساءل ما إذا كان قد أنقذ أي حيوات، وما إذا كان قد أنهى أخرى.

تنحنح آبو ورائي، وإلى جانبه يجلس الإمام شفيق.

قال القاضي أورتيجا: «أعمل قاضيًا منذ خمسة وعشرين عامًا يا سيِّد مالك، وقد رأيت أشخاصًا يكذبون علَيَّ، ويكذبون على أنفسهم، ويكذبون على

محاميهم، أي شيء ليفلتوا من السجن. إنه أمر نادر –نادر للغاية– أن أشهد اعترافًا واضحًا بالذنب مثل الذي سمعته منك، وحقيقة أنك فعلت هذا على الرغم من أن إنكار التهم كان من الممكن أن ينقذك من السجن، يجعل حالتك أكثر إثارة للاهتمام. ليس الإيثار شيئًا أراه كثيرًا، سواء داخل المحكمة أو خارجها».

يضع يديه أمامه بشكل مخروطي ويتصلَّب فكُّه، مجرَّد لمسة بسيطة لكنها كافية لتجعلني أخشى أيًّا كان ما سيأتي.

منذ اللحظة التي أُلقِي علينا القبض بها، تتزامن بداخلي مشاعر الغضب من آما لأنها ماتت والارتياح لأنها لا تستطيع رؤية أي من هذا. لكنني الآن أتمنَّى لو كانت هنا، في مكان ما، تجلس مع آبو أو حتى في الموتيل منتظرة سماع كلمة، فمجرَّد معرفة أنها توجد في هذا العالم تستمع وتأمل وتدعو لي كان ليطمئنني في هذه اللحظة التي أشعر بها بالوحدة تمامًا، كأنني طفل تائه في الظلام.

يكمل القاضي أورتيجا: «التهم الموجهة ضدك خطيرة للغاية، ويوصي المدَّعي العام بأن تُعاقَب بأقصى عقوبة التي تبلغ سبعة أعوام وثمانية أشهر خلف القضبان. ومع ذلك...» يفكر بعمق: «أرى فيك الكثير من الأمل يا سيِّد مالك».

تضربني كلماته كالبرق، إذ قالت لي آما الشيء نفسه بالضبط منذ شهور. أهي مصادفة؟ ربما.

أو ربما لا.

قال القاضي أورتيجا: «في صدد حيازة الفينتانيل بغرض البيع، تعلِّق المحكمة عقوبتك. في صدد نقل الفينتانيل وبيعه، تعلِّق المحكمة عقوبتك. في صدد حيازة الأوكسيكونتين بغرض البيع، تعلِّق المحكمة عقوبتك. في صدد نقل الأوكسيكونتين وبيعه، تعلِّق المحكمة عقوبتك. في صدد حيازة الهيروين بغرض البيع، تعلِّق المحكمة عقوبتك».

يومئ مارتن بجانبي مستغرقًا في التفكير، ثم يلقي نظرة إلى أعلى.

«في صدد نقل الهيروين وبيعه»، نظر القاضي أورتيجا إلَي الآن نظرة حادة: «حكمت عليك المحكمة بالحد الأدنى من العقوبة لمدة خمس سنوات، تقضي ثلاثة أعوام منها في السجن، وعامين تحت الرقابة الإلزامية».

بعد لحظات، يخلي القاضي المحكمة ويتحدث مارتن.

«... الإلزامية مثل إطلاق السراح المشروط، وتعني ثلاث سنوات أن تقضي ثمانية عشر شهرًا في السجن ما دمت تبتعد عن المشكلات. ستكون بخير يا صلاح الدين».

أقول لنفسي: *كان من الممكن أن تكون ثمانية أعوام، ثمانية أعوام لعينة، وبدلًا من ذلك ستصبح حرًّا بعد ثمانية عشر شهرًا فقط.*

- صلاح الدين، هل أنت بخير؟ أعرف أنه يبدو وقتًا طويلًا.

ظن مارتن أنني لا أتحدث لأنني قلِقٌ أو خائف أو غاضب.

لكنني لا أشعر بأي من هذا، بل أنا ممتنٌّ، ولأوَّل مرَّة منذ إلقاء القبض علَيَّ، أشعر بالسكينة.

61
نور

سبتمبر، الآن

لوس أنجلوس، كاليفورنيا

هذا ما أعرفه عن رفيقتي في الغرفة:

1 - اسمها نيلوم.

2 - أنها نصف هندية ونصف كورية.

3 - أنها أحضرت ميكروويفًا.

عندما أدخل غرفة السكن في جامعة كاليفورنيا (لوس أنجلوس)، أجدها بمفردها، وهو أمر غريب لأن جميع الطلاب الآخرين معهم آباؤهم وحمولة شاحنة من الأغراض، مراتب ودراجات وألواح تزلج، حتى إن أحد الأشخاص يساعد ابنته على حمل معدات دي جي إلى غرفتها.

أما أنا، فمعي حقيبة ملابس واحدة وبطاقة هدايا من متاجر تارجت أعطتني إياها خديجة في محطة حافلات فريارسفيلد.

قالت لي: «فقط اشتري كل ما تحتاجين إليه، فلستِ بحاجة إلى جر عشرات الأطنان من الأغراض معك في الحافلة». ضمتني في عناق طويل، فضممتها بقوة محاولةً أن أنقل لها كل ما أشعر به من امتنان نحوها. شكرًا *للحديث مع العميد من أجلي، شكرًا لمساعدتي في الحصول على عمل دراسي، شكرًا لحبك لي، شكرًا لتوجيهي.*

غرفة السكن مقسَّمة بالتساوي، ويوجد في كل جانب سرير مرتفع ومكتب وخزانة ونافذة عملاقة. حددت نيلوم جانبها من الغرفة بملصق Crown of Fates، وبعض الملصقات لجولات فنية لكيندريك لامار وفرق «ذا ناشونال» و«بي تي إس» و«ليتل ماي».

عندما أدخل، أجدها ترصُّ الكتب على سطح مكتبها. لقد رأيت الكثير منها من قبل، في حقيبة صلاح الدين أو على مكتبه في كلاودز ريست. كان يأخذ كتبه من المكتبة، لكن العناوين هي نفسها: هذه هي الطريقة التي تخسر بها حرب الزمن، وفتيات الحرب، وأسطورة، وكلاهما يموت في النهاية، والجميل[1].

تستدير نيلوم، وتنظر إلى حقيبتي الوحيدة في حين ألاحظ جواربها المطبوع عليها R2-D2[2]، تتجه عيناها نحو الشريط اللاصق العازل للكهرباء حول حذائي وأنا أتأمل اللون الأزرق في شعرها الداكن القصير.

ثم استقرت نظرتها على قميصي الأسود الذي يبدو كأن هناك طلاءً أسود يتقاطر منه.

قالت: «يونسي؟ ألبوم «Go» أسطوري».

أومئ برأسي وأغلق موسيقاي.

فتسألني بقدر من التردد: «ما الذي تستمعين إليه؟»

– امم... تُدعَى ’برودريبيل تحترق’ (Broadripple Is Burning) لفرقة...

(1) This Is How You Lose the Time War, War Girls, Legend, They Both Die at the End and The Beautiful.

(2) شخصية في فيلم حرب النجوم.

تقول بقدر من التقديس: «Margo & the Nuclear So and So's. أيمكنني أن أرى؟».

أرفع لها هاتفي وتمُرُّ بإبهامها عبر قائمة الأغاني، وتتمتم لنفسها: «أكوالونج... هوزير... توباك... كندريك... توري اموس...».

ثم رفعت نيلوم رأسها لتنظر إلي وقالت: «أدرك أننا التقينا للتو، وربما سيترسخ في ذهنك طوال العام أنني فاشلة لقول هذا، لكنني معي تذكرتان لحفل «أوركسترا لوس أنجلوس فيلهارمونيك» التي ستعزف موسيقى Crown of Fates بأكملها، إلا أنه الليلة لدينا حفل تعارف في السكن...».

قلت: «أهذا سؤال جاد؟ Crown of Fates بالطبع».

أمسكت نيلوم بكتفَيَّ وقالت: «كنت أنتظرك طوال حياتي. فلتخبريني أن تخصُّصك هو اللغة الإنجليزية».

فأضحك: «علم الأحياء الجزيئي».

«هل تقرئين على الأقل؟» تبدو قلقة، كأنها كانت تعرف أنني أفضل من أن أكون حقيقية، وكأنني على وشك إنبات رأس ثانٍ يصيح بحقائق علمية طوال اليوم.

قلت: «ليس حقًّا، لكنني...» أنظر من فوق كتفها إلى كتبها: «ربما يمكنني أن أبدأ. أيمكنك أن ترشحي لي شيئًا؟ شيئًا... أهرب فيه».

تتفحص كتبها بعينيها ثم تجذب كتابًا بغلاف أسود، وتقول: « The Bird Kingلجي ويلو ويلسون، سيساعدك على الهروب كليًّا».

أقرأ النبذة المكتوبة بداخل الكتاب، فتجعلني أفكر في صلاح الدين وأكاد أضعه جانبًا، لكنني أجبر نفسي على الابتسام لنيلوم التي تراقبني بلهفة.

قلت: «عظيم». ثم أومئ إلى ملصق Crown of Fates: «إذن، من برأيك سيموت في الموسم الأخير؟».

62
سال

أكتوبر، الآن

فريارسفيلد، كاليفورنيا

الطريقة العفوية التي يتلامس بها الجميع هي أسوأ جزء في السجن، حارس يمسك بي ليوجهني إلى صف مختلف، شخص ما يتجاوزني مسرعًا إلى الكافتيريا، رفيق في الزنزانة يدفعني إذا شعر أنني أقف في طريقه.

لكن لغة جسدي التي طالما كرهتها في نفسي لها فوائدها. فعندما يحاول شخصان سرقة غطاء مرتبتي حين أدير ظهري لهما، أشعر بهما ورائي وأضرب أحدهما، وفي اليوم التالي عندما يحاول الرجل الذي لم ألكمه أن يتربَّص لي في الحمَّام، ألتفت إليه قبل أن يستطيع إغلاق قبضته.

لم أُرِد أن أضرب أيًّا منهما، لكن بعد ذلك، تركني الرجال الآخرون في الزنزانة الجماعية وشأني. إنه أمر مربك كيف يمكن للعنف أيضًا أن يكون لغة، لغة كان يتحدث بها رياض، وأتحدث بها الآن.

حرص آبو على وضع نقود في حسابي التمويني، لكنني لا أتصل به وهو لا يزورني. لا أريده أن يرى الأسلاك الشائكة وأبراج الحراس وكلمات «إدارة سجون ولاية كاليفورنيا» مطبوعة على قميصي. قال الإمام شفيق على الهاتف

إن آبو استأجر شقَّة ويلتزم بحضور اجتماعات العلاج، لكن الأمور صعبة عليه. سيكون هذا المكان أكثر مما يمكنه احتماله.

أحيانًا يكون أكثر مما يمكنني احتماله، فالسيطرة -الاختيار- تعتبر هنا أحلامًا بعيدة المنال. من حين لآخر، أجدهما في الطقوس الصغيرة، ممارسة الرياضة، الصلاة، التجول في مسار دائري بالفناء الخارجي وأنا أفتقد رائحة رياح الموهافي والطريقة التي تتحول بها سييرا نيفادا مع كل غروب إلى قصيدة.

بعد مرور ثلاثة أسابيع من عقوبتي، يأتيني زائر، فأفترض أنه سيكون الإمام شفيق لأنه الوحيد الذي يراني بانتظام، لكن عندما أصل إلى حجرة الزيارة، أُفاجَأ برؤية المرأة ذات الشعر الرمادي التي تنتظرني لدرجة أنني أستغرق لحظة لأميزها.

قلت عبر الهاتف لطبيبتي في الطفولة: «دكتورة إليس، مرحبًا».

قالت: «صلاح الدين، شكرًا لمقابلتي».

- ليس هناك الكثير لأفعله غير ذلك يا دكتورة إليس. كيف حالك؟ وكيف حال زوجك؟

تجاهلت أسئلتي وقالت: «لقد اتصلت بك بعدما تحدثنا في المستشفى».

لكن في اليوم التالي مباشرة ألقت الشرطة القبض عليَّ وأخذت هاتفي.

«أخشى أنني لم أكن واضحة تمامًا عندما رأيتك في ذلك اليوم يا صلاح الدين، وأعتذر عن ذلك. لقد ظل الأمر يؤرقني، وأردت أن آتي وأفسِّره لك». صمتت لكن ليس صمتًا يدعو إلى الرد، لذا أنتظر.

واصلت دكتورة إليس: «قبل وفاة والدتك، طلبت مني النصيحة بشأن شخص ما تشعر بالقلق بشأنه، وفي سياق ذلك الحوار تحدثنا عنك إذ سألتها ما إذا كانت تخطِّط لأن تشارك معك تاريخك الطبي الخاص، فقالت إنها لم تخطِّط لذلك مما سبب لي القلق، لأن والدتك أشارت إلى أنك تعاني بعض المشكلات فيما يتعلَّق باللمس على مدار السنوات، ولكنك لم تذهب بانتظام قَطُّ إلى معالج نفسي. صلاح الدين، عندما كنت صغيرًا جدًّا...».

- توقفي.

تتوقف فورًا كأنني ضغطت على زر كتم الصوت.

قلت محاولًا منع المرارة من صوتي: «لم تكن أمي على حق دائمًا، لقد أخطأت كثيرًا، أكثر بكثير مما أدركت عندما كانت على قيد الحياة. لكنني أعتقد أنها كانت محقَّة في عدم مشاركة... أيًّا كان الذي تريدين مشاركته».

- يمكن أن يكون التذكر أوَّل خطوة نحو الشفاء.

تغمر رائحة الغسيل رأسي وللحظة أشعر بدوار، ثم أتمالك نفسي وأنظر إلى عينيها مباشرة.

أقول بهدوء: «يتذكر جسدي أن شيئًا سيئًا حدث يا دكتورة إليس، لا يحتاج عقلي إلى التذكر».

تفتح الكلمات بابًا في رأسي، وتبدأ الغرفة الفارغة التي جثمت هناك لوقت طويل جدًّا تتلاشى، تاركة المساحة لأشياء أخرى أهم، مثل مسامحة آما، ومسامحة نفسي.

«بالطبع». تلقي دكتورة إليس نظرة بعيدًا: «إذا كنت تفضِّل ألا تناقش الأمر، فلست مضطرًّا إلى ذلك. ربما يمكنك اللجوء إلى العلاج النفسي الجسدي، أو القيام بتمارين التنفس أو التأمل، لأنك على حق، الجسد يتذكر». تنظر عيناها اللطيفتان إلى عينَيَّ: «لكن الجسد يشفى أيضًا يا صلاح الدين، فلتعدني بأنك ستمنح جسدك تلك الفرصة».

لا أعرف ما إذا كنت سأفعل هذا، ما إذا كنت أستطيع، لكنها تبدو مثل آما في تلك اللحظة، مفعمة بالأمل، لذا أومئ برأسي.

- أعدك.

***

بعد مرور شهر داخل السجن، لا أزال في الزنزانة الجماعية، ومن المفترض أن تُخصَّص لي زنزانة دائمة في أي يوم، لكنني أريد أن أتسلَّق الجدران بدافع الملل، ولكي أهرب من اليأس الغريب المصاحب للوجود وسط الكثير من الناس لوقت طويل جدًّا دون لحظة بمفردك.

وعندئذٍ يصل أوَّل كتاب.

إنه كتاب جديد من إحدى السلاسل الكبرى على الإنترنت، إذ ليس مسموحًا لنا الحصول على كتب مستعملة هنا. يُدعَى The Bird King لجي ويلو ويلسون، وأول سطر به «*كان حسن مستغرقًا في الصلاة*».

ليس هناك عنوان لإعادته ولا ملاحظة، وأخبرني شفيق أنه وخديجة لم يرسلاه، ولن يخطر على بال آبو. ربما من أرسله أشلي أو السيدة مايكلز، لكنني أشك في ذلك.

مما يترك شخصًا واحدًا.

لكنني لا أجرؤ على الأمل.

أريد أن أقرأ الكتاب في يوم، لكنني آخذ وقتي في قراءته. يمر شهر أكتوبر ببطء حتى بدأ نوفمبر ويصيب البرد الجميع بسوء المزاج. لكن الكتاب يفتح لي باب الهروب إلى زمن آخر، حياة أخرى. أستمتع به على مدار ثلاثة أسابيع، وبمجرد أن بدأ الحزن ينتابني لأنني أوشكت على إنهائه، وصل كتاب آخر.

هذا الكتاب يُدعَى «وحش ينادي» (A Monster Calls) لباتريك نيس. أفتح أول صفحة بسرعة وأقرأ «*يظهر الوحش بعد منتصف الليل، مثلما تفعل الوحوش*». أنهيه في يوم واحد لأنه قصير وجميل، ثم أقرؤه ثانيةً. كانت آما لتحبه.

لو كنت في المنزل، كنت لأبكي وأنا أقرأ نهاية «وحش ينادي»، لكنني تعلمت أن أتحكم في تعبيرات وجهي هنا، في جسدي، لذا أقرؤها بعينين جافتين، لكنني لا أتوقف عن التفكير فيه لأسبوعين، وحينئذٍ يأتي الكتاب التالي، «الغرب مع الليل» (West with the Night) من تأليف بيريل ماركهام، ففتحته سريعًا وقرأت أول سطر –«*كيف من الممكن أن تجد النظام بداخل ذكرى؟*»– وعندها يدخل حارس السجن الزنزانة الجماعية.

قال لي: «حان الوقت للانتقال، اجمع أغراضك».

إذا وضع حارس السجن الأصفاد في يدَيَّ في هذه اللحظة، ستسقط مباشرةً لأنني متوتِّر للغاية. يحكي الناس هنا قصصًا مرعبة عن رفقاء زنزانة سابقين: رجل يستيقظ في منتصف الليل يصرخ، ورجال يريدون أن يقتلوك، وآخرون لا يتوقفون عن الكلام.

أتبع الحارس عبر ممر طويل، ويومئ لي بعض السجناء الذين لم يصبحوا أصدقاء لي بالضبط، لكنهم ودودون. جميعهم مسلمون لأن الشيء الوحيد الصحيح عن السجون في الأفلام هو أن الأشخاص يلتصقون بمن هم مثلهم.

أردد في رأسي دعاءً علَّمتني آما إيَّاه، ناطقًا كل كلمة بوضوح ومحاولًا أن أجد القوة فيه، لكنني تخلَّيت عنه في منتصف الطريق، فالدعاء لم يساعد آما، لماذا قد يساعدني؟

تمر بعض الأيام هنا هكذا، بغض النظر عما أقول لنفسي، أشعر أنني متخاذل، فأبو يكافح في صراعه بمفرده بسببي، وآما فقدت الأشياء التي بذلت فيها من روحها بسببي، والفتاة التي أحببتها -التي ما زلت أحبها- تخطتني. تدور الأفكار في رأسي ثم تتكرر، كقصيدة شريرة.

لا يمكنني الهروب من رأسي.

عندما يقف الحارس أخيرًا خارج زنزانة، أحرص على أن يكون وجه القاتل مفعَّلًا قبل أن أخطو إلى الداخل.

فقط لأجد رفيقي الجديد في الزنزانة يقف مدهوشًا ويبتسم.

قال: «اللعنة. أعتقد أنهم تمكَّنوا منك يا فتي».

أكافح لأتذكر أين التقيته من قبل، ثم أرى الوشم على ذراعه، **سفر الجامعة 1:14**.

قلت: «سانتياجو، أليس كذلك؟».

قال: «لقد تذكرتني، لكن أعتقد أنك لم تتذكر ما قلته لك بشأن رجال الشرطة».

أغلق حارس السجن الباب مصدرًا صوت ارتطام، بينما أضحك وأُخرِج كتبي من الحقيبة: «نعم، كان يجب أن أستمع إليك. أنا صلاح الدين، سال».

«سال؟ بالتأكيد لا». عاد إلى سريره. «اجعل الناس ينادونك باسمك، إذا كانوا يستطيعون أن يقولوا سانتياجو، وألكسندر، وديميتريوس، و» رفع ذراعه لأعلى «إكليزياستيس، يمكنهم أن يقولوا صلاح الدين».

- اعتادت أمي أن تقول ذلك.

- سيِّدة حكيمة.

توهَّج الغضب الذي أصبحت معتادًا عليه للغاية في رأسي: «لست متأكِّدًا من ذلك». أنظر إلى وشمه: «كنت أعتزم البحث عن ذلك».

قال سانتياجو: «إنه من الإنجيل. ’رَأَيْتُ كُلَّ الأَعْمَالِ الَّتِي عُمِلَتْ تَحْتَ الشَّمْسِ فَإِذَا الْكُلُّ بَاطِلٌ وَقَبْضُ الرِّيحِ‘».

- يبدو ذلك كئيبًا.

هَزَّ سانتياجو كتفيه: «معظم الكتب الدينية هكذا، أليس كذلك؟ العذاب والجحيم وكل ذلك. لكن هذا التصق بعقلي. كان والدي قسيسًا، وكان دائمًا يقول إن سفر الجامعة بأكمله يتعلق بكيف نضع الكثير من القيمة في الأشياء المادية، الممتلكات أو الأماكن، لكن ليكون لحياتك معنى، يجب أن تجده في شيء أعظم».

- بمعنى لو لم يكن لك إله فما المغزى؟

قال سانتياجو: «باستثناء أنني لست متديِّنًا حقًّا، أنا 'لا أدري'. هل تستمع إلى جوني كاش؟».

ابتسمت مفكِّرًا في نور وأومأت برأسي.

واصل سانتياجو: «له أغنية مع يو تو، قديمة للغاية، أقدم من تاريخ ميلادك، تُدعَى 'الهائم'، تتعلق بانتهاء العالم. على أي حال، كانت تستند إلى سفر الجامعة، تحكي عن ذلك الرجل الذي يبحث عن المعنى في كل شيء ولا يجده...».

ظل سانتياجو يتحدث، لكن عقلي تباطأ، توقف، رَكَّز على أول ما قاله، «الهائم». من بين كل الأغاني التي كان بإمكانه ذكرها، ما احتمالات أن يذكر تلك الأغنية؟

أتذكر نور يوم ماتت آما، وأغنية «الهائم» تتدفق من سماعاتها.

والاستماع إليها معًا في الجنازة.

وعندما سألتني ما إذا كنت أتذكر الأغنية حين أخبرتها عن مقدار المال الذي أحتاج إليه من أجل الموتيل.

ورؤية الوشم على ذراع سانتياجو منذ شهور.

ثم بأعجوبة أجده مرَّة أخرى، فقط ليخبرني بالشيء الوحيد الذي كنت بحاجة ماسَّة إلى سماعه، الشيء الذي كانت نور تحاول أن تخبرني به، الشيء الذي كانت تحاول آما أن تخبرني به.

تنضم كل لحظة إلى التالية، لتشكل سربًا من طيور الزرزور أسمع همهماته في حين يندفع من أنقاض عقلي نحو السماء، متحرِّكًا في كتلة واحدة نحو الكشف عن هدف أعظم.

قال سانتياجو: «يوجد في الحياة ما هو أكثر مما تراه أمامك». والآن، أخيرًا، أستمع: «أحيانًا نتشبَّث بأشياء يجب أن نتخلى عنها، أشخاص، أماكن،

مشاعر. نحاول أن نتحكم فيها كلها وما يجب أن نفعله هو أن نثق بوجود ما هو أكبر من كل ذلك».

تمتمت: «’إذا تهنا، فمشيئة الله كالماء، تجد المسار غير المعروف حين لا نستطيع العثور عليه’».

سألني سانتياجو: «من قال هذا؟».

ابتسمت: «سيِّدة حكيمة».

مكتبة
t.me/soramnqraa

***

في تلك الليلة، أفكر بشأن غضبي من آما، وكم من الوقت تشبثت به. يمكن للغضب أن يؤجج طاقتك، لكن الأسى يلتهمك من الداخل ببطء، كنمل أبيض يقرض روحك إلى أن تصبح مجرد لمحة مما اعتدت أن تكونه.

لم أُرِد أن أواجه الأسى، وما زلت لا أريد مواجهته، لكن أعتقد أنني يجب أن أحاول.

أشرع في الكتابة، أكتب لأهرب، أكتب لأجد المعنى الأكبر الذي تحدث عنه سانتياجو، وأكتب لأفهم، لأسامح. مقتطفات في البداية، ثم عبارات وفقرات وصفحات.

كانت السحب في سماء لاهور أرجوانية كلون لسان ثرثار يوم أن أخبرتني أمي بأنني سأتزن...

أشارت لي العرَّافة بأن أجلس أمامها على طاولة خشبية متهالكة، وأمسكت بيدَي...

همست له: «كلاودز ريست. سنطلق عليه موتيل نُزُل كلاودز ريست».

أنقِّب داخل عقلي عن كل ما أعرفه عن آما، كل ما أخبرني به آبو، كل حكاية شاركتها معي، وأنسجهم معًا لأستحضر الأشياء التي لم تشاركها. أحكي قصتها، وقصتي، وقصة آبو أحكي قصتنا يومًا بعد يوم، أسبوعًا بعد أسبوع، شهرًا بعد شهر.

لكن عندما أصل إلى نهاية القصة، عندما أجد الكلمات لأكتب أخيرًا عن وفاة آما، من كلمتها الأخيرة –سامحي– أدرك شيئًا.

لم تنتهِ القصَّة تمامًا بعد.

63
نور

لم أتحدث عن صلاح الدين، إذ ظللتُ غاضبة لأسابيع. غاضبة مما عرَّضني له، وغاضبة من كيف نجح في تدمير مستقبله. غضبي جديد وبارد وشاحب، وفي بعض الأيام، أعتقد أنني سأحمله إلى الأبد.

قلت لنفسي إنني وصلاح الدين مالك انتهى ما بيننا.

لكنني لم أكن قَطُّ بارعة في البقاء غاضبة، إذ تتآكل ذاكرتي حول حوافها، وتبقى ذكرى انفعاله على تشاتشو، مثل الرجل في أغنية «أسود» (Black) لأوكرفيل ريفر، لا يريد شيئًا سوى تدمير الرجل الذي أذاني، وكيف كان ينظر إلي عندما أضحك، والنادي الغريب الرائع الذي جمعنا أنا وهو وآنتي مصباح.

ذات يوم في قاعة الطعام، أسمع أغنية «معك أو من دونك» (With or Without You) ليو تو، خافتة وبعيدة. لم تكن قَطُّ من أغاني يو تو المفضلة لدي، لأنني أفكر، اختر جانبًا، أتريد أن تكون معها أم لا؟

لكنني الآن أفهمها.

سرعان ما يتلاشى الغضب، أسرع مما اعتقدت، وتحل بدلًا منه أسئلة. هل ينام جيدًا؟ هل يشعر بالملل في السجن؟ هل هو آمن؟ هل تغير؟ هل يفكر في؟

وحينذاك بدأتُ إرسال كتب إليه.

وحينذاك أيضًا، بدأت أتخيله بجانبي، يسير معي تحت شمس لوس أنجلوس في طريقي إلى العمل الدراسي أو محاضرة الكيمياء العضوية. يهمس لي وأنا أكتب أوَّل مقال لمادة اللغة الإنجليزية، وفي أثناء أول حفلة روك أحضرها مع نيلوم.

إنه بجانبي خلال عطلة الكريسماس مع خديجة وشفيق، على الرغم من أنهما لا يتحدثان عنه بتاتًا. يذاكر معي في ظلال رويس هال «Royce Hall» في الربيع، ويرافقني على مدار الصيف حين أمضي الفترة التدريبية في معمل بالحرم الجامعي.

وعندما تخبرني خديجة أن الشرطة ألقت القبض على تشاتشو بتهمة العنف الأسري بعدما ضرب بروك، صلاح الدين هو من يمسك بيدَيَّ ويخبرني أنه لا بأس في أن أبكي دون أن أعرف السبب. وفي اليوم التالي، يصحبني حين أدخل مركز الاستشارات بجامعة كاليفورنيا (لوس أنجلوس)، وحين أحدد موعدي الأوَّل مع معالج نفسي.

وعندما أعرف أن عمي لم يحصل على عقوبة في السجن، بل فترة مراقبة وجلسات تحكُّم بالغضب فحسب، صلاح الدين هو مَنْ يأخذني إلى تمرين كيك بوكس، ويشجعني وأنا أفرغ غضبي على كيس الملاكمة.

لكنني لا أكتب إلى صلاح الدين الحقيقي، وهو لا يكتب لي. لا أزوره، وهو لا يتصل.

لقد انتهيتِ منه، وهو انتهى منكِ.

أفكر في الأشياء الفظيعة التي قلتها له في اليوم الذي أخبرني فيه أنني قُبِلت في جامعة كاليفورنيا (لوس أنجلوس)، وأفكر في كيف أنني لست وحدي الشخص الذي يجب أن يسامحه، بل هو مَنْ يحتاج إلى أن يسامحني.

أقابل فتية يعجبون بي، وأنا أُعجَب بهم. أخرج في مواعيد لتناول العشاء، لشرب القهوة، لمشاهدة أفلام، لكنها ليست كافية أبدًا لجعلي أنساه.

وذات ليلة في عامي الثاني بالجامعة، ذهبت إلى السرير وتدوي إحدى قوائم نيلوم الموسيقية، فتنطلق أغنية «تحول» (Turn) لفرقة «The Wombats» بشأن شخص لا يعرف ما الذي يريده في علاقة، ويعرف فقط أنه يشتاق إلى الطرف الآخر فيها. تبدأ الأغنية بتكتم نوعًا ما، ثم تتحول وتصل إلى الذروة، فالمغني يريد عودة حبه المفقود مهما يحدث.

وفي لحظة ما بين أول مرَّة أستمع لها والمرة العاشرة، أدرك أنني لا أريد أن أكون مع أي فتى آخر، لم أرد ذلك قط، فالشخص الوحيد الذي أريده هو صلاح الدين. الذراعان الوحيدتان اللتان أريدهما أن تعانقاني هما ذراعاه. الشفتان الوحيدتان اللتان أريدهما على شفتَي هما شفتاه. الصوت الوحيد الذي أريد سماعه بالقرب من أذني هو صوته.

جسد صلاح الدين هو وحده الذي أريد استكشافه، وضحكته هي وحدها التي أريد مشاركتها.

لكنك انتهيتِ منه.

أليس كذلك؟

64
صلاح الدين

مقبرة جونيبر هادئة وخالية، لكن بطريقة ما ليست مخيفة. يراني الحارس ويسألني ما إذا كنت بحاجة إلى مساعدة للعثور على شخص ما.

لكنني أعرف أين هي، أين كانت، منتظرة.

يلمع شاهد قبرها في شمس الشتاء، والمنطقة المحيطة به خالية من الأعشاب الضارة والشجيرات، وفوق العشب توجد زهرة دوار شمس واحدة، ما زالت زاهية. يأتي آبو مرتين في الأسبوع، أخبرني بذلك عندما أقلني إلى البيت من السجن قبل بضعة أيام. واليوم، طلبت منه أن يسمح لي بزيارتها بمفردي.

مصباح مالك

أم. زوجة. صديقة.

إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ

جلست أمام قبرها وردَّدتُ كل دعاء علمتني إياه وبعض الأدعية التي تعلَّمتها في السجن. ثم أخرجت الترمُس الذي أحضرته معي وكوبين، وأصبُّ لكلٍّ منا كوب شاي.

بينما يتصاعد بخار الشاي بجانب شاهد قبرها، أرتشف كوبي ببطء. يذكرني دفء الكوب ورائحة الحبَّهان بيديها تمتدان إلى يدَيَّ، دائمًا متأنِّية جدًّا ولطيفة جدًّا، فأغمض عينَيَّ وأسمح لنفسي بأن أتذكر.

ثم أقول أخيرًا: «سامحيني، آما. لقد استغرقت وقتًا طويلًا جدًّا، وهناك الكثير لأطلعك عليه».

حين كنت أمُرُّ بيوم أو أسبوع سيئ، حين كنت أشعر أنني تائه أو حزين لأسباب لم أفهمها، كانت آما تعرف. كانت تجلس على سريري ممسكة بكوب شاي، أو على مقعد في المطبخ، وتقول: «Bol». **تكلَّم**.

لذا مع أنني متأكد من أنها في مكان ما تعرف أخباري بالفعل، فإنني أخبرها بكل شيء، من اليوم الذي توفيت فيه حتى أمس، عندما جلست لأول مرَّة مع طبيب نفسي اقترحته لي دكتورة إليس.

يصبح كوبي فارغًا بحلول وقت انتهائي من الحكي، وتتلاشى الجبال التي في الأفق وراء لهب الصحراء القرمزي، كأن شخصًا ما نثر زهور الخشخاش في أنحاء السماء. ثم تشتد الرياح التي لا تزال باردة، وقد نسيت سترتي لذا يجب أن أذهب.

أعد آما: «سأعود مع آبو. لقد تحسنت أحواله، آما، وحتى بدأ يعمل مجدَّدًا. كنتِ لتفتخري به».

أغلق الترمُس وأنهض عندما أشعر بشخص ما ورائي.

«لديَّ... لديَّ أغنية كنت أحتفظ بها لليوم». صوت نور مبحوح، يكاد يكون هامسًا: «أتريد سماعها؟».

أومئ برأسي، لكنني لا أستدير، لأنني خائف من أنها، مثل حلم، ستختفي في اللحظة التي أنظر فيها عن قرب. أشعر بنفسها خفيفًا على عنقي، ثم ببرودة بلاستيك سمَّاعة أُذن.

يُعزَف جيتار، ويغنِّي رجل، وأسمع أغنية لا تشبه نور، ولا تشبه صلاح الدين أيضًا، بل تشبهنا معًا، عن الإشراق والبدايات والحب والأمل وكل الأشياء الأخرى التي اعتدت أن أفكر أنني لا أستحقها.

تستدير لتقف أمامي الآن، ويطير شعرها خالقًا سحابة داكنة حول وجهها. تضع يدين رقيقتين على وجهي، وتمسح دموعي، فأفعل الشيء نفسه لها ونميل إلى الأمام، جبهتي على جبهتها، ونتنفس بعضنا بعضًا.

أهمس: «أتسامحينني؟».

تقول: «دائمًا. أتسامحني؟».

أقول: «على حسب، ما إذا كنتِ ستتوقفين عن السخرية من نكاتي».

- آه، ألم تكتسب أي ذكاء في السجن.

- ألا تعنين... punitentiary[1]؟

تضحك، ضحكة عالية وجميلة، ثم تقبِّلني، وأنا أقبِّلها، ولا يوجد وحوش متربِّصة، لا ألم، لا غضب، فقط نشوة اللقاء مجدَّدًا، نشوة إعادة الاكتشاف، والإحساس بأن أي شيء محتمل لأن على الرغم من كل شيء، فنحن هنا معًا، وقد نجونا.

عندما نفترق أخيرًا، أسحب ورقة من جيبي.

أقول: «معي شيء أردت أن أريكِ إياه. أتتذكرين ذلك اليوم في بيت الإمام شفيق عندما اكتشفتِ أمر جامعة كاليفورنيا (لوس أنجلوس)؟».

تغمض نور عينيها متألمة: «أنا آسفة جدًّا...».

أقول: «لا، لا تعتذري. كل ما في الأمر هو أنك أخبرتني بكلمة آما الأخيرة، ولأن السجن مملٌّ لأقصى درجة، فكنت أفكر بشأنها كثيرًا، متسائلًا ما إذا كنتِ ربما أسأتِ فهمها. وحسنًا... انظري».

أسلمها الورقة المؤرَّخة بتاريخ منذ بضعة شهور، وأراقبها وهي تقرأ.

عزيزي صلاح الدين،

شكرًا على رسالتك، فقد كنت أشعر بالقلق من أن أكون قد أزعجتك عندما جئت لزيارتك.

ردًّا على سؤالك، في اليوم الذي تحدثنا فيه عن طفولتك، كانت والدتك قد أتت لي في الواقع لتتحدث معي بشأن مخاوفها تجاه شخص آخر صغير السن، كانت تشعر بالقلق من أنه يتعرَّض للإيذاء. كان هذا في أثناء شدَّة مرضها، وكانت تشعر بألم بالغ بسبب

---

(1) يدمج بين كلمتين «Pun» بمعنى تلاعب لفظي، و«penitentiary» بمعنى سجن.

الموقف وأرادت أن تتخذ إجراءً ما. لكن مرضها تقدم بسرعة بعد ذلك.

كانت والدتك امرأة صالحة. أفتقدها.

مع أطيب التحيات،

إلين إليس

تهز نور رأسها: «لا... لا أفهم...».

«عرفت آما أن رياض يؤذيكِ يا نور». أضع يدَيَّ على وجنتيها: «لكنها لم يكن لديها الوقت لتفعل أي شيء بشأن ذلك، وكان يلتهمها من الداخل. أترين؟ في لحظات موتها، لم تكن تقول لكِ أن تسامحي، بل كانت تطلب منك مسامحتها».

65
مصباح

في وسط هذا البياض الأزلي، أشعر بابني. أشعر بصلاح الدين. حضوره ثقيل، مُكَبَّل بالندم. لكن عندئذٍ يبدأ في التحدث إلَيَّ. أصبح صوته أعمق الآن، رصينًا ومتروِّيًا، يشبه إلى حد ما صوت والده لكنه ممزوج بسَكينة خفية، كأن هناك شجرة بلوط قوية طويلة في صميمه تثبته في الأرض.

يتحدث ابني، وتغرِّد روحي حين يحرر روحه من أعبائها. فالأم تحمل في ذاكرتها براءة طفلها، أيًّا كان ما صار إليه. نحمل آمالنا وأحلامنا من أجلهم وتظل منسوجة بأرواحنا مثلما يظل الله منسوجًا بأدق أجزاء هذه الأرض.

ابني وحده لبعض الوقت.

ثم لم يعُد وحده.

وبينما هو شجرة بلوط ثابتة، نور رياض كالنسيم، دافئة وقوية ولطيفة، تأتي لتنسج أغنيتها مع أغنيته.

لكنني أستحي منها، ويسطع البياض حولي. لم أساعدها، لم أنقذها، لم أستطع إصلاح الوضع.

وبمجرد أن تتشكل هذه الفكرة، أشعر بحبها لي، حب ابنة، نقيًّا ولطيفًا كالنهار في الصحراء، ثابتًا كإيقاع الدولاك. أشعر بصفحها.

آه يا أطفالي، أبنائي الصغار، لديَّ أحلام رائعة لكليكما. وأخيرًا، أصبح العالم صائبًا. فهنا، في هذا الليل العميق العذب، أرى الآن أنكما كنتما دائمًا نصفين لكيان واحد، يدين متشابكتين، صوتين يرتفعان ليشكِّلا لحنًا متناغمًا.

فلتشهدا إذن على الجمال في حياة بعضكما بعضًا، فلتشهداه معًا وتلمعا في جسد واحد.

يخفت اللون الأبيض حولي، وأشعر باحتواء لطيف. ثم يظهر بابا من العدم، بعينيه الداكنتين الحنونتين، يمد لي يده.

ويقول: «تعالي يا فراشتي الصغيرة. حان وقت النوم».

شكر وتقدير

خالص شكري وتقديري إلى:

SLM، لأنه منحني الصداقة في ملعب أطفال حيث كنت وحيدة منذ زمن بعيد.

ماما وبابا، اللذان انتزعا حياة من التراب بمكان قاحل، وجعلاها جميلة.

كاشي، لأنه يعرف.

مير، لأكثر مما يمكنني التعبير عنه. وبون، للموسيقى التي تضيء الطريق.

ألكسندرا ماشينيست، التي قالت «اكتبيها».

لورين ديستيفانو، التي دفعتني إلى خط النهاية.

أعضاء دار نشر Penguin، جين لوجا، وجين كلونسكي، وروتا ريماس، وكاسي ماكينتاير، وشانتا نيولين، وفليسيتي فالانس، وكارميلا إياريا، فريق الأحلام الذي أشعر بالامتنان له كل يوم.

فرقتي السمراء المذهلة: سميرة أحمد، وعائشة سعيد، وساجدة علي. وعائلتي الثانية: نيكولا يون، وأبيجيل وين، ورينيه أحديه، وآدم سيلفيرا. وأخواتي في الإيمان: تالا عباسي، وهيلة سليم، وليلي طاهر، وحيناء كريم، ونائلة إبراهيم، وسناء مالك، وزها وريش، وطاهرة مافي، وسمية داوود. وأصدقائي الأعزَّاء: ماري لو، ولي باردوجو، وفيكتوريا أفيارد.

YAC، الذي رحل عنا مبكِّرًا جدًّا.

المحامون والأطباء وضباط الشرطة الذين أجابوا بصبر عن أسئلتي: بن عزار، والدكتورة مونيكا جويل، والدكتور سكوت جريميليون.

إلى دكتور أجيت ماهاباترا، وكابتن سول جايجر، وموزع برامج الفيديو متعدد القنوات. وإلى مايكل شيبارد وسونيا دي أسيس لمساعدتي في فهم تاريخ سفر الجامعة ومعانيه. وأيضًا إلى دانيال خوسيه أولدر على المحادثة عن EMTs وNarcan. ومايكل فيليبس لأنه أجاب على رسالة بريد إلكتروني من طالبة قديمة بشأن مسرحية قرأناها قبل أكثر من عشرين عامًا. حقًا، معلمو اللغة الإنجليزية هم الأفضل.

وأشكر غيرهم الكثيرين الذين وافقوا على المقابلات ولكن لم يرغبوا في ذكر أسمائهم. شكرًا لكم جميعًا.

وشكري إلى كل فنان ذُكِرَت إحدى أغانيه في هذا الكتاب، وبخاصة ذا سماشينج بامبكنز من أجل أغنية «Bullet with Butterfly Wings»، وبنجامين فرنسيس ليفتويتش من أجل أغنية «Look Ma!»، وآنا ليون من أجل أغنية «Once»، ويو تو وجوني كاش من أجل أغنية «The Wanderer»، وذا جيم من أجل أغنية «My Life»، وراديوهيد من أجل أغنية «Street Spirit (Fade Out)»، ومعصومة أنور من أجل أغنية «Tainu Ghul Gayaan»، و The Wombats من أجل أغنية «Turn»، وThe Decemberists من أجل أغنية «The Beginning Song»، وفلورنس أند ذا مشين من أجل أغنية «Shake It Out».

وشكري النهائي، كما هو الحال دائمًا، إلى الشهيد، الذي يشهد على كل الأشياء.

مكتبة
t.me/soramnqraa

كلُّ ما لديَّ مِن غضب

"«كلُّ ما لديَّ مِن غضب» هي دراسة بعين خبيرة لكلّ ما هو متشابك داخل أقرب علاقاتنا: الألم والحب، القبح والجمال، إمكانية الانكسار واحتمالية الترميم. إنه كتاب مُؤلم ومُؤثر ومُفعَم بالأمل، ومكتوب ببراعة مذهلة".

- راندي ريباي، مؤلف كتاب Patron Saints of Nothing

"تتناول هذه الرواية المؤثرة كلَّ شيء، بدءًا من العنصرية النظامية إلى روابط الصداقة الهشة".

- مدونة PopSugar

"تنظر «كلُّ ما لديَّ مِن غضب» بأعين واعية إلى الطُرق التي نؤذي بها بعضنا بعضًا، وأيضًا نشفي جروح بعضنا بعضًا. إنها تأمُّل رائع للحزن والحب وإمكانات الخلاص التي تتاح لكلّ شخص منّا. سيبقى هذا الكتاب في عقلي مدةً طويلة".

- نيكولا يون، مؤلفة The Sun Is Also a Star

سبا طاهر

عَملت سبا طاهر محررةً صحَفية فيما سبق، ونشأت في صحراء موهافي بولاية كاليفورنيا في موتيل عائلتها الذي يضم ثماني عشرة غرفة، حيث أمضت وقتها في التهام روايات الفنتازيا، والاستماع إلى موسيقى الروك المستقلة، وعزف الجيتار والبيانو عزفًا سيئًا.

تُرجِمَت أولى رواياتها الحائزة على المركز الأول في قائمة نيويورك تايمز للكتب الأكثر مبيعًا، سلسلة An Ember in the Ashes إلى أكثر من خمس وثلاثين لغة، وقد اختارت مجلة Time أول كتاب في السلسلة ضمن أفضل ١٠٠ كتاب أدب يافعين على مر التاريخ.

آخر روايات سبا، كلُّ ما لديَّ من غضب، فازت بجائزة الكتاب الوطني، وأصبحت بين الأكثر مبيعًا في قائمة نيويورك تايمز فور صدورها.

كلُّ ما لديَّ مِن غضب

الرواية الفائزة بجائزة National Book Award

لاهور، باكستان. حينئذٍ..

مصباحٌ راويةُ قصصٍ حالمةٌ، تزوجت حديثًا بتوفيق في زواجٍ مُدَبَّر، وبعدما تُزعزع فاجعةٌ حياتهما الشابة، يذهبان إلى الولايات المتحدة ويفتتحان موتيل "كلاودز ريست"، مفعميْن بالأمل في بداية جديدة.

جونيبر، كاليفورنيا. الآن..

صلاح الدين ونور ليسا مجرد صديقيْن مُقَرَّبين، بل هما عائلة. نَشَآ منبوذين فأصبحا يفهمان بعضهما بعضًا بطريقة لا تماثل أحدًا آخر، إلى أن يحدث الشجار الذي يدمر رابطتهما بسرعة اشتعال نجم منفجر.

في اللحظة الحاسمة، يحتاج هو ونور إلى أن يسألا نفسيهما عن قيمة صداقتهما، وعما يلزمهما للتغلب على الوحوش في ماضيهما وحاضرهما.

تأتي هذه الرواية المذهلة لتحكي عن الحب الشاب، والأحزان القديمة، والصفح. رواية مأسوية وآسرة بقوتها الرقيقة.

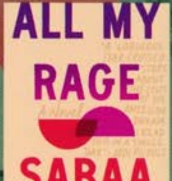

تصميم الغلاف كريم آدم

www.aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb
عصير الكتب

مكتبة
t.me/soramnqraa